

قصص العرب

تأليف
محمد أحمد جاد المولى محمد أبو الفضل إبراهيم
على محمد البجاوي

الجزء الرابع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الرابعة
[فيها زيادة ضبط وشرح وتحقيق]
١٣٨٢ هـ — ١٩٦٣ م

دار الخيانة الكتب العربية
ميسى البابی الجلبنی وشركاه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

١ — هذا هو الجزء الرابع من كتاب « قصص العرب » وهو الأخير أيضاً ؛ ويمتاز هذا الجزء عما سبقه من الأجزاء بأنه يجمع بين دفتيه طائفة كبيرة من القصص التي وضعها الكتاب من العرب قاصدين بها تصوير المجالس والأشخاص ، والقصص التي نسبوها للطير والحيوان ، والتي حكوها عن شياطين الشر أو تخيلوها عن الجن ، واخترعوا لها من اللفظ الرشيق ما يفصح عن أغراضهم ، ومن القول الجزل ما يبلغ إرادتهم ؛ وسيلهم في كل مارووا الوضع والخيال . وبهذه المجموعة وما سبقها يتسق في كتاب واحد نصيب حسن من أروع ما خلفه العرب من قصص تاريخي وموضوع ، وواقعي ومتخيل ، ويتم الغرض الذي قصدنا إليه من : « عرض شامل لحياة العرب : مدينتهم وحضارتهم ، وعلومهم ومعارفهم ، وأديانهم وعقائدهم ، وذكر لعوائدهم وشمائلهم ، وما طبعوا عليه من كريم الغرائز وحدة الذكاء ، ثم ما كان للمرأة عندهم من سامى المكانة وعظيم المنزلة ، وما أثر عنهم من أخبار صوروا بها حبهم العفيف ، وغزلهم الرقيق ، وعشقهم الشريف . . . وما كان لهم من محاورات ومُساجلات ، ومطاميات ومناقلات ، وما نقله الرواة من أحوال العامة والملوك ، وطرف القضاة والولاة ، وأخبار الأيام والحروب ... » (١) .

٢ - ولقد ظهرت الأجزاء السابقة من الكتاب ، فلقيت من ثناء الكتاب ، وإقبال القراء واحتفال الصحف والمجلات في العالم العربي جميعه ما جعلنا نزداد إيماناً و يقيناً بأن الحاجة إليه كانت ماسة ، وأنه سيسدّ في المكتبة العربية فراغاً كبيراً ؛ ولسنا نحاول في هذه الكلمة أن ننقل كل ماتحدثوا به عن الكتاب ؛ ولكننا نُورِدُ قُلّاً من كثر مما ذكروه مؤيداً للغاية التي قصدنا إليها :

قالت صحيفة الأهرام الفراء : « . . . وما من شك في أن عمل المؤلفين يتجاوز الجمع والطبع ، إلى التبويب والضبط والتحقيق ، وهو قبل هذا قائم على حسن الاختيار والدقة في النقل ، فهم شديداً الحرص على ألا تقع العين في كتابهم إلا على القصص المهدّبة ، والنفود الرفيعة التي تمث على مكارم الأخلاق .

ولقد كان أكثر المربين يدعون إلى تهذيب الكتب القديمة ، وإبرائها من الأخبار والأشعار التي تنكرها الأخلاق الكريمة ؛ ولكن مؤرخي الأدب وعلماء اللغة لم يؤيدوا هذه الدعوة ؛ لأنهم يشفقون منها على تراثنا الأدبي وفاء لحق التاريخ ، واحتفاظاً للكتب القديمة بمقومات شخصيتها .

وظل الرأي حائراً بين المربين ورجال اللغة والأدب : الأولون يريدون ألا يقرأ الشباب العربي إلا المهدّب الرفيع ، والآخرون يحرصون على أن يبقى للكتب القديمة عناصر شخصيتها ، وتراثها التاريخي .

واليوم يظهر كتاب « قصص العرب » فيوفق بين الرأيين جميعاً ؛ فهو لا يمس تراثنا الأدبي بالتعديل والتغيير ، ولكنه في الوقت نفسه لا يحرم الشباب العربي فضل الانتفاع به والاتصال بماضيه ؛ فهو يترك الكتب القديمة كما هي : للعلماء والمؤرخين ، ويختار منها ما يصح للشبيبة أن تقرأه ، فيعرضه عليهم في أسلوب مهذب .

فالآن نستطيع أن نُوجِّه الدعوة إلى الشباب ، لكي يتصلوا بقلوبهم ، ويتعرفوا إلى ماضيها بقراءة هذه المختارات المهدّبة ، التي عاجلت ما نشكوه من سقم وخشونة واضطراب ، وأعطتهم من بعض أخبارهم التي لا نرضى للشبان قراءتها ... (١) » .

وقالت صحيفة البلاغ في كلمتها عن الجزأين الأول والثاني : « ... يشتمل الجزءان . اللذان صدرا من هذا الكتاب على خلاصة ما في نحو مائة مؤلف قديم من أروع أقاصيص العرب التي انحدرت عنهم مصوِّرة لجميع مظاهر حياتهم العامة .

وقد رتبت هذه الأقاصيص بعد تهذيبها ، وتأليف ما تنافر منها في أمهات المراجع إلى أقسام وأبواب في هذين الجزأين وماسوف يليهما ، حتى صارت في وضعها الجديد أقرب نسقاً واتصالاً إلى هيئة القاموس ، وانتظام موارده .

والحق أن هذه الطرائف المختارة ، والنوادر المنتقاة ، وهي مادة ما عند العرب من قصص كانت أحوج شيء منذ زمن بعيد إلى مثل هذا المعجم القصصى الذي اصطنعه المؤلفون لأروع مخلفات العرب ... » (٢) .

وقالت صحيفة الهاتف (٣) :

« ... صدر في ظروف ملائمة جداً لتوجيه الأفكار إلى نفسيّة العرب الذاتية وجبتهم الطبيعية ، وصفاتهم الثابتة ، فكان كصورة ناطقة بما كان يتحلّى به العربي من الصفات النادرة ، وتصوير مجتمعه تصويراً صادقاً في كل حركاته وسكناته ؛ وهي صورة إن لم يكن لها إلا فائدة تنبيه الأمة العربية الحاضرة إلى ما كان يتصف

(١) ١٦ أغسطس سنة ١٩٣٩ .

(٢) ٢١ أغسطس سنة ١٩٣٩ (من مقال للأستاذ أحمد صبرى) .

(٣) تصدر في النجف ، ١٥ جمادى الآخرة سنة ١٣٥٨ هـ .

به العربُ الأقدمون من شهامة وغيره وحمية ، لكننى ذلك نفعاً فى هذا الوقت الذى تنشر فيه الأمة العربية مجدّها ، وتحاول الاقتداء بما كان يتجلى به العربى قديماً من جمال الصفات ، وسمو الغايات ، لتبنى من كل ذلك وحدة روحية تحقق لها مطالبها المشروعة . . . »

٣ — هذا وقد لاحظ بعض الكتاب أننا لم نورد فى كتابنا شيئاً من القصص التى قامت عليها كتب ألف ليلة وليلة ، وسيرة عنترة بن شداد ، وذات الهمة ، وأخبار ابن ذى يزن ، وغيرها مما يشبهها . . . وعذرنا فى ذلك أن هذه القصص كتب قائمة بذاتها ، معروفة بأعيانها ، وكثير منها - كما أوردنا فى مقدمة الكتاب - تافه الغرض ، مُبهم القصد ، ردى اللغة والأسلوب . وإنما كان همُّنا أن نختار القصص الحسنة التى زخرت بها كتب الأدب القديمة ، واختفت تحت ركام من رداءة الطبع واضطراب النصوص ؛ ثم ما كان منها نبيل المقصد شريف الغاية جيد الأسلوب ، فكان من مجموعها « . . . معرض ثمين ، عرضت فيه أفانين جميلة من روائع البلاغة العربية ، وبدائع الأساليب ، وطرائف الصور الأدبية من جهة ؛ وعرضت فيه من جهة أخرى : ألواح جليلة مشرقة من حياة العرب فى شتى جهاتها وألوانها وصورها ، فبرز العرب فى هذا الكتاب أناساً أحياء يرؤحون ويفدون أمام عينيك بأخلاقهم وشمائلهم وسجايهم ، بعاداتهم وتقاليدهم وشرائعهم ، بألوان معاشهم ومشاربهم ، بأحاسيسهم ومشاعرهم وأذواقهم ، وبكل ما تحفل به حياة العرب الأولين من مجالىّ الذهن والعقل والشعور ... »^(١) .

وأخذ بعضهم علينا أيضاً أننا لم نستوعب القصص التى تضمنت أيام العرب

المشهورة ، وملاحظهم الماثورة ؛ على كثرتها . والعذر في ذلك أننا حين عالجنا الاختيار من هذه الأيام وجدناها تضم في أثنائها كثيراً من الشعر ، وتحمل في طياتها كثيراً من الحوادث ، وأنها مضطربة الروايات محرفة النصوص ، فهي لذلك تستأهل أن أن تُفرد بكتاب خاص . ونحن آخذون بحول الله في وضع هذا الكتاب ، ونأمل ألا يمضي كبير زمن حتى يكون في يد القراء إن شاء الله (٢) .

وفي كل حال نتوجه إلى الله العلي الكبير شاكرين له ما وقفنا إليه من إتمام هذا الكتاب ضارعين إليه أن يسبغ عليه حسن القبول ؟

المؤلفون

صفر سنة ١٣٦٧
يناير سنة ١٩٤٨

(٢) هذا ما كتبناه في مقدمة الطبعة الأولى . وبسرنا أن نقول : إننا وفيما يوعدنا ، فأخرجنا كتاب « أيام العرب في الجاهلية » ، وكتاب « أيام العرب في الإسلام » وما بأيدي القراء .

مقدمة الطبعة الرابعة

هذا كتابنا « قصص العرب » تقدمه إلى أدباء العربية في طبعته الرابعة ، بعد أن نفذت طبعته الثالثة ، وازداد الأدباء إقبالاً على اقتنائه وتقديره له .

وكنا قد تلقينا رسائل من بعض أفاضل الأدباء يرغبون إلينا فيها أن نذل الطريق إلى قراءة الكتاب ؛ فنكثر من ضبط الكلمات ، ونزيد من شرح المفردات ، فعملنا على تحقيق رغبتهم ، وبذلنا غاية الجهد في تحريره وتحقيقه ، وزدنا في شرح كلماته وضبط أعلامه .

ونرجو أن يكون ذلك كفاء لما تلقيناه من رسائل الأدباء ، ولما تفضلت به صحف الشرق العربي من إشادة .

ونسأل الله أن ير به النفع بقدر ما بذلنا من جهد ، ورجونا من خير .

المؤلفون

رمضان سنة ١٣٨٢
فبراير سنة ١٩٦١

البَابُ الْأَوَّلُ

في القصص التي تصِفُ ما عقده من مجالس
الطرب ، وحفلات الغناء ، وما أثاروه من أسباب
المنافسة بين المَغَنِّينَ ، قاصدين الترفيه عن النفوس ،
وجلاء الهم ، وتهذيب المشاعر ، وترقيق الوجدان .

١ — الشعر والغناء*

كان معاوية يُعَيِّبُ على عبد الله بن جعفر^(١) سماع الغناء ، فأقبل معاوية عاماً حاجاً ؛ فنزل المدينة ، فمرَّ ليلة بدار عبد الله بن جعفر ، فسمع عنده غناءً على أوتار ، فوقف ساعةً يستمع ، ثم مضى وهو يقول : أستغفر الله ، أستغفر الله !

فلما انصرف من آخر الليل مرَّ بداره أيضاً ، فإذا عبدُ الله قائم يصلي ، فوقف ليسمع قراءته ، فقال : الحمد لله ، ثم مضى وهو يقول : « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » .

فلما بلغ ابن جعفر ذلك أعدَّ له طعاماً ، ودعاه إلى منزله ، وأحضر ابن صياد المغني ، ثم تقدم إليه وهو يقول : إذا رأيت معاويةً واضعاً يده في الطعام ، فحرِّكْ أو تارك وغنَّ ؛ فلما وضع معاوية يده في الطعام حرَّك ابن صياد أوتاره وغنى بشعر عدي بن زيد - وكان معاوية يعجب به :

يَا بُنَيَّ أَوْقِدِي النَّارَ إِنْ مِنْ تَهْوِينَ قَدْ حَارَا^(٢)
رَبِّ نَارٍ بَتْ أَرْمُقُهَا تَقْضِمُ الْهِنْدِيَّ وَالْآزَا^(٣)

* القند الفريد : ٤ - ٩٨ ، الأغاني : ٢ - ١٤٧

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، كان كريماً جواداً ، يحب البذل ويرتاح للطاء ، وأخبره في الكرم والسماع كثيرة ، توفي سنة ٩٠ هـ (٢) حار : ضل (٣) النار : شجر طيب الريح ، وشجر السوس

عندها ظيُّ يُوجِّبها عاقِدٌ في الخصر زُنَّاراً^(١)

فأعجب معاويةَ غناؤه حتى قبضَ يده عن الطعام ، وجعل يُضربُ برجله الأرضَ طَرَباً ؛ فقال له عبدُ الله بن جعفر : يا أميرَ المؤمنين ؛ إنما هو مختار الشعر يركب عليه مختار الألحان ، فهل ترى به بأساً ؟ قال : لا بأس بحكمة الشعر مع حكمة الألحان .

(١) الزنار : ماعلى وسط النصارى والمجوس ، وقد روى هذا البيت في الأغاني :
عندها ظيُّ يؤرثها عاقِدُ الجيد تقصارا
يؤرثها : يوقدها ويكثر حطبها . والتقصار : القلادة .

٢ - قل للكرام بيابنا يلجوا *

بَيْنَمَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ فِي أَرْقَةِ الْمَدِينَةِ إِذْ سَمِعَ غَنَاءً ، فَأَصْغَى إِلَيْهِ ، فَإِذَا بِصَوْتِ شَجِيٍّ رَقِيقٍ لَقِيمَةٍ تَغْنَى :

قُلْ للكرام بيابنا يلجوا مافي التَّصَابِي على الفتى حَرَجُ

فَنَزَلَ عَبْدُ اللَّهِ عَنْ دَابَّتِهِ : وَدَخَلَ عَلَى الْقَوْمِ بِلَا إِذْنٍ ؛ فَلَمَّا رَأَوْهُ قَامُوا إِلَيْهِ إِجْلَالًا ، وَرَفَعُوا مَجْلِسَهُ ؛ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ ، فَقَالَ : يَا بَنَ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ؛ دَخَلْتَ مَنْزِلَنَا بِلَا إِذْنٍ ، وَمَا كُنْتَ لِهَذَا بِمَخْلِقٍ ! فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : لَمْ أُدْخِلْ إِلَّا بِإِذْنٍ . قَالَ : وَمَنْ أَذْنُ لَكَ ؟ قَالَ : قَيْمَتُكَ هَذِهِ ، سَمِعْتُهَا تَقُول :

* قُلْ للكرام بيابنا يلجوا ... *

فَإِنْ كُنَّا كَرَامًا فَقَدْ أَذِنَ لَنَا ، وَإِنْ كُنَّا لُثَامًا خَرَجْنَا مَذْمُومِينَ ؛ فَضَحَكَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ وَقَالَ : صَدَقْتَ ، جُمِلْتَ فِدَاكَ ! مَا أَنْتَ إِلَّا مِنْ أَكْرَمِ الْأَكْرَمِينَ . ثُمَّ بَعَثَ عَبْدُ اللَّهِ إِلَى جَارِيَةٍ مِنْ جَوَارِيهِ ، فَقَالَ لَهَا : غَنِّي ، فَغَنَّتْ ؛ فَطَرَبَ الْقَوْمُ ، وَطَرَبَ عَبْدُ اللَّهِ ، فَدَعَا بِثِيَابٍ وَطِيبٍ ؛ فَكَسَا الْقَوْمَ وَصَاحِبَ الْمَنْزِلِ ، وَطِيبَهُمْ ، وَوَهَبَ لَهُ الْجَارِيَةَ ، وَقَالَ لَهُ : هَذِهِ أَحَدُكَ بِالْغَنَاءِ مِنْ جَارِيَتِكَ .

٣ — عبد الله بن جعفر ضيف طويس *

كان عبد الله بن جعفر معه إخوان له في عَشِيَّةٍ من عَشَايَا الرِّيع ، فراحَت عليهم السماء بمطرٍ جَوْدٍ ^(١) ، فأسألَ كلَّ شيءٍ ، فقال عبد الله : هل لكم في العقيق ^(٢) ؟ فركبوا دوابهم ، ثم اتَّهَوْا إليه ، فوقفوا على شاطئه ، وهو يرى بالزَّبدِ مثل مدِّ الفُرَات . وإنهم لينظرون إذا هاجتِ السماء ، فقال عبد الله لأصحابه : ليس معنا جُنَّةٌ ^(٣) نَسْتَجِنُ بها ، وهذه سماءُ خَلِيقَةٍ أَنْ تَبُلَّ ثِيَابَنَا ، فهل لكم في منزل طويس ^(٤) فإنه قريب منا فنستكن فيه ويحدُّنَا ويُضَحِّكُنَا — وطويس في النَّظَّارَةِ بسمع كلام عبد الله بن جعفر .

فقال له عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : جُعِلَتْ فداك ! وما تريد من طويس عليه غضب الله ! هو يَشِينُ مَنْ عَرَفَهُ ! فقال له عبد الله : لا تقل ذلك فإنه مليح خَفِيفٌ لنا فيه أنس .

فلما استوفى طويس كلامهم تعجَّلَ إلى منزله فقال لأمرأته : ويحك ! قد جاءنا عبدُ الله بن جعفر سيِّدُ الناس ، فما عندك ؟ قالت : نذبحُ هذه العناق ^(٥) — وكانت عندها عُنَيْقَةٌ قَدْ رَبَّتْهَا بِاللبن — وأُخْبِزَ خُبْزاً رُقَاقاً . فبادر فذبحها ، وعَجَّنَتْ هِي .

ثم خرج فلتقاء مُقْبِلًا إليه ؛ فقال له طويس : بأبي أنت وأُمِّي ! هذا المطرُ ،

* الأغاني : ٣ — ٣٢

(١) الجود : المطر الغزير ، أو مالا مطر فوقه (٢) العقيق : متزه أهل المدينة في أيام المطر والرَّيع (٣) الجنة : ما استترت به (٤) اسمه عيسى بن عبد الله ، وطويس لفب غلب عليه ، وهو أول من غنى في الإسلام ، وكان ظريفاً عالماً بأمر المدينة وأناسب أهلها . (٥) العناق : الأتي من ولد الغز .

فهل لك في المنزل فستسكن فيه إلى أن تكف السماء؟ قال: إياك أريد. قال: فامض يا سيدي على بركة الله. وجاء يمشي بين يديه حتى نزلوا، فتحدّثوا حتى أدرك الطعام، فقال: بأبي أنت وأمي! تكرمني إذا دخلت منزلي بأن تتعشى عندي؟ قال: هات ما عندك. فجاء بعناق سمينة ورقاق. فأكل وأكل القوم حتى تملّثوا^(١)، فأنجبه طيب طعامه؛ فلما غسلوا أيديهم قال: بأبي أنت وأمي! أتمشي معك وأغنيك؟ قال: افعل يا طويس، فأخذ ملحقة فأزر بها، وأرخی لها ذنبين، ثم أخذ المربع^(٢) فتمشي، وأنشأ يفتي:

يا خيل لي فابني سهدي	لم تتم عيني ولم تكدر
فشرابي ما أسيغ وما	أشكي ما بي إلى أحد
كيف تلحوني ^(٣) على رجل	آنس تلتذه كيدي
مثل ضوء البدر طلعت	ليس بالزميلة النكد ^(٤)
من بني آل المغيرة لا	خامل نكس ولا ججد ^(٥)
نظرت يوما فلا نظرت	بمدّه عيني إلى أحد

فطرب القوم، وقالوا: أحسنت والله يا طويس! ثم قال: يا سيدي؛ أتدري لمن هذا الشعر؟ قال: لا، والله ما أدري لمن هو. إلا أني سمعت شعراً حسناً. قال: هو لفارعة بنت ثابت أخت حسان بن ثابت في عبد الرحمن بن الحارث بن هشام الخزومي. فنكس القوم رؤوسهم، وضرب عبد الرحمن برأسه على صدره^(٦)، فلو شئت الأرض له لدخل فيها.

(١) تملّثوا: امتلثوا من كثرة الأكل (٢) المربع: آلة من آلات الطرب (٣) لاه يلحوه: لاهمه (٤) الزميلة: الجبان الضعيف (٥) النكس: الضعيف لا خير فيه. والجد: القليل الخير (٦) ضرب برأسه على صدره: أطرق استحياء وخجلاً، وهو يريد بعبد الرحمن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت.

٤ — سَقَوْنِي وَقَالُوا لَا تُغْنِ*

جلاس عبدُ الله بن جعفر يوماً عند عبد الملك بن مروان ، فحدثه عن إقلال^(١) ابن أبي عتيق وكثرة عياله ؛ فأمره عبد الملك أن يبعث به إليه ، فأتاه ابنُ جعفر فأعلمه بما دار بينه وبين عبد الملك وبعثه إليه .

فدخل ابنُ عتيق على عبد الملك ؛ فوجده جالساً بين جارتين قائمتين عليه تميسان^(٢) كفصتي بآنٍ ، بيد كل جارية مروحة ، تروح بها عليه ، مكتوب بالذهب في المروحة الواحدة :

إنتي أجلبُ الريا ح وبى يلعب الحجل
وحجابٌ إذا الحيد بُ ننى الرأس للقبَل
وغياث إذا النديمُ تغنى أو ارتجَل
وفى المروحة الأخرى :

أنا فى الكف لطيفة مسكنى قصر الخليفة
أنا لا أضلح إلا ظريف أو ظريفه
أو وصيف حسن القَد شبيه بالوصيفه

قال ابنُ أبي عتيق : فلما نظرتُ إلى الجاريتين هَوَّتَا الدنيا علىَّ ، وأنستاني سوء حالى ، ثم قلت : إن كنتما من الإنس فما نساؤنا إلا من البهائم ، فلما كرتُ بصرى فيهما تذكرت الجفة ، فإذا تذكرت امرأتى - وكنت لها مُحِبًّا - تذكرت

* العقد الفريد : ٤ - ٩١

(١) فقر . (٢) تميسان : تدبخران .

النار ، وبدأ عبد الملك يتوجّع لى بما حكى له ابنُ جعفر عني ، ويخبرني بما لى عنده من جميل الرأي ؛ فأكذبتُ له كلّ ما حكاه له ابنُ جعفر عني ، ووصفت له نفسى بفاية المَلَأ والجِدَّة^(١) ؛ فامتلاً عبد الملك سروراً بما ذكرت له وغماً بتكذيب ابن جعفر .

فلما عاد إليه ابنُ جعفر عاتبه عبد الملك على ما حكاه عني ، وأخبره بما حَلَّيْتُ^(٢) له نفسى ، فقال : كذب ، والله يا أمير المؤمنين ، وإنه أحوجُ أهل الحجاز إلى قليل فضلك ، فضلاً عن كثيره .

ثم خرج عَبْدُ اللَّهِ فلقينى ، فقال : ما حلك على أن كذبتنى عند أمير المؤمنين ؟ قلت : أفكنت ترانى وقد أجلسنى بين شمس وقر ، ثم أنفأقر^(٣) عنده ! لا والله ، ما رأيت ذلك لنفسى ، وإن رأيت لى .

فلما أعلم بذلك عَبْدُ اللَّهِ بن جعفر عبد الملك بن مروان قال : فالجاريَتان له . قال ابنُ أَبِي عَتِيق : فلما صارتا إلىَّ زرتُ عبد الله بن جعفر فوجدته قد امتلاً فرحاً وهو يشربُ ، وبين يديه عُسٌّ^(٤) فيه عسل ممزوج بمسك وكافور ، فقال : مهيم^(٥) ؟ قلت : قد والله قبضتُ الجاريتين ، قال : فاشرب ، فتناولت العُسَّ ، فخرجت منه جَرَّةٌ ، فقال لى : زِدْ ، فأبيتُ عليه ، فقال لجارية له عنده تُغْنِيهِ : إن هذا قد حاز اليوم غزالتين من عند أمير المؤمنين فخذى فى نَعْمَهما ، فحركت الجارية العود ثم غنت :

(١) المَلَأ : سعة العيش . والجِدَّة : النفى . (٢) حلى نفسه : وصف حياته . (٣) أنفأقر : أظهر الفقر . (٤) العس : القدح العظيم . (٥) كلمة استفهام : أى ما حالك وما شأنك ؟ أو ما وراءك ؟ أو أحدث لك شىء ؟

عهدي بها في الحى قد جردت صفراء مثل المهرة الضامير
قد حَجَمَ^(١) الذئى على نحرها فى مشرق ذى بهجة ناضر
لو أسندت مَيْتًا إلى صدرها قام ولم ينقل إلى قَابِر^(٢)
حتى يقول الناس مما رأوا : يا عجبا للعيتِ النـاشـر
فلما سمعتُ الأبيات طرِبت ، ثم تناولتُ العُس ، فشربت عَمَلًا^(٣) بعد
نَهْل ، ورفعت عقيرتى أغنى :
سَقَوْنِي وقالوا : لا تُفَنِّ ولو سَقَوْا جبال حُنَيْنٍ ما سَقَوْنِي لَفَنَّتِ

(١) حَجَمَ الذئى : نهد (٢) قبره يقبره : دفنه ، أى إلى دافن (٣) العلل : الشربة الثانية ،
أو الشرب بعد الشرب تباعا ، والنهل : الشرب الأول .

٥ — عبد الله بن جعفر عند جميلة*

جلست جميلة^(١) يوماً للوفادة عليها ، وجعلت على رؤوس جواربها شعوراً
مُسَدَّله كالعناقيد إلى أعمازهن ، والبسهن أنواع الثياب المصبغة ، ووضعت فوق
الشعور التيجان ، وزينتهن بأنواع الخلى .

ووجهت إلى عبد الله بن جعفر تستزيره ، وقالت لكاتب أملت عليه :
« بأبي أنت وأمي اقدرك بحيل عن رسالتى ، وكرمك بحتمل زلتى ، وذنبى
لا تقال عثرته ، ولا تغفر حوبته^(٢) ؛ فإن صفحت فالصفح لكم معشر أهل
البيت يؤثر ، والخير والفضل كله فيكم مدخر ، ونحن العبيد وأنتم الموالى .
فطوبى لمن كان لكم مجاوراً ، ويعزكم قاهراً ، وبضيايكم مبصراً ! والويل لمن
جهل قدركم ، ولم يعرف ما أوجبهُ الله على هذا الخلق لكم ! فصغيركم كبير ،
بل لاصغير فيكم ، وكبيركم جليل ، بل الجلالة التى وهبها الله عز وجل للخلق
هى لكم ، ومقصورة عليكم ؛ وبالكتاب نسألك ، وبحق الرسول ندعوك — إن
كنت شيطاً — لجلس هيأته لك ، لا يحسن إلا بك ، ولا يتم إلا معك ، ولا
يصلح أن ينقل عن موضعه ، ولا يسلك به عن طريقه . »

فلما قرأ عبد الله الكتاب قال : إنا لنعرف تعظيمها لنا ، وإكرامها لاصغيرنا
وكبيرنا ، وقد علمت أنها قد آلت أليّة^(٣) ألا تغنى أحداً إلا فى منزلها . وقال

* الأغاني : ٨ — ٢٢٧

(١) هى جميلة مولاة بنى سليم ، كانت أصلاً من أصول الفناء ، وعنها أخذ معبد وابن عائشة
وحبابة وسلامة وغيرهم من المذنبين والمغنيات ، توفيت سنة ١٢٥ هـ تقريباً (٢) الحوبة : الإثم
(٣) آلت : أقسمت بمينا .

للسول : والله قد كنتُ على الركوب إلى موضع كذا ، وكان في عزمي المرور بها ؛
فأما إذ وافقُ مرَّ أدها فإني جاعلٌ بعد رجوعي طريق عليها .

فلما صار إلى بابها أدخلَ بعضَ مَنْ كانَ معه إليها وصرفَ بعضهم . فنظر إلى
ذلك الحُسنِ البارِعِ والهيئةَ الباذَّةَ^(١) ، فأعجبه ووقعَ من نفسه ؛ فقال : يا جميلة ؛
لقد أتيتَ خيراً كثيراً ! ما أحسن ما صنعتِ ! فقالت : يا سيدي ؛ إن الجميل للجميل
يَصْلُحُ ، ولك هيأتُ هذا المجلس .

جلس عبد الله بن جعفر ؛ وقامت على رأسه ، وقامت الجوارى صَقِين ؛ فأقسم
عليها فجلستْ غيرَ بعيدٍ . ثم قالت : يا سيدي ؛ ألا أُغَنِّيكَ ، فقال : بلى ! فغَنَّتْ :

بني شَيْبَةَ^(٢) الحمد الذي كان وجهُهُ يُضِيُّ ظلامَ الليل كالقَمَرِ البَدْرِ
كُهوْلُهُمُ خيرُ الكهول ونَسْلُهُمُ كنسلِ الملوكِ لا يَبُورُ ولا يَحْزِي^(٣)
أبوكم قُصِيَّ كان يُدْعَى مُجَمَّعًا به جَمَعَ اللهُ القَبَائِلَ من فِهْرِ

فقال عبد الله : أحسنتِ يا جميلة ! بالله أُعِيدِيهِ على ، فأعادته ؛ فجاء الصوت
أحسنَ من الارتجال . ثم دعت لكل جارية بعودٍ ، وأمرتهنَّ بالجلوس على
كراسي صغار قد أعدتها لهنَّ ، فضربن ، وغنت عليهن هذا الصوت وغنى جواريهما
على غنائها .

فلما ضربن جميعاً قال عبد الله : ما ظننت أن مثل هذا يكون ! وإنه لميماً
يفتِن القلب !

ثم دعا ببيغلته فركبها وانصرف إلى منزله - وقد كانت جميلة أعدت طعاماً
كثيراً - فقال لأصحابه : تخلّفوا للغداء فتغدّوا وانصرفوا مسرورين .

(١) الهيئة الباذة: الغالبة الفائقة (٢) شبيبة الحمد : لقب عبد الطلب بن هاشم ، وهو جد عبادة
ابن جعفر (٣) يبور : يهلك ، ويحزى : ينقص .

٦ — يَتَانِ مِنَ الشَّعْرِ *

قال أبو عباد : أتيتُ جميلةَ يوماً ، وقد ظننتُ أني سبقتُ الناسَ إليها ، فإذا مجلسها غاص ؛ فسألْتُها أن تعلمني شيئاً ، فقالت لي : إنَّ غيرك قد سبقك ، ولا يحْمَلُ تقديمك على مَنْ سواك . فقلت : جُعِلْتُ فداك ! متى تفرُّغين ممن سبقني ؟ قالت : هو ذاك ، الحقُّ يَسْمَعُ ويسْمَعُهم .

فبينما نحن كذلك إذ أقبل عبدُ الله بن جعفر - وإياه لأوَّلُ يوم رأيتُه وآخره ، وكنت صغيراً كبشاً^(١) ، وكانت جميلةً شديدةَ الفرح - فقامت وقام الناس ، فتلقَّتهُ وقبلتُ رجليه ويديه ، وجلس في صَدْرِ المجلس على كُومٍ^(٢) لها ، وتحوَّقَّ^(٣) أصحابه حوله ، وأشارت إلى مَنْ عندها بالانصراف ، وتفرق الناس ، وغَمَزَنِي ألا أبرَحَ ، فأقَّتْ . وقالت : يا سيدي وسيد آبائي وموالي ؛ كيف نَشِطْتَ إلى أن تنقل قدميك إلى أمتِك ؟ قال : يا جميلة ؛ قد علمتُ ما آليتِ على نفسك ألا تغني أحداً إلَّا في منزلِك ، وأحببتُ الاستماع . قالت : جُعِلْتُ فداك ! فأنا أصيرُ إليك وأكفِّرُ . قال : لا أكلفُك ذلك ، وبلغني أنك تُغَنِّين بيتين لاسرى القيس تجيدين الغناء فيهما ، وكان الله أنقذ بهما جماعة من المسلمين من الموت . قالت : يا سيدي ، نعم ! فاندَقَعَتْ تُغَنِّي ، ففَنَنْتِ بِعُودِها ؛ فما سمعتُ منها قبل ذلك ، ولا بعد إلى أن

* الأغانى : ٨ - ١٩٨

(١) كيس : عاقل (٢) الكوم : المواضع المشرفة ، واحدها كومة (٣) تحوَّقَّ القوم حوله : استداروا وأحاطوا به .

ماتت ، مثل ذلك الفناء ، فسبح عبد الله بن جعفر والقوم معه ، وهما :
ولما رأت أن الشريعة همها وأن البياض من فرائصها دامي
تيممت العين التي عند ضارج . ينفى عليها الظل ، عزمضها طامي^(١)

فلما فرغت قالت جميلة : أى سيدي ؛ أزيديك ؟ قال : حسبي . فقال بعض
من كان معه : بأبي جعلت فداك ! وكيف أنقذ الله من المسلمين جماعةً بهذين
البيتين ؟ قال : نعم ، أقبل قومٌ من أهل اليمن ، يريدون النبي صلى الله عليه وسلم ؛
فضلوا الطريق ، ووقعوا على غيرها ، ومكنوا ثلاثاً لا يقدرّون على الماء ، وجعل
الرجل منهم يستندري^(٢) ينفى السمر والطلح يائساً من الحياة إذ أقبل راكبٌ
على بعيره ، وأنشد بعض القوم هذين البيتين ، فقال :

ولما رأت أن الشريعة همها وأن البياض من فرائصها دامي
تيممت العين التي عند ضارج . ينفى عليها الظل عزمضها طامي

فقال الراكب : من يقول هذا ؟ قال : امرؤ القيس . قال : والله ما كذب ،
هذا ضارجٌ عندهم ، وأشار لهم إليه ، فحبّوا على الركب فإذا ماء عذب ،
وإذا عليه العزمض والظل ينفى عليه ، فشرّبوا منه ربّهم ، وحلّوا ما اكْتَفَوْا به
حتى بلغوا الماء .

(١) الضمير في رأت للحمر ، والشريعة : مورد الماء الذي تشرب فيه الدواب ، وهما : طلبها ،
والفرصة : اللحم الذي بين الكنف والصدر ، وضارج : موضع في بلاد بني عبس ، والمرض :
الطحلب ، وطام : عال مرتفع ، يريد أن الحر لما أرادت شربة الماء خافت على أنفسها من الرماة
وأن تدمي فرائصها من سهامهم ، فعدلت إلى ضارج لعدم الرماة على العين التي فيها (٢) يستندري :

يستظل .

فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه وقالوا : يا رسول الله ! أحيانا الله عز وجل
يبيتن من شعر امرئ القيس ، وأنشدوه الشعر . فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : ذلك رجل مذكور في الدنيا شريف فيها ، منسى في الآخرة ، خامل
فيها ، يحى يوم القيامة معه لواء الشعراء إلى النار . فكل استحسن الحديث .
ونهض عبد الله بن جعفر ، ونهض القوم معه ؛ فما رأيت مجلسا كان أحسن
من مجلسه .

٧ — ماذا فعلت بزاهد متعبّد ! *

قال الأصمعي : قدم عراقى بعدل^(١) من نُحُر العراق إلى المدينة ، فباعها كلها إلا السّود ؛ فشكا ذلك إلى الدارمي^(٢) ، وكان قد تنسك وترك الشّعْر ولزِمَ المسجد ، فقال : ماتجعل لى على أن أحتال لك بحيلة حتى تبيعها كلها على حكمك ؟ قال : ماشئت ! فعمد الدارمي إلى ثياب نسكه ، فألقاها عنه ، وعاد إلى مثل شأنه الأول ، وقال شعراً رفعه إلى صديق له من المغنين ، فعنى به ، وكان الشعر :

قُلْ للمليحة في الخمار^(٣) الأسود ماذا فعلت بزاهد متعبّد
قد كان شمراً للصلاة ثيابه حتى خطرت له بياض المسجد
رُدّي عليه صلاته وصيامه لا تقتليه بحق دين محمد

فشاع هذا الغناء في المدينة ، وقالوا : قد رجع الدارمي ، وتعشق صاحبة الخمار الأسود ، فلم تبق مليحة بالمدينة إلا اشترت خماراً أسود ، وباع التاجر جميع ما كان معه ، فجعل إخوان الدارمي من النساء يلقون الدارمي فيقولون : ماذا صنعت ؟ فيقول : ستعلمون نبأه بعد حين ، فلما نفذ ما كان مع العراقى رجع الدارمي إلى نسكه ولبس ثيابه !

* العقد الفريد : ٤ - ٩٦

(١) العدل : نصف الحمل (٢) هو ربيعة بن عامر ، ولقبه مسكين ، ويصل نسبه إلى دارم بن مالك ، كان شاعراً شريفاً من سادات قومه ، وقد غلب شعره في مدح معاوية ، توفي سنة ٩٠ هـ .
(٣) الخمار : النصف ، وما تغطي به المرأة رأسها .

٨ — دُعَابَةُ ابْنِ أَبِي عَتِيقٍ *

لَمَّا دَخَلَ الْمَدِينَةَ عُثْمَانُ بْنُ حَيَّانَ الْمُرِّيَّ وَالْيَا^(١) عَلَيْهَا اجْتَمَعَ الْأَشْرَافُ عَلَيْهِ مِنْ قُرَيْشٍ وَالْأَنْصَارِ ؛ فَقَالُوا لَهُ : إِنَّكَ لَا تَعْمَلُ عَمَلًا أَجْدَى وَلَا أَوْلَى مِنْ تَحْرِيمِ الْغَنَاءِ وَالرِّثَاءِ^(٢) ، فَعَمِلَ وَأَجَلَ أَهْلَهَا ثَلَاثًا يَخْرُجُونَ فِيهَا مِنَ الْمَدِينَةِ .

فَقَدِمَ ابْنُ أَبِي عَتِيقٍ^(٣) فِي اللَّيْلَةِ الثَّلَاثَةِ ؛ فَخَطَّ رَحْلَهُ بِيَابَ سَلَامَةٍ^(٤) ، وَقَالَ لَهَا : بَدَأْتُ بِكَ قَبْلَ أَنْ أَصِيرَ إِلَى مَنْزِلِي ؛ فَقَالَتْ : أَوْ مَا تَدْرِي مَا حَدَّثَ ؟ وَأَخْبَرْتَهُ الْخَبْرَ ! فَقَالَ : أَقِمِي إِلَى السَّحَرِ حَتَّى أَلْقَاهُ ! فَقَالَتْ : إِنْ أَنَا نَخَافُ إِلَّا تُغْنِي شَيْئًا ، وَنُنْكَظُ^(٥) . فَقَالَ : إِنَّهُ لَا بَأْسَ عَلَيْكَ !

ثُمَّ مَضَى إِلَى عُثْمَانَ فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ ، فَأْذِنَ لَهُ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَذَكَرَ لَهُ غَيْبَتَهُ ، وَأَنَّهُ جَاءَ لِيَقْضَى حَقُّهُ ، وَقَالَ لَهُ : إِنْ مِنْ أَفْضَلِ مَاعَمَلْتَ تَحْرِيمَ الْغَنَاءِ وَالرِّثَاءِ . قَالَ : إِنْ أَهْلَكَ قَدْ أَشَارُوا عَلَيَّ بِذَلِكَ . قَالَ : فَإِنَّكَ قَدْ وُفِّقْتَ ! وَلَكِنِّي رَسُولُ أَمْرٍ إِلَيْكَ تَقُولُ : قَدْ كَانَتْ هَذِهِ صِنَاعَتِي فَتُبْتُ إِلَى اللَّهِ مِنْهَا ، وَأَنَا أَسْأَلُكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ أَلَّا تَحُولَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَجَاوِرَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فَقَالَ عُثْمَانُ : إِذْنِ أَدْعُهَا لَكَ وَلِكَلَامِكَ . قَالَ : لَا يَدْعُكَ النَّاسُ ؛ وَلَكِن

* الْأَغَانِي : ٨ — ٣٤١ ، الْكَامِلُ : ١ — ٣٨٠ ، ذَيْلُ زَهْرِ الْأَدَابِ : ٤٤

(١) دَخَلَ الْمَدِينَةَ وَالْيَا لِلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ سَنَةِ ٩٣ هـ (٢) الرِّثَاءُ : يَرِيدُ النِّبَاحَةَ بِالْمُرَاتِي ، وَفِي رَوَايَةِ الْأَغَانِي غَيْرَ ذَلِكَ (٣) هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي عَتِيقٍ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ : كَانَ مِنْ نَسَاكِ قُرَيْشٍ وَظُرَفَائِهِمْ ، وَلَهُ أَخْبَارٌ طَوِيلَةٌ طَرِيفَةٌ (٤) سَلَامَةُ الزَّرْقَاءِ : مِنْ مَوْلِدَاتِ الْمَدِينَةِ ، وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا وَأَتَمَّنَ عَقْلًا ، وَأَجُودَ مِنْ حَدِيثًا ، قَرَأَتْ الْقُرْآنَ ، وَرَوَتْ الْأَشْعَارَ ، وَأَخَذَتْ الْغَنَاءَ مِنْ جَبِيلَةِ مَوْلَاةِ بْنِ سَلِيمٍ (٥) تَنْكَظُ : تَتَالَفَا شِدَّةً .

تدعو بها وتسمع كلامها ، وتنظر إليها ، فإن كانت ممن يُترك تركتها ، قال :
فادعُ بها .

فأمرها ابنُ أبي عتيق ، فتخشعت ، وأخذتُ سُبْحَةً في يدها ، وصارت إليه ،
وحدثته ؛ فإذا هي من أعلم الناس بالناس ؛ فأعجب بها ، وحدثته عن آباءه وأمورهم ،
ففسكه^(١) ، لذلك ، فقال لها ابن أبي عتيق : اقرئي للأُمير ؛ فقرأت له . فقال لها :
احدِى للأُمير ، فخرّكه حُدَاوُها^(٢) . ثم قال لها : غبّري^(٣) للأُمير ؛ فجعل
يُمجِبُ بذلك عثمان ، فقال له ابن أبي عتيق : فكيف لو سمعتها في صناعتها !
فقال : قل لها فلتقل . فأمرها ففعلت :

سَدَدَنَ خَصَاصَ^(٤) الْحَيْمِ^(٥) لما دخلتهُ بِكُلِّ لَبَانٍ^(٦) واضِحٍ وجيِّينِ
فنزّل عثمان بن حيان عن سريره ، حتى جلس بين يديها ، ثم قال : والله
ما مثلك يخرج عن المدينة !

فقال له ابنُ أبي عتيق : يقول الناس أذنَ لسلامة في المقام وأخرج غيرها ؛
فقال له عثمان : قد أذنتُ لهم جميعاً !

(١) فكها : طابت نفسه (٢) الحذاء : غناء خلف الإبل تنشط به (٣) التغبير : ضرب
من الماء اتخذته المتصوفة يتواجدون على أنقامه (٤) الخصاص : خروق واسعة في الحيم قدر الوجه ،
الواحدة خصاصة ، وهو يصف نساء تطلعن منها (٥) الحيم : أعواد تنصب في القبط ، وتجعل
لها عوارض ، وتظلل بالشجر ، فتكون أبرد من الأخية (٦) اللبان : الصدر .

٩ - لَحْنٌ جَمِيلَةٌ *

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي : حدثني عَمِّي - وكانت أَسَنُّ من أبي وعُمَرَّت بعده - قالت : كان السببُ في طلب أبيك الغناء والمواظبة عليه لحناً سمعه الجميلة في منزلِ يونسَ بنِ محمد السكاتب ، فانصرف وهو كئيبٌ حزينٌ مهمومٌ ، لم يَطْمَئِمْ ^(١) ولم يُقْبَلْ علينا بوجهه كما كان يفعل . فسألته عن السبب فأمسك ، فألَحَّجْتُ عليه فانتَهَرَني ، وكان لي مُكْرِمًا ؛ ففضِيتُ وقتُ من ذلك المجلس إلى بيتٍ آخر ؛ فتبيّعتني وترضّاني ، وقال لي : أحذُّك ولا كتمانَ منك ! عشقتُ صوتًا لامرأةٍ قد ماتت ، فأنا بها وبصوتها هائمٌ ، إن لم يتدارَكْنِي الله منه برحمته . فقلت : أنظنُّ أن الله يُحْيِي لك ميتًا ! قال : لا . قلت : فما تعليقك قلبك بما لا يُعطاه أحد ! وأما عشقُك الصوت فهو أن تحذِّقَهُ وتُفَنِّيهُ عشرَ مرارٍ ، فتَمَلُّهُ ويذهبَ عشقُك له ! فسكأنه أروعوى ورجع إلى نفسه ، وقام فقبل رأسي ویدی ورجلی ، وقال لي : فرَجَّتْ عني ما كنتُ فيه من الكَرْبِ والغَمِّ ، ثم تمثَّلَ :

* حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ *

ولزم بيت يونسَ حتى حَذَقَ الصوتَ ، ولم يمكُثْ إلا زمانًا يسيرًا حتى مات يونسُ ، وانضمَّ إلى سَيَّاطِ ^(٢) ، وكان من أحذق أهل زمانه بالغناء وأحسنهم أداءً عَمَّنْ مضى .

* الأغانى : ٨ - ٢٢٠

(١) لم يطمئ : لم يتناول الطعام (٢) اسمه عبد الله ، مكي من موالى خزاعة ، وهو أستاذ ابن جامع ولإبراهيم الموصلي ، وكان مقدماً في الغناء ، رواية وصنعة ، مات في أيام الهادي .

قالت عمتي : فقلت لإبراهيم : وما الصوتُ ؟ فأنشدني الشعر ولم يُحسن
أداء الغناء :

مِنَ الْبَكَرَاتِ عِرَاقِيَّةٌ تُسَمَّى سُبَيْعَةَ أَطْرَبَتْهَا
مِنْ آلِ بَكْرَةَ الْأَكْرَمِينَ خَصَصْتُ بِوَدْدِي فَأُصْفِيَتْهَا
وَمِنْ حُبِّهَا زُرْتُ أَهْلَ الْعِرَاقِ وَأَسَخَطْتُ أَهْلِي وَأَرْضِيَتْهَا
أَمُوتُ إِذَا شَحَطْتُ دَارُهَا وَأَحْيَا إِذَا أَنَا لَا قَيْتُهَا
فَأَقْسِمُ لَوْ أَنَّ مَابِي بِهَـا وَكَنتُ الطَّبِيبَ لَدَاوِيَتْهَا

قالت عمتي : هذا شعرٌ حسنٌ ، فكيفَ به إذا ما قُطِعَ ومُدَّد ! فما مضت
الأيامُ والليالي حتى سمعتُ اللحنَ مؤدَّى ؛ فما خرق مسامعي شيءٌ قطُّ أحسنُ منه ؛
ولقد أذْكَرَنِي بما يُؤَثِّرُ مِنْ حُسْنِ صَوْتِ دَاوُدَ وَجَمَالِ يُوسُفَ .

فبينما أنا يوماً جالسةٌ ، إذ طلع عليَّ إبراهيمُ ضاحكاً مستبشراً ؛ فقال لي :
ألا أحدُكُكِ بِعَجَبٍ ؟ قلت : وما هو ؟ قال : إن لي شريكاً في عشقٍ صوتٌ جميلة !
قلت : وكيف ذلك ؟ قال : كنتُ عندَ سَيِّاطٍ في يومنا هذا ، وأنا أُغَنِّيهِ الصوتَ ،
وقد وَقَفَتِي فيه على شيءٍ لم أَكُنْ أَحْكَمْتُهُ عَنْ يُونُسَ ، وحضر عندَ سَيِّاطٍ شيخٌ
نبيلٌ ، فسَبَّحَ ^(١) على الصوتِ تَسْبِيحاً طويلاً ؛ فظننتُ أنه فعل ذلك لاستحسانه
الصوتَ . فلما فرغتُ أنا وسَيِّاطٌ مِنَ اللحنِ قال الشيخُ ، ما عَجَبَ أمرَ هذا الشعرِ ،
وأحسنَ ما غَنَّى به ، وأحسنَ ما قال قائله !

فقلت له دُونَ القومِ : وما بلغ من العَجَبِ به ؟ قال : نعم ! حَجَّتْ سُبَيْعَةُ

(١) سَبَّحَ : قال : سبحات الله !

من ولد عبد الرحمن بن أبي بَكْرَةَ ، وكانت من أجلِ النساء ، فأبصرها عمر بن أبي ربيعة^(١) ، فلما انحدرت إلى العراق اتبعتها يُشيعها حتى بلغ معها موضعاً يقال له : الخورنق . فقالت له : لو بلغت إلى أهلي ، وخطبتني لزواجك . فقال لها : ما كنت لأخلط تشييعي إياك بخطبة ، ولكن أرجع ثم آتيكم خاطباً ؛ فرجع ومراً بالمدينة ، فقال فيها :

من البكراتِ عراقيةٌ تُسمى سُبَيْعَةَ أطربتُها

ثم أتى بيتَ جميلة ، فسألها أن تغني بهذا الشعرِ ففعلت . فأعجبه ما سمع من حُسنِ غنائها وجودةِ تأليفها ؛ فحُسنُ موقعِ ذلك منه ؛ فوجهٌ إلى جارية له كانت تطلبُ الغناء أن تأتيَ جميلة ، وتأخذَ الصوتَ منها ، فطارحتها إياه أياماً حتى حدقتْ ومهرتْ به . فلما رأى ذلك عمر قال : أرى أن تخرجي إلى سُبَيْعَةَ وتغنيها هذا الصوتَ وتبأعها رسالتى ؛ قالت : نعم ، جعلني الله فداك .

فأتتها فرحبتَ بها ، وأعلمتها الرسالة ، فحيّتْ وأكرمتْ ، ثم غنتها فكادتْ تموت فرحاً وسروراً لحسنِ الغناء والشعر .

ثم عادتْ رسولَ عمر ، فأعلمته ما كان ، وقالتْ له : إنها خارجةٌ في تلك السنة .

فلما كان أوَّانُ الحج استأذنتْ سُبَيْعَةَ أباهَا في الحج ، فأبى عليها ، وقال لها : قد حَجَّجْتَ حِجَّةَ الإسلام . قالت له : تلك الحجة هي التي أسهرتني ليلي ، وأطالت نهاري ، وتوفقتني إلى أن أعودَ وأزورَ البيتَ والقبرَ ؛ وإن أنتَ لم تأذنْ لي مِن كَمَدٍ وغَمٍّ .

(١) عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة ، شاعر مشهور ، كان يفد على عبد الملك بن مروان فيكرمه ، وتوفي سنة ٩٣ هـ .

فلما رأى ذلك أبوها رقاً لها ، وقال : ليس يسعنى منعها لِمَا أرى بها ؛ فأذن لها ووافى عمرُ المدينة ليعرف خبرَها ؛ فلما قدمت علم بذلك ، وسألها أن تأتي منزل جميلة ، وقد سبق إليها عمرُ ، فأكرمتهما جميلة ، وسُرَّتْ بمكانها . فقالت لها سُبَيْعة : جعلنى الله فِدَاكَ ! أفلقنى وأسهرنى صوتك بشعر عمرَ فيَّ ، فأسمعنى إياه . قالت جميلة : وعَزَاةً لوجهك الجميل ! فغَنَّتْها الصوت ؛ فأغنى عليها ساعةً حتى رُش على وجهها الماء ، وثاب إليها عقلها . ثم قالت : أعيدى علىَّ ، فأعادت الصوت مراراً في كل مرة يُفَشَى عليها .

ثم خرجت إلى مكة وخرج معها . فلما رجعت مرَّتْ بالمدينة وعمرُ معها ؛ فأتت جميلة فقالت لها : أعيدى علىَّ الصوتَ ففعلت ؛ وأقامت عليها ثلاثاً تسألها أن نعيدَ الصوت ، فقالت لها جميلة : إني أريد أن أغنيك صوتاً فأسمعيه . قالت : هاتيه ياسيدتى ؛ فغَنَّتْها :

أَبْتَ الْمَلِيحَةُ أَنْ تُوَاصِلَنِي وَأُظُنُّ أَنَّ زَائِرُ رَمْسِي ^(١)
لَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا مَا لَمْ تُوَافِقْ نَفْسُهَا نَفْسِي
لَا صَبْرَ لِي عَنْهَا إِذَا حَسَرْتُ كَالْبَذْرِ أَوْ قَرْنٍ مِنَ الشَّمْسِ

قالت سُبَيْعة : لولا أن الأول شعر عمر لقدمتُ هذا على كل شيء سمعته . فقال عمر : فإنه والله أحسنُ من ذلك ؛ فأما الشعر فلا . قالت جميلة : صدقت والله !

١٠ - في أيام الحج*

حجَّ عمرُ بنُ أبي ربيعةَ في عامٍ من الأعوامِ على نجيبٍ له ، مخضوبٍ بالحِنَّاءِ مشهَّرَ الرَّحْلِ بِقِرَابٍ ^(١) مُذَهَّبٍ ^(٢) ، ومعه عُبَيْدُ بنُ سُرَيْجٍ على بَغْلَةٍ له شَقْرَاءُ ، ومعه غلامه جَنَادٌ ^(٣) ، يقودُ فرساً له أذهَمَ أَغْرَ مُحَجَّلًا وكان عمرُ بنُ أبي ربيعةَ يسميه « السكوكب » في عنقه طوقَ ذَهَبٍ . ومع عمرَ جماعةٌ من حَشَمِهِ وغُلَمَانِهِ ومواليه ، وعليه حُلَّةٌ مَوْشِيَّةٌ يمانية وعلى ابنِ سُرَيْجٍ ثوبانِ هَرَوِيَّانِ ^(٤) مرتفعان ، فلم يَمِرُّوا بأحدٍ إلا عَجِبَ من حسنِ هيئتهم ، وكان عمرُ من أَعْظَرَ الناسِ وأَحْسَنِهِمْ هَيْئَةً ، فخرجوا من مَكَّةَ يومَ التَّروِيَةِ ^(٥) بعد العصرِ يريدون مَنًى .

فروا بمنزل رجل من بني عبد مناف بمَنًى ، قد ضُرِبَتْ عليه فَسَاطِيطُهُ ^(٦) وَخِيَمُهُ ، ووافى الموضعَ عمرُ فأبصرَ بنتًا للرجل قد خرجت من قُبَّتِهَا ، وسترَ جوارِيهَا دونَ القُبَّةِ لثلاثِ أراها من مَرٍّ ، فأشرفَ عمرُ على النَّجِيبِ ، فنظرَ إليها ، وكانت من أحسنِ النساءِ وأَجْمَلِهِنَّ ، فقال لها جوارِيهَا : هذا عمرُ بنُ أبي ربيعةَ ، فرفعت رأسَهَا

* الأغانى ١ : ٢٥٩

(١) القراب : جراب السيف يصنع من الجلد (٢) الإذهاب : الطلاء بالذهب (٣) في جناد يقول عمر :

فقلت لجناد خذ السيف واشتمل
وأسرجلى الدهماء واجعل عمطرى
عليه برفق وارقب الشمس تقرب
ولا تطلن خلفاً من الناس مذهبي

(٤) ثوب هروى : منسوب إلى هراة (٥) يوم التروية : الثامن من ذى الحجة لأن الماء كان قليلاً بمنى فكانوا يرتوون من الماء لما بعد (٦) الفسطاط : ضرب من الأبنية ، وجمعه فساطيط.

فَنظَرْتُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ سَتَرْتُهَا جَوَارِيهَا وَوَلَا يُدْهَا ^(١) عَنْهُ ، حَتَّى دَخَلْتُ ، وَمَضَى عَمْرٌ إِلَى مَنْزَلِهِ وَفَسَاطِيطُهُ بَنَى ، وَقَدْ نَظَرَ مِنَ الْجَارِيَةِ إِلَى مَا تَيْمَهُ ، وَمِنْ جَمَالِهَا إِلَى مَا حَبَرَهُ ؛ فَقَالَ فِيهَا :

نَظَرْتُ إِلَيْهَا بِالْحَصَبِ ^(٢) مِنْ مَنَى وَلِي نَظَرٌ - لَوْلَا التَّعَرُّجُ - عَارِمٌ ^(٣)
 فَقُلْتُ : أَشْمَسُ أَمْ مَصَابِيحُ بَيْعَةٍ ^(٤) بَدَتْ لِي خَلْفَ السَّجْفِ أَمْ أَنْتَ حَالِمٌ
 بَعِيدَةٌ مَهْوًى ^(٥) الْقُرْطِ إِمَّا لِنَوْقَلٍ أَبُوهَا وَإِمَّا عَبْدُ شَمْسٍ وَهَاشِمٍ
 وَمَدَّ عَلَيْهَا السَّجْفَ يَوْمَ لَقِيَتْهَا عَلَى عَجَلٍ تَبَاغُهَا وَالْحَوَادِمُ
 فَلَمْ أَسْتَطِعْهَا غَيْرَ أَنْ قَدْ بَدَا لَنَا عَلَى الرِّغْمِ مِنْهَا كَفُّهَا وَالْمَعَاصِمُ
 مَعَاصِمٌ لَمْ نَضْرِبْ عَلَى الْبِهْمِ ^(٦) بِالضُّحَى عَصَاهَا وَوَجْهَهُ لَمْ تَلَحْهُ السَّائِمُ
 نَضِيرٌ تَرَى فِيهِ أُسَارِيْعَ مَائِهِ ^(٧) صَبِيحٌ تُغَادِيهِ الْأَكْفُ النَّوَاعِمُ
 إِذَا مَا دَعَتْ أَتْرَابَهَا فَكَتَفَتْهَا تَمَائِيْنٌ أَوْ مَالَتْ بِهِنِ الْمَسَاكِمُ ^(٨)
 طَائِنَ الصَّبَا حَتَّى إِذَا مَا أَصْبَنَهُ نَزَعْنَ وَهْنِ الْمُسْلِمَاتِ الظَّوَالِمُ

ثُمَّ قَالَ لابْنُ سُرَيْجٍ : يَا أَبَا بَحْيٍ ؛ إِنِّي تَفَكَّرْتُ فِي رَجُوعِنَا مَعَ الْعِشَّةِ إِلَى مَكَّةَ مَعَ كَثْرَةِ الزَّحَامِ وَالْغُبَارِ وَجَلْبَةِ الْحَاجِ ، فَثَقُلَ عَلَيَّ ؛ فَهَلْ لَكَ أَنْ نَرْوِحَ رَوَاحًا طَبِيبًا مَعْتَزِلًا ، فَنَرَى فِيهِ مِنْ رَاحٍ صَادِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ أَهْلِهَا ، وَنَرَى أَهْلَ الْعِرَاقِ

(١) الوليدة : الأمة وجمعها ولائد (٢) المحصب : موضع رى الجمار بمنى (٣) عارم : حاد (٤) البية : كنيسة النصارى (٥) بعيدة مهوى القرط : كناية عن طول العنق (٦) البهم : جمع بهمة ، وهى الصغير من أولاد الضأن (٧) أساريع الماء : طرائقه ، والمراد أنه يترقرق فيه ماء الشباب (٨) المآكم : جمع مأكمة وهى المجيزة .

والشام ، وتعلَّل^(١) في عثيتنا وليلتنا ونستريح ؟ قال : وأنتَ ذلك يا أبا الخطاب ؟
قال : على كَيْثِيبِ أَبِي شَحْوَةَ^(٢) ، المشرفِ على بَطْنِ يَأْجِجَ^(٣) بين مَنَى وَسَرِفَ ،
فَنُبْصِرُ مَرُورَ الْحَاجِّ بِنَا وَنَرَاهُمْ وَلَا يَرَوُنَا . قال ابنُ سُرَيْجَ : طَيْبٌ وَاللهُ يَأْسِدِي .
فدعا بعضَ خَدَمِهِ فقال : اذهبوا إلى الدارِ بِمَكَّةَ ، فاعملوا لَنَا سَفَرَةَ^(٤) ،
واحملوها مع شرابٍ إلى الكَيْثِيبِ ، حتى إذا أُبْرَدْنَا^(٥) ، وَرَمَيْنَا الْجَمْرَةَ^(٦)
صِرْنَا إِلَيْكُمْ .

فصارا إليه فأكلَا وشربا ، فلما انتشيا أخذ ابنُ سُرَيْجَ الدُّفَ فقره ، وجعل
يَغْنَى ، وهم ينظرون إلى الْحَاجِّ ، فلما أَمْسَا رفع ابنُ سُرَيْجَ صوتهَ فغنى في الشعر الذي
قاله عمر ، فسمعه الرُّكْبَانُ فجعلوا يَصِيحُونَ به : يا صاحبَ الصوتِ ؛ أما تتقَى اللهَ
فقد حَبَسَتْ النَّاسَ عن مناسكهم ! فيسْكُتُ قليلا ، حتى إذا مضَوْا رفعَ صوته ، وقد
أخذ فيه الشرابَ ؛ فيقف آخرون ، إلى أن مرَّتْ قطعة من الليل ؛ فوقفَ عليه
في الليل رجلٌ على فرسٍ عَتِيقٍ^(٧) عربيٍّ مَرِحٍ مُسْتَنٍّ^(٨) ، فهو كأنه يَمْلُ ، حتى
وقف بأصل الكَيْثِيبِ وثني رجلَه على قَرَبُوسٍ^(٩) سَرَجِهِ ، ثم نادى : يا صاحبَ
الصوتِ ؛ أيسهلُ عليك أن تُرَدَّ شَيْئًا مما سمعته ؟ قال : نعم ونَعْمَةٌ عَيْنٍ^(١٠) ،
فأيها تريد ؟ قال . تعيد عليَّ^(١١) .

(١) تعلل : انتهى وتسلّى (٢) موضع على خمسة أميال من مكة (٣) يَأْجِجَ : موضع قرب مكة (٤) السفرة : طعام يتخذ للمسافر (٥) أُبْرَدْنَا : دخلنا في آخر النهار (٦) الجمرّة : واحدة جرات المناسك وهي ثلاث جرات (٧) العتيق : الفرس الرائع الكريم (٨) يقال استن الفرس ، جرى في نشاطه على سفنه في جهة واحدة (٩) القربوس : مقدم السرج ومؤخره (١٠) أفعل ذلك لأنعاماً لعينك وإكراماً (١١) الشعر لقيس بن ذريح .

أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ مَالِكٌ كُلَّمَا نَعَبْتَ بِفِقْدَانٍ عَلَى تَحُومٍ
أَبَالَيْنِ مِنْ عَفْرَاءٍ أَنْتَ مُحَبَّرِي عَدِمْتُكَ مِنْ طَيْرٍ فَأَنْتَ مَشُومٌ
فَاعَادَهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ ابْنُ سُرَيْجٍ : أَزِدُّدْ إِنْ شِئْتَ ، فَقَالَ : غَنَّنِي :

أَمْسَلَمْ^(١) إِنْ ي - يَابْنَ كُلُّ خَلِيفَةٍ وَيَا فَارِسَ الْهَيْجَا وَيَا قَمَرَ الْأَرْضِ -
شَكَرْتُكَ إِنْ الشُّكْرَ حَبِلٌ مِنَ التَّقَى وَمَا كُلُّ مِنْ أَوْضَتْهُ نِعْمَةً يَقْضِي
وَنَوَّهْتَ لِي بِاسْمِي وَمَا كَانَ خَامِلًا وَلَكِنْ بَعْضَ الذِّكْرِ أَنْبَهُ مِنْ بَعْضٍ
فَغَنَّاهُ ، فَقَالَ لَهُ : الثَّالِثُ ، وَلَا أَسْتَزِيدُكَ ، فَقَالَ : قُلْ مَا شِئْتَ ، فَقَالَ :
تَعْنِينِي^(٢) :

يَادَارُ أَقْوَتْ^(٣) بِالْجَزْعِ فَالْكَتَبِ^(٤) بَيْنَ مَسِيلِ الْعَذِيبِ^(٥) فَالْزَحَبِ^(٦)
لَمْ تَبْقَعْ بِفَضْلِ مِزْرَهَا دَعْدٌ وَلَمْ تُسَقِّ دَعْدُ فِي الْعَلْبِ
فَغَنَّاهُ ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ سُرَيْجٍ : أَبَقَيْتَ لَكَ حَاجَةً ؟ قَالَ : نَعَمْ ، تَنْزِلُ إِلَى
لَا خَاطِبِكَ شِفَاهًا بِمَا أُرِيدُ ، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ : انْزِلْ إِلَيْهِ ، فَتَنْزِلُ ، فَقَالَ لَهُ : لَوْلَا أَنِي
أُرِيدُ وَدَاعَ الْكَعْبَةِ وَقَدْ تَقَدَّمَنِي ثَقْلِي^(٧) وَغُلْمَانِي لِأَطْلَتُ الْمَقَامَ مَعَكَ ، وَلَنْزَلْتُ

(١) يريد مسلمة بن عبد الملك . والشعر لأبي نخيلة الحماني (٢) نسب هذا الشعر في اللسان - مادة (دعد) - لجرير وورد فيه كما يأتي :

يَادَارُ أَقْوَتْ بِجَانِبِ اللَّبِّ	بَيْنَ تَلَاعِ الْعَقِيقِ فَالْكَتَبِ
حَيْثُ اسْتَقَرَّتْ نَوَاحِمُ فَسَقُوا	صَوَّبَ غَمَامٌ مَجْلَجِلُ لُجِّ
لَمْ تَبْقَعْ بِفَضْلِ مِزْرَهَا	دَعْدٌ وَلَمْ تَقْدُ دَعْدُ بِالْعَلْبِ

والتلفع : الاشتغال بالتوب كلبسة نساء الأعراب . والعلب : أفداح من جلود ، الواحد علبة يحلب فيه اللبن ويشرب ، أي : ليست دعد هذه ممن تشتمل بثوبها وتشرب اللبن بالعلبة كنساء الأعراب الشقيات ولكنها ممن نشأ في نعمة ، وكسي أحسن كسوة (٣) أقوت الدار : خلت . والجزع : منعطف الوادي (٤) الكتب : موضع بديار طي (٥) العذيب - كزبير : ماء ، أربعة مواضع (٦) موضع (٧) الثقل : متاع المسافر .

عندكم : ولكنى أخاف أن يَفْضَحَنِي الصبح ، ولو كان ثَقَلَى مَعِيَ لما رَضِيتُ لَكَ
بِالهُوَيْنَى ^(١) ، ولكن خُذْ حُلَّتِي هَذِهِ وَخَاتَمِي وَلَا تُخَدِّعْ عَنْهُمَا ، فَإِنْ شَرَاهُمَا أَلْفٌ
وخمسمائة دينار ، ثم قال له : بالله أنت ابن سُرَيْج ؟ قال : نعم ، قال : حياك الله .
وهذا عمرُ بن أبي ربيعة ؟ قال : نعم ؛ قال : حياك الله يا أبا الخطاب ! فقال له :
وأنت خِيَاك الله ! قد عرفتنا فعرِّفنا نفسك ، قال : لا يمكننى ذلك ، فغَضِبَ
ابنُ سُرَيْجٍ وقال : والله لو كنت يزيد بن عبد الملك لما زاد ، فقال له : أنا يزيد
ابن عبد الملك ! فوثب إليه مُعَرِّراً فاعظمه ، وابنُ سُرَيْجٍ فقبَّلَ رِكابه ، ثم مضى يزيد
إلى ثَقَلِهِ ، ودفع ابن سُرَيْجٍ الحلة والخاتم إلى عمر فأعطاه إياهما ، وقال له : إن هَذَيْنِ
بك أشبه منهما بى ، فأعطاه عمر ثلاثمائة دينار وغدا فيهما إلى المسجد ، فعرِّفهما الناس ،
وجعلوا يتمجبون ويقولون : كأنهما والله حلة يزيد بن عبد الملك وخاتمه ، ثم يسألون
عمر فيخبرهم أن يزيد بن عبد الملك كساه ذلك !

(١) الهوينى : الأهون والأيسر .

١١ — في وادي العقيق *

كان ابن عائشة ^(١) من أحسن الناس غناء ، وأنبههم فيه ، وأضيقهم خلقاً :
إذا قيل له غنّ ، يقول : أو ألمثلُ يُقال هذا ؟ على عتق رقة إن غنيت يومى هذا !
فإن غنّ وقيل له : أحسنت ، قال : ألمثلُ يُقال أحسنت ؟ على عتق رقة إن
غنيت سائر يومى هذا .

فلما كان في بعض الأيام سال وادى العقيق ، فجاء بالعجب ، فلم يبق بالمدينة
مُحِبَّاءَ ولا شابة ولا شاب ولا كهل إلا خرج يُبصره ، وكان فيمن خرج ابن عائشة
الغنى ، وهو مُعْتَجِرٌ ^(٢) بفضل ردائه ، فنظر إليه الحسن بن الحسن بن علي بن
أبي طالب — وكان فيمن خرج إلى العقيق — وبين يديه أسودان كأنهما ساريتان
يمشيان بين يديه أمام دابّته ، فقال لهما : اذهبا إلى الرجل المعتجر بفضل ردائه
فخذَا بضبعيه ^(٣) ، فإن فعل ما أمره به ، وإلا فاقدفا به في العقيق .

فمضيا والحسن يقفوهما ، فلم يشعر ابن عائشة إلا وهما آخذان بضبعيه ، فقال :
من هذا ؟ فقال له الحسن : أنا هذا يابن عائشة ، قال : لبيك وسعديك ! وبأبي
أنت وأمي ! قال : اسمع مني ما أقول ، واعلم أنك مأسور في أيديهما ، فغنّ مائة
صوت أو يطرحاك في العقيق ، وإن لم يفعلا ذلك لأقطعن أيديهما !

* المقد الفريد : ٤ — ١١٠

(١) هو محمد بن عائشة : من المقدمين في صناعة الغناء ، ووضع الألحان في العصر الأموي ، توفي
نحو سنة ١٠٠ هـ (٢) الاعتجار : لف المأمة (٣) أخذ بضبعيه : أى بضديه .

فصاح ابنُ عائشة : يا وَيْلَاهُ ! واعظيم مُصِيبَتَاهُ ! قال : دَعْ صِاحَكَ ، وخذْ فيما
ينفعنا . قال : اقترح ، وأقمْ مَنْ يحصى ؛ وأقبلْ يغنى ، فتركْ الناسُ العقيق ؛ وأقبلوا
عليه ؛ فلما تَمَّتْ أصواته مائة كَبُرَ الناسُ بلسان واحد تكبيرة واحدة ، ارتجَّتْ
لها أقطار المدينة ، وقالوا للحسن : صلى الله على رُوحك حيًّا وميتًا ! فما اجتمع لأهل
المدينة سرورٌ قط إلا بكم أهل البيت .

فقال له الحسن : إنما فعلتُ هذا بك يا ابنَ عائشة لأخلاقك الشكِسة ، قال له
ابن عائشة : والله مامرت على مصيبة أعظم منها .
فكان ابنُ عائشة بعد ذلك إذا قيل له : ما أَشدُّ مامرًا عليك ؟ قال :
يوم العقيق .

١٢ — من أين صَبَّك الله على*

خرج ابنُ عائشةَ من عند الوليد بن يزيد وقد غنَّاه :

أبعدَكَ مَعْقِلًا أَرْجُو وَحِصْنًا قَدْ أُعِينَنِي المَعَالِلُ وَالْخِصُونُ
فَأَطْرَبَهُ ؛ فَأَمْرٌ لَهُ بِثَلَاثِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَبِمِثْلِ كَارَةِ الْقَصَّارِ^(١) كُسُوة .

فبينما ابنُ عائشةَ يسيرُ إذ نظر إليه رجلٌ من أهلِ وادى القرى كان يشتهى الغِنَاءَ ويشربُ النَبِيذَ ؛ فدنا من غلامه وقال : مَنْ هذا الراكب ؟ قال : ابنُ عائشةَ المغنى ، فدنا منه وقال : جُعِلْتُ فِدَاكَ ! أنت ابنُ عائشةَ أم المؤمنين ؟ قال : لا ، أنا مَوْلَى لقريش ، وعائشةُ أُمِّي ، وحسبك هذا ، فلا عليك أن تُكثِرَ ؛ قال : وما هذا الذى أراه بين يديك من المال والكُسُوة ؟ قال : غَنَيْتُ أمير المؤمنين صوتًا فأطربته فأمر لى بهذا المال وهذه الكُسُوة . قال : جُعِلْتُ فِدَاكَ ؟ فهل تمنى علىَّ بأن تُسمِعنى ما أسمعته إياه ؟ فقال له : وَيَلَّاكَ أُمْتَلِى يَكَلِّمَ بِمِثْلِ هذا فى الطريق ! قال : فما أصنع ؟ قال : الحقنى بالباب .

وحرَّكَ ابنُ عائشةَ بَغْلَةً شَقراءَ كانت تحته لينقطع عنه ، فعدَا معه حتى وافى البابَ كَفَرَسَى رِهان ، ودخل ابنُ عائشةَ فمكث طويلا طمعا فى أن يَصْجُرَ فينصرف ؛ فلم يفعل ؛ فلما أعياه قال لغلامه : أَدْخِلْهُ ، فلما دخل ، قال له : وَيَلَّاكَ ! من أين صَبَّك الله على ؟ قال : أنا رجلٌ من أهلِ وادى القرى ، أشتهى هذا

* الأغانى : ٢ - ٢٢٧

(١) كارة القصار : الثياب التى يجمعها ويحملها . والقصار : محوّر الثياب .

الفناء ؛ فقال له : هل لك فيما هو أنفعُ لك منه ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : مائتا دينار وعشرة أثواب تنصرفُ بها إلى أهلك ؛ فقال له : جُعِلَتْ فداءك ؟ والله إن لي لبُنيَّةَ ما في أذنِها - علم الله - حلقه من الورق فضلا عن الذهب ، وإن لي لزوجة ، ما عليها - يشهد الله - قميص ؛ ولو أعطيتني جميع ما أمر لك به أمير المؤمنين على هذه الخلة^(١) والفقر اللذين عرفْتُكِها ؛ وأضَعُفْتَ لي ذلك ، لكان الصوتُ أعجبَ إليّ - وكان ابنُ عائشة تائهاً^(٢) لا يعني إلا الخليفةَ أولدى قَدَرٍ جليل من إخوانه - فتعجَّب ابنُ عائشة منه ورَجَّه ودَعَا بالأداة^(٣) - وكان يعني مرتجلاً - ففَنَاءَ الصوت ؛ فطرب له طرباً شديداً ، وجعل يحركُ رأسه حتى ظنَّ أن عُنُقَهُ سينقص . ثم خرج من عنده .

وبلغ الخبرُ الوليدَ بنَ يزيد ، فسأل ابنَ عائشة عنه ، فجعل يَغِيبُ عن الحديث ؛ ثم جدَّ الوليد به فصدقه عنه . وأمر بطَلَبِ الرجل فطُلِبَ حتى أُحضر ؛ ووصله صِلَةً سَنِيَّةً ، وجعله في ندمائه ، ووَكَّلَه بالسَّقَى ، فلم يَزَلْ معه حتى مات .

(١) الخلة : الحاجة والخصاصة (٢) من التيه ، وهو الصلف والكبر (٣) الأداة : آلة من آلات الفناء .

١٣ - ارجع إلى عملك راشدًا *

أتى رجلٌ من العراق المدينة في طلب جاريةٍ - وصِفَتْ له - قارئةٌ قَوَالَةٍ ؛ فسأل عنها فوجدَهَا عند قاضى المدينة ، فأتاه وسأله أن يعْرِضَهَا عليه ، فقال : يا عبد الله ، لقد أَبْعَدْتَ الشَّقَّةَ في طلب هذه الجارية فما رَغِبْتَكَ فيها ؟ قال : إنها تُغْنِي فتجيد ، فقال القاضى : ما علمتُ بهذا ، فألَحَّ عليه في عَرَضِهَا ، فعَرَضَتْ بحضرة مولاهَا القاضى !

فقال لما الفتى : هاتى ، ففَنَّت :

إلى خالدٍ حتى أَنَحْنَجَ بخالدٍ فَنعم الفتى بِرُجْجٍ ونعمَ المؤمِّل !
ففرح القاضى بِجاريته ، وسرَّ بِغنائِهَا ، وغَشِيَهُ من الطرب أمرٌ عظيم ، وقال : هاتى شيئاً بأبى أنت ؛ ففَنَّت :

أروح إلى القُصَّاصِ^(١) كلَّ عَشِيَةٍ أُرْجَى ثواب الله في عَدَدِ الخطأ
فزاد الطرب على القاضى ، ولم يدر ماذا يصنع ، فأخذ نعله فعَلَقَهَا في أذنه ، وجثا على ركبتيه ، وجعل يأخذ بطرف أذنه ، والنعل معلقة فيها ويقول : أهدونى إلى البيت الحرام ، فإنى بَدَنَةٌ^(٢) ! حتى أَدْمَى أذنه !
فلما أَمْسَكَتْ أَقْبَلَ على الفتى فقال : انصرف ! قد كُنَّا فيها راغبين قبل أن نعلم أنها تقول ، فنحن الآن فيها أرغب . فانصرف الفتى .

* السعوى : ٢ - ١٧٠

(١) القصص : جمع قاص ، وكانوا يجلسون في صدر الإسلام في المساجد يفضلون ما في كتاب الله من قصص الأنبياء ، ابتغاء العبرة (٢) البدنة : من الإبل والبقر ما تهدى إلى مكة .

وبلغ ذلك عمر بن عبد العزيز ؛ فقال : قاتله الله ! لقد استرقه الطرب ، وأمر
بصرفه عن عمله .

فلما صُرف قال : لو سمعها عمر لقال : اركبوني فإني مطية ! فبلغ ذلك عمر ،
فأشخص^(١) القاضي والجارية ؛ فلما دخلا عليه ، قال : أعد ما قلت ! قال : نعم !
فأعاد ما قال ، فقال للجارية : قولي ؛ ففنت^(٢) :

كأن لم يكن بين الحجون^(٣) إلى الصفا أنيسٌ ولم يَسْمُرْ بمكة سامِرٌ
بلى ! نحنُ كنّا أهلها فأبَادَنَا صروفُ الليالي والجدودُ العَوائرُ
فما فرغت من الشعر حتى طَرِبَ عمر طرباً ينيئاً ، وأقبل يستمعدها ثلاثاً ،
وقد بلت دموعه لحيته ، ثم أقبل على القاضي ، فقال : ارجع إلى عملك راشداً !

(١) أشخص : الشخص : السير من بلد إلى بلد (٢) قاتل البيتین : عمرو بن الحارث بن مضاض
ابن عمرو يتأسف على البيت (٣) الحجون : جبل بمكة .

١٤ — الأحوص يحتال حتى تسمع سلامة غناء الغريص *

وجّه يزيد^(١) بن عبد الملك إلى الأحوص في القدوم عليه ، وكان الغريص^(٢) معه ، فقال له : اخرجْ معي حتى آخذ لك جائزة أمير المؤمنين وأمنّيه ؛ فإنني لا أحمل إليه شيئاً هو أحب إليه منك ، فخرجا .

فلما قدم الأحوص على يزيد جلس له ودعا به ؛ فأنشده مدائح فاستحسنها ، وخرج من عنده ؛ فبعثت إليه سلامة جارية يزيد بلطف^(٣) . فأرسل إليها : إن الغريص عندي قدمتُ به هديةً إليك . فلما جاءها الجواب اشتاقت إلى الغريص وإلى الاستماع منه .

فلما دعاها أمير المؤمنين تمارضت وبعثت إلى الأحوص : إذا دعاك أمير المؤمنين فاحتل له في أن تذكر له الغريص .

فلما دعا يزيد الأحوص قال له يزيد : ويحك يا أحوص ! هل سمعت شيئاً في طريقك تُطربُ فناً به ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ مررت في بعض الطريق فسمعتُ صوتاً أعجبنى حسنُهُ وجودةُ شعره ؛ فوقفتُ حتى استقصيت خبره ، فإذا هو الغريص ، وإذا هو يغني بأحسن صوت وأشجاء .

* الأغاني : ٨ — ٣٤٤

(١) يبيع يزيد بن عبد الملك بعد وفاة عمر بن عبد العزيز ، وكان صاحب لهُو ولذات ، محباً لسماع الغناء . توفي سنة ١٠٥ هـ (١) اسمه عبد الملك ؛ والغريص لقبه ، أخذ الغناء عن ابن سريج ، وبرع فيه وفاقه (٢) اللطف : البر .

الاهاج التذكرُلى سقاما ونكس^(١) الداء والوجع الغراما^(٢)
 سلامة إنها همى ودانى وشرُّ الداء ما بطنَ العظاما^(٣)
 فقلت له - ودمعُ العين يجرى على الخدين أربعة سجاما^(٤) :
 عليك لها السلامُ فمن لصَبَّ بيتُ الليل يَهْدَى مُستهما

قال يزيد : ويلك يا أحوص ! أنا ذاك في هوى خليلتى ، وما كنت أحسب
 مثلَ هذا يتَّفِقُ ، وإن ذاك لما يزيد لها في قلبي . فما صنعتَ يا أحوص حين سمعتَ
 ذاك ؟ قال : سمعت ما لم أسمع يا أمير المؤمنين أحسن منه ، فما صبرتُ حتى
 أخرجت الغريز معى وأخفيت أمره ، وعلمتُ أن أمير المؤمنين يسألنى عما رأيتُ
 فى طريقى .

فقال له يزيد : اثنى بالغريز ليلاً وأخفِ أمره ؛ فرجع الأحوص إلى منزله ،
 وبعث إلى سلامة بالخبر . فقالت للرسول : جُزيت خيراً . قد انتهى إلى كلِّ
 ما قات ، وقد تالفت وأحسن .

فلما وارى الليلُ أهله بعث إلى الأحوص أن عَجَّلَ المجئ إلى
 مع ضيفك .

فجاء الأحوص مع الغريز فدخل عليه . فقال : غَنَّى الصوت الذى أخبرنى
 أنه سمعه منك - وكان الأحوصُ قد أخبر الغريزَ الخبرَ ، وإنما ذلك شعر قاله
 الأحوص يريد أن يحركه به على سلامة ، ويحتال للغريز فى الدخول عليه -

(١) النكس : عود المرض بعد النكس (٢) الغرام : الملازم الشديد (٣) بطن : دخل .
 (٤) يريد اللعاطين والموقفين للعينين .

فلما غنَّاهُ الغريضة دَمَعَتْ عَيْنُ يَزِيدَ ، وَأَمَرَ بِإِحْضَارِ سَلَامَةَ فَخَضِرَتْ ، وَضُرِبَ
لَهَا حِجَابٌ فَجَلَسَتْ ، وَأَعَادَ عَلَيْهِ الْغَرِيضَ الصَّوْتُ ؛ فَقَالَتْ : أَحْسَنَ وَاللَّهِ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فَاسْمَعَهُ مِنِّي ، فَأَخَذَتْ الْعُودَ فَضَرَبَتْهُ وَغَنَّتْ الصَّوْتُ ، فَكَادَ
يَزِيدُ يَطِيرُ فَرَحًا وَسُرُورًا ، وَقَالَ : يَا أَحْوَصَ ؛ إِنَّكَ لَمُبَارَكٌ ! يَا غَرِيضَ ؛ غَنَّنِي فِي
لَيْلَتِي هَذَا الصَّوْتُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَغْنِيهِ حَتَّى قَامَ يَزِيدُ وَأَمَرَ لَهَا بِمَالٍ ، وَبَعَثَتْ سَلَامَةَ
إِلَيْهِمَا بِكُسُوفَةٍ وَلَطْفٍ كَثِيرٍ .

١٥ — غناء في ختان *

قال عبد الرحمن بن إبراهيم الخزومي : أرسلتني أمي وأنا غلام أسأل عطاء^(١) بن أبي رباح عن مسألة ، فوجدته في دار يقال لها دار المعلّى ، وعليه ملحقة مصفرة ، وهو جالس على منبر ، وقد خُتِنَ ابنه والطعام يوضع بين يديه ، وهو يأمر به أن يُفَرَّقَ في الخلق ، فلهَوْتُ مع الصبيان ألعب بالجوز حتى أكل القوم وتفرّقوا ، وبقي مع عطاء خاصته ، فقالوا : يا أبا محمد ، لو أذنت لنا ، فأرسلنا إلى الغريص وابن سريج ! فقال : ما شئتم . فأرسلوا إليهما ، فلما أتيا قاموا معهما ، وثبت عطاء في مجلسه فلم يدخل ، فدخلوا بهما بيتاً في الدار فغَنَّيَا وأنا أسمع ، فبدأ ابن سريج فنقر بالدُّفِّ ، وتغنى بشعر كثير :

بَلَيْلَى وَجَارَاتٍ لَيْلَى كَأَنهَا	نِعَاجُ الْمَلَا ^(٢) تُحْدِي بِهِنَ الْأَبَاعِرُ
أَمْتَقِطِعُ يَاعَزَ مَا كَانَ يَبْنِيْنَا	وَشَاجِرُنِي يَاعَزَ فَيْكَ الشَّوَاغِرُ ^(٣)
إِذَا قِيلَ هَذَا بَيْتُ عَزَّةَ قَادَتِي	إِلَيْهِ الْهُوَى وَاسْتَعْجَلَتْنِي الْبَوَادِرُ ^(٤)
أَصْدُ وَبِي مِثْلُ الْجُنُونِ لَكِي يَرَى	رَأْوَةُ الْخَلْفَاءُ أَنِّي لِبَيْتِكَ هَاجِرُ
أَلَا لَيْتَ حَظِّي مِنْكَ يَاعَزُ أَنَّنِي	إِذَا بَنَتِ بَاعَ الصَّبْرِ لِي عَفْكَ تَاجِرُ

* الأغاني : ١ - ٢٧٨

(١) هو عطاء بن أسلم بن صفوان ، تابعي من أجلاء الفقهاء ولد في اليمن ، ونشأ بمكة ، فكان مفتي أهلها وعندهم ، وتوفي فيها سنة ١١٥ هـ . (٢) الملا : الصحراء . (٣) الشواجر : جمع شاجر ؛ شجره عن الأمر : صرفه عنه . (٤) البوادر : الذموم .

فكان القوم نزل عليهم السُّبَّات ، وأدركهم الفَشْيُ ، فكانوا كالأموات ،
ثم أضعفوا إليه بأذاتهم ، وشخصت إليه أعينهم ، وطالت أعناقهم . ثم غنى ابن
سُريج ووقع بالقضيب ، وأخذ الغريضُ الدَّفَّ ، فغنى بشعر الأخطل :

فقلتُ اصْبَحُونَا ^(١) لا أبا لأبيكمُ وما وضعوا الأثقالَ إلا ليَقَعُوا
وقلتُ : اقتلوا ^(٢) عنكمُ بمزاجها فأكرم بها مقتولةً حين تُقتلُ
أناخوا فجزوا شاصياتٍ ^(٣) كأنها رجالٌ من السودان لم ينسربلوا

فوالله ما رأيتهم تحركوا ولا نطقوا إلا مستمعين لما يقول .
ثم غنى الغريض شعر آخر وهو :

هل تعرف الرسمَ والأطلالَ والدِّمْنَا زِدْنَ القواد على ما عندهُ حزنا
دارُ لأسماء إذ كانت تحلُّ بها وإذ ترى الوصل فيما بيننا حسنا
إذ تستبيك بمصقولٍ عوارضه ^(٤) ومقلتي جودرٍ لم يمدُ أن شدنا

ثم غنى الغريض في شعر عمر بن أبي ربيعة وهو قوله :

كفى حزنًا أن تجمع الدارَ شملنا وأُمنسى قريبًا لا أزوركِ كلشما
دعي القلبَ لا يزددَ خيالًا مع الذي به منكِ أو داري جواه المسكما
ومن كان لا يمدو هواه لسانه فقد حلَّ في قلبي هواك وخيما
وليس بتزويقٍ ^(٥) اللسان وصوغه ولكنّه قد خالط اللحمَ والدِّمَّا

(١) اصبحونا : لميتونا بالصبح ، وهو ما يشرب في الغداة إلى الغائلة (٢) قتل الحمر : مزجها بالماء . (٣) الشاصيات : الزقاق الملوثة الشائلة القوام (٤) العوارض : الشيا ، أو هي الأسنان التي تبدو من الفم عند الضحك (٥) التزويق : التحسين والتزين .

قال الراوى : وما زالا يفنّيان وعطاء يسمع على منبره ومكانه ، وربما رأيت
رأسه قد مال وشفتيه تتحركان حتى بلغت الشمس ، فقام يريد منزله ، فما سمع
السامعون شيئاً أحسن منهما ، وقد رفعوا أصواتهما ، وتغنّيا .

ولما بلغت الشمس عطاء قام وهم على طريقةٍ واحدةٍ فى الغناء ، فاطّلع فى كُوّةِ
البيتِ ، فلما رآوه قالوا : يا أبا محمد ؛ أيهما أحسنُ غناءً ؟ قال : الرقيق الصوت .
يعنى ابنُ سُرَيْج !

١٦ — يضطرب حين سمع الغناء *

لقى عطاء بن أبي رباح ابن سريج^(١) بذى طوى^(٢) ، وعليه ثياب مصبغة ، وفي يده جرادة مشدودة الرّجل بخيط يطيرها ويجذبها به كلما تخلّفت ، فقال له عطاء : يا فتان ! ألا تكف عما أنت عليه ! كفى الله الناس مئونتك . فقال ابن سريج : وما على الناس من تلويني ثيابي ولعيي بجرادتي ؟ فقال له : تفتنهم بأغانيك الخبيثة ، فقال له ابن سريج : سألتك بحقّ من تبعته من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبحقّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلّا ما سمعت مني بيتاً من الشعر ، فإن سمعت مني منكراً أمرتني بالإمساك عما أنا عليه ، وأنا أقسم بالله وبحق هذه البنية^(٣) لئن أمرتني بعد استماعك مني بالإمساك عما أنا عليه لأفعلنّ ذلك .

فأطعم ذلك عطاء في ابن سريج ، وقال : قل ، فاندفع يغنى بشعر جرير :

إن الذين غَدَوْا بِليِّكَ غادروا وشلاً^(٤) بعينك لا يزال مَعِيناً^(٥)

* الأغاني : ١ - ٥٦ ، نهاية الأرب : ٤ - ٢٤٥

(١) هو عبيد بن سريج ، كان من أحسن الناس غناء ، وهو أول من ضرب بالعود على الغناء العربي بمكة ، انقطع إلى عبد الله بن جعفر ، ومات في خلافة هشام بن عبد الملك .

(٢) ذو طوى : موضع بمكة (٣) البنية : الكعبة (٤) الوشل : الدمع الكثير .

(٥) المعين : الجارى السائل .

غِيْظُنْ مِنْ عِبْرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي مَاذَا لَقِيتِ مِنَ الْمَوَى وَلَقِينَا
فَلَمَّا سَمِعَ عَطَاءُ الْغَنَاءَ اضْطَرَبَ اضْطِرَابًا شَدِيدًا وَدَخَلَتْهُ أَرْيَحِيَّةٌ ، خَلْفَ الْأَا يَكَلِّمُ
أَحَدًا بَقِيَّةَ يَوْمِهِ إِلَّا بِهَذَا الشَّعْرِ ، وَصَارَ إِلَى مَكَانِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، فَكَانَ
كُلُّ مَنْ يَأْتِيهِ سَائِلًا عَنْ حَلَالٍ أَوْ حَرَامٍ أَوْ خَبَرٍ مِنَ الْأَخْبَارِ ، لَا يَجِيبُهُ إِلَّا بِأَنْ
يَضْرِبَ إِحْدَى يَدَيْهِ عَلَى الْأُخْرَى ، وَيَنْشُدَ هَذَا الشَّعْرَ حَتَّى صَلَّى الْمَغْرِبَ ، وَلَمْ يَعَاوِدْ
ابْنَ سُرَيْجٍ بَعْدَهَا وَلَا تَعَرَّضَ لَهُ .

١٧ — في قصر الوليد بن يزيد*

اشتاق الوليدُ بنُ يزيدَ إلى مَعْبِدٍ^(١)، فوجَّه إليه إلى المدينة فأخْضِرَ، وبلغ الوليدَ قدومه؛ فأمر ببركة بين يدي مجلسه فمُلئت ماء وردٍ قد خُلِطَ بِمِسْكِ وَزَعْفَرَانٍ، ثم فرَّش للوليد في داخل البيت على حافة البركة، وبُسط لمعبد مقابله على حافة البركة، ليس معهما ثالثٌ، وجيء بمعبد فرأى سِتْرًا مُرَخًى ومجلسَ رجل واحد؛ فقال له الحُجَّابُ: يا معبد؛ سلِّ على أمير المؤمنين واجلس في هذا الموضع، فلمَّ فردَّ عليه الوليدُ السلامَ مِن خَلْفِ السِّتْرِ؛ ثم قال له: حيَّاكَ الله يا معبد! أتدرى لِمَ وَجَّهْتُ إليك؟ قال: الله أعلم وأمير المؤمنين. قال: ذكرتكَ فأحييتُ أن أسمع منك. قال معبد: أأغنى ما حضر أم ما يقرُّحه أمير المؤمنين؟ قال: بل غنَّيَ:

ما زال يَعدُّو عليهم ريبُ دهرٍمٍ حتى تَفَانُوا وريبُ الدهرِ عَدَاهُ
أَبْكَى فِرَاقَهُمْ عيني وَأَرْقَمَا إن التفرُّقَ للأحبابِ بَكَاءُ
فغَنَّاهُ، فما فرغ منه حتى رفع الجوارى السَّجْفَ، ثم خرج الوليدُ فألقى نفسه في البركة ففاض فيها، ثم خرج منها فاستقبله الجوارى بثيابٍ غير الثياب الأولى، ثم شرب وسقى معبدًا، ثم قال له: غنَّيَ يا معبد:

يَا رَبِّعُ مالِكَ لَا تُجِيبُ مَتِيًّا قد عَاجَ نَحْوُكَ زائرًا ومسلًّا

* الأعرابي: ١ - ٥٣

(١) هو معبد بن وهب، فحل المنين، وإمام أهل المدينة في القناء، اشتغل في أول أمره بالتجارة، ورعى الغنم، واختلف إلى نسيط الفارسي وسائب خاتر مولد عبد الله بن جعفر حتى اشتهر بالحذق وحسن القناء وطيب الصوت، مات بدمشق في أيام الوليد بن يزيد.

(٤ - قصص - رابع)

جاءتك كلُّ سحابةٍ هطالةٍ حتى تُرمى عن زهرةٍ مُتَبَسِّمًا
لو كنتَ تَدْرِي مَنْ دعاكَ أَجَبْتَهُ وبكيتَ من حُرْقٍ عليه إِذْ نَ دَمَا
فنفّاه ؛ وأقبل الجوارى فرَفَعْنَ السَّتْرَ ، وخرج الوليد فألقى نفسه في البركة فغاص
فيها ثم خرج ، فلبس ثيابا غير تلك ، ثم شرب وسقى معبداً ، ثم قال له : غنّى .
فقال : بماذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : غنّى :

عَجِبْتُ لَمَّا رَأَيْتَنِي أَنْدُبُ الرِّبْعَ لِلْحِيَلِ (١)
واقفاً في الدار أبكى لا أرى إلا الطلولا
كيفَ تَكْى لا ناسٍ لا يَمْلُونُ الذَّمَّ مِثْلًا (٢)
كلّما قلتُ اطْمَأْنَنْتُ دارُهم قالوا الرَّحِيْلُ

فلما غناه رعى بنفسه في البركة ثم خرج فرَدُّوا عليه ثيابه ، ثم شرب وسقى
معبداً ، ثم أقبل عليه الوليد فقال له : يا معبد ؛ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَزِدَادَ عِنْدَ الْمُلُوكِ حُظُوَّةً
فليَكْتُمُ أسرارَهم ، فقلت : ذلك مالا يحتاج أميرُ المؤمنين إلى إيصالِ به ، فقال :
يا غلام ؛ احمل إلى معبدٍ عشرةَ آلاف دينار تُحَصَّلُ له في بلدِه ، وألنى ديناراً لنفقة
طريقه ، فحَمِلْتُ إليه كلَّها ، وحَمِلَ على البريد من وَقْتِهِ إلى المدينة .

(١) الحيل : الذى أتت عليه أحوال فقيرته (٢) الذميل : السير اللين .

١٨ — معبد في مكة *

قال معبد : غَنَيْتُ فَأَعْجِبْنِي غِنَايَ ، وَأَعْجِبَ النَّاسَ ، وَذَهَبَ لِي بِهِ صَيْتٌ^(١)
وَذِكْرٌ ، فَقُلْتُ : لَاتَيْنَّ مَكَّةَ فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الْمَغْنِيِّينَ بِهَا ، وَلَا تُغْنِيَهُمْ ، وَلَا تَعْرِفَنَّ^(٢)
إِلَيْهِمْ .

فَاتَّبَعْتُ حِمَارًا ، فَخَرَجْتُ عَلَيْهِ إِلَى مَكَّةَ ، فَلَمَّا قَدِمْتُهَا بَعْتُ حِمَارِي ، وَسَأَلْتُ
عَنِ الْمَغْنِيِّينَ : أَيْنَ يَجْتَمِعُونَ ؟ فَقِيلَ : بِقُعَيْقَعَانَ^(٣) ، فِي بَيْتِ فُلَانٍ .

فَجِئْتُ إِلَى مَنْزِلِهِ بِالْفَلَسِ^(٤) ، فَقَرَعْتُ الْبَابَ ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟ فَقُلْتُ :
انْظُرْ عَافَاكَ اللَّهُ ؛ فِدَانَا وَهُوَ يَسْبَحُ وَيُسْتَعِيدُ كَأَنَّهُ يَخَافُ ، فَفَتَحَ ، فَقَالَ : مَنْ أَنْتَ
عَافَاكَ اللَّهُ ؟ قُلْتُ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ . قَالَ : فَمَا حَاجَتُكَ ؟ قُلْتُ : أَنَا رَجُلٌ
أَشْتَهِي الْغِنَاءَ . وَأَزْعَمُ أَنِّي أَعْرِفُ مِنْهُ شَيْئًا ، وَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الْقَوْمَ يَجْتَمِعُونَ عِنْدَكَ ،
وَقَدْ أَحْبَبْتُ أَنْ تُنْزِلَنِي فِي جَانِبِ مَنْزِلِكَ وَتَخْلُطَنِي بِهِمْ ، فَإِنَّهُ لَا مَثْوَى عَلَيْكَ
وَلَا عَلَيْهِمْ .

فَلَوِي^(٥) شَيْئًا ثُمَّ قَالَ : انْزِلْ عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ . فَفَقُلْتُ مَتَاعِي فَتَزَلْتُ فِي جَانِبِ
حُجْرَتِهِ .

ثُمَّ جَاءَ الْقَوْمُ حِينَ أَصْبَحُوا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا فَأَنكَرُونِي ، وَقَالُوا :

* الْأَغَانِي : ١ - ٥٧ .

(١) غَنَيْتُ : اسْمُ قَرْيَةٍ بِهَا مِيَاهٌ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ قَرِبَ مَكَّةَ (٢) الْفَلَسُ : ظُلْمَةٌ آخِرُ اللَّيْلِ إِذَا اخْتَلَطَتْ
بِظُلْمَةِ الصَّبَاحِ (٣) فُلَوِي شَيْئًا : فَتَمَكَّتُ قَلِيلًا .

مَنْ هذا الرجل ؟ قال : رجل من أهل المدينة ضيفٌ يشتهي الغناء ، ويطرب عليه ، ليس عليكم منه عَنَاءٌ ولا مكروه . فرحبوا به وكلمتهم ، ثم انبَسَطُوا وشرَبوا وَغَنُّوا ، فجعلت أُعْجَبُ بغنائهم وأظهر ذلك لهم ، ويعجبهم منى حتى أقننا أياماً ، وأخذتُ من غنائهم - وهم لا يدرون - أصواتاً وأصواتاً وأصواتاً ؛ ثم قلت لابن مُرَينج : أُمِسِّك على صوتك :

قل لمنــد وترِـبها (١) قبل شَحْطِ (٢) النَّوى غدا
إن تجوـدى فطالما بت ليلى مُسهداً

قال : أو تحسن شيئاً ؟ قلت : تَنْظُرُ (٣) ، وعسى أن أصنع شيئاً ، واندفعت فيه فغنيته ؛ فصاح وصاحوا ، وقالوا : أَحْسَنْتَ ! قاتلك الله ! قلت : فَأُمِسِّك على صوت كذا ؛ فأمسكوه على غنيته ؛ فازدادوا عجباً وصياحاً ، فابتكرت واحداً منهم إلا غنيته من غناؤه أصواتاً قد تَخَيَّرْتُها ؛ فصاحوا حتى علتْ أصواتهم ؛ وَهَرَقُوا بى (٤) ، وقالوا : لَأَنْتَ أَحْسَنُ بِأداء غنائنا عَنَاءَ مِنَّا . قلت : فأمسكوا على ولا تضحكوا (٥) بى حتى تسمعوا من غِنائى . فأمسكوا على فغنيته صوتاً من غِنائى ، فصاحوا بى ، ثم غنيتهم آخر وآخر ؛ فوثبوا إلى وقالوا : نَحْلِفُ بالله إن لك لصيتاً واسماً وذِكْراً ، وإن لك فيما هنا لسهماً عظيماً ، فمن أنت ؟ قلت : أنا معبدٌ ؛ فقبلوا رأسى ، وقالوا : لَفَقْتَ (٦) علينا وكنا تَهَاوَنُ بك ، ولا نعدُّك شيئاً ، وأنت أنت ! فأمت عندهم شهراً آخذ منهم ويأخذون منى ثم انصرفتُ إلى المدينة .

(١) الترب : اللدة ، وهو من يماثلك في سنك (٢) الشحط : البعد ، والشعر لمر بن أبى ربيعة

(٣) تنظر : تأن وتلبث (٤) هرف به : مدح حتى جاوز القدر في الثناء والإطراء (٥) ضحك

به ومنه بمعنى (٦) لفقت علينا : أى سترت علينا أمرك .

١٩ — مَعْبِدُ فِي السَّفِينَةِ *

كان مَعْبِدُ قد عَلمَ الفِناءَ جاريةً من جوارى الحِجازِ تدعى طَبْيَةَ وعُني بتَخْرِيجِهَا ؛
فاشترَاهَا رجلٌ من أهل العراق ، فأخرجَهَا إلى البصرة ، وباعَهَا هناك ، فاشترَاهَا رجلٌ
من أهل الأهواز فأعْجِبَ بِهَا ، ثم ماتت بعد أن أقامت عنده بُرْهَةً من الزمان ،
وأخذ جوارِيَهُ أَكْثَرَ غَنَائِهَا عنها ، فكان لِحُبِّهِ إِيَّاهَا وَأَسَفِهِ عَلَيْهَا لا يزالُ يسألُ
عن أخبارِ مَعْبِدٍ وأين مستقرُّهُ ، ويُظهِرُ التَّعَصُّبَ لَهُ والميلَ إِلَيْهِ ، والتَّعْدِيمَ لِعَنَائِهِ على
سائرِ أغاني أهلِ عَصْرِهِ إلى أن عَرَفَ ذَلِكَ مِنْهُ .

وبلغ مَعْبِدُ أَخْبَرَهُ ، فخرج من مكة حتى أتى البصرة ، فلما وَرَدَهَا صادف
الرجلَ ، وقد خرج عنها في ذلك اليوم إلى الأهواز . فاكْتَرَى سَفِينَةً ، وجاء مَعْبِدُ
يلتمس سَفِينَةً ينحدر فيها إلى الأهواز ، فلم يجد غير سَفِينَةِ الرجلِ ، وليس يعرف
أحدًا مِنْهَا صاحِبَهُ ، فأمر الرجلُ المَلَّاحَ أن يُجْلِسَهُ معه في مؤخَّرِ السَفِينَةِ ، ففعل
وامْحَدَرُوا .

فلما صاروا في فم نهر الأُبَلَّةِ ^(١) تغدّوا وشرَبوا ، وأمر جوارِيَهُ فغَنَيْنَ ، ومَعْبِدُ
ساكت ، وهو في ثياب السفر ، وعليه فروٌّ وخُفَّانٌ غليظان وزِيٌّ جاف من زِيِّ
أهل الحِجاز ، إلى أن غَنَّتْ إحدى الجوارى :

بانت سُمَادُ وَأَمْسَى حَبْلُهَا انْصَرَمَا واحتَلَّتِ النُّورَ والأَجْرَاعَ مِنْ إِضْمَا ^(٢)

* الأغانى : ١ - ٤٨

(١) الأبلّة : بلدة على شاطئ دجلة في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة (٢) النور :
الطمتن من الأرض ، والأجراع : جمع جرع وهو مفرد أو جمع جرعة وهي الرملة الطيبة المنبت
لا وعونة فيها ، وإضم : واد يجبل تهامة ، وهو الوادى الذى فيه المدينة ، والشعر للناطقة .

إحسدى بليّ وما هام الفؤادُ بها إلا السّفاهَ وإلا ذِكرَةَ حُلما^(١)
 فلم تُجِدْ أداءه ، فصاح بها مَعْبِد : يا جارية ؛ إن غناءك هذا ليس بمستقيم .
 فقال له مولاهما - وقد غضب : وأنت ما يُدْرِيك الغناء ما هو ! ألا تُمسِكُ وتلزم
 شأنك ! فأمسك .

ثم غفّت أصواتاً من غناء غيره ، وهو ساكت لا يتكلم ، حتى غنت :
 يابنة الأزديّ قلبي كئيبٌ مُستَهَامٌ عندها ما يُنِيبُ
 ولقد لاموا قلقت : دَعُونِي إن من تَهْوَنَ عنه حَبِيبُ
 إنما أبلى عظامي وجسمي حبّها ، والحبُّ شيءٌ عجيبُ
 أيها العائبُ عندي هواها أنت تَقْدِي من أراك تَعِيبُ
 فأخَلَّتْ بِنَفْسِهِ ؛ فقال لها معبد : يا جارية ؛ لقد أخَلَّتْ بهذا الصوت إخلاقاً
 شديداً ؛ فغضب الرجل وقال له : ويلك ! ما أنت والغناء ! ألا تكفّ عن هذا
 الفضول ! فأمسك وغنى الجوارى ملياً ؛ ثم غنت إحداهن :

خيليّ عَوْجاً فابكيا ساعةً معي على الرُّبْعِ تَقْضِي حاجةً ونودعُ
 ولا تَعِجْ لاني أن أَلِمَّ بِدِمْنَةٍ لَمَزَةٍ لاحت لي ببيداءٍ بَلَقَعُ
 وقولا لقلبٍ قد سَلَا : راجع الهوى وللعين : أذري من دموعك أودعي
 فلا عيش إلا مثلُ عيش مَضَى لنسا مَصِيفاً أقمنا فيه من بعد مَرَبْعِ
 فلم تصنع فيه شيئاً ، فقال لها معبد : يا هذه ؛ أما تقومين على أداء صوت واحد ؟
 فغضب الرجل وقال له : ما أراك تدعُ هذا الفضول بوجهٍ ولا حيلةٍ ، فأقسم بالله
 لئن عاودتَ لأُخرجَنَّك من السفينة !

(١) بلي : اسم قبيلة ، والسّفاه : الطيش ، والذِكرة بالكسر والضم : قبض النسيان .

فأمسك معبد حتى إذا سككت الجوارى سكتة اندفع بغنى الصوت الأول حتى فرغ منه ؛ فصاح الجوارى : أحسنت والله يارجل ؛ فأعسده ، فقال : لا والله ولا كرامة ! ثم اندفع بغنى الثانى ، فقلن لسيدهن : ويحك والله ! إن هذا أحسنُ الناس غناءً ، فسكته أن يعيده علينا ولو مرة واحدة ، لعلنا نأخذه عنه ؛ فإنه إن فاتنا لم نجد مثله أبداً . فقال : قد سمعُتنَّ سوءَ ردّه عليكن ، وأنا خائفٌ مثلهُ منه ، وقد أسلفناه الإساءة فاصبرنَ حتى نُدَارِيه . ثم غنى الثالث ، فزلزل الأرض ، فوثب الرجل وقبل رأسه وقال : ياسيدى ؛ أخطأنا عليك ولم نعرف موضعك . فقال له : فهبك لم تعرف موضعى ، قد كان ينبغي لك أن تتنبَّت ولا تسرع إلى بسوء العِشرة وجفاء القول ! فقال له : قد أخطأتُ ، وأنا أعتذر إليك مما جرى ، وأسألك أن تنزل إلى ، وتختلط بى ، فقال له : أما الآن فلا .

فلم يزل يرفق^(١) به حتى نزل إليه . فقال الرجل : ممن أخذتَ هذا الغناء ؟ قال : من بعض أهل الحجاز ، فن أين أخذه جواريك ؟ فقال : أخذه عن جارية كانت لى ، ابتاعها رجلٌ من أهل البصرة من مكة ، وكانت قد أخذت عن معبد ، وعني بتخرجهما ، فكانت تحمل منى محلّ الروح من الجسد ، ثم استأثر الله عزّ وجل بها ، وبقى هؤلاء الجوارى وهنّ من تعليمها ، فأنا إلى الآن أتعصّب لمعبد ، وأفضله على المغنين جميعاً ، وأفضل صنّعتَه على كل صنعة .

فقال له معبد : أو إنك لأنت هو ؟ أفترفنى ؟ قال : لا . فصكّ^(٢) معبدُ يديه صلّته ثم قال : فأنا والله معبد وإليك قدمتُ من الحجاز ، ووافيتُ البصرة ساعة

(١) يترفق به (٢) صك : ضرب .

نزلت السفينة لأقصداك بالأقواز ؛ ووالله لا أقصرتُ في جواريك هؤلاء ، ولأجعلنَّ لك في كل واحدة منهن خلقاً من الماضية .

فأكبَّ الرجل والجواري على يديه ورجليه يقبلونها ، ويقولون : كَتَمْتَنَّا نَفْسَكَ طَوْلَ هَذَا الْوَقْتِ حَتَّى جَفَوْنَاكَ فِي الْمَخَاطِبَةِ ، وَأَسَانَا عِشْرَتَكَ وَأَنْتَ سَيِّدُنَا وَمَنْ نَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ أَنْ نَلْقَاهُ .

ثم غيَّرَ الرَّجُلُ زِيَّةَ وَحَالِهِ وَخَلَعَ عَلَيْهِ عِدَّةَ خَلَعٍ وَأَعْطَاهُ ثَلَاثِينَ دِينَارًا وَطَيِّبًا وَهَدَايَا بِمِثْلِهَا ، وَانْحَدَرَ مَعَهُ إِلَى الْأَهْوَازِ ، فَأَقَامَ عِنْدَهُ حَتَّى حَذَقَ جَوَارِيَهُ مَا أَخَذَنَّهُ عَنْهُ ، ثُمَّ وَدَّعَهُ وَانصَرَفَ إِلَى الْحِجَازِ .

٢٠ - وفاء مالك بن أبي السَّمْح لمعبد*

كان مالك^(١) بن أبي السَّمْح المغني من طيِّ، فأصابتهم حَطْمَةٌ^(٢) في بلادهم بالجليلين ؛ فقدِمَتْ به أمُّه وبأخوة له وأخواتٍ أيتام لا شيء لهم ، فكان يسألُ الناسَ على باب حمزة بن عبد الله بن الزُّبير - وكان معبدٌ منقطعاً إلى حمزة يكون عنده في كل يوم يَفْتَنِيهِ - فسمع مالكٌ غناءه فأعجبه واشتراه .

فكان لا يفارق باب حمزة ، يسمعُ غناء معبدٍ إلى الليل ، فلا يطوف المدينة ولا يطلب من أحدٍ شيئاً ولا يَرِيْمُ^(٣) موضعه ، فينصرف إلى أمه ، ولم يكتسب شيئاً فتَضَرَّبَ به ، وهو مع ذلك يترنم بالحنان معبد ، يؤدِّيها دَوْرًا دَوْرًا ، في مواضع صيحاته ونَبْرَاتِهِ^(٤) نغماً بغير لفظ ولا رواية شيء من الشعر ؛ وجعل حمزةُ كلما غداً وراح ملازماً لبابه فقال لغلامه يوماً : أَدْخِلْ هذا الغلام الأعرابي إلىَّ : فأدخله ، فقال له : مَنْ أنت ؟ فقال : أنا غلام من طيِّء أصابتنا حَطْمَةٌ بالجليلين فحَطَّمْنَا إليكم ، ومعى أم لي وإخوة ، وإنِّي قد لَزِمْتُ بابك فسمعت من دارك صوتاً أعجبنى فلزمت بابك من أجله ، قال : فهل تعرفُ منه شيئاً ؟ قال أعرفُ لحنه كله ؛ ولا أعرف الشعر . فقال : إن كنت صادقاً فإنك لَقَهْمِ .

ودعا بمعبد ، فأمره أن يُفَتِّنِي صوتاً ففَنَّاه ، ثم قال للمالك : هل تستطيع أن

* نهاية الأرب : ٤ - ٢٨١ ، الأغاني : ٥ - ١٠٢

(١) أخذ مالكُ الغناء عن جيلة ومعبد وأدرك الدولة العباسية ، وانقطع إلى بني سليمان بن علي ، ومات في خلافة أبي جعفر المنصور (٢) الحطمة : السنة والجذب (٣) يريم موضعه : يفارقه (٤) نبرة الغني : رفع صوته عن خفض .

تقوله ؟ قال : نعم ، قال : هاتِه ، فاندفع فغناه ، فأدى نغمه بغير شعر ، يؤدى مداته وليّاته ، وعطفاًته ونبراته ، لا يَحْرِمُ حرقاً .

فقال لمعبد : خذْ هذا الغلام إليك وخرّجه فليكوننَّ له شأن ؛ قال معبد : ولمَ أفعل ذلك ؟ قال : ليتكونَ محاسنه منسوبةً إليك .

فقال : صدق الأمير ، وأنا أفعل ما أمرتني به . ثم قال حمزة لمالك : كيف وجدت ملازمتك لبابنا ؟ قال : أرايت لو قلتُ فيك غير الذى أنت له مستحقٌّ من الباطل أكنتَ تَرْضَى بذلك ؟ قال : لا . قال : وكذلك لا يسرُّك أن تُحمَدَ بما لم تفعل ؛ قال : نعم . قال : فوالله ما شيعتُ على بابك شبعةً قط ، ولا انقلبتُ منه إلى أهلى بخير . فأمر له ولأمه وإخوته بمنزل ؛ وأجرى لهم رزقاً وكسوة ، وأمر لهم بخادم يخدمهم ، وعبدٍ يسقيهم الماء ، وأجلس مالكا معه فى مجالسه ، وأمر معبداً أن يطأ رَحَه ، فلم ينشَبْ^(١) أن مهرَ وحذق ، وكان ذلك بقبِ مقتل هذبة بن خشرم ؛ فخرج مالك يوماً ، فسمع امرأةً تنوحُ على زيادة الذى قتله هذبة بن خشرم بشعر أخى زيادة :

أبعد الذى بالنعف^(٢) نَفِ كَوَيْكِبِ رَهِينَةَ رَمْسٍ ذى تُرابٍ وَجَنَدِلِ
أَذْكَرُ بالبقيا على مَنْ أَصَابَنِى وَبُقَيَّائِ أنى جاهد غير مؤتِلِ^(٣)
فلا يدعُنِ قَوْمى لزيد بن مالك لئن لم أعجلْ ضربةً أو أعجلِ

(١) لم ينشَب : لم يلبث (٢) النعف : ما انحدر عن غلظ الجبل وارتفع عن مجرى السيل
(٣) غير مؤتِل : غير مقصر ، والبقيا : الاسم ، من أبقيت عليه إذا رعبت عليه ورحته . وقد ورد هذا البيت فى الاسان منسوباً إلى أبى القعقاع الأسدى هكذا :

أذكر بالقوى على ما أصابنى وبقواى أنى جاهد غير مؤتِل

وإلا أنلَ نَارِي من اليوم أو غدٍ بنى عثما فالدهرُ ذو مُتَطَالٍ
أَنَحْتُمُ علينا كَلْكَلَ الحربِ مَرَّةً فنحن مُنِيخُوها عليكم بَكَلْكَلٍ
فغنى في هذا الشعر لَحْنين : أحدهما نَحَا فيه نَحْوُ المرأة في نَوْحها ورَقَّةُ
وأصلحه ، وزاد فيه ، والآخر نَحَا فيه نَحْوُ معبد في غِنَاهُ .

ثم دخل على حمزة فقال له : أيها الأمير ؛ إني قد صَنَعْتُ غِنَاءً في شعرٍ سمعتُ
بعض أهل المدينة ينشده . وقد أعجبني ؛ فإن أذن الأمير غَنِيَّتُهُ فيه . قال : هَاتِهِ ؛
فَغَنَّاهُ اللَّحْنَ الذي نَحَا فيه نَحْوُ مَعْبَدٍ ؛ فطرب حمزة ، وقال له : أحسنت يا غلام !
هذا الغناء غناء معبد وطريقته ، فقال : لا تَعَجَّلْ أيها الأمير ، واسمع مني شيئاً ليس
من غناء مَعْبَدٍ ولا طريقته . قال : هات ، فغناه اللحن الذي تشبَّه فيه بنوح المرأة ؛
فطرب حمزة حتى ألقى عليه حُلَّةً كانت عليه قيمتها مائة دينار .

ودخل معبد فرأى حُلَّةَ حمزة عليه ، فأنكرها ، وعلم حمزة بذلك ، فأخبر
معبدًا بالسبب ، وأمر مالكاً فغناه الصوتين ؛ ففضب معبد لما سمع الصوت الأول ،
وقال : قد كَرِهْتُ أن آخذ هذا الغلام فيتعلم غِنَائِي فيدعيه لنفسه . فقال له حمزة :
لا تعجل واسمع غناء صَنَعَهُ ليس من شَأْنِكَ ولا غِنَائِكَ ، وأمره أن يُغَنِّي الصوت
الآخر فغناه فأتروك معبد ، فقال له حمزة : والله لو انفردَ بهذا المضاهاك ، ثم
يتزايدُ على الأيام ، وكلما كَبُرَ وزاد شِخْتُ أنت ونقصت ، فلأن يكون منسوباً
إليك أجملُ .

فقال له معبد - وهو منكِرٌ - : صدق الأمير ! ثم أمر حمزة لمعبد بخَلْعَةٍ من
ثيابه وجائزة حتى سكن وطابت نفسه ، فقام مالك فقبل رأس معبد ، وقال له :

يا أبا عباد ؛ أساءك ما سمعت مني ؟ والله لا أغني نفسي شيئاً أبدا ما دمت
حيّاً ، وإن غلبتني نفسي ففنيته في شعر استحسنته لا نسبته إلا إليك ، فطِبْ
نفساً وارضَ عني . فقال له معبد : أو تفعلُ هذا وتُني به ؟ قال : إي
والله وأزيد .

فكان مالكٌ بعد ذلك إذا غنى صوتاً وسئلَ عنه قال : هذا لمعبد ما غنيت
لنفسى شيئاً قط ، وإنما آخذُ غناء معبد فأنقله إلى الأشعار وأحسنه وأزيدُ فيه
وأُنقص منه .

٢١ — مالك بن أنس يعني *

قال حسين بن دَحَّان الأشقر : كنتُ بالمدينة ، فخلا لي الطريقُ وَسَطَ النهارِ
فجِئتُ أنَغْنَى :

ما بالُ أَهْلِكَ يا رَبابُ خُزْراً^(١) كأنهمُ غِضابُ

قال : فإذا خَوْخَةً^(٢) قد فُتِحَتْ ، وإذا وَجْهٌ قد بدا تتبعه لَحْيَةٌ خَمراء ، فقال :
يا فاسق ، أَسأتَ التَّأْدِيَةَ ، ومنعتَ القاتِلَةَ^(٣) ، وأذَعْتَ الفاحِشَةَ ؛ ثم اندفعَ يَغْنِيهِ ،
فظننتُ أن طُوَيْساً قد نُشِرَ بعينه .

فقلت له : أصلحك الله ! من أين لك هذا الفناء ؟ فقال : نشأت وأنا غلام
حدَّثَ اتَّبَعَ المَغْنِينَ ، وآخِذٌ عنهم ؛ فقالت لي أمي : يا بني ؛ إن المغني إذا كان
قبيح الوجه لم يلتفتْ إلى غنائه ؛ فدَعَ الفناء واطلب الفَقْهَ فإنه لا يضرُّ معه قُبْحُ
الوجه . فتركت المغنين واتَّبعتُ الفقهاء ، فبلغ الله بي عزّاً وجل ما ترى . فقلت له :
فأَعِدْ ، جِئْتُ فداءك ! قال : لا ! ولا كرامة ، أتريد أن تقول : أخذته عن مالك
ابن أنس ! وإذا هو مالك^(٤) بن أنس ولم أعلم .

* الأغاني : ٤ - ٢٢٢

(١) الخزر : النظر بلحاظ العين (٢) الخوخة : البوب ، أو الباب الصغير في الباب الكبير
(٣) القاتلة : القيلولة (٤) مالك بن أنس ، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة كان صلياً في
دينه بعيداً من الأمراء والملك ، وهو صاحب كتاب الموطأ ، توفي سنة ١٧٩ هـ .

٢٢ — أَفْسَدَ آخِرًا مَا أَصْلَحَ أَوَّلًا *

قدم ابنُ جامع السَّهْمِيَّ مَكَّةَ بِمَالٍ كَثِيرٍ ، ففَرَّقَهُ فِي ضُعْفَاءِ أَهْلِهَا ؛ فَقَالَ
سُفْيَانُ ^(١) بِنُ عَيْنَةَ : بَلَّغْنِي أَنَّ هَذَا السَّهْمِيَّ قَدِمَ بِمَالٍ كَثِيرٍ ! قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ :
فَعَلَامَ يُعْطَى ؟ قَالَ : يَغْنَى الْمُلُوكُ فَيُعْطُونَهُ . قَالَ : وَبِأَيِّ شَيْءٍ يَغْنِيهِمْ ؟ قَالُوا :
بِالشَّعْرِ . قَالَ : فَكَيْفَ يَقُولُ ؟ فَقَالَ لَهُ فَتَى مِنْ تَلَامِيذِهِ : يَقُولُ :

أَطَوَّفُ بِالْبَيْتِ مَعَ مَنْ يَطُوفُ وَأَرْفَعُ مِنْ مِزْرَى الْمَسْبِلِ
قَالَ : بَارَكَ اللَّهُ عَلَيْهِ ، مَا أَحْسَنَ مَا قَالَ ! ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ :

وَأَسْجُدُ بِاللَّيْلِ حَتَّى الصَّبَاحِ وَأَتْلُو مِنَ الْمُحْكَمِ الْمُنْزَلِ
قَالَ : وَأَحْسَنَ أَيْضًا ، أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ ، ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ :
عَسَى فَارِجُ الْهَمِّ عَنْ يَوْسُفَ يُسَخِّرُنِي لِي رَبَّةَ الْحَمَلِ
قَالَ : أَمْسِكْ ، أَمْسِكْ ! أَفْسَدَ آخِرًا مَا أَصْلَحَ أَوَّلًا !

* العقد الفريد : ٤ - ٩٣

(١) عدت الحرم ، كان حافظاً ثقة ، واسع العلم ، ولد بالكوفة ومات بمكة سنة ١٩٨ هـ .

٢٣ — ابن جامع في دار الخلافة *

قال إسماعيل بن جامع السهمي ^(١) :

ضَمَنِي ^(٢) الدهر ضِمًّا شديداً بِمَكَّةَ ، فانتقلتُ منها إلى المدينة ، فأصبحتُ يوماً وما أملكُ إلا ثلاثة دراهم ، فهي في كُمِّي إذا أنا بِجارية حَمِيرَاءَ على رقبتهَا جَرَّةٌ تريد الرَّاكِي ^(٣) تسعى بين يَدَيَّ ، وتُرَتِّمُ بصوتٍ شَجِيٍّ تقول :

شَكُونَا إِلَى أَحْبَابِنَا طَوْلَ لَيْلِنَا فَقَالُوا لَنَا : مَا أَقْصَرَ اللَّيْلَ عِنْدَنَا !
وَذَاكَ لِأَنَّ النُّومَ يَغْشَى عِيُونَهُمْ سِرَاعاً وَمَا يَغْشَى لَنَا النُّومُ أَعْيُنَا
إِذَا مَا دَنَا اللَّيْلُ الْمُضِرُّ لِذِي الْهَوَى جَزِعْنَا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ إِذَا دَنَا
فَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يُبْلَقُونَ مِثْلَ مَا نَلَقِي لَكَانُوا فِي الْمَضَاجِعِ مِثْلَنَا

فأخذ الغناء بِقَلْبِي ، ولم يَدُرْ لِي مِنْهُ حَرْفٌ . فقلت : يَا جَارِيَّةُ ؛ مَا أَذْرَى أَوْجُحَكَ أَحْسَنَ أَمْ غَاوُوكُ ؟ فلو شئتِ أَعَدْتُ . قالت : حَبًّا وَكَرَامَةً . ثُمَّ أَسْنَدَتْ ظَهْرَهَا إِلَى حِدَارٍ قَرُبَ مِنْهَا وَوَضَعَتْ إِحْدَى رَجْلَيْهَا عَلَى الْأُخْرَى ، وَوَضَعَتْ الْجَرَّةَ عَلَى سَاقَيْهَا ، ثُمَّ انْبَعَثَتْ تُغَنِّيهِ ؛ فَوَاللَّهِ مَا دَارَ لِي مِنْهُ حَرْفٌ . فقلت : أَحْسَنْتِ !

* الْأَغَانِي : ٦ - ٣١١

(١) اشتهر ابن جامع بالغناء ، ولكنه كان من أحفظ خلق الله لكتاب الله ، وكان ورعاً تقياً يخرج من منزله مع الفجر يوم الجمعة ، فيصلّي الصبح ثم يصف قدميه حتى تطلع الشمس ، ولا يصلّي الناس الجمعة حتى يحتم القرآن ، ثم ينصرف إلى منزله (٢) ضمني : ضغطني واشتد علي ، من شدة الفقر (٣) الركي : جمع الركية ، وهي البثرة .

فلو شئت أعدت مرة أخرى ! ففطنت وكَلَّحت^(١) وقالت : ما أعجبَ أمركم !
أحدُكم لا يزال يجرى إلى الجارية عليها الضَّريبة فيشغلها ! فضربتُ يدي إلى
الثلاثة الدراهم فدفعْتُها إليهما ، وقلتُ : أقيمى بها وجهك اليوم إلى أن نلتقى .
فأخذتها كالسكارهة وقالت : أنت الآن تريد أن تأخذ منى صوتاً أحسبك ستأخذُ
به ألفَ دينار وألفَ دينار وألفَ دينار ؛ وانبعثتُ تُفنى ؛ فأعلمتُ فيكرى في
غنائها حتى دارلى الصوتُ وفهمتهُ ، وانصرفتُ مسروراً إلى منزلى أَرَدَدُهُ حتى
خَفَّ على لسانى .

ثم إنى خرجتُ أريدُ بَنَدَادَ فدخلتها ، فنزل بى المُسكَّارى على باب مُحَوَّل^(٢) ؛
فبقيتُ لا أدرى أين أتوجَّه ولا مَنْ أَقْصِدُ ! فذهبتُ أمشى مع الناس ، حتى
أتيتُ الجِسْرَ فعبرتُ معهم ، ثم انتهيتُ إلى شارعِ المدينة ، فرأيتُ مسجدًا بالقرب
من دار الفضل بن الربيع مرتفعاً ، فقلت : مسجد قوم سِراة ؛ فدخلته وحضرتُ
صلاةَ المغرب ، وأقمتُ بمكانى حتى صَلَّيتُ العِشاءَ الآخرة على جوع وتعب ،
وانصرفتُ أهلُ المسجد ، وبقى رجل يُصَلِّي ، خَلَفَهُ جماعةٌ : خدامٌ وخَوَلٌ ينتظرون
فراغه ، فصلى ملياً ثم انصرف ؛ فرأيتُ فقال : أَحْسِبُكَ غريباً . قلتُ : أجل . قال :
فتى كنتَ فى هذه المدينة ؟ قلتُ : دخلتها آنفاً ، وليس لى بها منزلٌ ولا مَعْرِفَةٌ ،
وليس صناعتى مما يُمْتُّ بها إلى أهل الخير . قال : وما صناعتك ؟ قلتُ : أنغنى .
فوثبَ مُبادِراً ، ووَكَّلَ بى بعضَ من معه ، فسألتُ المَوَكَّلَ بى عنه ، فقال : هذا
سَلَامُ الأبرش^(٣) .

(١) كَلَحَ : تكشَّرَ فى عبوس (٢) باب محول : محلة كبيرة من محال بَنَدَاد (٣) سلام الأبرش :
خدم المنصور وتولى الظالم المهدي وعاصر الهادي والرشيد .

قال ابنُ جامع : وإذا رسولٌ قد جاء في طلبى ، فانتهى بى إلى قصرٍ من قصورِ الخِلافة ، وجازَ بى مقصورةً إلى مقصورة ، ثم أُدخِلْتُ مقصورةً في آخر الدَّهْلِيز ، ودعا بطعام فأتيتُ بمائدة عليها من طعام الملوك ، فأكلتُ حتى امتلأتُ .

فإنى لكذلك إذ سمعتُ رَكْضًا في الدَّهْلِيز وقائلاً يقول : أين الرجل ؟ قيل : هو ذا ، قال : ادعوا له بفَسول ^(١) وخِلْعةٍ وطِيبٍ . ففعل ذلك بى ، فَحُيِلْتُ على دابةٍ إلى دار الخِلافة - وعرقُها بالحرس والتَّكْبِير والتَّيْران - فجاوزتُ مقاصيرَ عِدَّة ، حتَّى صِرْتُ إلى دارِ قوراء ^(٢) فيها أَسِرَّة في وسطها ، قد أُضيفَ بعضها إلى بعض .

فأمرنى الرجلُ بالصعود فصعدتُ ، وإذا رجلٌ جالس ، عن يمينه ثلاثُ جَوارٍ في حِجورهنَّ العِيدان ، وفي حِجْرِ الرجلِ عود ، فرحَّب الرجلُ بى ، وإذا يجالسُ حِيالَه كان فيها قومٌ قد قاموا عنها ، فلم أَلْبَثْ أَنْ خرجَ خادمٌ من وراء الستر ؛ فقال للرجل . تَفَنَّ ، فانبثَّ يَفْنَى بصوتٍ لى وهو :

لم تَمْشِ مِيلًا ولم تَرْكَبْ على قَتَبٍ ولم تر الشمسَ إلا دونها الكِلَلُ ^(٣)
تَمْشِى الهَوْنِى كَأَنَّ الرِّيحَ تَرْجِمُهَا مَشَى اليَعاْفِرِ في جَبِينِهَا الوَهْلُ ^(٤)
فَفَنِّ بغيرِ إصَابَةٍ ، وبأوتار وِدْساتين ^(٥) مختلفة ، ثم عاد الخادمُ إلى الجارية التى

(١) الفسول : الماء يفتسل به (٢) الدار القوراء : الواسعة (٣) الكلل : جمع كلة ، وهى ستر يحاط كالبيت (٤) اليعافير : الضياء ، والوهل : الفرع (٥) الودساتين : الرباطات التى توضع الأصابع عليها ، واحدها دستان .

تلى الرجل ، فقال لها : تغنى ، فغنت أيضاً بصوت لي ، كانت فيه أحسن حالاً من
الرجل ، وهو :

يادارُ أضحتْ خلاء لا أنيسَ بها إلا الطُّبَّاءُ وإلا النَّاشِطُ ^(١) الفردُ ^(٢)
أينَ الذينَ إذا مازرُتهمْ جَذِلُوا وطارَ عن قَلْبِي النَّشْوَاقُ وَالْكَمْدُ !

ثم عاد الخادم إلى الجارية التي تليها ، فانبعثت تُغنى :

فوالله ما أدري أَيْفَلْبِنِي المَهْـوَى إذا جَدَّ وَشَكُّ البَيْنِ أم أنا غالبة ؟
فإن أستطعْ أَغْلِبْ ، وإن يغلب المَهْـوَى فنلُ الذي لا قيتُ يُغْلَبُ صاحبه

ثم عاد الخادم إلى الجارية الثالثة فغنت :

مَرَزَنَا على قَيْسِيَّةٍ عَامِرِيَّةٍ لها بَشْرٌ صافٍ الأديمِ هِجَانِ ^(٣)
فقلت ، وألقت جانبَ السَّترِ دونها : من آيةِ أرضٍ أو منِ الرُّجُلانِ ؟
فقلت لها : أما تميمٌ فأسرني هُـدَيْتِ ، وأما صاحبي فَيَمَّانِ
رفيقانَ ضَمَّ السَّعْرُ بَيْنِي وبينه وقد يلتقي الشَّتَى فيأتلفان

ثم عاد إلى الرجل فغنى صوتاً فشبهه ^(٤) فيه وهو :

أُمنسى بأسماءَ هذا القلبِ معموداً إذا أقول صحاً يعتاده عِيـداً
أَجْرِي على موعِدٍ منها فتخلفني فما أَمَلٌ ولا تُوفى المواعيدُ
كَأَنَّ أَحْوَرَ من غِزْلَانِ ذِي بَقَرٍ ^(٥) أعارها شَبَهَ العَيْنينِ والجِيـداً
قامت تراءى وقد جدَّ الرحيلُ بنا لَتَنكَا القَرَحَ من قلبٍ قد اصْطيدا

(١) الناشط : الثور الوحشي (٢) الفرد : المنفرد (٣) الهجان : الأبيض : الخالص من كل شيء (٤) شبه : خلط فيه ولم يحسن أدائه (٥) ذو بقر : قرية في ديار بني أسد .

بمشرق كشعاع الشمس بهجته ومُسَبِّكَرٍ^(١) على لباسها سودا

ثم عاد إلى الجارية ، فتفتت :

تَعَيَّرْنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدِدُنَا فقلت لها : إن الكرام قليل

وما ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وجارنا عَزِيزٌ وجارُ الأَكْثَرِينَ ذَلِيلٌ

وإِنَّا لَقَوْمٌ مَا نَرَى الْقَتْلَ سَبَّةً إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولٌ

يُقَرِّبُ حُبُّ الْمَوْتِ آجَالَنَا لَنَا وَتُكْرَهُ آجَالُهُمْ فَنَطُولُ

وتفتت الثانية :

وَدِدْتُكَ لَمَّا كَانَ وَدُكٍ خَالِصًا وَأَعْرَضْتُ لَمَّا صِرْتُ نَهَبًا مَقْسَمًا

ولا يلبثُ الحوضُ الجديدُ بناؤه على كثرةِ الورادِ أن يهدمًا

وتفتت الثالثة :

وما كَرَّ إِلَّا كَانَ أَوَّلَ طَاعِنٍ وما أبصرته الخيلُ إِلَّا اقشعرتِ

فَيُذْرِكُ نَارًا وَهُوَ لَمْ يُخْطِهِ الْغَنَى فمثلُ أخى يوماً به العينُ قرَّتِ

فَلَسْتُ أَرَا بَعْدَهُ بَرْزِيَّةً فَاذْكُرْهُ إِلَّا سَلْتُ وَتَجَلَّتِ

وغنى الرجل :

لحى الله صُعلوكًا مَنَامَ وَهْمُهُ من الدهر أن يلقى لبوسًا ومَطْعَمًا

يَنَامُ الضُّحَا حَتَّى إِذَا لَيْلُهُ انْتَهَى تَنَبَّهَ مَشْلُوجَ الْفَوَادِ مُورَمًا^(٢)

وَلَكِنْ صُعلوكًا بِسَاوِرِ هَمِّ وَيَمْضِي عَلَى الْهَيْجَاءِ لَيْثًا مُقَدِّمًا

فَذَلِكَ إِنْ يَلْقَى الْكَرِيهَةَ يَلْقَاهَا كَرِيمًا ، وَإِنْ يَسْتَقْنِ يَوْمًا فَرَبَّمَا

(١) شعر مسبكر : مسترسل (٢) مورما : أى منتفضا بادنا لعدم ما يشغله من أمور الحياة .

وتفتت الجارية :

إذا كنتَ رَبًّا لِلْقُلُوصِ فَلَا يَكُنْ رَفِيقُكَ يَمْشِي خَلْفَهَا غَيْرَ رَاكِبٍ
أَنْحَمَهَا فَأَزْدِفُهُ فَإِنَّ حَلَّتْكَمَا فِذَاكَ ، وَإِنْ كَانَ الْعِقَابُ^(١) فَعَاقِبِ

وتفتت الثانية :

أَلَمْ تَرَ لَمَّا ضَمِنِي الْبَلَدَ الْقَفْرُ سَمِعْتُ نِدَاءً يَصْدَعُ الْقَلْبَ يَا عَمْرُو
أَغْنِنَا فَإِنَّا عُصْبَةٌ مَذْحِجِيَّةٌ نَزَّارُ عَلَى وَفْرِ وَلَيْسَ لَنَا وَفْرُ

وتفتت الثالثة :

فَلَمَّا تَوَاقَفْنَا وَسَلْتُ أَسْفَرْتَ وَجْهَ زَهَاها الْحُسْنُ أَنْ تَتَقَنَّما
تِبَالَهْنَ بِالْعِرْفَانِ لَمَّا عَرَفَنِي وَقُلْنَ امْرُؤًا بَاغٍ أَكَلَّ وَأَوْضَعَا^(٢)
وَلَمَّا تَنَازَعْنَ الْأَحَادِيثَ قُلْنَ لِي أَخِفْتَ عَلَيْنَا أَنْ نُفَرَّ وَنُخْذَعَا

قال ابن جامع : وتوقفت بحبيء الخادم إلى ، فقلت للرجل : بأبي أنت !
خذي العود ، فشدّي وترّ كذا وارفع الطبقة ، وحطّ دُستان كذا ، ففعل ما أمرته .

وخرج الخادم فقال لي : تَنَنّ ، عافاك الله ! فتغنيتُ بصوتِ الرجل الأول على
غير ما غناه ، فإذا جماعةٌ من الخدم يحضرون حتى استندوا إلى الأسرة ، وقالوا :
وَيْحَكَ ! لِمَنْ هَذَا الْغَنَاءُ ؟ قلت : لي . فانصرفوا عني بتلك السرعة ، وخرج إلى
الخادم وقال : كذبت ! هذا الغناء لابن هجامع . ودار الدور ، فلما انتهى الغناء إلى
قلت للجارية التي تلي الرجل : خذي العود فَعَلِمْتُ ما أريد ، فسوّت العود على
غنائها للصوت الثاني فتغنيتُ به ؛ فخرجت الجماعة الأولى من الخدم فقالوا :

(١) العقاب : هو أن تركب الناقة مرة ، ويركبها صاحبك مرة أخرى (٢) أكل : أعيأ .
وأوضع : أسرع ؛ يريد أنه أوضع فأكل ، ولكن قدم وأخر .

وَيَحْكُ الْمَن هَذَا ؟ قَالَتْ : لِي ، فَرَجَعُوا وَخَرَجَ الْخَادِمُ فَقَالَ : كَذَبْتَ ، ثُمَّ تَغَنَّيْتُ
بصوتٍ لِي ، فَلَا يُعْرِفُ إِلَّا بِي ، وَهُوَ :

عُوجِي عَلَى فِلسَى جَبْرٍ فِيمَ الصَّدُودُ وَأَتَمُّ سَفَرٍ
مَا نَلْتَقِي إِلَّا ثَلَاثَ مَنَى حَتَّى يُفَرِّقَ بَيْنَنَا الدَّهْرُ

فَتَزَلَزَلَتْ وَاللَّهِ الدَّارُ عَلَيْهِمْ ، وَخَرَجَ الْخَادِمُ فَقَالَ : وَيَحْكُ ! لَمَنْ هَذَا الْغَنَاءُ ؟
قَالَتْ : لِي . فَرَجَعَ ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ : كَذَبْتَ ! هَذَا غَنَاءُ ابْنِ جَامِعٍ ، فَقُلْتُ :
فَأَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ جَامِعٍ .

فَمَا شَعَرْتُ إِلَّا وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَجَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى قَدْ أَقْبَلَا مِنْ وَرَاءِ السُّتْرِ الَّذِي
كَانَ يُخْرِجُ مِنْهُ الْخَادِمُ . فَقَالَ لِي الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ : هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ أَقْبَلَ
إِلَيْكَ ؛ فَلَمَّا صَعِدَ السَّرِيرَ وَثَبْتُ قَائِمًا ، فَقَالَ لِي : ابْنُ جَامِعٍ ؟ قُلْتُ : ابْنُ جَامِعٍ ،
جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ يَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ! قَالَ : وَيَحْكُ ! مَتَى كُنْتَ فِي هَذِهِ الْبَلَدَةِ ؟ قُلْتُ :
أَنِفًا ، دَخَلْتُهَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي عَلِمَ بِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ : اجْلِسْ ، وَيَحْكُ
يَا بَنَ جَامِعٍ !

وَمَضَى هُوَ وَجَعْفَرُ ، فَجَلَسَا فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَجَالِسِ ، وَقَالَ لِي : أَبَشِرْ وَأَبْسُطْ
أَمَّاكَ ؛ فَدَعَوْتُ لَهُ . ثُمَّ قَالَ : غَنَّنِي يَا بَنَ جَامِعٍ ، فَخَطَرَ بَقْلِي صَوْتُ الْجَارِيَةِ
الْحَمِيرَاءِ ، فَأَمَرْتُ الرَّجُلَ بِإِصْلَاحِ الْعُودِ عَلَى مَا أَرَدْتُ مِنَ الطَّبَقَةِ ، فَعَرَفَ مَا أَرَدْتُ ،
فَوَزَنَ الْعُودَ وَزَنًا ، وَتَعَاهَدَهُ حَتَّى اسْتَقَامَتِ الْأَوْتَارُ ، وَأَخَذَتِ الدَّسَاتِينُ مَوَاضِعَهَا ،
وَانْبَعَثَتْ أَغْنَى بَصُوتِ الْجَارِيَةِ الْحَمِيرَاءِ :

شَكُونَا إِلَى أَحْيَانَا طَوْلَ لَيْلِنَا فَقَالُوا لَنَا : مَا أَقْصَرَ اللَّيْلُ عِنْدَنَا !
وَذَاكَ لِأَنَّ النَّوْمَ يَغْشَى عَيْنَهُمْ مِرَاعًا وَمَا يَغْشَى لَنَا النَّوْمُ أَغْيَانَا
إِذَا مَا دَنَا اللَّيْلُ الضُّرُّ لَدَى الْهَوَى جَزِعْنَا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ إِذَا دَنَا
فَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَلَاقُونَ مِثْلَ مَا نَلَاقِي لَكَانُوا فِي الْمَضَاجِعِ مِثْلَنَا

فَنَظَرَ الرَّشِيدُ إِلَى جَعْفَرٍ وَقَالَ : أَسَمِعْتَ مِثْلَ هَذَا قَطُّ ؟ فَقَالَ : لَا وَاللَّهِ مَا خَرَقَ
مَسَامِعِي قَطُّ مِثْلُهُ . فَرَفَعَ الرَّشِيدُ رَأْسَهُ إِلَى خَادِمٍ بِالْقُرْبِ مِنْهُ ، وَدَعَا بِكَيْسٍ فِيهِ
أَلْفُ دِينَارٍ ، فَجَاءَ وَرَمَى بِهِ إِلَيَّ ، فَصَيَّرْتُهُ تَحْتَ فَخْذِي وَدَعَوْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

فَقَالَ : يَا بَنَنَ جَامِعٍ ؛ رُدِّ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا الصَّوْتُ ، فَرَدَدْتُهُ ، وَتَزَيَّدْتُ
فِيهِ ؛ فَقَالَ لَهُ جَعْفَرٌ : يَا سَيِّدِي ؛ أَمَا تَرَاهُ كَيْفَ يَتَزَيَّدُ فِي الْغَنَاءِ ! هَذَا خِلَافُ
مَا سَمِعْنَاهُ أَوَّلًا ، وَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ فِي اللَّحْنِ وَاحِدًا .

فَرَفَعَ الرَّشِيدُ رَأْسَهُ إِلَى ذَلِكَ الْخَادِمِ ، وَدَعَا بِكَيْسٍ آخَرَ فِيهِ أَلْفُ دِينَارٍ ،
فَجَاءَنِي بِهِ ، فَصَيَّرْتُهُ تَحْتَ فَخْذِي ، وَقَالَ : تَفَنَّنْ يَا إِسْمَاعِيلُ مَا حَضَرَكَ ،
فَجَعَلْتُ أَقْصِدُ الصَّوْتَ مِنْ بَعْدِ الصَّوْتِ ؛ مِمَّا كَانَ يَبْلُغُنِي أَنَّهُ يَشْتَرِي
عَلَيْهِ الْجَوَارِي فَأَغْنِيهِ ، فَلَمْ أَزَلْ أَفْعَلُ ذَلِكَ إِلَى أَنْ عَسَسَ ^(١) اللَّيْلُ . فَقَالَ :
أَتَعْبَنَّاكَ يَا إِسْمَاعِيلُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ بِالْغَنَاءِ ؛ فَأَعِدْ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الصَّوْتَ (يَعْنِي
صَوْتَ الْجَارِيَةِ) فَتَغَنَّيْتُ ؛ فَدَعَا الْخَادِمَ وَأَمَرَهُ فَأَحْضَرَ كَيْسًا ثَالِثًا فِيهِ أَلْفُ
دِينَارٍ ؛ فَذَكَرْتُ مَا كَانَتِ الْجَارِيَةُ قَالَتْ لِي ، فَتَبَسَّمْتُ ، وَلَحْظُنِي ؛ فَقَالَ :
يَمْ تَبَسَّمْتَ ؟ فَجَنَوْتُ عَلَى رُكْبَتِي وَقُلْتُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ الصَّدَقُ مَنْجَاةٌ ،

(١) عَسَسَ اللَّيْلُ : أَقْبَلَ ظِلَامُهُ .

فقال لي باتهار : قُلْ ! قَقَصَصْتُ عَلَيْهِ خَبَرَ الْجَارِيَةِ ، فلما استوعبه ^(١) قال :
صدقْتُ ، قد يكون هذا ؛ وقام .

ونزلتُ من السرير ولا أدري أينَ أَقْصِدُ ، فابتدَرَنِي فرَّاشان فصارا بي إلى
دارٍ قد أمر بها أميرُ المؤمنين ، فقُرِشَتْ وأُعِدَّ فيها جميعُ ما يكون في مثلها من آلة
جلساء الملوك وندمائهم ، ومن كلِّ آلة وخَوَل ^(٢) إلى جوارٍ ووُصَفَاء ، فدخلت
بفداد فقيراً وأصبحت من جِلَّةِ ^(٣) أهلها ومياسيرهم !

(١) عرفه كله (٢) الخول : الخدم (٣) الجلة جمع جليل : عظيم .

٢٤ — ابن جامع وأبو يوسف القاضي *

قدم ابن جامع قَدَمَةً له من مَكَّة على الرشيد - وكان ابنُ جامع حسنَ السَّمتِ كثيرَ الصلاة ، قد بَانَ أثرُ السجودِ في جَبْهته ، وكان يَغْتَمُّ بعمامة سوداء على قَلَنْسُوَةٍ طويلة ، ويلبس لباسَ الفقهاء ويركب حماراً مَرِيئِيّاً ^(١) في زِيَةِ أهل الحجاز .

فبينما هو واقفٌ على باب يحيى بن خالد يلتبس الإذن ، إذ أقبل أبو يوسف القاضي بأصحابه أهل القلانس ، فلما هجمَ على الباب نظر إلى رجلٍ يقفُ إلى جانبه ويحادثه ، فوقعت عَيْنُهُ على ابن جامع ، فرأى سَمَتَهُ وحلاوة هَيْئَتِهِ ؛ فجاء فوقف إلى جانبه ، ثم قال له : أُمَتِّعَ اللهُ بك ! تو سَمَتُ فيك الحجازية والقرشية ، قال : أصبت ، قال : فمن أيِّ قریش أنت ؟ قال : من بني سَهْم . قال : فأَيُّ الحرمين منزلك ؟ قال : مَكَّة ، قال : ومن لقيت من فقهاءهم ؟ قال : سَلْ عن شئت ، ففاتحه الفقه والحديث فوجد عنده ما أحب ؛ فأعجبَ به ، ونظر الناسُ إليهما فقالوا : هذا القاضي أبو يوسف قد أقبل على أُنْتَى - وأبو يوسف لا يعلم أنه ابن جامع ! فقال أصحابه : لو أخبرناه عنه ! ثم قالوا : لا ، لعله لا يعودُ إلى موافقته بعد اليوم فَلِمَ نَفْعَمُ !

فلما كان الإذنُ الثاني ليحيى غَدَا عليه الناسُ وغدا عليه أبو يوسف ، فنظر يطلبُ ابنَ جامع فرآه ، فذهب فوقف إلى جانبه ، فحادثة طويلة كما فعل في المرةِ

* الأغاني : ٦ - ٢٩١

(١) مريسي : نسبة إلى مريسة وهي قرية بمصر مشهورة بالخمر .

الأولى ، فلما انصرف قال له أصحابه : أيُّها القاضي ؛ أعترف هذا الذي تُوَاقِفُ (١) وتحادثُ ؟ قال : نعم ؛ رجلٌ من قريش من أهل مكة من الفقهاء . قالوا : هذا ابنُ جامع المغنّى ، قال : إنا لله ! قالوا : إن الناس قد شهروك بمواقفته ، وأنكروا ذلك من فَمَلِك .

فلما كان الإذنُ الثالثُ جاء أبو يوسف ونظر إليه فتَنَكَّبَه ، وعرف ابنُ جامع أنه قد أُنذِرَ به ، فجاء فوقف فسَلَّمَ عليه ، فردَّ عليه أبو يوسف بنسب ذلك الوجه الذي كان يَلْقَاهُ به ، ثم انحرف عنه .

فدنا منه ابنُ جامع ، وعرف الناسُ القِصَّةَ ، وكان ابنُ جامع جهورياً ، فرفع صوته . ثم قال : يا أبا يوسف ، مالك تَنَحَّرِفُ عَنِّي ! أىَّ شيء أنكرت ؟ قالوا لك : إني ابنُ جامع المغنّى ، فكرهتَ مُوَاقَفَتِي ! أسألك عن مسألة ثم اصنع ما شئت . ومال الناسُ فأقبلوا نحوها يستمعون . فقال : يا أبا يوسف ، لو أن أعرابياً جَلَفًا وقف بين يديك فأنشدك بحفَاء وغِلظة من لسانه وقال :

يَا دَارَ مَيِّةَ بِالْمَلِكِيَاءِ فَالسَّنْدِ أَقْوَتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمَدِ

أَكُنْتَ تَرَى بِذَلِكَ بَاسًا ؟ قال : لا ، قد رَوَى عن النبي صلى الله عليه وسلم في الشعر قولٌ ورَوَى في الحديث .

قال ابنُ جامع : فَإِنْ قُلْتُ أَنَا هَكَذَا ... ثم اندفع يتغنّى فيه حتى أتى عليه ، ثم قال : يا أبا يوسف ؛ رأيتني زِدْتُ فيه أو نَقَصْتُ منه ؟ قال : عافاك الله ؛ أغفينا من ذلك . ثم قال : يا أبا يوسف ؛ أنتَ صاحبُ فُتْيَا ، مازدته على أن حسَّنه بألفاظي ، فحسُن في السماع ، ووصل إلى القلب ! ثم تمنى عنه ابنُ جامع !

(١) واقفه : سأله الوقوف .

٥٢ — سَرَقَةُ الْغَنَاءِ *

قال الرشيدُ يوماً لجعفر بن يحيى : قد طال سماعنا هذه العصابةَ على اختِلاطِ الأمرِ فيها ، فهلُمَّ أَقاسِمَكَ إياها وأخايرُك ؛ فاقسما المغنّين ، على أن جعلاً بإزاء كل رجلٍ نظيرَه ؛ وكان ابنُ جامعٍ في حَبَزِ الرشيدِ وإبراهيمِ الموصليّ في حَبَزِ جعفر بن يحيى ، وحضر النَّدْماءُ لِحِفَّةِ^(١) المغنّين .

وأمرَ الرشيدُ ابنَ جامعٍ فغَنَى صوتاً أَحْسَنَ فيه كلَّ الإحسان ، وطربَ الرشيدُ غايةَ الطرب ، فلما قطعه ، قال الرشيدُ لإبراهيم : هات يا إبراهيم هذا الصوت فغَنَّهُ . فقال : لا والله يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ما أَغْرِفُهُ ؛ وظهر الانكسارُ فيه ، فقال الرشيدُ لجعفر : هذا واحدٌ .

ثم قال لإسماعيل بن جامع : غنَّ يا إسماعيلُ ؛ فغَنَى صوتاً ثانياً أحسن من الأول ، فلما استوفاه قال الرشيدُ لإبراهيم : هات يا إبراهيم ، قال : ولا أعرف هذا ! فقال : هذان اثنان ! غنَّ يا إسماعيل ؛ فغَنَى ثالثاً يتقدّم الصوتين الأولين ويفضُلُهُما . فلما أتى على آخره قال : هاتِه يا إبراهيم ، قال : ولا أعرف هذا أيضاً . فقال له جعفر : أَخْزَيْقُنَا أَخْزَاكَ اللهُ .

وأنتم ابنُ جامعٍ بَيَّوَمَه ، والرشيدُ مسرورٌ به ، وأجازَه بجوائزٍ كثيرة ، وخلَعَ عليه خِلْعاً فاخرة ، ولم يزل إبراهيم مُنْخَذِلاً منكسراً حتى انصرف . ومضى إلى

* الأغاني : ٥ - ٢٠٦

(١) الحفّة : الاختبار .

منزله ، فلم يستقرّ فيه حتى بعث إلى محمد المعروف بالزّف^(١) - وكان من المغنين
الحسنين ، وكان أسرع من عُرِف في أيامه في أخذ صوتٍ يريدُ أخذه ، وكان الرشيدُ
قد وجدَ^(٢) عليه في بعض ما يجده الملوک على أمثاله ، فألزمه بيته وتناساء - فقال إبراهيم
للزّف : إني اخترتُكَ على مَنْ هو أحبُّ إليّ منك لأمرٍ لا يصلح له غيرُكَ ، فانظر
كيف تكون ! قال : أبلغُ في ذلك مَحَبَّتَكَ ، إن شاء الله تعالى . فأدّى إليه الخبر ،
وقال : أريدُ أن تمضي الساعةَ إلى ابن جامع ، فتعلمه أنك صِرتَ إليه مهينًا بما
تهيناً له على وتنفّضني وتلبّيني^(٣) وتشتّني ، وتحتال في أن تسمعَ منه الأصوات
وتأخذها منه ، ولك ما تحبُّه من جهتي من عَرْض من الأعراض مع رضا الخليفة
إن شاء الله .

فمضى واستأذنَ على ابن جامع فأذِنَ له ، فدخل وسلمَ عليه وقال :
جئتُكَ مُهينًا بما بلغني من خبرك ، والحمد لله الذي أخزى ابنَ الجرْمَقَانِيَّةِ^(٤)
على يدك ، وكشف الفضلَ في محلك من صناعتك ، قال : وهل بلغك خبرنا ؟
قال : هو أشهرُ من أن يخفى على مثلي ، قال : ويحك ! إنه يقصُرُ عن العيان .
قال : أيها الأستاذ ؛ سرّني بأن أسمعَ من فيك حتى أرويهُ عنك ؛ قال : أقمُ
عندي حتى أفعل ، قال : السمع والطاعة .

فدعا له ابنُ جامع بالطعام فأكلا ودعا بالشراب ، ثم ابتدأ فحدثه بالخبر حتى

(١) هو محمد بن عمرو مولى بني تميم ، كوفي الأصل والولد ، والزّف لقب غلب عليه ، كان
مفتيا ضاربا ، طيب المسوع ، صالح الصنعة ، مليح النادرة ، أسرع خلق الله أخذا للفناء .
وأصحهم أداء له كان يتعصب لابن جامع ، مات في خلافة الرشيد (٢) وجد عليه : غضب
(٣) ثلبه : عابه وتنقصه (٤) الجرْمَقَانِي واحد الجرماقة : وهم قوم من العجم صاروا بالموصل في
أوائل الإسلام .

انتهى إلى خبر الصوت الأول . فقال له الزّرف : وما هو أيّها الأستاذ ؟ فغناه ابنُ جامع إياه ، فجعل محمد يُصَفِّقُ وينقر ويشربُ وابنُ جامع مجتهد في شأنه حتى أخذه عنه ، ثم سألَه عن الصوت الثّاني فغناه إياه . وفعل مثلَ فعلِه في الصوت الأول ، ثم كذلك في الصوت الثالث .

فلما أخذ الأصواتَ الثلاثةَ وأحكمها ، قال له : يا أستاذ ؛ قد بلغتُ ما أحبُّ فتأذن لي في الانصراف ؟ قال : إذا شئتَ .

فانصرف محمدٌ من وجهه إلى إبراهيم ، فلما طلع من باب داره قال له : ما وراءك؟ قال : كلُّ ما تحبُّ ؛ ادعُ لي بعودٍ ، فدعا له به ؛ فضرَبَ وغناه الأصوات . قال إبراهيم : وأييك هي بصُورِها وأعيانِها ؛ ردّها علىّ الآن ، فلم يزل يردّها حتى صحت لإبراهيم ، وانصرف الزّرفُ إلى منزله .

وغداً إبراهيم إلى الرشيد ، فلما دعا بالمُعَنِّين دخل فيهم ، فلما بَصَرَ به قال له : أوقد حضرت ! أما كان ينبغي لك أن تجلسَ في منزلك شهراً بسبب ما لقيتَ من ابن جامع ! قال : ولم ذلك يا أمير المؤمنين ؟ جعلني الله فداك ! والله لئن أذنت لي أن أقولَ لأقولنَّ ، قال : وما عساك أن تقول ! قل . فقال : إنه ليس ينبغي لي ولا لغيري أن يراك نشيطاً لشيء ، فيعارضك ، ولا أن تكونَ متعصِّباً لحيزٍ وجَنبةٍ^(١) فيغالبك ؛ وإلا فما في الأرض صوتٌ لا أعرفه . قال : دَعِ ذا عنك قد أقررتَ أمس بالجهالة بما سمعتَ من صاحبنا ، فإن كنتَ أمسكتَ عنه بالأمس على معرفةٍ كما تقول فهاته اليوم ، فليس ههنا عَصَبِيَّةٌ ولا تمييز .

فاندفع فأمر الأصوات كلها ، وابن جامع مُصنِعٌ يسمع منه ، حتى أتى على آخرها ، فاندفع ابن جامع خلف بالآيمان المُخْرِجة أنه ما عرفها قط ولا سمعها ، ولا هي إلا مِن صَنَعته ، ولم تَخْرُجْ إلى أحد غيره ، فقال له : ويحك ! فما أحدثت بعدى ؟ قال : ما أحدثت شيئاً .

فقال : يا إبراهيم ! بحياتي ، اصدقني . فقال : وحياتك لأصدقنك ؛ رميته بِمَجَرِه^(١) ، فبعثت إليه بمحمد الزُف وضمت له ضماناتٍ ، أولها رضاك عنه ؛ ففضى فاحتال لي عليه حتى أخذها عنه ونقلتها حتى سقط الآن اللومُ عني بإقراره ؛ لأنه ليس عليّ أن أعرف ما صنعه هو ولم يُخْرِجْهُ إلى الناس ، وهذا بابٌ من الغيب ، وإنما يلزمني ألا يعرف هو شيئاً من غناء الأوائل وأجهله أنا ، وإلا فلوزمني أن أروى صنعه للزيمه أن يروى صُنعتي ، ولزم كل واحدٍ منا لِسَائِرِ طبقتيه ونظرائه مثلُ ذلك ، فمن قصر كان مذموماً ساقطاً .

فقال له الرشيد : صدقت يا إبراهيم ونَضَحْتَ^(٢) عن نفسك ، وقت بحجتك . ثم أقبل على ابن جامع ، فقال له : يا إسماعيل ؛ أتيت أُنيت دُهيت دُهيت ! أبطل عليك الموصلي ما فعلته به أمس ، وانتصف اليوم منك ، ثم دعا بالزُف فرَضِي عنه .

(١) رى فلان بمجره : إذا قرن بمثله (٢) نضح عن نفسه : دفع عنها بالحجة .

٢٦ — أنا والصبح كَفَرَسَي رِهَان *

قال إبراهيم^(١) الموصلي :

قال لي الرشيدُ يوماً : يا إبراهيم ؛ بَكَرَ علىّ غدا حتى نَصْطَبِح ؛ فقلتُ له : أنا
والصُّبْحُ كَفَرَسَي رِهَانٍ ، فبَكَرْتُ فإذا أنا به خالياً ، وبين يديه جاريةٌ كأنها
خُوطُ^(٢) بَانٍ ، حُلُوَّةُ المنظر ، دَمِثَةُ السَّمائل ، وفي يدها عود ، فقال لها : غَنِّي ،
ففتت في شِعْرِ أبي نواس وهو :

تَوَقَّعْهُ قَلْبِي فَأَصْبَحَ خَذَهُ وفيه مكان الوهم من نظري أُنْثَرُ^(٣)
ومرَّ بِفِكْرِي خَاطِراً فَجَرَحَتْهُ ولم أرَ جِسْماً قطَّ يَجْرَحُهُ الْفِكْرُ
وصاغفه قَلْبِي فَأَلَمَ كَفَّهُ فَمِنْ غَمَزِ قَلْبِي فِي أَنَامِلِهِ عَقْرُ^(٤)

قال إبراهيم : فذهبتُ والله بعقلي حتى كِدْتُ أن أفتضح ، فقلت : من هذه
يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذه التي يقول فيها الشاعر :

لَهَا قَلْبِي الْغَدَاةَ وَقَلْبُهَا لِي ففحنُ كَذَاكَ فِي جَسَدَيْنِ رُوح

ثم قال لها : غَنِّي ، ففتت :

تَقُولُ غَدَاةَ الْبَيْنِ إِحْدَى نَسَائِهِمْ : لِي السَّكْبَدُ الْحَرَّى فَيَسِرُ وَلَكَ الصَّبَرُ^(٥)

* الأغانى : ٥ - ٢٢٨

(١) أُوحد زمانه في الفناء واختراع الألمان ، اتصل بالخلفاء فكانت له عندهم منزلة حسنة ،
ومات في بغداد سنة ١٨٨ هـ (٢) الخوط : الفصن ، والبان : نوع من الشجر ، لحب ثمره
دهن طيب (٣) أُنْثَرُ الجريح : أُنْثَرُ يبقى بعدما يبرأ (٤) العقر : الجرح (٥) الشع
لأبي الشيبي .

وقد خَنَقَتْهَا عَابِرَةٌ فَدُمُوعُهَا عَلَى خَدَّهَا يَبِضُّ وَفِي نَحْرِهَا صُفْرٌ
قال : فشرِب وسقاني ثم سقاها ، ثم قال : غَنَ يا إبراهيم ؛ فغَنَيْتَ حَسَبَ
ما في قلبي غير مُتَحَفِّظٍ مِنْ شَيْءٍ :

تَشْرَبُ قَلْبِي حَبِيبًا وَمَشَى بِهِ تَمَشَّى حُمَيَّا الْكَأْسِ فِي جِسْمٍ شَارِبٍ
وَدَبَّ هَوَاهَا فِي عِظَامِي فَشَفَّمَا كَمَا دَبَّ فِي الْمَسْوَعِ ثُمَّ الْعُقَابِ
قال : ففَطِنَ بِتَعْرِيبِي - وَكَانَ جَهَالَةً مَنِي - وَأَمَرَنِي بِالْإِنْصِرَافِ ، وَلَمْ يَدْعُنِي
شَهْرًا ، وَلَا حَضَرْتُ مَجْلِسَهُ .

فلما كان بعد شهر دَسَّ إِلَى خَادِمًا مَعَهُ رَقْعَةً ، فِيهَا مَكْتُوبٌ :
قَدْ تَخَوَّفْتُ أَنْ أَمُوتَ مِنَ الْوَجْدِ وَلَمْ يَدِرْ مَنْ هُوَ مِنْهُ بِمَا بِي
يَا كِتَابِي فَاقْرَأَ السَّلَامَ عَلَيَّ مَنْ لَا أَسْمَى وَقُلْ لَهُ يَا كِتَابِي
إِنَّ كَفًّا إِلَيْكَ قَدْ بَعَثْتَنِي فِي شِقَاءِ مُوَاصِلٍ وَعَـذَابِ
فَأَتَانِي الْخَادِمُ بِالرَّقْعَةِ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : مَا هَذَا ؟ قال : رَقْعَةُ الْجَارِيَةِ فَلَانَةِ الَّتِي
غَنَّكَ بَيْنَ يَدَيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فَأَحْسَسْتُ الْقِصَّةَ فَشَتَمْتُ الْخَادِمَ وَوُثِبَتْ عَلَيْهِ
وَضُرِبَتْهُ ضَرْبًا شَقِيقًا بِهِ نَفْسِي وَغَيْطِي .

وَرَكِبْتُ إِلَى الرَّشِيدِ مِنْ فَوْرَى فَأَخْبَرْتُهُ الْقِصَّةَ وَأَعْطَيْتُهُ الرَّقْعَةَ ؛ فَضَحِكَ حَتَّى
كَادَ يَسْتَلْقَى ، ثُمَّ قَالَ : عَلَى عَمْدٍ فَعَلْتُ ذَلِكَ بِكَ لِأَمْتَحِنَ مَذْهَبَكَ ، وَطَرِيقَتَكَ ،
ثُمَّ دَعَا بِالْخَادِمِ ، فَلَمَّا خَرَجَ رَأَى قِصَالِي : قَطَعَ اللَّهُ يَدَيْكَ وَرَجْلَيْكَ ، وَيَحْكَ !
فَقُلْتُ : الْقَتْلُ وَاللَّهُ كَانَ بَعْضُ حَقِّكَ لَمَّا وَرَدَتْ بِهِ عَلَيَّ ، وَلَكِنْ رَحِمْتُكَ
فَأَبْقَيْتُ عَلَيْكَ ، وَأَخْبَرْتُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِيَأْتِيَ فِي عِقَابِكَ بِمَا تَسْتَحِقُّهُ : وَأَمَرَ لِي
الرَّشِيدُ بِصَلَةِ سَنِيَّةٍ .

٢٧ — ما هذا بجزائي منك ! *

قال الأصمعي^(١) : مررتُ بدار الزبير بالبصرة ، فإذا شيخٌ قديمٌ من أهل المدينة من ولد الزبير ، يكنى أبا رَحْمَنة ، جالسٌ بالبَابِ عليه شَمْلَةٌ^(٢) تستره ؛ فسلمتُ عليه ؛ وجلستُ إليه ؛ فبينما أنا كذلك إذ طلعت علينا سُوَيْدَاءُ ، تحمل قُرْبَةً ، فلما نظر إليها لم يَمَلِكْ أَنْ قام إليها ، فقال لها : بالله غنى صوتاً ! فقالت : إن مَوَالِي أَعْجَلُونِي^(٣) ؛ فقال : لا بدَّ من ذلك ! قالت : أما والقُرْبَةُ على كَتْفِي فلا ! قال : فأما أَحْمِلْها ؛ فأخذ القُرْبَةَ منها ؛ فاندفعتُ نَفْثِي :

فَوَادُّ أَسِيرٌ لَا يُفَكُّ وَمُهْجَتِي تَفِيضُ ، وأحزاني عليك تطول
ولى مَقَلَّةٌ قَرَحَى لَطُولَ اسْتِيقَافِهَا إِلَيْكَ ، وأجفاني عليك همُولٌ^(٤)
فَدَيْتُكَ ! أَعْدَائِي كَثِيرٌ ، وشُقَّتِي بعيدٌ ، وأشْيَاعِي لَدَيْكَ قَلِيلٌ

فطرب ، وصرخ صرخةً ، وضرب بالقُرْبَةِ إلى الأرض فشَقَّها !
فقامت الجارية تبكي ، وقالت : ما هذا بجزائي منك ! أَسَمَعْتُكَ بِحَاجَتِكَ
فَعَرَضْتَنِي لِمَا أَكْرَهُ مِنْ مَوَالِي !

قال : لَا تَغْتَمِّي ؛ فَإِنَّ الْمَصِيبَةَ عَلَى حَصَلَتِ ! ونزع شملته ، وابتاع لها قُرْبَةً
جديدة ! وقمَدَ ؛ فاجتاز به رجلٌ من ولد علي بن أبي طالب ؛ فعرف حاله ،

* زهر الآداب : ١ - ١٥٦

(١) هو عبد الملك بن قريب ، اشتهر بالرواية والتضلم في اللغة ، توفي سنة ٢١٦ هـ (٢) الشملة : كساء دون القطيفة يشتمل به (٣) أحمله : استعنته (٤) تفيض بالهمع .

قَالَ : يَا أَبَا رِيحَانَةَ ؛ أَحْسِبُكَ مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿ فَمَا رَيْبُكَ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

قَالَ : لَا ؛ يَا بَنَ رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَكِنِّي مِنَ الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ؛ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ !
فَضَحِكَ وَأَمَرَ لَهُ بِأَلْفِ دَرَاهِمٍ .

٢٨ — ما نفَعنى الغِناءُ إِلَّا ذاكَ اليومَ *

قال إبراهيم^(١) بن المهدي : حججتُ مع الرشيد ، فبينما نحنُ في الطريق وقد انفردتُ أسيرُ وَحْدِي ؛ وأنا على دابَّتِي إِذْ حَلَقَتْنِي عَيْنَاي ، فَسَلَكْتُ بِي الدَّابَّةُ غَيْرَ الطريق ، فَانْتَبَهْتُ وَأَنَا على غيرِ الجَادَّةِ^(٢) ، فَاشْتَدَّ بِي الحرُّ ، فَعَطَشْتُ عطشاً شديداً ، فَارْتَفَعَ لِي خَبَاءٌ قَعَصَدَتْهُ ، فَإِذَا بُقْبَةٌ ، وَبِجَنبِهَا بئرُ ماء ، بِقَرَبِ مَزْرَعَةٍ — وَذَلِكَ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ — وَلَمْ أَرْ بِهَا إِنْسِيًّا ، فَاطْلَعْتُ فِي الْقُبَّةِ ؛ فَإِذَا أَنَا بِأَسْوَدَ نَائِمٍ ، فَأَحْسَبُ بِي ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ ثُمَّ اسْتَوَى جَالِسًا ، فَإِذَا هُوَ عَظِيمُ الصُّورَةِ . فَقُلْتُ : يَا أَسْوَدَ ؛ اسْقِنِي مِنْ هَذَا الْمَاءِ ، فَقَالَ : يَا أَسْوَدَ ؛ اسْقِنِي مِنْ هَذَا الْمَاءِ ؛ مُحَاكِيًا لِي . وَقَالَ : إِنْ كُنْتَ عَطْشَانًا فَانْزِلْ وَاشْرَبْ ، وَكَانَ تَحْتَى بِرِذْوَنٍ^(٣) خَيْبَتْ نَفُورٌ ، فَخَشِيتُ أَنْ أَثْرِلَ عَنْهُ ؛ فَتَنَفَّرَ ، فَضَرَبْتُ رَأْسَ الْبِرِذْوَنِ .

وَمَا نَفَعَنِي الْغِنَاءُ قَطًّا إِلَّا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، وَذَلِكَ أَنِّي رَفَعْتُ عَقْبِي وَغَنَيْتُ . فَرَفَعَ الْأَسْوَدُ رَأْسَهُ إِلَيَّ ، وَقَالَ : أَيُّمَا أَحَبَّ إِلَيْكَ ، أَنْ أُسْقِيكَ مَاءَ وَحْدَةٍ ، أَوْ مَاءَ وَسَوِيْقَا^(٤) ؟ قُلْتُ : الْمَاءُ وَالسَّوِيْق . فَأَخْرَجَ قَعْبًا^(٥) لَهُ ، فَصَبَّ السَّوِيْقَ فِي الْقَدَحِ فَسَقَانِي ، وَأَقْبَلَ يَضْرِبُ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ وَصَدْرِهِ ، وَيَقُولُ : وَاحِرًا صَدْرَاهُ ! يَا مَوْلَايَ ؛ زِدْنِي وَأَنَا أَزِيدُكَ ، وَشَرِبْتُ السَّوِيْقَ ، ثُمَّ قَالَ لِي : يَا مَوْلَايَ ؛ إِنْ يَبْنُوكَ

* المسعودي : ٢ - ٢٧٠

(١) هو إبراهيم بن محمد المهدي أخو هارون الرشيد ، كان أسود حالك اللون فصيح اللسان واسع الصدر ، سَخِيَ الكُفَّ حَافِظًا بِصُنْعَةِ الْغِنَاءِ ، تَوَفَّى سَنَةَ ٢٢٤ هـ (٢) الجادة : معظم الطريق (٣) البرذون : الدابة (٤) السويق : ما يتخذ من الحنطة والشعير (٥) القعب : القدح الضخم .

وبين الطريق أميالاً ، ولست أشك أنك تعطش ؛ لكنى أملأ قِربتي هذه وأحلبها
قَدَامَكَ ، فقلتُ : افعل .

فلما قَرِبَته ؛ وسار قَدَامِي وهو يحجل في مِشِيته غَيْرَ خَارِجٍ عن الإيقاع ، فإذا
أمسكت لأُستريح أقبل عليّ ، فقال : يا مولاي ؛ عطشت فأغنيه إلى أن أوقفني
على الجَادَّةِ ، ثم قال لي : سِرْ رَعَاكَ اللهُ ، ولا سَلَبِكَ ما كسأك من هذه النِّعمِ -
بكلام عَجْمِي ، معناه هذا الدعاء - فلحقتُ بالقافلة ، والرَّشيد قد فقدني ، وقد بث
الخيلَ في طَلبي ، فسرَّ بي حين رَأَى ، فَأَتَيْتُهُ فَقَصَصْتُ عليه الأمرَ ، فقال :
عليّ بالأَسود ، فما كان إلا هُنَيْهَةً حتى مَثَلَ بين يديه ، فقال له : وَبَيْتُكَ ! ما حَرُّ
صدرِكَ ؟ فقال : يا مولاي ، ميمونة ؟ قال : ومن ميمونة ؟ قال : حَبَشِيَّةٌ يا مولاي ؛
فأمر من يستفهمه ، فإذا الأَسود عبدٌ لبني جعفر الطيار ، وإذا السَّوداء التي يَهْوَاهَا
الْقَوْمُ مِن وَلَدِ الحِسن بن علي ؛ فأمر الرَّشيدُ بابتِباعِها له ، فأبى موالِها أن يقبلوا لها
ثَمَنًا ، ووهبوا للرَّشيد ، فاشتري الأَسودَ وأعتقه ، وزوَّجه منها ، ووهب له من
ماله بالمدينة حديقتين وثلاثمائة دينار .

٢٩ — طُفَيْلِي وَلَكِنَّهُ ظَرِيفٌ *

حدث إسحاق ^(١) الموصلي قال : غدوت يوماً وأنا نَحْجِرُ من مُلازمة دارِ
الخلافة والخِدمة فيها ؛ فخرجتُ وركبتُ بُكْرَةً ^(٢) ، وعزمتُ على أن أطوفَ
الصحراء وأتفرّج . فقلتُ لِعَلْمَانِي : إنْ جاء رسولُ الخليفة أو غيره فعرّفوه أنّي
بَكْرَتُ في بعض مُهمَّاتي ، وأنكم لا تعرفون أين توجّهت !

ومضيتُ وطُفْتُ ما بَدَأَ لي ، ثم عدتُ وقد حَمَى النهار . فوفقتُ في
الشارع المعروف بالمُحَرَّم ^(٣) في فناء تُخِين الظل ، وجنّاحِ رُحْبِ قَلَى الطريق
لأَسْتَرِجِ .

فلم أَلْبَثْ أن جاء خادمٌ يقودُ حِمَاراً فَارِها عليه جاريةٌ راكبة ، تحتها منديلٌ
دَبِيقِي ^(٤) ، وعليها من اللباس الفاخرِ مالا غايةً بعده . ورأيتُ لها قواماً حسناً
وشمائل حسنة .

فخَرَصْتُ ^(٥) أنها مُغَنّية ، فدخلتِ الدارَ التي كُفْتُ واقفاً عليها .
ثم لم أَلْبَثْ أن جاء رجلان شابان ، فاستأذنا فأَذِنَ لهما ، فنزلا ونزلتُ معهما .

* الأغاني : ٥ - ٤٢٣

(١) إسحق الموصلي : من أشهر ندماء الخلفاء ، تفرد بصناعة الغناء ، وكان عالماً باللغة والموسيقى
والتاريخ وعلوم الدين وعلم الكلام ، وراويّة للشعر وحافظاً للأخبار ، توفي ٢٣٥ هـ (٢) باكراً
(٣) المحرم : حلة يقداد (٤) ديبقي : منسوب إلى ديبقي ، وهي بلدة كانت بين الفرما وتبّيس
من أعمال مصر ، وتنسب إليها الثياب (٥) خرصت : ظننت .

ودخلت ؛ فظنّا أن صاحبَ الدارِ دَعَانِي وظنَّ صاحبُ الدارِ أني معهما ؛ فجلسنا
وأَتَيْنا بالطعام فأكلنا وبالشراب فَوَضَعَ ، وخرجت الجارية وفي يدها عودٌ فغَنَّتْ
وشرَبْنَا ؛ وقُمْتُ قومةً ، فسأل صاحبُ المنزلَ الرجلين عَنِّي ، فأخبراهُ أنهما
لا يعرفاني ؛ فقال : هذا طُفَيْلٌ ولكنّه ظَرِيفٌ ، فأَجَلَّوا عِشْرَتَهُ ، وجِئْتُ فجلستُ ؛
وغَنَّت الجارية في لَحْنٍ لِي ، فأَذَّنَهُ أَدَاءً صالحاً ؛ ثم غَنَّتْ أصواتاً شتى ، وغَنَّتْ في
أضعافها من صَنَعَتِي :

الطَّلُولُ الدَّوَارِسُ فارقَها الأَوَانِسُ
أوحشتُ بعد أهلِها فهي ققرٌ بِسَاسٍ^(١)

فكان أمرُها فيه أصلحَ منه في الأول ؛ ثم غَنَّتْ أصواتاً من القديم والحديث ،
وغَنَّتْ في أثنائها من صَنَعَتِي :

قل لِمَنْ صَدَّ عَاتِباً ونأى عنك جانباً
قد بلغتَ الذي أَرَدْتَ وإن كنتَ لَاعِباً

فكان أصلح ما غَنَّتَهُ . فاستعدتُهُ منها لأصحِّحَهُ لها . فأقبل على رجلٍ من
الرجلين ، وقال : ما رأيتُ طُفَيْلياً أَصَفَقَ وجهاً منك ! لم ترضَ بالتَّطْفِيلِ حتى
اقتَرَحْتَ ، وهذا غاية المثل : « طُفَيْلِيٌّ مُقْتَرِحٌ » ؛ فأطَرَقْتُ ولم أَجِبْهُ . وجعل
صاحِبُهُ يَكْفُهُ عَنِّي فلا يَكْفُ . ثم قاموا للصلاة وتأخرتُ قليلاً ، فأخذتُ عودَ
الجارية ، ثم أصلحتُهُ إصلاحاً مُحْكَمًا ، وعدتُ إلى موضعي فصَلَّيتُ . وعادوا ثم
أخذ ذلك الرجلُ يُعَنِّفُنِي وأنا صامتٌ .

(١) بساس ، لغة في السباسب : الصغارى .

ثم أخذت الجارية العودَ فجسّته وأنكرت حاله ، وقالت : مَنْ مَسَّ عودى ؟ قالوا : ما مَسَّهُ أحدٌ ، قالت : بلى والله لقد مَسَّهُ حاذقٌ متقدّم وأصلحهُ إصلاحٌ متمكّن من صناعته ، فقلت لها : أنا أصلحته ؛ قالت : فبالله خذهُ واضرب به ؛ فأخذته وضربتُ به مبدأً ظريفاً عجيباً صعباً ، فيه نقراتٌ متحركة . فما بقي أحدٌ منهم إلا وثب على قدميه وجلس بين يدي .

ثم قالوا : بالله ياسيدنا ؛ أُنغني ؟ فقلت : نعم ، وأعرّفكم نفسى : أنا إسحاق ابن إبراهيم الموصلى ، والله إنى لَأَتِيَهُ على الخليفة إذا طلبنى ، وأنتم تسمعوننى ما أكره منذ اليوم لأنى تَرَلْتُ بكم ! فوالله لا نطقُ بحرف ولا جلستُ معكم حتى تُخْرِجُوا هذا المرَبِدَ^(١) المَقِيْتُ^(٢) الفث . فقال له صاحبه : مِنْ هذا حَذِرْتُ عليك . فأخذ يعتذر ؛ فقلت : والله لا نطقُ بحرف ولا جلستُ معكم حتى يُخْرِجَ فأخذوا بيده فأخرجوه وعادوا .

فبدأتُ وغنيتُ الأصواتَ التى غنّتها الجاريةُ من صَنَعَتى ، فقال لى الرجل : هل لك فى خَصْلَةٍ ؟ قلت : ما هى ؟ قال : تقيمُ عندى شهراً والجارية والحمارُ لك مع ما عليها من حُلَى ؛ قلت : أفعل . فأقمتُ عنده ثلاثين يوماً لا يدرى أحدٌ أين أنا ، والمأمون يَطْلُبُنِي فى كل موضع فلا يعرفُ لى خبراً .

فلما كان بعد ثلاثين يوماً أَسْلَمَ إلى الجارية والحمارَ والخادم فبحثتُ بذلك إلى منزلى ، وركبتُ إلى المأمون مِن وَقْتى ، فلما رآنى قال : إسحاق ! ويحك ! أين تكون ؟ فأخبرتهُ بخبرى . فقال : على بالرجل الساعة ؛ فدَلَّتهم على بيته فأحضر .

(١) المرَبِد ، رجل معربد : يؤذى نديعه فى سكره . (٢) المَقِيْتُ : المكروه .

فسأله المأمون عن القصة فأخبره . فقال له : أنت رجل ذو مروءة ، وسبيلك أن
تعاونَ عليها . وأمر له بمائة ألف درهم ، وأمر لي بخمسين ألف درهم ، وقال :
أحضرنى الجارية . فأحضرتها ففنته . فقال لي : قد جعلتُ لها نوبةً في كل يوم
ثلاثاء تُغنيّني وراء الستر مع الجوارى . وأمر لها بخمسين ألف درهم ، فربحتُ والله
بتلك الرّكبةِ وأزبختُ .

٣٠ — زرياب وإسحاق الموصلي *

كان زرياب^(١) تلميذاً لإسحاق الموصلي ببغداد ، فتلقف من أغانيه استراقاً وهُدًى من فهم الصناعة وصدق العقل ، مع طيب الصوت ، إلى ما فاق به إسحاق وإسحاق لا يشعر بما فُتح به عليه ، إلى أن اقترح الرشيدُ عليه أن يأتيه بمن غريب مُجيدٍ للصنعة ، لم يشتهر مكانه إليه ؛ فذكر له تلميذه هذا ، وقال : إنه مؤلّى لكم ، وسمعتُ له نَزَعَاتٍ حسنة ، ونغماتٍ رائعة مُلتأطأة^(٢) بالنفس ، وهو من اختراعى واستنبأط فكرى ، وأُحدِسُ^(٣) أن يكون له شأن .

فقال الرشيد : هذا طَلِيقِي ، فأخضرنِيه ، لعلَّ حاجتي عنده . فأحضره فلما كلمه الرشيدُ أعْرَبَ عن نفسه بأحسن منطق ، وأوْجَزَ خطاب ؛ وسأله عن معرفته بالفناء ، فقال : نعم ، أحسنُ ما يُحْسِنُهُ الناس ، وأكثر ما أحسنه لا يحسنونه ، مما لا يحسنُ إلا عندك ، ولا يدَّخِرُ إلا لك ؛ فإن أذنتَ غنيتُك ما لم تسمعه أذنُ قبلك .

فأمر بإحضار عودِ أستاذه إسحاق ؛ فلما أذِنَ إليه وقف عن تناوُلِهِ ، وقال :

* نفع الطيب : ٢ - ١٠٩

(١) كان زرياب مع علمه بصناعة الفناء عالماً بالنجوم ، شاعراً أديباً حلّو الحديث ، لطيف المعاشرة ، ماهراً في خدمة الملوك ، توفي سنة ٣٣٠ هـ (٢) التاط بالقلب : لرق به (٣) الحدس : الظن والتخمين .

لى عودٌ نَحْتُهُ ييدى ، وأرهفته بإحكامى ، لا أَرْضِيْ غيرة ، وهو بالباب ، فليأذن لى
أمير المؤمنين فى استدعائه ؛ فأمر بإدخاله إليه .

فلما تأمله الرشيدُ - وكان شبيهاً بالعود الذى دفعه إليه - قال : ما منعك أن
تستعملَ عودَ أستاذك ؟ فقال : إن كان مولاي يرغبُ فى غناء أستاذى غَنَيْتُهُ
بعوده ، وإن كان يرغبُ فى غِنائى فلا بدَّ لى من عودى ! فقال له : ما أراها إلا
واحداً ؛ فقال : صدقتَ يا مولاي ؛ ولا يؤدِّى النظرُ غيرَ ذلك ، ولكنَّ عودى
وإن كان فى قدرِ جسمِ عوده ، ومن جنسِ خشبه ، فهو يقع من وزنه فى الثلث ؛
ووصفه وصفاً استبرعه الرشيد ، وأمره بالغناء ، فحسَّ ثم اندفع فغناه :

يا أيها الملك اليمون طائرُه هارون راح إليك الناسُ وابتكروا^(١)

فلما أتمَّ طار الرشيد طرباً ، وقال لإسحاق : والله لولا أنى أعلم من صدِّقك
وتصديقه لك ؛ من أنك لم تسمعه قبْلُ لأنزلتُ بك العقوبة ؛ لتزكَّيك إعلامى
بشأنه ؛ فخذهُ إليك واعتنِ به ، حتى أفرغَ له ؛ فإن لى فيه نظراً .

فسقطَ فى يدِ إسحاق ، وهاج به من داء الحسد ما غلب على صبره ، فخلا
بِزِرياب ، وقال : يا على ؛ إن الحسدَ أقدمُ الأدواء^(٢) ، والدنيا فتانة ، والشركةُ
فى الصنعة عداوةٌ ، ولا حيلة فى حَسَمِها ؛ وقد مكرتَ بى فيما انطويت عليه من
إجادتك ، وعلو طبقتك ؛ وقصدتُ منفعتك ، فإذا أنا قد أتيتُ نفسى من مأمَنِها
يأذنانك ، وعن قليل تسقط منزلتى ، وترتقى أنتَ فوقى ، وهذا مالا أصاحبك عليه

(١) ابتكروا : أتوه بكرة ، والبكرة : الغدوة (٢) جمع داء .

ولو أنك ولدي ؛ ولولا رَغْبِي لَذِمَّتْ تَرْبِيَّتُكَ لما قَدَمْتُ شَيْئًا على أن أَذْهَبَ نَفْسَكَ ،
ويكونُ في ذلك ما يكون .

فَتَخَيَّرَ في ثَلَاثَيْنِ لا بَدَّ لَكَ مِنْهُمَا : إما أن تَذْهَبَ عَنِّي في الأَرْضِ العَرِيضَةِ ،
لا أَسْمَعُ لَكَ خَبْرًا ، بعد أن تَعْطِيَنِي على ذلك الأَيْمَانَ المَوْثِقَةَ ؛ وأنا أَنْهَضُكَ لذلك
بِمَا أَرَدْتُ من مَالٍ وَغَيْرِهِ . وإما أن تَقِيمَ على كُرْهِي وَرَغْبِي مُسْتَهْدِفًا إِلَيَّ ؛ فَخِذْ
الآن حِذْرَكَ مِنِّي ، فَلَسْتُ - وَاللَّهِ - أَبْقِي عَلَيْكَ ، 'ولا أَدْعُ اغْتِيَالَكَ ، باذِلًا في
ذلك بَدَنِي وَمَالِي ، فاقْضِ قَضَاءَكَ !

فَخَرَجَ زَرْيَابَ لَوْقَتِهِ ، وَعَلِمَ قُدْرَتَهُ على ما قَالَ ، واختارَ الْفِرَارَ ، فَأَعَانَهُ إِسْحَاقُ
على ذلك سَرِيعًا ، وَرَاشَ^(١) جَنَاحَهُ ، فَرَحَلَ عَنْهُ وَمَضَى يَبْغِي مَغْرِبَ الشَّمْسِ ،
واستراحَ قَلْبُ إِسْحَاقَ مِنْهُ .

وتذَكَّرَ الرِّشِيدُ بعد فَرَاغِهِ من شُغْلِهِ كانَ مَنَعْمًا فِيهِ ، فَأَمَرَ إِسْحَاقَ بِإِحْضَارِهِ
فَقَالَ : وَمَنْ لِي بِهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! ذَاكَ غُلَامٌ مَجْنُونٌ ، يَزْعُمُ أَنَّ الْجِنَّ تَكَلَّمُ بِهِ ،
وَتُطَارِحُهُ مَا يُزْهِى^(٢) بِهِ مِنْ غِنَائِهِ ، فَمَا يَرَى فِي الدُّنْيَا مِنْ يَتَعَدِّلُهُ ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ
أَبْطَأَتْ عَلَيْهِ جَائِزَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَقَدَّرَ التَّقْصِيرَ بِهِ ، وَالتَّهْوِينَ بِصِنَاعَتِهِ ، فَرَحَلَ
مُغَاضِبًا ذَاهِبًا على وَجْهِهِ ، مُسْتَخْفِيًا عَنِّي ، وَقَدْ صَنَعَ اللَّهُ تَعَالَى ذَلِكَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
فَإِنَّهُ كَانَ بِهِ لَمَمٌ^(٣) يَغْشَاهُ ، وَقَدْ كَانَ يَفْرُطُ خَبْلَهُ ، فَيَقْزِعُ عَنِّي مَنْ رَأَاهُ .

فَسَكَنَ الرِّشِيدُ إِلَى قَوْلِ إِسْحَاقَ ، وَقَالَ : على ما كَانَ بِهِ ، فَقَدْ فَاانَا مِنْهُ
سُرُورٌ كَثِيرٌ !

(١) رَاشَهُ : إِذَا أَحْسَنَ لِمَنْ لَيْسَ بِهِ ، وَرَاشَ صَدِيقُهُ : إِذَا أَطْعَمَهُ وَسَقَاهُ وَكَسَاهُ (٢) زَهَى بِهِ : أَعْجَبَ
بِهِ . (٣) مُغَاضِبًا : غَاضِبَتِ الرَّجُلَ : أَغْضَبَتْهُ وَكَرِهَتْهُ (٤) اللَّمَمُ : الْجَنُونُ .

ومضى زرياب إلى المغرب ^(١) ، وعلم عبد الرحمن بن الحكم بخبره ؛ فكتب إلى عمّاله على البلاد أن يُحَسِّنُوا إليه ، ويوصلوه إلى قُرْطُبَة ، وأمر مَنْ يَتَلَقَّاهُ بيفال وآلاتٍ حسنة .

فدخل هو وأهلُه ليلاً ، وأنزله في دار من أحسنِ الدور ، وحمل إليها جميعَ ما يحتاج إليه ، وخَلَعَ عليه . ثم أجرى عليه راتباً ، وأقطعهُ من الدور والمستغلات بقرطبة وبساتينها ، ومن الضياع ما يَقُومُ بأربعمِ ألف دينار ، فلما قضى له سُؤْلُه ، وأنجز موعده ، وعلم أن قد أَرْضاه ، وملك نفسه استدعاه ، ولما سمع غنائه أطرح كلَّ غِناءٍ سواه ، وأحبّه حبّاً شديداً ، وقدمه على جميعِ المُفَنِّين .

٣١ — في مسجد رسول الله تنغى ؟ *

قال إبراهيم الحراني : حججتُ مع أمير المؤمنين الرشيد ، فدخلتُ مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فبينما أنا بين القبر والمنبر إذا أنا برجلٍ حسن الهيئة خاضب ، ومعه رجلٌ في مثل حاله ، لحانت مني التفاتة ؛ فإذا هو يقوِّس حاجبيه ، ويفتح فاهُ ، ويلوِي عنقه ، فتجوَّزتُ^(١) في صلاتي ، ثم سلَّمت فقلت : أفي مسجد رسول الله تنغى ! فقال : ما أَجْهَلَكَ ! أما في الجنة غناء ! قلت : بلى ! لعمري ، فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذُّ الأعين ! قال : أما نحن في رَوْضَةٍ من رياض الجنة ؟ قلت : نعم ! قال : واحرَّباهُ ! أنردُّ على رسول الله قوله : « بين قَبْرِي ومنبرِي روضةٌ من رياض الجنة » ! فنحن في تلك الروضة . قلت : قَبِّحَ اللهُ شيخاً ما أسفهُ ! قال : بالقبر والمنبر لَمَّا^(٢) أنصتَ إلى ! فتخوّفت ألا أنصت . فاندفع يفتي بصوت يخفيه :

وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحِمَى بِرَوَاجِعٍ إِلَيْكَ ، وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنِكَ تَدَمَعًا
بَكَتْ عَيْنِي الْيُسْرَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا عَنْ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحَلْمِ اسْتَبَلَّتْنَا مَعًا
فوالله إن قُتُّ إلى الصلاة لِمَا دخل قلبي ! فلما رأى ما نزل بي ، قال : يا بن أم ؛
أرى نفسَكَ قد استجابت وطأبت ، فهل لك في زيادة ؟ قلت : ويحك ! في مسجد

* ذيل زهر الآداب : ٤٨

(١) تجوز في صلاته : خفف (٢) لا : إلا .

رسول الله ! قال : أنا والله أعرفُ بالله ورسوله منك ! فدعنا من جهلك ،
ثم تغنى :

فلو كان واشٍ باليمامةٍ دَارُهُ ودَارِي بأقصى حَضْرَمَوْتِ اهْتَدَى لِيَا
وماذا لهم - لا أحسنَ الله حفظهم - من الشأنِ في تَصْرِيْمِ^(١) كَيْلِي حِبَالِيَا
فقال له صاحبه : يا بن أُمِّ ، أحسنتَ والله ، وعِثْتُ مَأْمَلِكُ لو كان أميرُ المؤمنين
الرشيد حاضراً نلخع عليك ثيابَه مشقوقةً طَرَبًا .

فقمْتُ ، وهما لا يعلمان مَنْ أنا ؟ فدخَلْتُ على أمير المؤمنين فأعلمته الخبر فقال :
أَذْرِكُهُمَا لا يفوتاك !

فوجهتُ من جاء بهما . فلما دخلا عليه دخلا بوجوه قد ذهبَ ماؤُها ، وأنا
قائمٌ على رأسه ؛ فقال : يا إبراهيم ؛ هذان هما ؟ قلت : نعم ! فنظرَ إلى المغنى منهما ،
وقال : سِمْيَاةُ^(٢) في جوار رسول الله ! فَسُرِّي عن أمير المؤمنين بعضُ غَضَبِهِ ،
وتبسّم ، فقال : ما كنْتُمَا فيه ؟ قالا : في خير ! قال : فما الخير ؟ فسكتا .

فقال للمغنى منهما : من أنت ؟ فابتدره جماعة فقالوا : يا أمير المؤمنين ؛ إنه
ابنُ جُرَيْجٍ^(٣) فقيهُ مكة ! فقال : فقيه مكة يتغنى في مسجد رسول الله !

قال : يا أمير المؤمنين ؛ لم يكن ذلك مني بالقصد للفناء ، ولكني كنتُ
أتممت هذا الخزومي - يعني صاحبه - صوتين ، فلم يزل في قلبي حتى التقينا ،
فأحببتُ أن يأخذها عني ، فأخذها ، وحلف أني أحسنتُ ، وأنه لو كان في الموضع
أميرُ المؤمنين نلخع على - وسكت .

(١) صرته ، وصارمته : فاطمته (٢) سميّة : وشاية (٣) ابن جريج : وهو عبد الملك
ابن عبد العزيز بن جريج ، ويكنى أبا الوليد .

فقال الرشيد : تركتَ من الحديث شيئاً ؟ قال : ما تركتُ شيئاً يا أمير المؤمنين !
قال : والله لتقولنَّ . قال : يا أمير المؤمنين ؛ زعم أنك لو كفتَ في موضعه نخلعت
على ثياباً مشقوقة طرَباً !

فتبسّم ، وقال : أمّا هذا فلا ، ولكن نخلعُها عليك صحيحة ، فهي خير لك !
ثم دعا بثياب فلبسها ونَبَذَ إليه ثيابه ، وأمر له بعشرين ألف درهم ولصاحبه
بمِشْرَةِ آلاف درهم !

وقال : لا تعودنَّ لهذا . فقال صاحبه : إلا أن يحجَّ أمير المؤمنين ثانية .
فضحك وقال : ألْحِقُوهُ بصاحبه في الجائزة !

٣٢ - شعرٌ رقيق *

قال إسحاق الموصلي : حضر مسامرة الرشيد عَبَثُ الغنى - وكان فصيحاً متأدباً ،
عَلَى الشَّعْرِ ، ذا صوتٍ حَسَنٍ - فتذاكروا رِقَّةَ شِعْرِ المَدَنِيِّينَ ، فأنشد بعضهم
جلسائه أبياتاً لابن الدُّمَيْنَةِ حيث يقول :

وأذْكرُ أيامَ الحِجَى ثم أنْذِني على كبدى من خشيةٍ أَنْ تَصَدَّعا^(١)
وليسَتْ عَشِيَّاتُ الحِجَى برواجعٍ عليك ، وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنِكَ تَدَمُّعا
بَكَتْ عَيْنِي الْيَمْنَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا عن الجَهِلِ بَعْدَ الْحِلْمِ اسْتَبَلَّتْ مَعَا

فأعجب الرشيد برقة الأبيات ، فقال له عَبَثُ : يا أمير المؤمنين ؛ إن هذا الشعر
مدنىٌ رقيق ، قد غُذِيَ بماء العقيق ، حتى رَقَّ وَصَفَا ، فصار أصفى من الهواء ؛
ولَكِنْ إن شاء أمير المؤمنين أنشدته ماهو أرق من هذا وأخلى ، وأصلبُ وأقوى
لرجل من أهل البادية ! قال : فإني أشاء . قال : وأترنمُ به يا أمير المؤمنين ؟ قال :
وذلك لك ، فغنى لجرير :

إنَّ الذينَ غَدَوْا بُلْبُكَ غَادَرُوا وَشَلَّا^(٢) بَعَيْنِكَ لَا يَزَالُ مَعِينَا
غَيْضُنْ^(٣) مِنْ عِبْرَاتِهِنَّ وَقُلْنَ لِي : ماذا لَقِيتَ مِنَ الهَوَى وَلَقِينَا
قال : صدقتِ يا عَبَثُ ، وخلع عليه وأجازه .

* العقد الفريد : ٤ - ١٠٩

(١) أصله تنصدعا (٢) الوشل : القليل من الدمع والكثير منه (٣) غيظن من عبراتهم :
سيلن دموعهن حتى ترغفها ، ومن هنا للتبويض أو زائدة .

٣٣ - صَوْتُ بَدْرِهْمِينَ *

قَدِمَ إِسْمَاعِيلُ ^(١) بَنُ الْهَرَبِذِ عَلَى الرَّشِيدِ مِنْ مَكَّةَ ، فَدَخَلَ إِلَيْهِ وَعِنْدَهُ ابْنُ جَامِعٍ وَإِبْرَاهِيمُ وَابْنُهُ إِسْحَاقُ وَفُلَيْحٌ وَغَيْرُهُمْ ، وَالرَّشِيدُ يَوْمَئِذٍ خَائِرٌ ^(٢) ، فَغَنَّى ابْنُ جَامِعٍ ثُمَّ فُلَيْحٌ ثُمَّ إِبْرَاهِيمُ ثُمَّ إِسْحَاقُ ، فَمَا حَرَكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ وَلَا أَطْرَبَهُ ؛ فَانْدَفَعَ ابْنُ الْهَرَبِذِ يُغَنِّي ، فَعَجَبُوا مِنْ إِقْدَامِهِ فِي تِلْكَ الْحَالِ عَلَى الرَّشِيدِ ، فَغَنَّى :

بَارَاكِبَ الْعَيْسِ ^(٣) الَّتِي وَفَدَتْ مِنَ الْبِلَادِ الْحَرَامِ
 قُلْ لِلْإِمَامِ ابْنِ الْإِمَامِ أَخِي الْإِمَامِ أَبِي الْإِمَامِ
 زَيْنِ الْبَرِيَةِ إِذْ بَدَأَ فِيهِمْ كَمَصْبَاحِ الظُّلَامِ
 جَمَلُ الْإِلَهِ الْهَرَبِذِيُّ فِدَاكَ مِنْ بَيْنِ الْأَنَامِ

فَكَادَ الرَّشِيدُ يَرْقُصُ ، وَاسْتَخَفَّهُ الطَّرِبُ حَتَّى ضَرَبَ بِيَدَيْهِ وَرَجْلَيْهِ ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بَعْشَرَةَ آلَافِ دَرَاهِمٍ . فَقَالَ لَهُ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ إِنَّ لِهَذَا الصَّوْتَ حَدِيثًا ؛ فَإِنْ أَذِنَ مُوَلَايُ حَدَّثْتَهُ بِهِ ؛ فَقَالَ : حَدَّثْ .

قَالَ : كُنْتُ مُمْلوكًا لِرَجُلٍ مِنْ وَلَدِ الزُّبَيْرِ ؛ فَدَفَعَ إِلَيَّ دَرَاهِمِينَ أَبْتَاعَ بِهِمَا لَحْمًا ، فَرُحْتُ فَلَقِيتُ جَارِيَةً عَلَى رَأْسِهَا جِرَّةٌ مَمْلُوءَةٌ مِنْ مَاءِ الْعَقِيقِ ، وَهِيَ تُغَنِّي هَذَا اللَّحْنَ فِي شَعْرِ غَيْرِ هَذَا الشَّعْرِ عَلَى وَزْنِهِ وَرَوِيَّةٍ ، فَسَأَلْتُهَا أَنْ تَعَلِّمَنِيهِ ؛ فَقَالَتْ :

* الْأَغَانِي : ٧ - ١٠٤

(١) إِسْمَاعِيلُ بْنُ هَرَبِذٍ : مَوْلَى آلِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ ، أَدْرَكَ آخِرَ أَيَّامِ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَغَنَّى لِلْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدَ ، وَعَمَرَ إِلَى آخِرِ أَيَّامِ الرَّشِيدِ (٢) خَيْرَتْ نَفْسَهُ : غَنَتْ وَتَقَلَّتْ وَاخْتَلَطَتْ (٣) الْعَيْسُ : الْإِبِلُ .

لا وحقَّ القبر إلا بدرهمين ؛ فدفعت إليها الدرهمين وعلمتنيه ، فرجعتُ إلى مولاي
بغير لحم ، فضر بني ضرباً مبرحاً شُغِلْتُ معه بنفسى فأنسيتُ الصوت .

ثم دفع إلى درهمين آخرين بعد أيام ابتاع له بهما لحماً ، فلقينى الجارية فسألتها
أن تعيدَ على الصوت ؛ فقالت : لا والله إلا بدرهمين ، فدفعتُهما إليها ، وأعادته على
مراراً حتى أخذته .

فلما رجعتُ إلى مولاي أيضاً ولائحَمَ معى ، قال : ما القصةُ فى هذين الدرهمين ؟
فصدقته القصة ، وأعدتُ عليه الصوت ، فقبل بين عينيَّ وأعتقنى ؛ فرحلتُ إليك
بهذا الصوت : وقد جعلت ذلك اللحنَ فى هذا الشعر ، فقال : دَعِ الأول وتَنَاسَهُ ،
وأقم على الفناء بهذا اللحن فى هذا الشعر ، فأما مولاك فسأدفع إليه بدَل كل درهم
ألفَ دينار ، ثم أمر له بذلك فحَمِلَ إليه .

٣٤ - أمّ جعفر تنوح على الرشيد*

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي :

سمعتُ نائحةً تنوحُ بهذا الشعر^(١) :

قد لعمرى بتُ لينلى كأخى الداء الوجيع
ونجىُّ الممِّ مَنى بات أدنى من ضلوعي
كلما أبصرتُ ربّما درسا^(٢) فاضت دُموعي
مُفقرًا من سيّدٍ كا ن لنا غير مُضيع

فلما سمعته منها استحسنته واشتهيته ، ولهجتُ به ، فكنتُ أترنّمُ به كثيراً ،
فسمع ذلك منى أبى ، فقال : ما تصنعُ بهذا ؟ قلت : شِعرٌ قاله الأخوص وصنعه
مُعبد لسلامة ، وناحت به سلامة على يزيد .

ثم ضرب الدهر^(٣) ؛ فلما مات الرشيدُ إذا رسول أمّ جعفر قد وافانى فأمرنى
بالحضور . فسرتُ إليها ؛ فبعثتُ إلى : إني قد جمعتُ بنات الخلفاء وبناتِ هاشم
لتنوحَ على الرشيد في ليلتنا هذه ؛ فقل الساعةَ أيّاماً رقيقةً ، واصنَعْنِ صنعةً حسنةً
حتى أنوحَ بهنَّ .

* الأغاني : ٨ - ٣٤٨

(١) الشعر للأخوص والنوح لمُعبد ، وكان صنعه لسلامة ، وناحت به سلامة على يزيد بن
عبد الملك . (٢) الدارس : العاقى الذى احمى (٣) ضرب الدهر بيننا : فرقنا .

فأردتُ نفسي على أن أقول شيئاً فما حضرنى ، وجعلتُ ترسل إلى تحثُننى ،
فذكرتُ هذا النُّوح ، فأريتُ أنى أصنع شيئاً ، ثم قلت : قد حضرنى القول ،
وقد صنعتُ فيه ما أمرت ، فبعثتُ إلى بكُنيزة وقالت : طارِحها حتى تُطارِحنيهِ ،
فأخذتُ كنيزةَ العودَ ورددتهُ عليها حتى أخذته ، ثم دخلت فطارحته أم جعفر ،
فبعثتُ إلى بمائة ألف درهم ومائة ثوب .

٣٥ — أما إليك سبيل غير مسدود ! *

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: لما أفضت الخلافة إلى المأمون أقام عشرين شهراً لم يسمع حرفاً من الغناء؛ ثم كان أول من تفتى بحضرته أبو عيسى، ثم واظب على السماع، وسأل عني، فخرّجني عنده بعض من حسدني؛ فقال: ذلك رجل يتيه على الخلافة؛ فقال المأمون: ما أثبتني هذا من التيه شيئاً، وأمسك عن ذكرى.

وجفاني كل من كان يصلي لِمَا ظهر من سوء رأيه؛ فأضرب ذلك بي حتى جاءني يوماً علويته، فقال لي: أتأذن لي اليوم في ذكرك، فإنني اليوم عنده؟ فقلت: لا، ولكن غنّه بهذا الشعر؛ فإنه سيبعثه على أن يسألك: من أين هذا؟ فيفتتح لك ما تريد، ويكون الجواب أسهل عليك من الابتداء؛ ففضي علويته، فلما استقرّ به المجلس غنّاه الشعر الذي أمرته به، وهو:

يأمرّ ع الماء قد سدّت مسالكه أما إليك سبيل غير مسدود !
لِحائِم حار حتى لا حياة به مشرّد عن طريق الماء مطرود

فلما سمعه المأمون: قال: ويلك! لمن هذا؟ قال: ياسيدي، لعبد من عبيدك، جفوتّه واطرحتّه، قال: إسحاق؟ قال: نعم؛ قال: ليحضر الساعة.

قال إسحاق : فجاءني الرسولُ ، فسرتُ إليه ، فلما دخلتُ قال : ادنُ ، فدنوتُ فرفع يديه وقد مدَّهما ، فاتكأتُ عليه ؛ فاحتضنتني بيديه ؛ وأظهر من إكرامي وبرِّي ما لو أظهره صديقٌ لي مؤاسٍ لسرتني .

٣٦ — عند مُخارق *

قال بعضُ الرُّواة : كنتُ عند مُخارق ^(١) أنا وهارون بن أحمد بن هشام ، فلعب مع هارون بالنردِ ، فقَمَرَهُ ^(٢) مُخارق ، ومرَّ بهارون فصِيلٌ ^(٣) ينادي عليه ، فاشتراه بأربعة دنانير ، ووجه به إلى مخارق ، وقال : أطمعنا من هذا الفصيل .

فاجتمعنا وطبخ مخارق بيده جزوريةً ، وعمل من سَنَامِه وكبدِه طعاماً شوي في التَّنُور ، وعمل من لَجمِه لوناً يشبه الهريسة بشعير مُقَشَّر في نهاية الطيب ، فأكلنا وجلسنا نشرب ؛ فإذا نحن بامرأة تصيحُ من الشَّطِّ : يا أبا المهنا ، الله ، الله في ! حَلَف زوجي بالطلاق أن يسمع غناءك ويشربَ عليه ، فقال : اذهبي وجيئي به ، فجاء فجلس ، فقال له : ما حَمَلَك على ما صَنَعْتَ ؟ فقال له : يا سيدي ؛ كنتُ سمعتُ صوتاً من صَنَعَتِكَ فطربتُ عليه حتى استخفني الطرب ، فخلفتُ أن أسمعُه منك ثقةً بإجابتك رغبةً زوجتي ؛ فقال : وما هذا الصوت ؟ فقال :

* الأغاني : ٢١ - ١٥١

(١) هو أبو المهنا بن يحيى ، منشؤه بالمدينة ، وكان أبوه جزاراً ، فكان وهو صبي ينادي على ما يبيعه أبوه ، فلما بان طيب صوته علمته مولاته طرفاً من الغناء ثم اشتهر أمره وغنى الرشيد والأمين والأُمون والمعتصم والواثق ، توفي أيام المتوكل (٢) غلبه .
(٣) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه .

بَكَرْتُ عَلَيْكَ فَهِنَجَتْ وَجَدًا هُوجُ^(١) الرِّيحِ وَادُّكَرْتُ نَجْدًا
أَتَحِنُّ مِنْ شَوْقٍ إِذَا ذُكِرْتُ نَجْدٌ وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا عَمْدًا!
فَفَنَاءَ إِيَّاهُ ، وَسَفَاهُ رَطْلًا ، وَأَمْرُهُ بِالْأَنْصَرَفِ ، وَنَهَاهُ أَنْ يَعَاوِدَ ؛ فَخَرَجَ .

قال الراوى : فما لبثنا أن عادت المرأة تَصْرُخُ : اللهُ ، اللهُ ، يا أبا المهنأ ! قد
أعاد زوجى المشثوم اليمين ؛ أنْ تَغْنِيَهُ صَوْتًا آخَرَ ؛ فقال لها : أحضرته ، فأحضرتُه
أيضاً ، فقال له : ويلك ! مالى ولك ؟ ما قِصَّتُكَ ؟ فقال له : يا سيدي ؛ أنا رجل
طروب ، وكنت قد سمعتُ صوتاً لك آخر فاستخفني الطرب إلى أن خلعتُ بالطلاق
ثلاثاً أنى أسمعته منك ، قال : وما هو ؟ قال : لحنك :

أَبْلَغُ سَلَامَةٍ أَنْ الْبَيْنَ قَدْ أَفِدَا وَأَنْ صَحْبَكَ عَنْهَا رَاحُونَ غَدَا
هَذَا الْفِرَاقُ يُقِينَا إِنْ صَبَرْتَ لَهُ أَوْ لَا فَإِنَّكَ مِنْهَا مَيِّتٌ كَمَدَا
لَا شَكَّ أَنْ الَّذِي بِي سَوْفَ يَهْلِكُنِي إِنْ كَانَ أَهْلَكَ حُبٌّ قَبْلَهُ أَحَدَا
فَفَنَاءَ إِيَّاهُ مَخَارِقُ ، وَسَفَاهُ رَطْلًا وَقَالَ لَهُ : احْذَرْ ، وَيْلَكَ أَنْ تَعَادَ .

قال الراوى : ولم تلبث أن عاودَ الصَّيَّاحُ تَصْرُخُ : يا سيدي ! قد عاود
اليمين ، اللهُ اللهُ فى وفى أولادى ! قال : هاتيه ، فأحضرتُه ، فقال لها : انصرفى
أنت ؛ فإن هذا كلما انصرف حلف وعاد ، فدعِيه يقيم يومه كله ، فتركته وانصرفت ،
فقال له مخارق : ما قِصَّتُكَ أيضاً ؟ قال : قد عرَّفْتُكَ يا سيدي أننى رجل طروب ،
وكنت سمعتُ صوتاً من صنعتك فاستخفنى الطرب له ، فخلفت أنى أسمعته منك ،
قالى : وما هو ؟ قال :

أَلَيْفَ الظَّيُّ بَعَادَى وَنَفَى الهمُّ رُقَادَى

وَعَدَا الْمَجْرُ عَلَى الْوَضَلِ بِأَسْيَافٍ حِدَادٍ
قَلْ لِمَنْ زَيْنٌ وَوَدَى : لَسْتَ أَهْلًا لَوْدَادِي

فَفَنَّاهُ إِيَّاهُ وَسَقَاهُ رَطْلًا ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَبَطَّحَ ، وَأَمَرَ بِضَرْبِهِ خَمْسِينَ مِقْرَعَةً^(١) ،
وَهُوَ يَسْتَفِيتُ ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : احْلِفْ أَنَّكَ لَا تَذْكُرْنِي أَبَدًا ، وَإِلَّا كَانَ هَذَا دَأْبُكَ إِلَى
اللَّيْلِ ، فَخَلَفَ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ ، ثُمَّ أَقِيمَ فَأَخْرَجَ عَنِ الدَّارِ ، فَجَعَلْنَا نَضْحَكَ بَقِيَّةَ
يَوْمِنَا مِنْ حُحْمِهِ .

(١) أصل المِقرعة ما تقرع به الدابة .

٣٧ — مخارق يغنى لأبي العتاهية في شعره *

حدث مخارق ، قال : جاءني أبو العتاهية ، فقال : قد عزمتُ على أن أتزوّد منك يوماً تهبّ لي فتى تنشط ؟ قلت : متى شئت وإن طلبني الخليفة ، فقال : يكون ذلك في غد ؟ فقلت : أفعّل .

فلما كان من غد باكرني رسوله فبحثه ، فأدخلني بيتاً له فيه فرشٌ نظيف ، ثم دعا بمائدة عليها خبزٌ سميد^(١) وخلٌ وبقلٌ وملحٌ وجديٌّ مشويٌّ ، فأصبنا منه حتى اكتفينا ، ثم دعا بخلّواء فأصبنا منها ، وغسلنا أيدينا ، وجاءونا بفاكهة وريحان وألوان من الأنبيذ ، فقال : اختز ما يصلح لك منها ، فاخترت وشربت ؛ قدحاً ثم قال : غنّني في قولي :

أحمدُ قال لي ولم يدّر ما بي أنحبّ الغداة عتبةً حقاً !
فغنّيته ، فشرب قدحاً وهو يبكي أحراً بكاءً ، ثم قال : غنّني في قولي :
ليس لي لست له حيلةٌ موجودةٌ خيرٌ من الصبرِ
فغنّيته وهو يبكي وينشج^(٢) ، ثم شرب قدحاً آخر ، ثم قال : غنّني فديتك في قولي :

خليّ مالي لا تزال مضرّتي تكون مع الأقدار حتماً من الحزمِ
فغنّيته إياه ، وما زال يقترح عليّ كلّ صوت غنّني به في شعره فأغنيه ويشرب ويبكي حتى العتمة^(٣) ، فقال : أحبُّ أن تصبر حتى ترى ما أصنع . فجلست ، فأمر

* الأغاني : ٤ - ١٠٧

(١) السميد : الدقيق الأبيض (٢) نشج الباكي : غص بالبكاء في حلقه من غير انتحاب .

(٣) العتمة : وقت صلاة العشاء .

ابنه وغلّامه فكسّر كلّ ما بأيدينا من النبيذ وآلته والملاهي ، ثم أمر بإخراج كلّ ما في بيته من النبيذ وآلته ، فأخرج جميعه ، فما زال يكسّره ويصبّ النبيذ ، وهو يبكي حتى لم يبقَ من ذلك شيء ، ثم نزع ثيابه واغتسل ، ثم لبس ثياباً بيضاً من صوف ، ثم عاتقني وبكى ، ثم قال : السلام عليك يا حبيبي سلام الفراق الذي لا لقاء بعده ، وجعل يبكي وقال : هذا آخر عهدى بك . فظننت أنها بعض حماقاته .

فانصرفت وما لقيته زماناً ، ثم تشوّقتُ إليه فأتيته ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فدخلت فإذا هو قد أخذ قوصرتين ^(١) ، وثقب إحداهما ، وأدخل رأسه ويديه فيها ، وأقامها مقام القميص ، وثقب أخرى ، وأخرج رجله منها ، وأقامها مقام السراويل .

فلما رأيته نسيتُ كلّ ما كان عندي من الغمّ عليه والوخشة لعشرته ، وضحكت والله ضحكاً ما ضحكت مثله قط . فقال : من أيّ شيء تضحك ؟ فقلت : أسخن ^(٢) الله عينك ! هذا أيّ شيء هو ؟ من بلغك عنه أنه فعل مثل هذا من الأنبياء والزهاد والصحابه والمجانين ! انزع عنك هذا يا سخين العين ! فكأنه استخياً مني .

ثم بلغني أنه جلس حجّاماً ، فجهدتُ أن أراه بتلك الحال ، فلم أره ، ثم مرض فبلغني أنه اشتهى أن أغنيّه ، فأتيته غائداً ؛ فخرج إليّ رسوله يقول : إن دخلت إليّ جددت لي حزننا ، وتاقت نفسي من سماعك إلي ما قد غلبها عليه ، وأنا أستودعك الله ، وأعتذرُ إليك من عدم اللقاء ، ثم كان آخر عهدى به .

(١) القوصرة : وعاء من قصب يوضع فيه التمر (٢) أسخن الله عينه : أبكاه وأحزنه .

٣٨ — المغنُّون عند الواثق *

تناظر المغنُّون يوماً عند الواثق ، فذكروا الضَّرَابَ وحَذَقَهُمْ ؛ فقدَّم إِسْحَاقُ زَلْزَلًا^(١) على ملاحظ ، ولملاحظ في ذلك الرياسة على جميعهم ، فقال له الواثق : هذا حَيْفٌ وتَعَدِّي منك ؛ فقال إِسْحَاقُ : يا أمير المؤمنين ؛ اجمع بينهما وامتحنهما ؛ فَإِنَّ الأَمْرَ سَيَنْكَشِفُ لَكَ فِيهِمَا ، فأمر بهما فأحضرا ؛ فقال له إِسْحَاقُ : إن للضَّرَابِ أصواتاً معروفة ، أفأمتحنهما بشيء منها ؟ قال : أجل ، افعل ، فسمي ثلاثة أصوات كان أولها :

عَلَّقَ قَلْبِي ظَنِيَّةَ السَّيْبِ^(٢) جَهْلًا فَقَدْ أَغْرَى بِتَعْذِيبِي
نَمَّتْ عَلَيْهَا حِينَ مَرَّتْ بِنَا مَجَاسِدُ^(٣) يَنْفَحْنَ بِالطَّيْبِ
تَصُدُّ عَنَّا عَجُوزٌ لَهَا مُنْكَرَةٌ^(٤) ذَاتُ أَعَاجِيبِ
فَكَلَّمَا هُمْتُ^(٥) بِأَتْيَانِهَا قَالَتْ : تَوَقَّ عِدْوَةَ الذَّيْبِ

فضر با عليه ، فتقدَّم زلزل وقصَّر عنه ملاحظ ، فعجِبَ الواثق من كشفه عما ادعاه في مجلس واحد . فقال له ملاحظ : فما بآله يا أمير المؤمنين يُحْيِكَ على الناس ! ولم لا يضرب هو ! فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إنه لم يكن أحد في زمانى أضرب منى

* الأغاني : ٥ - ٢٨٠

(١) كان زلزل من سواد أهل الكوفة ، وقفه لإبراهيم الموصلي على الفناء العربي ، وأراه وجوه النغم وثقفه ، ثم أصبح بعد ذلك من حذاق الضراب (٢) السبب : كورة من سواد الكوفة (٣) المجاسد : الفصان التي صبغت بالزعفران (٤) منكرة : مبغضة مكروهة (٥) همت : همت ، وهم بالشئ : أراده ونواه .

إلا أنكم أعفيتُموني ؛ فتفَلَّت مِنِّي ، على أن معي بقية لا يتعلق بها أحدٌ من هذه الطبقة .

ثم قال : يا ملاحظ ؛ شوَّشُ عودك وهاتِه ، ففعل ذلك ملاحظ ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ هذا يخلط الأوتار تخليط متعنّت ، فهو لا يالو إفسادها ، ثم أخذ العود فجسّه ساعة حتى عرف مواقِعَه ، ثم قال : يا ملاحظ ؛ غنَّ أيَّ صوتٍ شئت ، فغنّي ملاحظ صوتا ، وضرب عليه إسحاق بذلك العود الفاسد التسوية ، فلم يخرجْه عن لَحْنِه في موضع واحد حتى استوفاه عن نقرةٍ واحدة ، ويده تصعد وتنحدر على الدَّسَّاتين ^(١) ، فقال له الواصلق : لا والله ما رأيتُ مثلك ولا سمعتُ به ! اطرَح هذا على الجوارى .

فقال : هيئات يا أمير المؤمنين ! هذا لا تعرفه الجوارى ولا يصلحُ لهنَّ ، إنما بلغني أن الفهليذ ضرب يوماً بين يدي كِسْرَى فأحسن ، فحسده رجلٌ من حُذَّاق أهل صَنْعَتِه ، فترقبه حتى قام لبعض شأنه ، ثم خالقه إلى عود فشوَّش بعض أوتاره ، فرجع فضرب وهو لا يدرى ، والمُلوك لا تُصلَحُ في مجالسها العيدان ، فلم يزل يضرب بذلك العودِ الفاسد إلى أن فرَغَ ، ثم قام على رجله فأخبر الملك بالقصة ، فامتحن العودَ فعرف مافيه ، ثم قال : « زَهْ زَهْ ^(٢) وزهان زِه » ، ووصله بالصلة التي كان يصل بها مَنْ خاطبه هذه المخاطبة ؛ فلما تواطأت الرواية بهذا أخذت نفسى ورُضْتُها عليه ، وقلتُ : لا ينبغي أن يكون الفهليذُ أقوى على هذا مِنِّي ، فما زلتُ أَسْتَنْبِطُه بضع

(٢) كلمة فارسية معناها

(١) الدسَّاتين : ما عليه أطراف أوتار العود من مقدمه أحسنت أحسنت .

عشرة سنة حتى لم يَبْقَ في الأرض موضعٌ على طبقةٍ من الطبقاتِ إلا وأنا أعْرِفُ
نَعْمَتَهُ كيف هي ، والمواقع التي يخرج النعم كلها منه فيها ، من أعاليها إلى أسافلها ،
وكلّ شيء منها يُجَانِسُ شيئاً غيره كما أعرف ذلك في مواضع الدساتين ، وهذا شيء
لا تنق^(١) به الجوارى . قال له الواصل : صدقت ، ولئن مُتَّ لَمُوتَنَ هذه الصنعة
معك ، وأمر له بثلاثين ألف درهم .

٤٠

(١) لا تأتي به وافيا .

٣٩ — في دارِ الِوائِقِ *

حدث ابن بُسْخُنَر ، قال : كانت لي نَوْبَةٌ في خِدْمَةِ الِوائِقِ في كلِّ جُمُعَةٍ إذا حضرتُ رَكِبْتُ إلى الدار ؛ فَإِنْ نَشِطُ أَقْمَتُ عنده ، وَإِنْ لَمْ يَنْشِطْ انصرفتُ ، وكانَ رَسْمُنَا أَلَّا يَحْضُرَ أَحَدٌ مِنَّا إِلَّا في يومِ نَوْبَتِهِ .

فإِنِّي لَفِي مَنْزَلِي في غير يومِ نَوْبَتِي إذا رُسِلَ الخليفةُ قد هَجَمُوا عَلَيَّ ، وقالوا لي : احضر ! فقلتُ : الْخَيْرُ ؟ قالوا : خير ، فقلتُ : إن هذا يومٌ لَمْ يَحْضُرْنا فيه أميرُ المؤمنين قطَّ ، وَلَمْ لَكُمْ غَلِطْتُمْ . فقالوا : الله المستعان ! لَا تَطَوَّلْ وَبَادِرْ ، فَقَدْ أَمَرْنَا أَلَّا نَدْعَكَ تَسْتَقِرُّ عَلَى الْأَرْضِ . فداخِلْنِي فِرْعَ شَدِيدٍ ، وَخَفْتُ أَنْ يَكُونَ سَاعٍ قَدْ سَعَى بِي أَوْ بَلِيَّةٌ قَدْ حَدَّثَتْ في رَأْيِ الخليفةِ عَلَيَّ .

فَرَكِبْتُ حَتَّى وَافَيْتُ الدارَ ؛ فَذَهَبْتُ لِأَدْخُلَ مِنْ حَيْثُ كُنْتُ أَدْخُلُ فَمَنْعَتُ ، وَأَخَذَ بِيَدِي الْخَدَمُ فَأَدْخَلُونِي وَعَدَلُوا بِي إِلَى تَمَرَّاتٍ لَا أَعْرِفُهَا ، فزادَ ذَلِكَ في جَزَعِي وَغَمِّي ، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْخَدَمُ يُسَلِّعُونَنِي مِنْ خَدَمٍ إِلَى خَدَمٍ ، حَتَّى أَفْضَيْتُ إِلَى دَارِ مَفْرُوشَةِ الصَّخَنِ ، مَلْبَسَةً الْحِيطَانِ بِالْوَشِيِّ الْمَنْسُوجِ بِالذَّهَبِ ، ثُمَّ أَفْضَيْتُ إِلَى رِوَاقِ أَرْضِهِ وَحِيطَانِهِ مَلْبَسَةً بِمِثْلِ ذَلِكَ ، وَإِذَا الْوَائِقُ في صَدْرِهِ عَلِ سَرِيرٌ مُرْصَعٌ بِالْجَوْهَرِ ، وَعَلَيْهِ ثِيَابٌ مَنْسُوجَةٌ بِالذَّهَبِ وَإِلَى جَانِبِهِ فَرِيدَةٌ ^(١) ، جَارِيَتُهُ ، عَلَيْهَا مِثْلُ ثِيَابِهِ ، وَفِي حِجْرِهَا عُودٌ . فَلَمَّا رَأَيْتُ قَالَ : إِلَيْنَا إِلَيْنَا ! فَقَبَّلْتُ الْأَرْضَ ثُمَّ قُلْتُ :

* الْأَغَانِي : ٤ - ١١٥

(١) فَرِيدَةٌ : كانت جارية مفضية محسنة ، أهداها عمرو بن بانه إلى الِوائِقِ ، وكانت حسنة الوجه ، حسنة الغناء ، حادة الفطنة والفهم .

يا أمير المؤمنين ؛ خيراً ! قال : خيراً ، أما ترانا ! أنا طلبتُ الله ثالثاً يؤنسنا فلم أرَ أحقَّ بذلك منك ، فبحيأتى بادِرُ فكلُّ شيئاً وبادِرُ إلينى . فقلتُ : قد واللهِ ياسيدى أكلتُ وشربتُ أيضاً ، قال : فاجلسْ ، فجلست . قال : هاتوا لمحمدٍ رطلًا فى قدح ، فأحضر ذلك ، واندفعت فريدةً تغنى :

أهابك إجلالاً وما بكِ قدرةٌ علىَّ ولكن ملء عَيْنٍ حبيبها
وما هجرتك النفسُ يالَيْلٍ أنها قَلَّتْكِ ولا أنْ قلَّ منك نصيبها
لجأت والله بالسَّحر ، وجعلتُ تغنى الصوت بعد الصوت ، وأغنى أنا فى خلال
غنائها ؛ فررنا أحسنُ مامراً لأحد .

فإننا لكذلك إذ رفع رجله فضرب بها صدر فريدة ضربةً تَدَحَّرَجَتْ منها
من أعلى السرير إلى الأرض وتَفَتَّتَ عودُها ، ومرت تَعْدُو وتَصيح ، وبقيت أنا
كالمنزوع الروح ، فأطرق ساعةً إلى الأرض مُتَحَيِّراً ، وأطرقتُ أتوقعُ ضَرْبَ العنق .

فإننى لكذلك إذ قال لى : يا محمد ؛ فوثبتُ . فقال : ويحك ! أرايتُ أغرب
مما تهياً لنا ؟ فقلت : ياسيدى ؛ الساعة والله تَخْرُجُ روحى . فعلى مَنْ أَصَابْنَا بالعين
لعنةُ الله ! فما كان السبب ! أَلِذْنَب ؟ قال : لا والله ولكن فَكَّرْتُ أنْ جَعَفَرَا
يَقْعُدُ هَذَا المقعد ، ويقعد معها كما هى قاعدةً معى ، فلم أطق الصبر ، وخامرنى ما أخرجنى
إلى ما رأيت . فَسَرَّيْ عَنى وقلت : بل يَقْتُلُ الله جعفرًا ويحيا أمير المؤمنين أبداً ،
وَقَبَلْتُ الأرض وقلت : ياسيدى ؛ الله الله ! ارحمها ومُرْ بِرَدِّهَا . فقال لبعض الخدم
الوقوف : مَنْ يَحْيى بها ! فلم يكن بأسرع من أن خرجتُ فى يدها عودُها ، وعليها
غيرُ الثياب التى كانت عليها . فلما رآها لاطَفَهَا ، فبكت وجعل هربيكى ، واندفعتُ
أنا فى البكاء ، فقالت : ما ذنبى يا مولاي وسيدى ؟ وبأى شيء استوجبت هذا ؟

فَأَعَادَ عَلَيْهَا مَا قَالَهُ وَهُوَ يَبْكِي وَهِيَ تَبْكِي ! فَقَالَتْ : سَأَلْتُكَ بِاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا ضَرَبْتَ عَنَقِي السَّاعَةَ وَأَرْحَتَنِي مِنَ الْفَكْرِ فِي هَذَا ، وَأَرْحَتَ قَلْبَكَ مِنْ الِهِمِّ بِي ؛ وَجَعَلْتَ تَبْكِي وَيَبْكِي ، ثُمَّ مَسَحًا أَعْيُنَهُمَا ، وَرَجَعْتَ إِلَى مَكَانِهَا .

وَأَوْمَأَ إِلَى خَدَمِهِ وَقُوفَ بِشَيْءٍ لَا أَعْرِفُهُ ؛ فَمَضَوْا وَأَحْضَرُوا أَكْيَاسًا فِيهَا عَيْنٌ وَوَرِقٌ ^(١) وَرِزْمًا فِيهَا ثِيَابٌ كَثِيرَةٌ ، وَجَاءَ خَادِمٌ بِدَرَجٍ فَفَتَحَهُ وَأَخْرَجَ مِنْهُ عِقْدًا مَا رَأَيْتُ قَطُّ مِثْلَ جَوْهَرٍ كَانَ فِيهِ ، فَالْبَسَهَا إِيَّاهُ ، وَأَحْضَرَتْ بِذَرَّةٍ فِيهَا عَشْرَةُ آلَافٍ دِرْهَمٍ ، فَجَعَلَتْ بَيْنَ يَدَيَّ ، وَخَمْسَةَ تَحَوَّتْ فِيهَا ثِيَابٌ ، وَعُذْنَا إِلَى أَمْرِنَا وَإِلَى أَحْسَنِ مِمَّا كُنَّا فِيهِ ، فَلَمْ نَزَلْ كَذَلِكَ إِلَى اللَّيْلِ .

ثُمَّ تَفَرَّقْنَا وَضَرَبَ الدَّهْرُ ضَرْبَهُ ^(٢) ، وَتَقَلَّدَ الْمُتَوَكِّلُ ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لِنُفَى مَنْزِلِي بَعْدَ يَوْمٍ تَوَبَّيْتُ إِذْ هَجَمَ عَلَيَّ رُسُلُ الْخَلِيفَةِ ، فَمَا أَهْلَوْنِي حَتَّى رَكِبْتُ وَصَرْتُ إِلَى الدَّارِ ، فَأَدْخَلْتُ وَاللَّهِ الْحَجْرَةَ بَعِينَهَا ، وَإِذَا الْمُتَوَكِّلُ فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي كَانَ فِيهِ الْوَاقِعُ عَلَى السَّرِيرِ بَعِينَهُ وَإِلَى جَانِبِهِ قَرِيدَةٌ ، فَلَمَّا رَأَيْتُهَا قَالَتْ : وَيْحَكَ ! أَمَا تَرَى مَا لَنَا فِيهِ مِنْ هَذِهِ ! أَمَا مِنْذُ غُدْوَةِ أَطَالِبِهَا أَنْ تُغْنِيَنِي فَيَأْتِيَنِي ذَلِكَ ! فَقُلْتُ لَهَا : يَا سَبْحَانَ اللَّهِ ! أَتَخَالِفِينَ سَيِّدَكَ وَسَيِّدَنَا وَسَيِّدَ الْبَشَرِ ! بِحَيَاتِهِ غَنَّى ، فَعَرَفْتُ ، وَاللَّهِ ثُمَّ انْدَفَعَتْ تُغْنِي :

مَقِيمٌ بِالْحَاجَزَةِ ^(٣) مِنْ قَتَوْنِي ^(٤) وَأَهْلُكَ بِالْأَجْفِرِ ^(٥) فَالْتِمَادِ
فَلَا تَبْعُدْ فَكُلَّ فِتْنَى سَيِّئَاتِي عَلَيْهِ الْمَوْتُ يَطْرُقُ أَوْ يُغَادَى

(١) العين : الذهب المضروب ، والورق : الدراهم المضروبة من الفضة (٢) يقال : ضرب الدهر من ضربه ، أى مر من مروره وذهب بعضه (٣) الحاجزة : منزل من منازل طريق مكة (٤) قنونا : واد من أودية السراة يصب إلى البحر (٥) الأجفر والثاد : موضعان .

ثم رَمَتْ بِالْعُودِ الْأَرْضَ ، وَرَمَتْ بِنَفْسِهَا عَنِ السَّرِيرِ ، وَمَرَّتْ تَعْدُو وَتَصِيحُ :
وَاسَيِّدَاهُ !

فَقَالَ لِي : وَيْحَكَ ! مَا هَذَا ؟ فَقُلْتُ : لَا أَدْرِي وَاللَّهِ يَا سَيِّدِي . فَقَالَ : فَمَا تَرَى ؟
فَقُلْتُ : أَرَى أَنَّ أَنْصَرَفَ أَنَا وَتَحْضُرُ هَذِهِ وَمَعَهَا غَيْرُهَا ؛ فَإِنَّ الْأَمْرَ يُؤُولُ إِلَى
مَا يَرِيدُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ . قَالَ : فَانْصَرَفَ فِي حِفْظِ اللَّهِ ، فَانْصَرَفْتُ ؛ وَلَمْ أَدْرِ
مَا كَانَتِ الْقِصَّةُ !

٤٠ — محبوبة جارية المتوكل *

قال علي بن الجهم : كانت محبوبةٌ أُهديتُ إلى المتوكل ، أهداها إليه عبدُ الله ابن طاهر في جملةِ أربعمائة جارية ، وكانت بارعةَ الحسن والظرف والأدب ، مفتيةً محسنةً ، فخطبت عند المتوكل حتى إنه كان يُجلسها خلفَ ستارةٍ وراء ظهره إذا جلس للشرب ، فيُدخل رأسه إليها ويحدثها ويراها في كل ساعة ؛ فغاضبها يوماً ، وهجرها ، ومنع جواريةَ جميعاً من كلامها ، ثم نازعته نفسهُ إليها ، وأراد ذلك ، ثم منعته العِزَّةُ منها ، وامتنعت من ابتدائه إداًلاً عليه بمحلها منه !

قال ابنُ الجهم : فبكرتُ إليه يوماً فقال لي : يا علي ؛ إني رأيتُ البارحةَ محبوبةً في نومي كأنى قد صالحتها ، فقلت : أفرَّ الله عينيك يا أمير المؤمنين ، وأنامك على خير ، وأيقظك على سرور ، وأرجو أن يكونَ هذا الصلحُ في البقعة . فبينما هو يحدثني وأجيبه إذا بوصيفةٍ قد جاءتْ فأسرتُ إليه شيئاً ، فقال لي : أتدرى ما أسرتَ هذه إليّ ؟ قلت : لا . قال : حدثتني أنها اجتازتُ محبوبةَ الساعة ، وهي في حجرتها تُغنى ! أفلا تعجبُ إلى هذا ! إني مغاضبها وهي متهاونة بذلك ؛ لا تبدؤني بصلح ، ثم لا ترضى حتى تُغنى في حُجرتها ! قم بنا يا علي حتى نسمعَ ما تغنى ، ثم قام ، وتبعتهُ حتى انتهى إلى حجرتها ، فإذا هي تغنى وتقول :

أدور في القصر لا أرى أحداً أشكو إليه ولا يكلمني
حتى كأنى ركبْتُ مصيبةً ليست لها توبةٌ تخلصني

فهل لنا شافعٌ إلى ملكٍ قد زارني في الكرى^(١) فصالحني
حتى إذا ما الصُّباحُ لاحَ لنا عاد إلى هجره فصارَ مني^(٢)
فطرب المتوكل ، وأحسَّتْ بمكانه ، فخرجت إليه ، وتنحَّيتُ ، فحدثته أنها
رأتَه في منامها ، وقد صالحها فانتبهت ، وقالت هذه الأبيات ، وغنَّتْ فيها ؛ فحدثها
هو أيضا برؤياه ، واصطلحا ، وبعث إلى بجائزة وخِلعة .
ولما قُتِلَ تسلى عنه جميعُ جواريه غيرها ، فإنها لم تزل حزينَةً ، هاجرةً لكل
لذةٍ حتى ماتت .

(١) الكرى : النوم .

(٢) الصبرم : القطم والمجر .

٤١ — قينة تحنُّ إلى بغداد *

قال أبو علي بن الأسكري المصري : كنتُ من جُلَّاسِ تميم بن أبي تميم وِثْمَنَ
يُحْنَفَ عليه ، فأُتِيَ من بغدادَ بجاريةٍ رائعةٍ فائقةِ الغناء ، فدعا جُلَّاسُه ومُدَّت
السَّتَّارَةُ وأمرها ففُتَّت :

وبَدَّاله من بعدما انْدَمَلَ الهوى بَرَقْتُ نَالِقُ مَوْهِنَا لِمَعَانُهُ
يَبْدُو كحاشيةِ الرِّدَاءِ ودونه صُغِبَ الذُّرَا مَتَمَتَّعَ أَرْكَانُهُ
وبدا لينظُرَ كيفَ لاحَ فلمْ يُطِقْ نظراً إِلَيْهِ وَصَدَّه أَشْجَانُهُ
فالنَّارُ ما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ضُلُوعُهُ والماءُ ماسَحَتْ به أَجْفَانُهُ
فأَحْسَنْتُ ماشاءت ، وطربَ تميمَ وَمَنْ حَضَرَ ، ثم غَنَّتْ :

سَتُسْئِلُكَ عِمَافَاتِ دَوْلَةِ مُفْضِلٍ أَوَانِلُهُ مَحْمُودَةٌ وَأَوَاخِرُهُ
فَنَى اللَّهِ عِظَمِيهِ وَأَلْفَ شَخْصِهِ عَلَى الْبَرِّ مَذْشُدَّتْ عَلَيْهِ مَآزِرُهُ

فطربَ تميمَ وَمَنْ حَضَرَ طَرَباً شَدِيداً ، ثم غَنَّتْ :

أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ إِلَى قَرَأَ بِالْكَرْنِخِ مِنْ فَلَكَ الْأَزْوَارِ مَطْلَعُهُ
فَأَفْرَطَ تَمِيمٌ فِي الطَّرَبِ جَدًّا ، ثم قال لها : تَمَتَّيْ مَا شِئْتَ فَلَكَ مُنَاكَ ، فقالت :
أَتَمَتَّيْ عَافِيَةَ الْأَمِيرِ وَسَعَادَتَهُ ، فقال : لَا بَدَّ وَاللَّهِ ! فقالت : عَلَى الْوَفَاءِ أَتَمَتَّيْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ؟
فقال : نَعَمْ ، فقالت : أَتَمَتَّيْ أَنْ أَغْنَى هَذِهِ النَّوْبَةُ بَيْنَغْدَادَ . . . فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ تَمِيمٌ ،

وتكدر المجلس، وقمنا؛ فلحقني بعضُ خدمه فردّني، فلما وقفتُ بين يديه قال لي:
وَيْحَكَ! أَرَأَيْتَ مَا امْتَحِنَّا بِهِ؟ وَلَا بُدَّ مِنَ الْوَفَاءِ، وَمَا أَثِقُ فِي هَذَا بَنِيكَ، فَتَاهَبْ
لتَحْمِلَهَا إِلَى بَغْدَادٍ، فَإِذَا غَمْتَ هُنَاكَ فَاصْبِرْ فِيهَا. فقلتُ: سَمِعَا وطاعة.

فَأَصْحَبَهَا جَارِيَةً سُودَاءَ تَخْدُمُهَا وَتُعَادِلُهَا^(١)، وَأَمَرُ لِي بِنَاقَةٍ وَبِجَمَلٍ عَلَيْهِ هَوْدَجٌ،
فَأَذْخِلْتُ فِيهِ، وَسَرْنَا مَعَ الْقَافِلَةِ إِلَى مَكَّةَ، فَقَضَيْنَا حَجَّنَا، ثُمَّ لَمَّا وَرَدْنَا الْقَادِسِيَّةَ،
أَتَنَّنِي السُّودَاءُ فَقَالَتْ لِي: تَقُولُ لَكَ سَيِّدَتِي: أَيْنَ نَحْنُ؟ فَقُلْتُ: نَحْنُ نَزُولٌ
بِالْقَادِسِيَّةِ، فَأَخْبَرْتُهَا، فَسَمِعْتُ صَوْتَهَا قَدْ ارْتَفَعَ بِالْعَنَاءِ:

لَمَّا نَزَلْنَا الْقَادِسِيَّةَ حَيْثُ يُجْتَمِعُ الرِّفَاقُ
وَشَمْتُ مِنْ أَرْضِ الْحِجَا زَنَسِمَ أَنْفَاسِ الْعِرَاقِ
أَبْقَيْتُ لِي وَلِئِنْ أَحْبَبُ يُجْتَمِعُ شَمْلٍ وَاتِّفَاقٍ
وَضَحِكْتُ مِنْ فَرَحِ الْفَقَا ۝ كَمَا بَكَيْتُ مِنَ الْفِرَاقِ

فَصَاحَ النَّاسُ مِنْ أَقْطَارِ الْقَافِلَةِ: أَعِيدِي، أَعِيدِي؛ فَمَا سَمِعَ لَهَا كَلِمَةً.
فَلَمَّا نَزَلْنَا الْيَاسِرِيَّةَ - عَلَى خَمْسَةِ أَمْيَالٍ مِنْ بَغْدَادٍ فِي بَسَاتِينَ مُتَّصِلَةٍ بَبَيْتِ النَّاسِ
بِهَا ثُمَّ يَبْكُرُونَ لِبَغْدَادٍ - بَتْنَا هُنَاكَ، وَلَمَّا قَرُبَ الصَّبَاحُ إِذَا بِالسُّودَاءِ قَدْ أَتَنَّنِي
مَذْعُورَةً، فَقَالَتْ: إِنْ سَيِّدَتِي لَيْسَتْ بِحَاضِرَةٍ، وَوَاللَّهِ لَا أَدْرِي أَيْنَ هِيَ؟ فَطَلَبْتُهَا فَلَمْ
أَجِدْهَا، وَلَا وَجَدْتُ لَهَا بِبَغْدَادٍ خَبْرًا، فَقَضَيْتُ حَوَائِجِي بِبَغْدَادٍ، وَانصَرَفْتُ إِلَى
تَمِيمٍ، فَأَخْبَرْتُهُ خَبَرَهَا، فَلَمْ يَزَلْ وَاجِعًا^(٢) عَلَيْهَا!

(١) تَرَكَبَ مَعَهَا. (٢) حَزِنَا.

البَابُ الثَّانِي

في القصص التي تُفَصِّحُ عن رِقَّةِ قلوب العرب ،
ورفاهة عواطفهم ، وسموّ نفوسهم بالإخبار عن وقع
الحبِّ في قلبه ، وامتزج العَفَافُ والشرف بحبه ، ولكن
امتنع عليه أمله ، فبقى معذَّباً في سبيل من أحبّ ، وراح
شهيداً الرقة والعفاف .

٤٢ — جَنَى الْجَمَالُ عَلَى نَضْرٍ فَعَرَّ بِهِ

عن المدينة تَبَكَّيْهِ وَيَكِيْهَا *

عشقت امرأة من المدينة فتى من بنى سليم ، يقال له نَضْرُ بْنُ حَجَّاجٍ - وكان أحسن أهل زمانه - فَضْنَيْتُ مِنْ حُبِّهِ ، وَدَنْفْتُ ^(١) مِنَ الْوَجْدِ بِهِ ، ثُمَّ لَهَجْتُ بِذِكْرِهِ حَتَّى صَارَ ذِكْرُهُ هِجِيرًا ^(٢) .

وخرج أمير المؤمنين عمرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رضى الله عنه - ذات ليلة يَعْصُ ، وصرَّ بدارها ، فسمعها تقول رافعةً عَقِيرَتَهَا ^(٣) :

هل من سبيلٍ إلى تَحْمِرٍ فَأَشْرِبَهَا أم هل سبيلٍ إلى نَضْرٍ بن حجاج فقال عمر : أَمَّا مَا عَشْتُ فَلَا ، لَا أَرَى مَعِيَ رَجُلًا تَهْتَفُ بِهِ الْعَوَاتِقُ فِي خُدُورِهِنَّ .

فلما أصبح دعا نصرَ بن حجاج ، فأبصره ، فإذا هو أحسنُ الناس وجهًا ، وَأَصْبَحُهُمْ وَأَمْلَحُهُمْ حَسَنًا ، فَأَمَرَ أَنْ يُطَمَّ ^(٤) شعره ؛ فَخَرَجَتْ جَبْهَتُهُ فَازْدَادَ حَسَنًا ، فقال له عمر : اذهب فاعْتَمِّ ، فَأَعْتَمَ فَبَدَتْ وَفَرَّتْهُ ^(٥) ، فَأَمَرَ بِحُلَّتْهَا فَازْدَادَ حَسَنًا ! فقال له : ففنت نساء المدينة يا بن حجاج ، فقال : وَأَيُّ ذَنْبٍ لِي فِي ذَلِكَ ! قال عمر :

* يجمع الأمثال : ١ - ٣٧٩ ، ابن أبي الحديد : ٣ - ٩٣ ، ثمرات الأوراق : ٢٣٦
(١) دنف : إذا لازمه المرض (٢) هجيرها : دأبها وشأنها (٣) العقيرة : صوت الشاكي والباكي والغنى (٤) طم شعره : عقصه (٥) الوفرة : ما سأل على الأذنين من الشعر .

صدقته ، الذنب لى إن تركتك فى دار الهجرة ، ثم أركبه جملاً وسيّره إلى البصرة .
وأقام نصرّ بالبصرة مدة ، ثم سمع يوماً منادياً يُنادى : « مَنْ أراد أن يكتبَ
إلى أهله بالمدينة أو إلى أمير المؤمنين شيئاً فليكتب ؛ فإنّ بريد المسلمين خارج »
فكتب الناس ، ودمّ نصرّ بن حجاج كتاباً فيه : « لعبد الله عمر أمير المؤمنين
من نصر بن حجاج . سلام عليك ، أما بعد يا أمير المؤمنين :

لَعَمْرى لئن سيّرتنى أو حرمتنى	لَمَّا نِلْتَ من عِرْضى عليك حرامُ
أَنْ غَنَتْ الدَّلْفاءُ يوماً بِمُنْيَةٍ	وبعضُ أمانى النساءِ غرامُ
ظَنَنْتَ بى الظنَّ الذى ليس بعده	بقاءً ، فمالى فى الندى كلامُ
وأصبحتُ منفيّاً على غيرِ رِيبةٍ	وقد كان لى بالْمَكْتَبَيْنِ ^(١) مقامُ
سَمِعْنِى مما تظنُّ تَكْزِيبِى	وأباهُ صدقٍ سالفونَ كِرامُ
ويمنعُها مما تَمَنَّتْ صلاتُها	وحالُ لها فى دينها وصيامُ
فها تان حالاناه ، فهل أنت راجعِى ^(٢) ؟	فقد جُبَّ منى كاهلُ وسَنامُ ^(٣)

ولما دام عمر بن الخطاب قال : أما ولى ولاية فلا ، وأقطعته بالبصرة
أرضاً وداراً .

ثم بدا لمجاشع بن مسعود السلمى أن يُنزله منزله لقربته ، فصيّره إليه ، وأخدمه
امراته ثُمَيْلَةَ - وكانت أجملَ امرأة بالبصرة - ، فعَلِقَتْهُ وعلِقها ، وخفى على كل
واحد منهما خبر الآخر لِمَلازمة مجاشع لضيّفه ، وكان مجاشع أُمِّيّاً ونصر وُثْمَيْلَةَ

(١) يريد مكة والمدينة على التقلب (٢) راجعى : رادى (٣) جب : قطع ، والكاهل :
مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق ؛ ذكرُوا أن الثمنية هى الفارعة أم الحجاج ، وقيل هى جدة الحجاج
أم أبيه (ابن خلكان : ص ١٢٤ ، ج ١) .

كاتبين ، فعيل صبرُ نصر ، فكتب على الأرض بحضرة مجاشع : « إني قد أحبتك حُبًّا لو كان فوقك لأظلك ، ولو كان تحتك لأفلك » . فوقعت تحته غير محنشة « وأنا » . فقال لها مجاشع : ما الذى كتبته ؟ فقالت : كتب : كم تحب ناقتكم ؟ فقال : وما الذى كتبت تحته ، فقالت : كتبت وأنا ؛ فقال مجاشع : كم تحب ناقتكم ، وأنا ؛ ما هذا لهذا بطبق ^(١) ؟ فقالت : أصدقك ، إنه كتب ، كم تغل أرضكم ؟ فقال مجاشع : كم تغل أرضكم ، وأنا : ما بين كلامه وجوابك قرابة ! ثم كفأ على الكتابة جفنة ودعا بقلم من الكتاب ^(٢) ، فقرأ عليه ، فالتفت إلى نصر وقال : يا ابن عم ؛ ما سيرك عمرُ من خير ؛ فقم فإن وراءك أوسع ، فهض مستحجياً ، وعدل إلى منزل بعض السلميين ؛ ووقع لجنبه ، فضنى من حب شميعة ؛ ودنف ^(٣) وانتشر خبره .

ثم إن مجاشعاً وقف على خبر عِلته ؛ فدخل عليه ، فلحقته رقةٌ لما رأى ما به من الدنف ؛ فرجع إلى بيته ؛ وقال لشميلة : عزمت عليك لما أخذت خبزة ^(٤) فلبسكها بسمن ، ثم بادرت بها إلى نصر ؛ فبادرت بها إليه ، فلم يكن به نهوض ؛ فجعلت تلقمه بيدها ، فعادت قواه وبرأ كأن لم يكن به قلبة ^(٥) .

فلما فارقت عاوده النكس ^(٦) ، فلم يزل يتردد فى علته حتى مات فيها !

(١) الطبق من كل شيء : ماساواه (٢) الكتاب والكتب : موضع التعليم ، أو هو جمع كاتب (٣) الدنف : المرض الملازم (٤) الخبزة : عجينة يوضع فى الملة حتى ينضج (٥) يقال : مابه قلبة - بالتحريك : أى داء وتعب (٦) النكس : عود المرض .

٤٣ — عُرْوَة وَعَفْرَاء *

هلك حزام ، وترك ابنه عُرْوَة ^(١) صغيراً في حجر عمّه عقال ؛ وكانت عفراء تزوّجاً ^(٢) لعروة ، يلعبان جميعاً ، ويكونان معاً ، حتى تألف كل واحد منهما صاحبه إلّفاً شديداً ؛ وكان عقال يقول لعُرْوَة لما يرى من إلفهما : أبشروا فإن عفراء أمتك ^(٣) إن شاء الله !

فكانا كذلك حتى لحقت عفراء بالنساء ، ولحق عُرْوَة بالرجال ؛ فأنى عروة عمّة له يقال لها : هند ، وقال لها في بعض ما يقول : يا عمّة ؛ إني لمكلمك ؛ وإني منك لمستحي ، ولكن لم أفعل هذا حتى ضقتُ ذرعاً بما أنا فيه .

فذهبت عمته إلى أخيها ، فقالت له : يا أخى ؛ قد أتيتك في حاجةٍ أحبُّ أن تُحسِنَ بها ، فإن الله يأجرك ^(٤) لصلّةِ رحمك بي ؛ فقال لها : قولى ، فلن تسألى حاجةً إلا ردّدتك بها ، قالت : تزوّج عروة ابن أخيك بابنتك عفراء ، فقال : ما عنه مذهب ، ولا هو دون رجل يُرغب فيه ، ولا بنا عنه رغبة ؛ ولكنه ليس بذى مال ، وليست عليه عَجَلَة .

* الأغاني : ٢٠ - ١٥٢

(١) هو عروة بن حزام بن مالك ، شاعر لبيب حاذق متمكن في العشق ، قيل : إنه أول عاشق مات بالهجر من العذريين ، ولشدة مقاساته في العشق ضرب به المثل بين العرب . مات سنة ٣٠ هـ ، ودفن بوادى القرى قرب المدينة (٢) الترب : من ولد معك (٣) يريد زوجتك وامرأتك (٤) يأجرك : يجازيك .

فطابت نفسُ عروة ؛ وسكنَ بعضَ الشُّكُونِ ، وكانت أمُّها سيئةَ الرأى فيه
تريد لا يبتها ذا مال ووَفْرٌ^(١) ، وكانت عُرْضَةٌ^(٢) لذلك كلاً وجمالاً .

فلما تكاملت سيئته ، وبلغ أشده ؛ عرف أن رجلاً من قومه ذائسار ومال
كثير يخطبها ؛ فأتى عمه ، فقال : يا عم ؛ قد عرفتَ حقَّ وقرابتي ؛ وإني ولدك
ورُبِّيْتُ في حِجْرِكَ ؛ وبلغني أن رجلاً خطبَ عَفْرَاءَ ؛ فإن أسعفته بطليته قتلتنى
وسفكت دمي ؛ فأنشدك الله ورحمى وحقَّ ! فرَّقَ له ؛ وقال : يا بني ؛ أنت مُعْدِمٌ
وحالنا قريصةٌ من حالك ؛ واستُخرجَها إلى سِوَاكَ ، وأمُّها أبت أن تزوجَها
إلاَّ بمهرٍ غال .

فَضَرَبَ في الأرض يبتغى الرزق ، ثم جاء إلى أمِّها فَأَلْطَفَهَا^(٣) ودَارَاهَا ، فأبت
أن تجيبه إلا بما تحتكمه من المهر ، وبعد أن يَسُوقَ شَطْرَهُ^(٤) إليها ، فوعدها بذلك ،
وعلم أنه لا تنفعه قرابةٌ ولا غيرها إلا المال الذي يطلبونه ، فعمل على قَصْدِ ابنِ عمٍ له
موسر ، وكان مقيماً بالرَّيِّ ، فجاء إلى عمه واسرائته ، فأخبرها بعزمه ، فصوبَّاه ووعداه
ألاَّ يُحْدِثَا حدثاً حتى يعود .

وصار في ليلةٍ رحيله إلى عَفْرَاءَ ، فجلس عندها هو وجوارى الحى يتحدثون
حتى أصبحوا ، ثم ودَّعها وودَّع الحى ، وشدَّ على راحلته ، وصحَّبه في طريقه
فَتَيَّانَ كانا يألِفَانِه ، وكان في طول سفره ساهما يكلمانه فلا يفهم ، فِكْرُهُ في عَفْرَاءَ
حتى يَرُدَّا عليه القولُ مِراراً .

(١) الوفّر : النفي . (٢) عرضة لذلك : أى أهلاً لذلك . (٣) ألطفها : برها .

(٤) الشطر : النصف .

وسار إلى أن قدم على ابن عمه ، فلقىّه ، وعرفّه حاله وما قدم له ، فوصله وكساه ، وأعطاه مائةً من الإبل ، فانصرف بها إلى أهله .

وقد كان رجلٌ من أهل الشام من أنساب بني أمية نزل في حيّ عَفْرَاءَ ، فَخَرَّ وَوَهَبَ وَأَطْعَمَ ، وكان ذا مال ، فرأى عَفْرَاءَ ، وكان منزله قريباً من منزلهم ، فأعجبته وخطبها إلى أبيها ، فاعتذر إليه وقال : قد سميتها إلى ابن أخٍ لي يعدُّ لها عندي ، وما إليها لغيره سبيل . فقال له : إني أرغبُك في المهر ، قال : لا حاجة لي بذلك ؛ فعَدَلَ إلى أمِّها ، فوافق عندها قبولاً لبذلّه . ورغبت في ماله ، فأجابته ووعدته ، وجاءت إلى عقل وقالت : أيُّ خير في عُرْوَةٍ حتى تحبس ابنتي عليه وقد جاءها الغنى يَطْرُقُ عليها بابها ؟ والله ما تدري أعرُوة حتى أم ميت ؟ وهل ينقلبُ إليك بخير أم لا ؟ فتسكون قد حرمت ابنتك خيراً حاضراً ورزقاً سنياً ، فلم تزل به حتى قال لها : فإن عاد لي خاطباً أجبتُه .

فوجهت إليه : أن عُدَّ إليه خاطباً . فلما كان من غد نَحَرَ جُزْراً عِدَّةً ، وأطعم ووهب ، وجمع الحىّ معه على طعامه ، وفيهم أبو عَفْرَاءَ ، فلما طعموا أعاد القول في الخطبة ، فأجابه وزوجه ، وساق إليه المهرَ وحَوَّاتٍ إليه عَفْرَاءَ ، وقالت قبل أن يدخلَ بها :

يَا عُرْوَةُ إِنَّ الْحَيَّ قَدْ نَقَضُوا عَهْدَ الْإِلَهِ وَحَاوَلُوا الْعَذْرَا

فلما كان الليلُ دخلَ بها زوجها ، وأقام فيهم ثلاثاً ، ثم ارتحلَ بها إلى الشام ، وعمدَ أبوها إلى قَبْرِ عَتِيقٍ فجَدَّدَهُ وَسَوَّاهُ ، وسأل الحىّ كَيْثَمَانَ أَمْرَهَا .

وقدم عُرْوَةَ بعد أيام ، فنعاها أبوها إليه ، وذهب به إلى ذلك القبر ، فمكثَ
يختلفُ إليه أياما وهو مُضْنَى هالك ، حتى جاءتَه جاريةٌ من جَوَارِي الحَيِّ فأخبرتهُ
الخبر ؛ فتركهم وركبَ بمضِ إبله وأخذ معه زادا ونفقةً ، ورحل إلى الشام ففقدَ منها ،
وسأل عن الرجل ، فأخبرَ به ودُلَّ عليه ، فقصده وانتسب إليه في عَدَنان ، فأكرمه
وأحسن ضيافته ، فمكثَ أياما حتى أنسوا به .

ثم قال للجاريةِ لهم : هل لك في يدِ تَوَائِينِها ؟ قالت : نعم ، قال : تدفعين
خاتمي هذا إلى مولاتك ، فقالت : سوءةٌ لك ! أما تستحي لهذا القول ! فأمسك عنها
ثم أعاد عليها ، وقال لها : ويحك ! هي والله بنتُ عَمِي ، وما أحدٌ مِنَّا إلا وهو أعزُّ
على صاحبه من الناس ، فاطرحي هذا الخاتم في صَحْفاها ، فإن أنكرتُ عليك
فقولي لها : اصْطَبَحَ ضيفُك قبلك ، ولعله سقطَ منه !

فرقت له الجارية ، وفعلت ما أمرها به ، فلما شربَت عُقْرَاء اللبَن رأت الخاتم
فعرفته فشهقت ، ثم قالت لجاريتهما : اصدقيني الخبر ، فصَدَقَتها ، فلما جاء زوجها
قالت له : أتدري مَنْ ضيفُك هذا ؟ قال : نعم ! فلان ابن فلان (للنسب الذي
انتسبه له عروّة) . فقالت : كلا والله ، بل هو عُرْوَةُ بن حزام ابن عَمِي ، وقد كتمك
نفسه حياءً منك .

فبعث إليه ، فدعاه وعاتبه على كِثْمَانِهِ نفسه إياه ، وقال له : بالرحب والسعة ،
نشدتك الله إن رِمْتُ^(١) هذا المكان أبدا ، وخرج وتركه مع عُقْرَاء يتحدثان ،
وأوصى خادما له بالاستماع عليهما ، وإعادة ما تسمعه منهما عليه .

(١) رام المكان : برحه وتركه .

فلما خلوا تشاكياً ما وجدَا بعد الفراق ، فطالت الشكوى وهو يبكي أحراً
بكاء ، ثم أتته بشراب ، وسألته أن يشربه ، فقال : والله ما دخل في جوفى حرام
قط ، ولا ارتكبته منذ كنت ، ولو استحللتُ حراماً لكنتُ قد استحللته منك ،
فأنتِ حظي من الدنيا ، وقد ذهبتِ مني وذهبتُ بعدك فما أعيش ، وقد أجل هذا
الرجل الكريم وأحسن ، وأنا أستحي منه ، والله لا أقيمُ بعدَ علمه مكانى ، وإني
عالم أنى راحِلٌ إلى مِنِّي ، فبكيت وبكى وانصرف .

فلما جاء زوجها أخبرته الجارية بما دار بينهما ، فقال : يا عفراء ؛ امنعى ابن
عمك من الخروج ، فقالت : لا يمتنع ، هو والله أكرم وأشدُّ حياء من أن يقيمَ بعد
ما جرى بينكما ؛ فدعاه وقال له : يا أخى ؛ اتقِ الله فى نفسك ، فقد عرفتُ خبرك ؛
وإنك إن رحلتَ تَلِفْتَ ، والله لا أمتنعُ من الاجتماع معها أبداً ، ولئن شئتُ
لأفارقنها ، ولأنزلنَّ عنها لك ، فقال له : جزاك الله خيراً وأثنى عليه . وقال : إنما
كان الطمعُ إليها آفتى ، والآن قد يئستُ . وحملتُ نفسى على الصبر ، فإن اليأسَ
يسلى ، ولِى أمورٌ لا بدَّ من رجوعى إليها ، فإن وجدتُ بى قوة على ذلك ، وإلا
عدتُ إليكم وزرْتُكم حتى يقضى الله من أمرى ما يشاء ؛ فزودوه وأكرموه
وشيعوه ؛ فانصرف .

فلما رحل عنهم نكس بعد صلاحه وتماسكه ، وأصابه غنى وخفقان ، فكان
كَلِّماً أغمى عليه ألقي على وجهه خِاراً لعفراء زودته إياه فيفريق .

ولقيه فى الطريق ابنُ مكحول عرافُ اليمامة ، فرآه وجلس عنده وسأله عما به
وهل هو خبل أوجنون ؛ فقال له عروة : ألك علم بالأوجاع ؟ قال : نعم ، فأنشأ يقول :

ما بى من خبل ولا بى جنة ولكن عى يا أخى كذوب
أقول لمراف اليمامة داوئى فإنك إن داوئتنى لطبيب
فيا كبداً أمت رفاتاً كأنما يلدعها بالموقدات طيب
عشية لا عفراء منك بعيدة فسلو ولا عفراء منك قريب
فو الله لأنساك ما هبت الصبا وما عفتها فى الرياح جنوب
وإنى لتعرونى لذكر الكهزة لها بين جلدى والعظام ديب

وقال يحاطبٌ صاحبيه بقصته :^(١)

خللى من علياً هلال بن عامر بصنماء عوجا اليوم وانتظرانى
ولا ترهدا فى الأجر عندى وأجلا فإنكما بى اليوم مبتليان
ألبا على عفراء إنكما غداً يوشك النوى والبين مغترفان
فيا واشيى عفرا دعائى ونظرة تقرأ بها عينائى ثم كلالى
أغر كما منى قميص لبسته جديد وبردا يمتنه زهيان
متى تكشفا عنى القميص تبينا بى الصر من عفراء يفتيان
وتمترفا لما قليلا وأعظما بلين وقلبا دائم الخفقان
على كبدى من حب عفراء قرحة وعينائى من وجد بها تكفان
فمفراء أرحى الناس عندى مودة وعفراء عنى الممرض^(٢) المتوانى
فيا ليت كل اثنين بينهما هوى من الناس والأنعام يلتقيان

(١) راجع هذه القصيدة بتمامها من ١٥٨ إلى ١٦٢ من ذيل الأمالى طبعة دار الكتب .
(٢) قال صاحب الأمالى : ذكر الممرض ، لأنه أراد : وعفراء عنى الشخص الممرض ، أو ذكره بناء على التشبيه وأراد : وعفراء عنى مثل الممرض .

فيقضى حبيبٌ من حبيبٍ لُبَّانَةً ويرى عَاهَا رَبِّي فـلَا يُرِيَانِ
 هَوَى نَاقَتِي خَلْفِي وَقَدَّامِي الهَوَى وإِنِّي وَإِيَاهَا لَمُخْتَلِفَانِ
 تَحَمَّلْتُ مِنْ عَفْرَاءٍ مَا لَيْسَ لِي بِهِ وَلَا لِلْجِبَالِ الرَّاسِمَاتِ يَدَانِ
 كَانَ قِطَاعًا عَلَّقْتُ بِمِخْنَا حَهَا عَلَى كَبِدِي مِنْ شِدَّةِ الْخَفْقَانِ
 وَقَدْ تَرَكْتَنِي لَا أَعَى لِمُحَدَّثٍ حَدِيثًا وَإِنْ نَاجَيْتُهُ وَنَجَانِي
 جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِنْ هَا شَفِيَانِي
 فَقَالَا : نَعَمْ نَشْفِي مِنْ الدَّاءِ كُلَّهُ وَقَامَا مَعَ الدُّوَادِ يَبْتَدِرَانِ
 فَمَا تَرَكََا مِنْ رُقِيَّةٍ يَعْلَمَانِيهَا وَلَا شَرْبَةٍ إِلَّا وَقَدْ سَقِيَانِي
 وَمَا شَفِيَا الدَّاءَ الَّذِي بِي كُلَّهُ وَلَا ذَخْرًا نَضْعًا وَلَا أَلْوَانِي (١)
 وَقَالَا : شَفَاكَ اللَّهُ ، وَاللَّهُ مَا لَنَا بِمَا ضُمَّنْتَ مِنْكَ الضُّلُوعُ يَدَانِ
 فَوَيْلِي عَلَى عَفْرَاءٍ وَيَلَّا كَأَنَّهُ عَلَى الصَّدْرِ وَالْأَحْشَاءِ حَدٌّ سِنَانِ
 أَحَبُّ ابْنَةِ الْعَذْرَى حَبًّا وَإِنْ نَأَتْ وَدَانَيْتُ فِيهَا غَيْرَ مَا مُتَدَانِ
 فَيَارِبُّ أَنْتَ السَّمْعَانُ عَلَى الَّذِي تَحَمَّلْتُ مِنْ عَفْرَاءٍ مِنْذُ زَمَانِ

ثم تُوفى (٢) وهو راجع بالشام . ولما بلغ عَفْرَاءُ مَوْتَهُ قَالَتْ لَزَوْجِهَا : قَدْ كَانَ مِنْ
 خَيْرِ ابْنِ عَمِي مَا بَلَغَكَ ، وَوَاللَّهِ مَا عَرَفْتُ مِنْهُ قَطُّ إِلَّا الْحَسَنَ ، وَقَدْ مَاتَ فِي وَبَسْبِي ؛
 وَلَا بُدَّ لِي مِنْ أَنْ أُنْدَبَهُ فَأَقِيمَ مَا تَمَّا عَلَيْهِ : قَالَ : أَفْعَلِي ؛ فَمَا زَالَتْ تَنْدَبُهُ ثَلَاثًا حَتَّى تُوُفِيَتْ
 فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ ، وَبَلَغَ مَعَاوِيَةَ بْنُ أَبِي سَفْيَانَ خَبْرَهُمَا ؛ فَقَالَ : لَوْ عَلِمْتُ بِحَالِ هَذَيْنِ
 الْحَرَّيْنِ الْكَرِيمَيْنِ لَجَمَعْتُ بَيْنَهُمَا .

(١) أَلْوَانِي : قَصْرًا فِي حَقِي (٢) انْظُرِ الْقِصَّةَ التَّالِيَةَ .

٤٤ - قتيل الحب *

قال النعمان بن بشير :

استعملني معاويةُ على صدقاتِ بَلِيٍّ ^(١) وعُدْرَةٍ ؛ فإني لَئِنِ بعضُ مياهم إذا أنا
بيت مُنْجَرِدٍ ^(٢) ناحيةً ، وإذا بفنائه رجلٌ مُسْتَلَقٍ ، وعنده امرأةٌ ، وهو يقول ،
أَوْ يَتَغَنَّى بهذه الأبيات :

جملتُ لعرّافِ اليمامةِ حُكْمَهُ وعرّافِ نَجْدٍ إنْ هُما شَقِيَانِي
فقالا : نعم ، نَشْنِي من الداءِ كُلَّهُ وقامامعِ العُودِ يَبْتَدِرَانِ
فما تركا من رُقِيَةٍ يعلماها ولا سَلَوَةٍ إِلَّا وَقَدْ سَقِيَانِي
فقالا : شفاك الله ، والله مالنا بما حُمِلَتْ منك الضلوعُ يَدَانِ
فقلتُ لها : ما قِصَّتُهُ ؟ فقالت : هو مريضٌ ، ما تكلم بكلمة ، ولا أنْ أَنَّةً منذ
وقت كذا وكذا إلى الساعة ، ثم فَتَحَ عينيه ، وأنشأ يقول :

مَنْ كَانَ مِنْ أُمَّهَاتِي بَاكِياً أَبَداً فالْيَوْمَ إِنْ أَرَانِي اليَوْمَ مقبوضا
يُسْمَعُنِيهِ ، فَإِنِّي غَيْرُ سَامِعِهِ إِذَا حُمِلْتُ عَلَى الْأَعْنَاقِ مَعْرُوضا
نَمْ خَفَّتْ فَاتٌ ، ففَمَضَتْهُ وَغَسَلَتْهُ ، وصليتُ عليه ودَفَنْتُهُ ، وقلتُ للمرأة :
من هذا ؟ فقالت : هذا قتيلُ الحبِّ ! هذا عُرْوَةُ بنِ حزام !

* ذيل الأمل : ١٥٧ .

(١) بلي وعُدرة : قيلتان . (٢) منحرد : منفرد بمنزل .

٤٥ — قيس ولبنى *

— ١ —

كان منزلُ قَيْسٍ ^(١) في ظَاهِرِ المدينة ، وكان هو وأبوه من حَاضِرَةِ المدينة ؛
فَرَقَيْسُ لِبْعُضِ حاجته بِخِيَامِ بَنِي كَعْبِ بْنِ خَزَاعَةَ ؛ فَوَقَفَ عَلَى خَيْمَةٍ مِنْهَا ؛
وَالْحَيُّ خُلُوفٌ ^(٢) ، وَالْحِيَمَةُ خَيْمَةُ لُبْنَى بِنْتِ الْحُبَابِ الْكَعْبِيَّةِ ، فَاسْتَسْقَى مَاءً ،
فَسَقَتْهُ وَخَرَجَتْ إِلَيْهِ بِهِ ، وَكَانَتْ امْرَأَةً مَدِيدَةً الْقَامَةِ شَهْلَاءَ ^(٣) حُلُوةَ الْمَنْظَرِ
وَالْكَلَامِ .

فَلَمَّا رَأَاهَا وَقَعَتْ فِي نَفْسِهِ ، وَشَرِبَ الْمَاءَ ؛ فَقَالَتْ لَهُ : أَنْزِلْ فَتَتَبَرَّدَ عِنْدَنَا ؟
قَالَ : نَعَمْ ؛ فَتَزَلَّ بِهِمْ . وَجَاءَ أَبُوهَا فَفَتَحَ لَهُ وَأَكْرَمَهُ ؛ فَانصَرَفَ قَيْسٌ وَفِي قَلْبِهِ
مِنْ لُبْنَى حَرٌّ لَا يُطْفَأُ ، فَجَعَلَ يَنْطِقُ بِالشَّعْرِ فِيهَا حَتَّى شَاعَ وَرُوي .
نَمِ أُنَامُهَا يَوْمًا آخِرَ ، وَقَدْ اشْتَدَّ وَجْدُهُ بِهَا ، فَسَلَّمَ فَظَهَرَتْ لَهُ وَرَدَّتْ سَلَامَهُ ،
وَتَحَفَّتْ ^(٤) بِهِ ؛ فَشَكَا إِلَيْهَا مَا يَجِدُ بِهَا وَمَا يَلْقَى مِنْ حُبِّهَا ، وَشَكَتَ إِلَيْهِ مِثْلَ ذَلِكَ
فَأُطَالَتْ ؛ وَعَرَفَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَالَهُ عِنْدَ صَاحِبِهِ .

* الْأَغَانِي : ٩ - ١٨١ .

(١) هُوَ قَيْسُ بْنُ ذَرِيعٍ مِنْ كِنَانَةَ ، كَانَ هُوَ وَأَبُوهُ مِنْ حَاضِرَةِ الْمَدِينَةِ ، وَاشْتَهَرَ قَيْسُ بِحُبِّهِ لُبْنَى
بِنْتَ الْحُبَابِ الْكَعْبِيَّةِ ، وَهِيَ الَّتِي أَلْهَمَتْهُ الْقَوْلَ وَأَطَقَتْهُ بِالشَّعْرِ ، تَوَفَّى نَحْوَ سَنَةِ ٧٠ هـ (٢) خُلُوفٌ :
غَيْبٌ (٣) الشَّهْلَاءُ : الَّتِي يَحَالِطُ سَوَادَ عَيْنَيْهَا زُرْقَةً (٤) تَحَفَّتْ : بَالَتْ فِي إِكْرَامِهِ ، وَأُظْهِرَتْ
السُّرُورَ وَالْفَرَحَ .

فانصرف إلى أبيه وأعلمه حاله ، وسأله أن يزوجه إياها . فأبى عليه ، وقال :
يا بُنَيَّ ؛ عليك يا حُدَي بناتِ عمك ، فمنَّ أحقُّ بك - وكان ذَرِيحٌ كثيرَ المالِ
مُوسِراً ، فأحبَّ ألاَّ يخرج ابنه إلى غَريبتِه .

فانصرف قيسٌ ، وقد ساء ما خاطبه أبوه به ، فأبى أمه فشكا ذلك إليها ،
واستعان بها على أبيه ؛ فلم يجد عندها ما يحبُّ .

فأتى الحسين بن علي بن أبي طالب وابن أبي عتيق ، فشكا إليهما ما به وما ردَّ
عليه أبوه . فقال له الحسينُ : أنا أَكْفِيكَ . فمشى معه إلى أبي لُبْنى ؛ فلما
بَصُرَ به أعظمه وَوَتَّبَ إليه وقال له : يا بنَ رسولِ الله ؛ ما جاء بك ؟ ألاَّ بعثتُ إلىَّ
فأُتيتُكَ ! قال : إن الذي جئتُ فيه يُوجبُ قصْدَكَ ، وقد جئتُكَ خاطباً ابنتَكَ
لُبْنى لقيس بن ذَرِيح . فقال : يا بنَ رسولِ الله ؛ ما كنا لنُعصى لك أمراً ، وما بنا
عن الفتى رَغْبَةً ؛ ولكنَّ أَحَبَّ الأمرِ إلينا أن يُخطبها ذَرِيح أبوه ، وأن يكون ذلك
عن أمرِه ؛ فإننا نخافُ إن لم يَسْمَعْ أبوه في هذا أن يكون عاراً وَسُبَّةً علينا .

فأتى الحُسَيْنُ رضى الله عنه ذَرِيحاً وقومه وهم مجتمعون ، فقاموا إليه إعظاماً له ،
وقالوا له مثل قول الخُزَاعِيِّينَ ^(١) . فقال لذرِيح : أقسمتُ عليك إلا خطبتَ لُبْنى
لابنتِكَ قيس . قال : السَّمْعُ والطاعة لأمرِكَ .

فخرج معه في وجوهٍ من قومه حتى أتوا دار لُبْنى ، فخطبها ذَرِيحٌ على ابنه
إلى أبيها ، فزوجها به إياها وزُفَّتْ إليه بعد ذلك ، فأقامت معه مُدَّةً لا يُتكرَّرُ أحدٌ
من أصحابه شيئاً .

(١) الخُزَاعِيُّونَ : قوم لبني .

وكان أبرّ الناسِ بأمّه ، فألّهتهُ لبني وعكوفه عليها عن بعض ذلك ، فوجدت أمّه في نفسها وقالت : لقد شغلت هذه المرأة ابني عن برّي ، ولم تر للكلام في ذلك موضعاً حتى مريض مرضاً شديداً . فلما برأ عن علته قالت أمّه لأبيه : لقد خشيتُ أن يموتَ قيس وما يترك خلفاً وقد حرّم الولد من هذه المرأة ، وأنتَ ذو مال فيصير مالك إلى الكلالة^(١) ، فزوّجهُ بغيرها لعل الله أن يرزقه ولداً ؛ وألحّت عليه في ذلك .

فأمهلَ قيساً حتى إذا اجتمع قومه دعاه فقال : يا قيسُ ؛ إنك اعتلّلت هذه العلة فخيّفتُ عليك ولا ولدَ لك ولا لي سواك ، وهذه المرأة ليست بوأود ؛ فتزوج إحدى بناتِ عمك ؛ لعلّ الله أن يهبَ لك ولداً تقرّ به عينك وأعيننا .

فقال قيس : لست متزوجاً غيرها أبداً ؛ فقال له أبوه : فإن في مالي سعة فتسرّ بالإماء ، قال : ولا أسوءها بشيء أبداً والله . قال أبوه : فإني أقسم عليك ألا تطلقها . فأبى وقال : الموت والله على أسهل من ذلك ، ولكني أخيرك خصلة من ثلاث خصال . قال : وما هي ؟ قال : تتزوج أنت فلعلّ الله أن يرزقك ولداً غيري . قال : فما فيّ فضلةٌ لذلك . قال : فدعني أرتحل عنك بأهلي واصنع ما كنتَ صانعاً لو مت في علتي هذه . قال : ولا هذه . قال : فادعُ لبني عندك وأرتحل عنك فلعلي أسلوها فإني ما أحبُّ بعد أن تكون نفسي طيبةً أنها في خيالي .

قال : لا أرضي أو تطلقها ، وحلف لا يكرهه سقْفُ بيت أبداً ، حتى يطلق لبني ، فكان يخرج فيقف في حرّ الشمس ويحییء قيس فيقف إلى جانبه فيظله

(١) يراد بالكلالة هنا : من عدا الأب والابن من الورثة .

بردائه ، وَيَصَلِّيْهُ هُوَ بِحَرِّ الشَّمْسِ حَتَّى يَبْنِيَ النَّفْسَ^(١) فَيَنْصَرِفُ عَنْهُ ، وَيَدْخُلُ إِلَى
لُبْنَى فَيَعَانِقُهَا وَتَعَانِقُهُ ، وَيَبْكِي وَتَبْكِي مَعَهُ ، وَتَقُولُ لَهُ : يَا قَيْسُ ! لَا تُطِيعَ أَبَاكَ فَتَهْلِكَ
وَتَهْلِكَنِي. فَيَقُولُ : مَا كُنْتُ لِأَطِيعَ أَحَدًا فَيْكَ أَبَدًا ، وَمَكَثَ كَذَلِكَ سَنَةً ثُمَّ طَلَّقَهَا.

فَلَمَّا بَانَتْ لُبْنَى بِطَلَاقِهِ ، وَفُرِغَ مِنَ الْكَلَامِ لَمْ يَلْبَثْ حَتَّى اسْتَطِيرَ عَقْلُهُ وَذَهَبَ
بِهِ ، وَلَحِقَهُ مِثْلُ الْجَنُّونِ ، وَتَذَكَّرَ لُبْنَى وَحَالَهَا مَعَهُ ، فَأَسِيفَ وَجَلَ يَبْكِي وَيَنْشِجُ^(٢)
أَحْرًا نَشِيجًا . وَبَلَغَهَا الْخَبْرَ فَأَرْسَلَتْ إِلَى أَبِيهَا لِيَحْمِلَهَا ؛ فَأَقْبَلَ أَبُوهَا بِهَوْدَجٍ عَلَى
نَاقَةٍ وَيَابِلٍ تَحْمِلُ أَثْنَاهَا .

فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَيْسٌ أَقْبَلَ عَلَى جَارِيَتِهَا فَقَالَ : وَيَحْكُ ! مَا دَهَاكَ فِيمَكَ ؟ فَقَالَتْ :
لَا تَسْأَلَنِي وَسَلْ لُبْنَى ، فَذَهَبَ لِيُحْمِلَ بِخَبَائِثِهَا فَيَسْأَلُهَا ، فَفَنِعَمَ قَوْمُهَا . فَأَقْبَلَتْ عَلَيْهِ
امْرَأَةٌ مِنْ قَوْمِهِ فَقَالَتْ لَهُ : مَا لَكَ ؟ وَيَحْكُ ! تَسْأَلُكَ جَاهِلٌ أَوْ مُتَجَاهِلٌ ! هَذِهِ
لُبْنَى تَرْتَحِلُ اللَّيْلَةَ أَوْ غَدًا ، فَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ لَا يَعْقِلُ ، ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ يَقُولُ :

وَإِنِّي لَمُفْنٍ دَمَعُ عَيْنِي بِالْبُكَاءِ حِذَارَ الَّذِي قَدْ كَانَ أَوْ هُوَ كَائِنُ
وَقَالُوا : غَدًا أَوْ بَعْدَ ذَلِكَ بَلِيلَةٍ فِرَاقُ حَبِيبٍ لَمْ يَبِينْ وَهُوَ بَائِنُ
وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ تَكُونَ مَنِيَّتِي بِكَفِّكَ إِلَّا أَنَّ مَاحَانَ حَائِنُ

ثُمَّ التَفَتَ فَرَأَى غُرَابًا سَقَطَ قَرِيبًا مِنْهُ ، فَجَعَلَ يَنْعِقُ مِرَارًا ، فَتَطِيرُ مِنْهُ وَقَالَ :

لَقَدْ نَادَى الْغُرَابُ بَيْنَ لُبْنَى فَطَارَ الْقَلْبُ مِنْ حَذَرِ الْغُرَابِ
وَقَالَ : غَدًا تَبَاعَدُ دَارُ لُبْنَى وَتَنَاقَى بَعْدَ وَدِّ اقْتِرَابِ

(٢) النشيج : أن يفص الباكى بالبكاء من

(١) النفس : ما كان شمساً فينسخه الظل
غير انتحاب .

فقلت : نَعِسْتَ وَيْحَكَ من غرابٍ وكان الدهرَ سَمِيكَ في تَبَابٍ
ومنعه قَوْمُهُ من الإِلَامِ بها ؛ فقال :

أَلَا يَا غَرَابَ الْبَيْنِ ؛ وَيْحَكَ ! نَبَنِي بِعِلْمِكَ في لُبْنَى وَأَنْتَ خَيْرُ
فَإِنَّ أَنْتَ لَمْ تُخْبِرْ بِمَا قَدْ عَلِمْتَهُ فَلَا طَرْتَ إِلَّا وَالْجَنَاحُ كَسِيرُ
وَدُرْتُ بِأَعْدَاءِ حَبِيبِكَ فِيهِمْ كما قَدْ تَرَانِي بِالْحَبِيبِ أَدُورُ

ثم أَذْخَلْتَ في هُودَجِها ، وَرَحَلْتَ وَهِيَ تَبْكِي ! فَاتَّبَعَهَا وَهُوَ يَقُولُ :

أَلَا يَا غَرَابَ الْبَيْنِ ؛ هَلْ أَنْتَ مُخْبِرِي بِخَيْرٍ كَمَا خَبَّرْتَ بِالنَّأْيِ وَالشَّرِّ
وَقُلْتَ : كَذَلِكَ الدَّهْرُ مَا زَالَ فَاجِعًا صَدَقْتَ ، وَهَلْ شَيْءٌ يَبَاقِي عَلَى الدَّهْرِ

ثم عَلِمَ أَنَّ أَبَاهَا سَيَمْنَعُهُ مِنَ الْمَسِيرِ مَعَهَا ؛ فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَيَبْكِي ، حَتَّى غَابُوا
عَنْ عَيْنِهِ ، فَفَكَّرَ رَاجِعًا ؛ وَنَظَرَ إِلَى أَثَرِ خُفِّ بَعِيرِهَا ؛ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ يَقْبَلُهُ ، وَرَجَعَ
يَقْبَلُ مَوْضِعَ مَجْلِسِهَا وَأَثَرَ قَدَمِهَا ؛ فَلَيَّمْ عَلَى ذَلِكَ وَعَنَقَهُ قَوْمُهُ عَلَى تَقْبِيلِ التُّرَابِ ،
فَقَالَ :

وَمَا أَحْبَبْتُ أَرْضَكُمْ وَلَكِنْ أَقْبَلُ إِثَرَ مَنْ وَطِئَ التُّرَابَا
لَقَدْ لَا قَيْتُ مِنْ كَلْفِي بِلُبْنَى بَلَاءٌ مَا أُسِيغُ بِهِ الشَّرَابَا
إِذَا نَادَى الْمَنَادَى بِاسْمِ لُبْنَى عَيْتُ فَمَا أَطِيقُ لَهُ جَوَابَا
وَقَالَ ، وَقَدْ نَظَرَ إِلَى آثَارِهَا :

أَلَا يَا رَبَعَ لُبْنَى مَا تَقُولُ ؟ أَبْنَى لِي الْيَوْمَ مَا فَعَلَ الْحُلُولُ
فَلَوْ أَنَّ الدِّيَارَ تُجِيبُ صَبًّا لَرَدَّ جَوَابِي الرَّبْعُ الْمُحِيلُ
وَلَوْ أَنِّي قَدَرْتُ غَدَاةَ قَالَتْ : غَدَرْتُ ، وَمَاءَ مُقْلَنَهَا يَسِيلُ

نحرتُ النفسَ حينَ سمعتُ منها مقاتلها ذاكَ لها قليبٌ —
 شفيتُ غليلَ نفسي منِ فعالي ولم أغبرْ بلا عقولِ أجولُ
 كَأَنِّي وَاللَّهِ بفراقِ لُبِّي — تهيمُ بفقدِ واحدِها تُكولُ
 أَلَا يا قلبُ ويحكُ اكنَ جليداً ؛ فقد رحلتْ، وفات بها الذَّميلُ^(١)
 فإنك لا تُطيقُ رجوعَ لُبِّي إذا رحلتْ ، وإن كثرَ العويلُ
 وكَم قد عشتَ ؟ كم بالقُربِ منها ! ولكنَّ الفراقَ هو السبيلُ
 فصبراً ؛ كلُّ مؤثلقينِ يوماً من الأيامِ عيشهُما ينزلُ

فلما جَنَّ عليه الليلُ وانفرد ، وأوى إلى مضجعه لم يأخذهُ القرار ، وجعل
 يتململُ فيه تملُّلَ السليم ، ثم وثبَ حتى أتى موضعَ خبائها ؛ فجعل يتمرغ فيه
 ويسكى ويقول :

بَتْ وَاللَّهِ يَا لِبَنِي ضَجِيعِي وجرتْ مذْ نأيتِ عني دُمُوعِي
 وتنفستُ إذ ذكركَ حتى زالتِ اليومَ عن فؤادي ضُلُوعِي
 أَتَنَاسَكِ كَي يُرِيعَ^(٢) فؤادي ثم يشتدُّ عند ذاكَ وَلُوعِي
 يَا لِبَنِي ! فَدَتِكَ نَفْسِي وَأَهْلِي ! هل لدهرٍ لنا من رجوع

ومرَّضَ قيسٌ ، فسأل أبوه فتياتِ الحَيِّ أَنْ يَعُدَّنَه ويحدثنَه ، لعلَّه أن يتسلى
 ففعلن ذلك ، ودخل الطبيبُ إليه ليداويه ، والفتيات معه ؛ فلما اجتمعن عنده جعلن
 يحادثنه ، وأطالن السؤال عن سبب علته ، فقال :

(١) الذمیل : السیر اللین (٢) يریع : يحيد .

عَمِدَ قَيْسٌ مِنْ حُبِّ لُبْنَى، وَلُبْنَى دَاءُ قَيْسٍ، وَالْحُبُّ دَاءٌ شَدِيدُ
وَإِذَا عَادَنِي الْعَوَائِدُ يَوْمًا قَالَتِ الْعَيْنُ: لَا أَرَى مِنْ أُرِيدُ
لَيْتَ لُبْنَى تَعُودَنِي ثُمَّ أَقْضَى إِنَّهَا لَا تَعُودُ فَيَمْنُ يَعُودُ
وَيَنْحَ قَيْسٌ لَقَدْ تَضَمَّنَ مِنْهَا دَاءُ حَبْلٍ، فَالْقَلْبُ مِنْهُ عَمِيدُ
فَقَالَ لَهُ الطَّبِيبُ: مَنْذُ كَمْ هَذِهِ الْعَالَةُ؟ وَمَنْذُ كَمْ وَجَدْتَ بِهِذِهِ الْمَرْأَةَ مَا وَجَدْتَ؟
فَقَالَ:

تَعْلَقُ رُوحِي رُوحَهَا قَبْلَ خَلْقِنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا كُنَّا نَطَافًا وَفِي الْمَهْدِ
فَزَادَ كَمَا زِدْنَا، فَأَصْبَحَ نَامِيًا وَلَيْسَ إِذَا مُتْنَا بِمُنْصَرِمِ الْعَهْدِ
وَلَكِنَّه بَاقٍ عَلَى كُلِّ خَادَثٍ وَزَاثِرُنَا فِي ظُلْمَةِ الْقَبْرِ وَاللَّحْدِ

فَقَالَ لَهُ الطَّبِيبُ: إِنَّ مِمَّا يَسْلِيكَ عَنْهَا أَنْ تَتَذَكَّرَ مَا فِيهَا مِنَ الْمَسَاوِي وَالْمَعَايِبِ،
وَمَا تَعَاوُ النَّفْسُ مِنْ أَقْدَارِ بَنِي آدَمَ، فَإِنَّ النَّفْسَ حِينْتَدِرُ تَبْوَ وَتَسْلُو وَيَخْفُ مَا بَهَا،
فَقَالَ:

إِذَا عَيْتُهَا شَبَهَتْهَا الْبَدْرَ طَالِعًا وَحَسْبُكَ مِنْ عَيْبٍ بِهَا شَبَهُ الْبَدْرِ
لَقَدْ فَضَّلْتُ لُبْنَى عَلَى النَّاسِ مِثْلَ مَا عَلَى أَلْفِ شَهْرِ فَضَّلْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ

وَدَخَلَ أَبُوهُ وَهُوَ يَخَاطِبُ الطَّبِيبَ بِهِذِهِ الْخَاطِبَةِ، فَأَنْبَهَ وَلامَهُ، وَقَالَ لَهُ:
يَا بَنِي! اللَّهُ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ! فَإِنَّكَ مَيِّتٌ إِنْ دُمْتَ عَلَى هَذَا، فَقَالَ:

وَفِي عُرْوَةِ^(١) الْعَذْرَى إِنْ مِتُّ أَسْوَةٌ وَعَمْرُو^(٢) بَنُ عَجَلَانَ الَّذِي قَتَلْتَ هِنْدُ

(١) هو عروة بن حزام أحد التميميين الذين قتلهم الهوى (انظر صفحة ١١٣) (٢) شاعر جاهلي
أحد من قتلهم الحب، وكان له زوجة يقال لها هند فطلقها ثم ندم عليها، ولما تزوجت زوجاً غيره
مات أسفاً (الأغاني ص ١٠٢، ج ١٩).

وبى مثل ما ماتا به ، غير أننى إلى أجـل لم يأتنى وقتـه بعد
هل الحب إلا عـبرة بعد زفرة وحـر على الأحشاء ليس له برـد
وفـيض دموع تستهل إذا بدا لنا علم من أرضكم لم يكن بيدو

ولمّا طال على قيس ما به من الأمر بعد طلاق لُبْنى ، أشار قومـه على أبيه بأن
يزوجه امرأة جميلة ، فلهـله أن يسألوا بها عن لُبْنى ؛ فدعاه إلى ذلك فأباه وقال :

لقد خفتُ ألا تقنع النفس بعدها بشيء من الدنيا وإن كان مقنعاً
وأزجر عنها النفس إذ حيلَ دونها وتأبى إليها النفس إلا تطلّماً

فأعلمهم أبوه بما ردّ عليه . قالوا : فمَرّه بالمسير في أحياء العرب والنزول عليهم
فأعلمّ عينه أن تقع على امرأة تُعجبه . فأقسم عليه أبوه أن يفعل .

فسار حتى نزل بحى من فزارة ، فرأى جارية حسناء قد حسرت برقع خـز
عن وجهها وهى كالبدر ليلة تمّه ، فقال لها : ما اسمك يا جارية ؟ قالت : لُبْنى .
فسقط على وجهه مغشياً عليه ، فنصحت على وجه ماء وارتاعت لماعراه ، ثم
قالت : إن لم يكن هذا قيس بن ذريح إنه لـجنون ! فأفاق فـدسبته فانتسب .
فـقالت : قد علمت أنك قيس ، ولكن نشدتك بالله وبحق لُبْنى إلا أصبت من
طعامنا ؛ وقدّمت إليه طعاماً ، فأصاب منه بإصبعه ، وركب فأتى على أثره أخ لها كان
غائباً فرأى مناخ ناقته ؛ فسألهم عنه فأخبروه ، فركب حتى رده إلى منزله ، وحلف عليه
ليقيم عنده شهراً . فقال له : لقد شققت على ، ولكنى سأبـع هواك ، والفزاري

يزداد إعجاباً بحديثه وعقله وروايته ، فعرض عليه الصَّهر . فقال له : يا هذا ؛ إن فيك لرغبة ، ولكنني في شغل لا يُنتفع بي معه .

فلم يزل يُعاوِدُهُ والحيُّ يلومونه ويقولون له : قد خَشِينَا أَنْ يَصِيرَ عَلَيْنَا فِئْكَ سُبَّةً . فقال : دَعُونِي فِي مِثْلِ هَذَا الْفَتَى يَرْغَبُ الْكِرَامَ . فلم يزل به حتى أجابه ، وعقدَ الصَّهرَ بينه وبينه على أُخْتِهِ الْمَسَاءَةِ لُبْنَى ، وقال له : أَنَا أُسَوِّقُ عَنْكَ صَدَاقَهَا . فقال : أَنَا وَاللَّهِ يَا أَخِي أَكْثَرُ قَوْمِي مَالًا . فَمَا حَاجَتُكَ إِلَى تَكْلَفِ هَذَا ؟ أَنَا سَائِرٌ إِلَى قَوْمِي وَسَائِقٌ إِلَيْهَا الْمَهْرَ . ففعل وأعلم أباه الذي كان منه ؛ فَسَرَّهُ وَسَاقَ الْمَهْرَ عَنْهُ .

ورجع إلى الْفَزَارِيِّينَ حَتَّى أَذْخَلَتْ عَلَيْهِ زَوْجَتَهُ ، فَلَمْ يَرَوْهُ هَشًّا إِلَيْهَا وَلَا دَنَّا مِنْهَا ؛ وَلَا خَاطِبَهَا بِحَرْفٍ وَلَا نَظَرَ إِلَيْهَا .

وأقام على ذلك أياماً كثيرة ؛ ثُمَّ أَعْلَمَهُمْ أَنَّهُ يَرِيدُ الْخُرُوجَ إِلَى قَوْمِهِ أَيَّامًا ، فَأَذِنُوا لَهُ فِي ذَلِكَ ؛ فَمَضَى لَوَجْهِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ، وَكَانَ لَهُ صَدِيقٌ مِنَ الْأَنْصَارِ بِهَا ، فَأَتَاهُ فَأَعْلَمَهُ الْأَنْصَارُ أَنَّ خَبَرَ تَزْوِيجِهِ بَلَّغَ لُبْنَى فَغَمَّهَا وَقَالَتْ : إِنَّهُ لَعَدَاوَر ! وَلَقَدْ كُنْتُ أُمْتَنِعُ مِنْ إِجَابَةِ قَوْمِي إِلَى التَّزْوِيجِ فَأَنَا الْآنَ أَجِيبُهُمْ .

وقد كان أبوها شكاً قَنِيسًا إِلَى مَعَاوِيَةَ ، وَأَعْلَمَهُ تَعَرَّضَهُ لَهَا بَعْدَ الطَّلَاقِ ، فَكُتِبَ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ يَهْدِرُ دَمَهُ إِنْ تَعَرَّضَ لَهَا ، وَأَمَرَ أَبَاهَا أَنْ يَزَوِّجَهَا رَجُلًا يَعْرِفُ مَخَالِدَ بْنَ حِلْزَةَ ، فَزَوَّجَهَا أَبُوهَا مِنْهُ ، فَجَعَلَ نِسَاءَ الْحَيِّ يَقْلُنَ لَيْلَةَ زِفَافِهِ :

لُبْنَى زَوْجُهَا أَصْبَحَ لَا حُرَّ بَوَادِيهِ
لَهُ فَضْلٌ عَلَى النَّاسِ بِمَا بَاتَتْ تَنَاجِيهِ
وَقَيْسٌ مَيِّتٌ حَيٌّ صَرِيحٌ فِي بَوَاكِيهِ
فَلَا يُبْعِدُهُ اللَّهُ وَبُعْدًا لِنَوَاعِيهِ

فَجَزَعَ قَيْسٌ جَزَعًا شَدِيدًا ، وَجَعَلَ يَنْشِجُ أَحْرًا نَشِيجًا وَيَبْكِي أَحْرًا بَكَاءً .
 ثُمَّ رَكِبَ مِنْ قَوْمِهِ حَتَّى أَتَى مَحَلَّةَ قَوْمِهَا ؛ فَنَادَاهُ النِّسَاءُ : مَا تَصْنَعُ الْآنَ هَاهُنَا !
 قَدْ نَقَلْتُ لُبْنَى إِلَى زَوْجِهَا ! وَجَعَلَ الْفَتَيَانُ يُعَارِضُونَهُ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ وَمَا أَشْبَهَهَا وَهُوَ
 لَا يَجِيبُهُمْ حَتَّى أَتَى مَوْضِعَ خِيَابِهَا ، فَنَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ وَجَعَلَ يَتَمَعَّكُ ^(١) فِي مَوْضِعِهَا ؛
 وَيَمْرَغُ خَدَّهُ عَلَى تُرَابِهَا ، وَيَبْكِي أَحْرًا بَكَاءً ، ، ثُمَّ قَالَ :

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو فَقَدْ لُبْنَى كَمَا شَكَا	إِلَى اللَّهِ فَقَدَ الْوَالِدَيْنِ يَتِيمٌ
يَتِيمٌ جَفَاهُ الْأَقْرَبُونَ فَجَسَّمَهُ	نَحْمِلُ وَعَهْدُ الْوَالِدَيْنِ قَدِيمٌ
بَكَتْ دَارُهُمْ مِنْ نَأْيِهِمْ فَتَهَلَّلَتْ	دُمُوعِي ، فَأَيْ الْجَارِ عَيْنِ الْأُومُ ؟
أَمْسَعَبْرًا يَبْكِي مِنَ الشَّوْقِ وَالْهَوَى	أَمْ آخِرَ يَبْكِي شَجْوَهُ وَيَهِيمُ
تَهَيَّضَنِي ^(٢) مِنْ حُبِّ لُبْنَى عِلَاقُ	وَأَصْنَافُ حُبِّ هَوَاهُنَّ عَظِيمُ
وَمَنْ يَتَعَلَّقُ حُبَّ لُبْنَى فَوَادُهُ	يُمْتُ أَوْ يَمِشْ مَا عَاشَ وَهُوَ كَلِيمُ
فَأَنَّى وَإِنْ أَجْمَعْتُ عَنْكَ تَجَلَّدًا	عَلَى الْعَهْدِ فِيمَا بَيْنَنَا لَمُقِيمُ
وَإِنَّ زَمَانًا شَتَّتَ الشَّمْلَ بَيْنَنَا	وَيَبْنِيكُمْ فِيهِ الْعِدَا لَمَشُومُ
أَفَى الْحَقُّ هَذَا أَنْ قَلْبِكَ فَارِغٌ	صَحِيحٌ وَقَلْبِي فِي هَوَاكِ سَقِيمُ !

— ٤ —

وَشَخَّصَ أَبُو لُبْنَى إِلَى مَعَاوِيَةَ ، فَشَكَا إِلَيْهِ قَيْسًا ، وَتَقَرَّضَهُ لِابْنَتِهِ بَعْدَ طَلَاقِهِ
 إِيَّاهَا ، فَكَتَبَ مَعَاوِيَةُ إِلَى مَرْوَانَ يُهْدِرُ دَمَهُ إِنْ أَلَمَّ بِهَا ، وَأَنْ يَشْتَدَّ فِي ذَلِكَ .

(١) يَتَمَعَّكُ : يَتَمَرَّغُ (٢) تَهَيَّضَ : انْكَسَرَ .

فكتب مروان في ذلك إلى صاحب الماء الذي ينزله أبو لُبْنَى كتاباً وكيداً ؛
ووجهت لُبْنَى رسولاً قاصداً إلى قيس تُعَلِّمه ماجرى وتحذره .

وبلغ أباه الخبر ، فعاتبه ، وقال له : انتهى بك الأمر إلى أن يهذِر السلطان
دمك ؟ فقال :

فإن يحجبوها أو يحلُّ دون وصلِها	مقالة واشٍ أو وعيدُ أميرٍ
فلن ينعوا عينيَّ منْ دائم البُكا	ولن يُذهبوا ما قد أجنَّ ضميري
إلى الله أشكو ما أَلَاقي من الهوى	ومن حُرِّقٍ تَعَتَّادني وزفير
ومن حُرِّقٍ للحبِّ في باطن الحشَى	وليلٍ طويلٍ الحزن غير قصير
سأبكي على نفسي بعينٍ غزيرة	بُكاء حزينٍ في الوثاق أسير
وكنا جميعاً قبل أن يظهر الهوى	بأنعم حالي غبطةٍ وسُرور
فما برح الواشون حتى بدتْ لهم	بطونُ الهوى مقلوبةً لظهور
لقد كنتِ حسب النفس لودام وصلنا	ولكنما الدنيا متاعُ غرور

وحجَّ قيسُ بن ذريح ، واتفق أن حجت لُبْنَى في تلك السنة ، فرآها ومعهما
امرأة من قومها ؛ فدهش ، وبقي واقفاً مكانه ومضت لسبيلها .

ثم أرسلت إليه بالمرأة تبليغه السلام وتسأله عن خبره ، فألقته جالسا وحده
ينشد ويبكي :

ويوم مَنى أعرضت عني فلم أقُلْ	بحاجة نفسٍ عند لُبْنَى مقالها
وفي اليأس للنفس المريضة راحة	إذا النفسُ رامتْ خُطَّةً لا تنالها

فدخلت خِباءهُ وجعلت تحدّثه عن بُنى ويحدّثها عن نفسه مَلِيًّا ، ولم تعلمه أن
لُبْنى أرسلتها إليه ، فسألها أن تبلغها عنه السلام ، فامتنعت عليه ؛ فأنشأ يقول :

إذا طلعت شمسُ النهار فسَلِّى فَايَةُ تسليمي عليك طلوعُها
بعشرِ تحيّاتٍ إذا الشمسُ أُشرقتْ وعشرٍ إذا اصفرّت وحن رجوعُها
ولو أبلغتها جارةٌ قولِي أسَلِّى بكتٍ جزعاً وارفض منها دموعُها
وبأن الذى تُخفى من الوجدي الحشَى إذا جاءها عنى الحديثُ يرُوعُها

وقضى الناسُ حجَّهم ، وانصرفوا ؛ ففرض قيس فى طريقه مرضاً شديداً أشقى
منه على الموت ؛ فلم يأنه رسولُها عائداً ؛ لأنَّ قومها رأوه وعلموا به فقال :

أَلْبَنى لقد جَلّت عليك مصيبتى غداةَ غدٍ إذ حلّ ما أتوقع
تُمَنِّينى نَيْلاً وتَلَوِّينى به فففسى شوقاً كلَّ يوم تقطّع
وقلبك قطُّ ما يلينُ لما يرى فواكِيدى قد طال هذا التضرّع
ألومك فى شأنى وَأَنْتِ مُلِمَّةٌ لعمرى ، وأجفنى للحبِّ وأقطعُ
أخبرتِ أنى فىكِ مِيتٌ حَسَرَتى فما فاض من عينيك للوجدِ مَدَمْعُ
ولكنْ لعمرى قد بكيكِ جاهداً وإن كان دأى كلّه منك أجمعُ
صبيحةً جاء العائداتُ يَعُدُننى فظَلَّتْ علىَّ العائداتُ تفجعُ
فقائلةٌ جئنا إليه وقد قَضَى وقائلةٌ لا ، بل تركناه يَنْزِعُ^(١)
فما غَشِيَتْ عينيكِ مِنْ ذاكِ عِبْرَةٍ وعينى على ما بى بذكراكِ تدمعُ

فبلغتها الأبياتُ ؛ فجزعت جزعاً شديداً ، وبكت بكاءً كثيراً ، ثم خرجت

(١) فى النزح : أى على شفا الموت .

إليه ليلا على موعد ؛ فاعتذرت وقالت : إنما أبقى عليك وأخشى أن تُقبَل ، فإنى أحمالك لذلك ، ولولا هذا لما افترقنا ، وودَّعته وانصرفت .

وبلغه أن أهلها قالوا لها : إنه عليل لما به ، وإنه سيموت فى سفره هذا ، فقالت لهم لتدفعهم عن نفسها : ما أراه إلا كاذباً فيما يدعى ، ومتعللاً لا عيلاً ، فبلغه ذلك فقال :

تَكَادُ بِلَادُ اللَّهِ يَا أُمَّ مَعْمَرٍ بِمَا رَحُبَتْ يَوْمًا عَلَى تَضْيِيقٍ
إلى أن قال :

سعى الدهرُ والواشونَ بيني وبينها ففُطِعَ حبلُ الوصلِ وهو وثيق
هل الصبرُ إلَّا أنْ أَصُدَّ فلا أرى بأرضكِ إلَّا أنْ يَكُونَ طريق

نم أنى قومه ، فاقتطعَ قطعةً من الإبل ، وأعلم أباه أنه يريد المدينة ليبيعه ، ويمتار لأهله بثمنها . فعرف أبوه أنه إنما يريدُ لُبْنى ، فعاتبه وزجره عن ذلك ؛ فلم يقبل منه ، وأخذ إليه وقدم المدينة .

فبينما هو يعرضُها إذ ساومه زوجُ لُبْنى بناقَةٍ منها ، وهما لا يتعارفان ، فباعه إياها . فقال له : إذا كان غدٌ فأُنِنِ فى دارِ كثيرِ بنِ الصَّلْتِ فاقبضِ الثمن . قال : نعم . ومضى زوجُ لُبْنى إليها ، فقال لها : إني أبتعتُ ناقَةً من رجلٍ من أهل البادية ، وهو يأتينا غدًا لَقَبْضِ ثمنها ، فأعدى له طعاما ، ففعلت .

فلما كان من الغد جاء قيسُ فصوتُ بالخادم وقال : قولى لسيِّدك : صاحب الناقة بالبَاب . فعرفتُ لُبْنى نَعْمَتَهُ فلم تقل شيئا . فقال زوجها للخادم : قولى له : ادخل . فدخل فجلس . فقالت لُبْنى للخادم : قولى له : يا فتى ؛ مالى أراك أشعثَ أغبر ؟

فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ . فَنَفَسَ ثُمَّ قَالَ لَهَا : هَكَذَا تَكُونُ حَالُ مَنْ فَارَقَ الْأَحِبَّةَ وَاخْتَارَ
الموت على الحياة ، وبكى .

فَقَالَتْ لَهَا لُبْنَى : قَوْلِي لَهُ : حَدِّثْنَا حَدِيثَكَ ؛ فَلَمَّا ابْتَدَأَ يُحَدِّثُ بِهِ كَشَفَتْ
الحجاب ، وَقَالَتْ : حَسْبُكَ ! قَدْ عَرَفْنَا حَدِيثَكَ ! وَأَسْبَلَتِ الْحِجَابَ ؛ فَبُهِتَ سَاعَةً
لَا يَتَكَلَّمُ ، ثُمَّ انْفَجَرَ بَاكِياً وَنَهَضَ فَخَرَجَ ؛ فَنَادَاهُ زَوْجُهَا : وَيْحَكَ ! مَا قَعَسْتُكَ ؟
ارْجِعْ أَقْبِضْ ثَمَنَ نَاقَتِكَ ، وَإِنْ شِئْتَ زِدْنَاكَ . فَلَمْ يَكَلِمْهُ ، وَمَضَى .

وَقَالَتْ لُبْنَى لَزَوْجِهَا : وَيْحَكَ ! هَذَا قَيْسُ بْنُ ذَرِيحٍ . فَمَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ بِهِ ؟
قَالَ : مَا عَرَفْتُهُ . وَجَعَلَ قَيْسٌ يَبْكِي فِي طَرِيقِهِ ، وَيَنْدُبُ نَفْسَهُ ، وَيَبُوحُّهَا عَلَى
فَعْلِهِ ، ثُمَّ قَالَ :

أَتَبْكِي عَلَى لُبْنَى وَأَنْتَ تَرَكْتَهَا	وَأَنْتَ عَلَيْهَا بِالْمَلَأَ أَنْتَ أَقْدَرُ
فَإِنْ تَكُنِ الدُّنْيَا بِلُبْنَى تَقَلَّبَتْ	عَلَى فَلَانِيَا بَطُونٌ وَأَظْهَرُ
لَقَدْ كَانَ فِيهَا لِلْأَمَانَةِ مَوْضِعٌ	وَلِلْكَفِّ مَرْتَادٌ وَلِلْعَيْنِ مَنَظَرُ
وَاللِّحَاثِمِ الْعَطْشَانَ رَى بَرِيقَهَا	وَالْمَرَجِ الْخُتَالِ خَرٌّ وَمُسْكِرُ
كَأَنِّي لَهَا أَرْجُو حَتَّى بَيْنَ أَحْبَلٍ	إِذَا ذُكِرَتْ ^(١) مِنْهَا عَلَى الْقَلْبِ تَخْطُرُ

وَعَادَ إِلَى قَوْمِهِ بَعْدَ رُؤْيَيْهِ إِيَّاهَا وَقَدْ أَنْكَرَ نَفْسَهُ ، وَأَسِيفَ ، وَلَحَقَهُ أَمْرٌ عَظِيمٌ :
فَأَنْكَرُوهُ ، وَسَأَلُوهُ عَنْ حَالِهِ فَلَمْ يُخْبِرْهُمْ ؛ وَمَرَضَ مَرَضًا شَدِيدًا أَشْرَفَ فِيهِ عَلَى الْمَوْتِ .
فَدَخَلَ إِلَيْهِ أَبُوهُ وَرِجَالُ قَوْمِهِ فَكَلَّمُوهُ وَعَاتَبُوهُ وَنَاشَدُوهُ اللَّهَ . فَقَالَ : وَيْحَكُمْ !

(١) الذِّكْرَةُ : ضِدُّ النِّسْيَانِ . .

أَتَرَوْنِي أَمَرَضْتُ نَفْسِي أَوْ وَجَدْتُ لَهَا سَلَوَةً بَعْدَ الْيَأْسِ فَاخْتَرْتُ الْهَمَّ وَالْبَلَاءَ ،
أَوْ لِي فِي ذَلِكَ ضَنْعٌ ! هَذَا مَا اخْتَارَهُ لِي أَبَوَايَ وَقَتَّلَانِي بِهِ .

فَجَعَلَ أَبُوهُ يَبْكِي ، وَيَدْعُوهُ بِالْفَرْجِ وَالسَّلَوَةِ ، فَقَالَ قَيْسُ :

لَقَدْ عَذَّبْتَنِي يَا حَبِّ لُبْنَى فَقَعَّ إِمَّا بِمَوْتٍ أَوْ حَيَاةٍ
فَإِنَّ الْمَوْتَ أَرْوَحُ مِنْ حَيَاةٍ تَدُومُ عَلَى التَّبَاعِدِ وَالشَّتَاتِ
وَقَالَ الْأَقْرَبُونَ : تَعَزَّ عَنْهَا فَقُلْتُ لَهُمْ إِذْنُ حَانَتْ وَقَاتِ^(١)

(١) قد اختلف في آخر أمر قيس ولبنى ، فذكر أكثر الرواة أنهما مانا على افتراقهما ؛ وذكر بعضهم أنه تزوجها فلم تنزل معه حتى مانا (راجع الأغاني ص ٢١٩ ، ٢٢٠ ج ٩) .

٤٦ — ما أبالي ما نيل من شعري ومن بشري *

كان بشر^(١) بن مروان شديداً على العصاة ، فكان إذا ظفر بالعامى أقامه على كرسي وسمر كفيه في الحائط بمسمار ، ونزع الكرسي من تحته فيضطرب معلقاً حتى يموت .

وكان فتى من بى عجل مع المهلب وهو يحارب الأزارقة ، عاشقاً لابنة عم له ، فكتبت إليه تستزيه ؛ فكتب إليها :

لولا مخافة بشر أو عقوبته أو أن يشد على كفى مسمار
إذن لم طلت شعري^(٢) ثم زرتكم إن الحب إذا ما اشتاق زوار

فكتبت إليه :

ليس الحب الذى يخشى العقاب ولو كانت عقوبته فى إلفه النار
بل الحب الذى لا شىء يمنعه أو تستقر ومن يهوى به الدار

فلما قرأ كتابها عطل شعره ، وانصرف إليها ، وهو يقول :

استغفر الله إذ خفت الأمير ولم أخش الذى أنا منه غير منتصر
فشأن بشر بلحى فليعذبه أو يعفو أمير خير مقتدر

* الأملى : ٢ - ٣٠ .

(١) بشر بن مروان : أمير كان سمعاً حوذاً ، ولى إمرة العراقين لأخيه عبدالملك ، توفى سنة ٧٥ هـ .

(٢) الشعر : موضع المخافة من فروج البلدان .

فما أبالي - إذا أُمسيتَ راضيةً يا هند - ما نيلَ من شعري ومن بشرى
ثم قدم البصرة ، فما أقام إلا يومين حتى وُشى به واشٍ إلى بشرٍ ؛ فقال : على
به ! فأتى به ، فقال : يا فاسق ، عطلتَ نورك ! هلمُّوا إلى الكرسي ، فقال : أعزَّ الله
الأمير ، إنَّ لي عُذراً ، فقال : وما عُذرك ؟ فأنشده الأبيات ، فرقَّ له وكتب إلى
المهلب فأثبتته في أصحابه .

٤٧ — في القلبين ثم هوَى دفين *

كان حبيبُ عشقِ المجنون^(١) ليلي ، أنه أقبل ذاتَ يومٍ على ناقةٍ له كريمةٍ ،
وعليه حُلتان من حُلل الملوك ، فمرتَ بامرأةٍ من قومه يقال لها : كريمةٌ ، وعندها نسوةٌ
يتحدثن ، فيهنَّ ليلي ، فأعجبهنَّ جماله وكأله ، فدعونه إلى النزول والحديث ، فنزل
وجعلَ يحدثهنَّ ، وأمرَ عبداً له كان معه ، فقَرَّ لهنَّ ناقةً ، وظلَّ يحدثهنَّ بقيةَ
يومه .

فبينما هو كذلك ، إذ طلع عليهن فتى عليه بُردَةٌ من بُردِ الأعراب يقال له :
« مُنَازِل » يسوق معزى له ، فلما رأيته أقبلنَّ عليه ، وتركنَّ المجنون ، ففضب
وخرج من عندهنَّ وأنشأ يقول :

أَأَعْقِرُهُنَّ جَرًّا^(٢) كريمةَ نَاقَتِي ووصلَ مفروش^(٣) لوصلِ مُنَازِلِ
إذا جاء قَعَقَعْنَ الحَلِيَّ ولم أكنْ إذا جثتُ أرضى صوتَ تلكِ الخلاجلِ
متى ما انتَصَلْنَا^(٤) بالسهمِ نَصَلْتُهُ^(٥) وإن نَزَمَ رُشَقًا^(٦) عندها فهو ناضلي

فلما أصبح لبسَ حُلَّتَيْه ، وركبَ ناقةً له أخرى ، ومضى متعرضاً لهنَّ ، فألقى
ليلى قاعدةً بفناء بيتها ، وقد علقَ حبُّه بقلبها وهويته ، وعندها جَوَيرياتٌ يتحدثنَّ

* الأغاني : ٢ : ١٢

(١) هو قيس بن الملوح من بني عامر ، وصاحبه هي ليل بنت مهدي ، وتكنى أم مالك ، وقد استفاضت
كتب الأدب بأخبار عشقه ، واختلف الرواة في صحة نسبتها إليه ، توفي سنة ٨٠ هـ (٢) من
جرا : من أجل (٣) مفروش : مهد لوصله وسبيل إليه (٤) انتصلنا : ترامينا (٥) نصلته :
سبقته (٦) الرشق : رمى أهل النضال ما معهم من السهام في جهة واحدة .

معها ، فوقف بهنَّ وسلم ، فدعونه للنزول وقلن له : هل لك في محادثة مَنْ لا يَشْفُهُ
عنك مُنَازِلٌ ولا غَيْرُهُ ؟ فقال : إِي أَعْمَرِي ! فنزل وفعل مثل ما فعله بالأمس ،
فأرادت أَنْ تعلمَ ، هل لها عنده مثلُ ماله عندها ، فجعلت تُعرض عن حديثه
ساعةً بعد ساعة ، وتحدثُ غيره ، وقد كان علق بقلبها مثلُ حبها إياه ، وشَفَفَتْه
واستملحَها .

فبينما هي تُحدثُهُ إِذْ أَقْبَلَ فتَى مِنَ الْحَيِّ ، فدعته وسارَّته سِرَّاراً^(١) طويلاً ،
ثم قالت له : انصرف ، ونظرتْ إِلى وَجْهِ المَجْنُونِ فوجدته قد تَغَيَّرَ ، وانْتَقَعَ^(٢) لَوْنَهُ ،
وشقَّ عليه فعلُها ، فأنشأت تقول :

كَلَّا نَا مُظْهِرٌ لِلنَّاسِ بُغْضًا وَكُلٌّ عِنْدَ صَاحِبِهِ مَكِينٌ^(٣)
تَبَلَّغْنَا الْعَيُونَُ بِمَا أَرَدْنَا وَفِي الْقُلُوبِ نَمَمٌ هَوَى دَفِينٌ

فلما سمع البيتين شَهَقَ شَهَقَةً شَدِيدَةً وَأَغْمَى عَلَيْهِ ، فَكَثَّ عَلَى ذَلِكَ سَاعَةً .
وَنَضَحُوا الْمَاءَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أَفَاقَ ، وَتَمَكَّنَ حُبُّ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي قَلْبِ صَاحِبِهِ
حَتَّى بَلَغَ مِنْهُ كُلٌّ مَبْلَغًا .

(١) سراراً : مصدر ساراه في أذنه مسارة وسراراً (٢) انتقع : تغير لونه (٣) فلان مكين عند
فلان : بين المكانة .

٤٨ — أخبرني عن ليلة الغيل *

اجتاز قيسُ بنُ ذريحَ بالجنون وهو جالسٌ وحده في نادى قومه ، وكان كلُّ واحدٍ منهما مُشتاقاً إلى لقاء الآخر ، وكانَ الجنونُ قبلَ توحُّشه لا يجلسُ إلا منفرداً ، ولا يحدثُ أحداً ، ولا يردُّ على مُتكلِّمٍ جواباً ، ولا على مسلمٍ سلاماً ، فسلمَ عليه قيسُ بنُ ذريحَ ، فوثبَ إليه فعاثقه وقال : مرحباً بك يا أخى ، أنا والله مَذْهُوبٌ بى ، مُشْتَرِكُ اللَّبِّ فلا تَلْمِنى ؛ فتحدَّثا ساعةً وتشاكيا وبكيا .

ثم قال له الجنونُ : يا أخى ؛ إنَّ حىَّ ليلَى منا قريبٌ ، فهل لك أن تَمْضَى إليها فتَبْلَغَها عنى السلام ؟ فقال له : أفعل .

فمضى قيسُ بنُ ذريحَ حتى أتى ليلَى فسلمَ وانتَسَبَ ؛ فقالت له : حيَّاكَ الله ، أَلَيْكَ حاجةٌ ؟ قال : نعم ؛ ابنُ عَمِّكَ أرسلنى إليك بالسلام ؛ فأطرقت ثم قالت : ما كُفَّتْ أَهْلًا لِلتَّحِيَّةِ لو علمتُ أَنَّكَ رسوله ، قل له عنى : أَرَأَيْتَ قولك :

أَبَتْ لَيْلَةَ بِالْغَيْلِ ^(١) يَا أُمَّ مَالِكٍ لَكُمْ غَيْرَ حَبٍّ صَادِقٍ لَيْسَ يَكْذِبُ
أَلَا إِنَّمَا أَبْقَيْتِ يَا أُمَّ مَالِكٍ ^(٢) صَدًى أَيْنَمَا تَذْهَبُ بِهِ الرِّيحُ يَذْهَبُ
أخبرني عن ليلة الغيل ، أى ليلة هـى ؟ وهل خلوتُ معك فى الغيل أو غيره

* الأغانى : ٢ - ٩٣

(٢) الصدى : يطلق على الرجل النحيف الجسد

(١) الغيل : اسم واد لبنى جمدة

ليلاً أو نهاراً؟ فقال لها قيس : يا بنة عم ، إنَّ الناسَ تأوَّلوا كلامه على غير ما أراد ،
فلا تكوني مثلهم ، إنما أخبرَ أنْه رآكَ ليلةَ الغَيْلِ فذهبتِ بقلبه ، لا أنه عناك^(١) بسوء .
فأطرقتُ طويلاً ودموعُها تجري وهي تُكفِّـكِفُها ، ثم انتحبتُ حتى ظنَّ
أنه تقطعتُ حَيَازِيمُها^(٢) ؛ ثم قالت : اقرأ على ابنِ عمي السلام ، وقل له :
بنفسى أنت ! والله إن وجدى بك لَفَوْقَ ما تجدُ ، ولكن لا حيلةَ لى فيك ؛
فانصرف قيسٌ ليخبره فلم يجدْه !

(١) غناك : قصداك (٢) حيازيم : جمع حيزوم ، وهو الصدر أو وسطه .

٤٩ — أيا شِبهَ ليلى لا ترأى *

مرّ المجنون برجلين قد صادا ظبيةً فربطّاها بحبلٍ وذهباً بها ، فلما نظرَ إليها
وهى تركّضُ في جبالهما دَمَعَتَ عَيْنَاهُ ، وقال لهما : حُلّاها وخُذّا مكانها شاءَ من
غنى ، ثم أنشدها :

يا صاحبيّ اللّذين اليوم قد أخذّا في الحبلِ شِبهًا ليليّ ثم غلّاها
إنّي أرى اليوم في أعظافِ شاتِكُما مُشابهًا أشبّهتُ ليلى فحلّاها
ثم أعطاهما الشاةَ فعلاّها ، فولّت هاربة فقال - وقد نظر إليها وهى تَعْدُو :
أيا شِبهَ ليلى لا ترأى ^(١) ؛ فإنّي لك اليوم من وَخْشِيَّةٍ لَصَدِيقُ
ويأشبهَ ليلى لو تلبّنتِ ساعةً لعلّ فؤادى من جَوَاهُ يُفِيقُ
فعيناك عَيْنَاهَا وَجِدُكَ جِدُّهَا ولكنّ عَظَمَ الساقِ منك دَقِيقُ
أقول وقد أطلقتها مِن وثاقِها لأنّ ليلى ما حيت طَلِيقُ

* الأغاني : ٢ - ٨١ - لسان العرب - مادة روع .

(١) لا ترأى : لا تخاف .

٥٠ — اسْتَبْكَا نِي السَّيْلُ إِذْ جَرَى *

قال رجل من بني عامر :

مُطِرْنَا مَطَرًا شَدِيدًا فِي رَبِيعٍ ، وَدَامَ الْمَطَرُ ثَلَاثًا ، ثُمَّ أَصْبَحْنَا فِي الْيَوْمِ الرَّابِعِ
عَلَى صَحْوٍ ، وَخَرَجَ النَّاسُ يَمْشُونَ عَلَى الْوَادِي ، فَرَأَيْتُ رَجُلًا جَالِسًا حَجْرَةً ^(١)
وَحَدَهُ ؛ فَقَصَدْتُهُ ، فَإِذَا هُوَ الْمَجْنُونُ جَالِسٌ وَحْدَهُ يَبْكِي ، فَوَعَّظْتُهُ وَكَلَّمْتُهُ طَوِيلًا ،
وَهُوَ سَاكِتٌ لَمْ يَرْفَعْ رَأْسَهُ إِلَيَّ ؛ ثُمَّ أَنْشَدَنِي بِصَوْتٍ حَزِينٍ لَا أَنْسَاهُ أَبَدًا :

جَرَى السَّيْلُ فَاسْتَبْكَا نِي السَّيْلُ إِذْ جَرَى	وَفَاضَتْ لَهُ مِنْ مُقْلَتَي غُرُوبٍ ^(٢)
وَمَا ذَاكَ إِلَّا حِينَ أَقْبَنْتُ أَنَّهُ	يَكُونُ بَوَادِي أَنْتَ فِيهِ قَرِيبُ
يَكُونُ أَجَاجًا ^(٣) دُونَكُمْ فَإِذَا انْتَهَى	إِلَيْكُمْ تَلْقَى طَيْبَكُمْ فَيَطِيبُ
أَظَلُّ غَرِيبَ الدَّارِ فِي أَرْضٍ عَامِرٍ	أَلَّا كُلُّ مَهْجُورٍ هُنَاكَ غَرِيبُ
وَإِنَّ الْكَثِيبَ الْفَرْدَ مِنْ أَيْمَنِ الْحِمَى	إِلَى وَإِنْ لَمْ آتِهِ لَحِيبُ
فَلَا خَيْرَ . الدُّنْيَا إِذَا أَنْتَ لَمْ تَزُرْ	حَبِيبًا وَلَمْ يَطْرَبْ إِلَيْكَ حَيْبُ

* الْأَغْنَى : ٢ - ٦٣

(١) حَجْرَةٌ : نَاحِيَةٌ (٢) الْغُرُوبُ : جَمْعُ غَرَبٍ ، وَهُوَ الدَّمْعُ (٣) مَاءُ أَجَاجٍ : مَلْحٌ مَرٌّ .

٥١ — عهد جبل التَّوْبَادِ *

كان المجنونُ وليلى وهما صبيَّان يرْعيان غنماً لأهلِهما عندَ جَبَلٍ في بلادِهما
يقالُ له التَّوْبَادُ ^(١)، فلما ذهب عقلُه وتوحَّشَ كان يجرى به إلى ذلك الجبل فيقيم به،
فإذا تذكرَ أيامَ كان يُطيفُ هو وليلى به جَزِعَ جَزَعاً شديداً، واستوحشَ؛
فهامَ على وجهه حتى يأتى نواحيَ الشامِ، فإذا ثابَ إليه عقلُه رأى بلداً لا يعرفه؛
فيقول لمن يلقاه من الناس: بأبى أتم! أين التَّوْبَادُ من أرضِ بنى عامر؟
فيقال له: وأين أنتَ من أرضِ بنى عامر! أنتَ بالشامِ! عليك بنجم كذا فأَمَّهُ!
فيمضى على وجهه نحو ذلك النجم حتى يقعَ بأرضِ اليمَنِ، فيرى بلداً يُنْكِرُها
وقوماً لا يَعرِفهم فيسألهم عن التَّوْبَادِ وأرضِ بنى عامر، فيقولون: وأين أنتَ من
أرضِ بنى عامر! عليك بنجم كذا وكذا، فلا يزالُ كذلك حتى يقعَ على التَّوْبَادِ،
فإذا رآه قال في ذلك:

وأَجْهَشْتُ ^(٢) للتَّوْبَادِ حينَ رأيتهُ	وكَبَّرَ للرَّحْمَنِ حينَ رَأَيْتِ
وأُذِرْتُ دمعَ العينِ لَمَّا عرِفْتُهُ	ونادى بأعلى صوتِهِ فدعاني
فقلتُ له: قد كان حولَكَ حَيْرَةٌ	وعَهْدِي بِذاك الصَّرمِ منذُ زمانٍ
فقال: مضوا وأستودِعُونِي بِلادِهِم	ومَنْ ذا الَّذي يَبْقَى على الحَدَثَانِ!
وإني لأَبْكِي اليومَ من حَذَرِي غداً	فِرَاقَكَ وَالْحَيَّانِ مُجْتَمِعَاتِ
سِجَالاً وَتَهْتَاناً ^(٣) وَوَبْلاً وَدِيمَةً ^(٤)	وَسَحّاً وَتَسْجَاماً ^(٤) إِلَى هَمْلانٍ

* الأغانى: ٢ - ٥

(١) جبل بنجد (٢) أجْهَشَ إليه: فزع إليه وهو يريد البكاء (٣) هتفت السماء: صبت
(٤) سَجِمَتِ السحابة مطرها إذا صبته.

٥٢ — حديث المجنون عن ليلي *

قال أحد الرواة : قلتُ لقيس بن الملوّح قبل أن يخالطَ ^(١) : ما أعجبُ شيءٍ أصابكَ في وَجَدِكَ بليلى ؟ قال : طرَفْنَا ذاتَ ليلةٍ أضيافٌ ، ولم يكنْ عندنا لهم أدمٌ ، فبعثني أبي إلى منزل أبي ليلي ، وقال لي : اطلبْ لنا منه أدمًا . فأتيتُهُ فوفقتُ على خيَّانه فصَحْتُ به ، فقال : ما تشاء ؟ فقلتُ : طرَفْنَا ضيفانٌ ولا أدمَ عندنا لهم ، فأرسلني أبي أطلبُ منك أدمًا ، فقال : يا ليلي ؛ أخرجي إليه ذلك النَحْيَ ^(٢) ، فأمَلَيْتُ له إناءًا من السَّمْنِ . فأخرجته ومعى قَعْبٌ ^(٣) ، فجعلتُ نَصَبُ السمن فيه وتَحَدَّثُ ، فألْهانا الحديثُ وهي نَصَبُ السمن وقد امتلأَ القعبُ ولا نعلم جميعًا ، وهو يسيلُ حتى اسْتَنْقَعَتْ أرجلنا من السمن . فأتيتُهُم ليلةً ثانية أطلبُ نارا ، وأنا مُتَلَفِّعٌ بِبُرْدِي ، فأخرجتُ لي نارًا في عُطْبَةٍ ^(٤) لي فأعطينيها ، ووقفنا نتحدَّثُ ، فلما احترقت العُطْبَةُ خَرَقَتْ من بُرْدِي خِرْقَةً ، وجعلتُ النارَ فيها ، فكلما احترقتْ خَرَقَتْ أخرى ، وأذْكِتُ بها النارَ حتى لم يبقَ على من البرد إلا ما وارى عورتِي ، وما أعْقِلُ ما أصنع !

* الأُغَاثِيُّ : ٢ - ٣١

(١) خولط في عقله : فسد عقله (٢) النحي : الرق يوضع فيه السمن (٣) القعب : القدح الضخم الغليظ (٤) العُطْبَةُ : خِرْقَةٌ تؤخذ بها النار .

٥٣ — حَلَالٌ لِلَّيْلِ شَتْمُنَا *

سأل الملوّح - أبو المجنون - رجلاً قَدِمَ من الطائف أن يَمُرَّ بالمجنون فيجلسَ إليه فيخبره أنه لَقِيَ لَيْلَى وجلس إليها ، وَوَصَفَ له صفاتٍ منها وَمِنْ كلامها يَعرِفُها المجنون ؛ وقال له : حَدِّثْ بها ، فإذا رَأَيْتَهُ قد اشْرَأَبَ ^(١) لَحْدَيْكَ واشتهاه فَعَرِّفْهُ أَنَّكَ ذَكَرْتَهُ لها ووصفتَ ما به فَشَتَمَتْهُ وَسَبَّتْهُ ، وقالت : إِنَّهُ يَكْذِبُ عَلَيْهَا وَيُشْهِرُهَا ^(٢) بفعله ، وإنها ما اجتمعتُ به قطَّ كما يصفُ .

ف فعل الرجلُ ذلك ، وجاءَ إليه فأخبره بِلِقائِهِ إياها ، فأقبلَ عليه وجعل يُسألُه عنها ، فيخبره بما أَمَرَهُ به الملوّح ، فيزداد نشاطاً ويثوبُ إليه عقله ، إلى أن أخبره بسبِّها إياه وشتمِها له ، فقال - وهو غيرُ مُكْتَرِثٍ لما حكاه عنها :

تمر الصَّبَا صَفْحًا بساكنِ ذِي الفَضَى	وَيَصْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهْبَّ هُبُوبُهَا
إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ الشَّامِلُ فَاثِمًا	جَوَاىَ بِمَا تُهْدِي إِلَى جَنُوبُهَا
قَرِيبَةُ عَهْدٍ بِالْحَبِيبِ وَإِنَّمَا	هُوَ كُلُّ نَفْسٍ حَيْثُ كَانَ حَبِيبُهَا
وَحَسْبُ اللَّيَالِي أَنْ طَرَخَنَكَ مَطْرَحًا	بِدَارِ قَلْبِي تُمَسِي وَأَنْتَ غَرِيبُهَا
حَلَالٌ لِلَّيْلِ شَتْمُنَا وَانْتِقَاصُنَا	هَنِيئًا وَمَغْفُورٌ لِلَّيْلِ ذُنُوبُهَا

* الأغانى : ٢ - ٨٥

(١) اشْرَأَبَ إليه : مد عنقه لينظر ، أو ارتفع .

(٢) الشَّهْرَةُ : ظهور الشيء في شُغْة ، شهره كمنه ، وشهره واشتهره فاشتهر .

٥٤ — إن دأى ودوائى أنت*

قال بعضُ مشايخِ بني عامر :

مرَّ المجنونُ في تَوَحُّشِهِ ، فصادفَ حَيَّ ليلي راحلاً ، ولقيها فجأةً ، فعرَفها
وعرَفَتْه ، فَصَعِقَ وَخَرَ مَغْشِياً على وجهه .

وأقبلَ فِتْيَانٌ مِنْ حَيِّ ليلي ؛ فأخذوه وَمَسَحُوا الترابَ عن وجهه ، وأسندوه
إلى صدورهم ، وسألوا ليلي أن تَقِفَ له وَقْفَةً ؛ فَرَقَّتْ لِمَا رَأَتْه به ؛ وقالت : أمَّا هذا
فلا يجوزُ أن أَفْضِصَ به ، ولكن يا فلانة — لَأَمَّةٍ لها — اذهبي إلى قيسِ فقولى له :
ليلى تَقْرَأُ عليك السلام ، وتقول لك : أَعَزِّزْ عَلىَ بما أنتَ فيه ، ولو وجدتُ سبيلاً
إلى شفاءِ دائِكَ لوقيتُكَ بنفسى منه ، فمضتِ الوليدةُ^(١) إليه ، وأخبرتهُ بقولها ،
فأفاقَ وجلسَ وقال : أبلغِها السلامَ وقولى لها : هيهات ! إن دأى ودوائى أنتِ ؛
وإن حياتى ووفاتى لنى يديك ، ولقد وكلتُ بى شقاءَ لازماً ، وبلاءَ طويلاً ، ثم
بكى وأنشأ يقول :

أقولُ لأصحابي هى الشمسُ ضَوْؤُها قريبٌ ولكنْ فى تناوُلِها بُعْدُ
لقد عارضتنا الرِّيحُ منها بِنَفْحَةٍ على كَبِدِي من طيبِ أرْواحِها بَرْدُ

* الأغانى : ٢ - ٦٤

(١) الوليدة : الجارية .

فما زلتُ مَفْشِيًّا عَلَىَّ وقد مَضَتْ
أَقْلَبُ بِالْأَيْدِي وَأَهْلِي بِعَوَّلَةٍ^(٢)
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْجِلْدُ وَالْعَظْمُ عَارِيًّا
أَدْنِيَّائِي مَالِي فِي انْقِطَاعِي وَرَغْبَتِي
عِدِّي - بِنَفْسِي أَنْتِ - وَعَدَا فَرُّبَمَا
وَقَدْ يُبْتَلَى قَوْمٌ وَلَا كِبَلِيَّتِي
غَزَتْنِي جُنُودُ الْحَبِّ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ
أَنَاةٌ^(١) وَمَا عِنْدِي جَوَابٌ وَلَا رَدُّ
يُفَدُّونَنِي لَوْ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْدُوا
وَلَا عَظَمَ لِي إِنْ دَامَ مَا بِي وَلَا جِلْدُ
إِلَيْكَ ثَوَابٌ مِنْكَ دَيْنٌ وَلَا نَقْدُ
جَلَا كُرْبَةً الْمَكْرُوبِ عَنْ قَلْبِي الْوَعْدُ
وَلَا مِثْلَ جَدِّي^(٣) فِي الشَّقَاءِ بِكُمْ جَدُّ
إِذَا حَانَ مِنْ جَنْدٍ قُفُولٌ^(٤) أَنِّي جُنْدُ

(١) أَنَاة : انتظار (٢) العولة : رفع الصوت بالبكاء (٣) الجد : الحظ (٤) القفول : رجوع الجند بعد الغزو .

٥٥ — مارأيت مثلَ حزنِها ووجدِها عليه*

قال بعضُ أشياخِ بني مُرَّة : خرج منا رجلٌ إلى ناحية الشام والحجاز وما يلي تيماء والسَّراة^(١) وأرضَ نجد ؛ في طلبِ بُغْيَةٍ له ، فإذا هو بِخَيْمَةٍ قد رُفِعَتْ له وقد أصابه المطر ؛ فعدَل إليها وتَنَحَّجَ ، فإذا امرأة قد كلمتهُ ، فقالت : انزل ، فنزل - وراحت إيلهم وغنمهم فإذا أمرٌ عظيم - فقالت : سلوا هذا الرجلَ من أينَ أقبل ؟ فقلتُ : من ناحيةِ تهامة ونجد ، فقالت : ادخل أيها الرجل .

فدخلتُ إلى ناحية من الخَيْمَةِ ، فَأَرْخَتْ بيني وبينها سترًا ، ثم قالت لي : يا عبدَ الله ؛ أيُّ بلادِ نجد وطِئْتَ ؟ فقلت : كلها ؛ قالت : فِيمَنْ نَزَلْتَ هناك ؟ قلت : بيني عامر ، فتنفَّستِ الصُّعداء ، ثم قالت : فبأيِّ بني عامر نزلت ؟ فقلتُ : بيني الحُرَيْشِ ، فاستعبرت^(٢) ثم قالت : فهل سمعتَ بذكر فتى منهم يُقال له : قَيْسُ بنِ الملوَح ويَلْقَبُ بالجنون ؟ قلت : بلى والله ! وعلى أبيه نزلتُ ، وأُتِيَتْهُ فنظرتُ إليه يَرسِمُ في تلكَ القِيافي^(٣) ، ويكون مع الوَحْش لا يَعْقِل ولا يَفْهَم إلا أن تُذكَرَ له امرأة يُقال لها : ليلي ، فيبكي ويُدشِدُ أشعاراً قالها فيها .

فرفعتِ السِّترَ بيني وبينها ، فإذا فِلَقَةٌ قمر لم ترَ عَيْنِي مثلاً ؛ فبكتُ حتى ظننتُ - والله - أنَّ قلبها قد انصدَعَ ، فقلت : أيتها المرأة ؛ اتقي الله فما قلتُ بأَسًا . فبككتُ طويلاً على تلكَ الحال من البكاء والنحيب ، ثم قالت :

* الأغانى : ٢ - ٣٦

(١) السراة : الجبال والأرض الحاذرة بين تهامة ونجد (٢) استعبرت : جرت عبرتها وحزنت

(٣) الصعاري .

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي ، وَالْخُطُوبُ كَثِيرَةٌ مَتَى رَحُلُ قَيْسٍ مُسْتَقِلٌ^(١) فَرَاجِعُ
بِنَفْسِي مَنْ لَا يَسْتَقِلُّ بِرَحْلِهِ وَمَنْ هُوَ إِنْ لَمْ يَحْفَظِ اللَّهُ ضَائِعُ
نَمْ بَكَتْ حَتَّى سَقَطَتْ مَغْشِيًا عَلَيْهَا ، فَقُلْتُ لَهَا : مَنْ أَنْتِ يَا أُمَّةَ اللَّهِ ؟ وَمَا
قِصَّتُكَ ؟ قَالَتْ : أَنَا لَيْلَى صَاحِبَتُهُ الْمَشْتُومَةُ - وَاللَّهِ عَلَيْهِ ، غَيْرُ الْمُؤْنَسَةِ لَهُ ، فَمَا رَأَيْتُ
مِثْلَ حُزْنِهَا وَوَجْدِهَا عَلَيْهِ قَطًّا .

(١) استقل القوم : ذهبوا وارتحلوا .

٥٦ — عند الكعبة*

رَوَى أَنَّ أَبَا الْجُنُونِ وَأُمَّهُ وَرَجَالَ عَشِيرَتِهِ اجْتَمَعُوا إِلَى أَبِي لَيْلَى ، فَوَعظُوهُ وَنَاشَدُوهُ اللَّهَ وَالرَّحِمَ ، وَقَالُوا لَهُ : إِنْ هَذَا الرَّجُلُ هَلَكَ ، وَقَبْلَ ذَلِكَ هُوَ فِي أَقْبَحَ مِنَ الْهَلَاكِ بِذَهَابِ عَقْلِهِ ، وَإِنَّكَ فَاجِعٌ بِهِ أَبَاهُ وَأَهْلَهُ ، فَشَدَّ نَاكَ اللَّهُ وَالرَّحِمَ أَنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ ، فَوَاللَّهِ مَا هِيَ أَشْرَفُ مِنْهُ وَلَا لَكَ مِثْلُ مَالِ أَبِيهِ ، وَقَدْ حَكَّمَكَ فِي الْمَهْرِ ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ يَخْلَعَ نَفْسَهُ إِلَيْكَ مِنْ مَالِهِ فَعَلْ .

فَأَبَى وَحَلَفَ بِاللَّهِ وَبِطَلَاقِ أُمِّهَا إِنَّهُ لَا يَزُوجُهَا إِلَّا بِهَا أَبَدًا ، وَقَالَ : أَفْضَحُ نَفْسِي وَعَشِيرَتِي وَأَتَى مَا لَمْ يَأْتِهِ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ ، وَأَسِمُ^(١) ابْنَتِي بِمِثْمٍ فَضِيحَةٍ ! فَانْصَرَفُوا عَنْهُ ، وَخَالَفَهُمْ لَوْقَتَهُ فَزَوَّجَهَا رَجُلًا مِنْ قَوْمِهَا وَأَدْخَلَهَا إِلَيْهِ .

فَمَا أَسْمَى إِلَّا وَقَدْ بَنَى بِهَا^(٢) ، وَبَلَغَ الْجُنُونُ الْخَبَرَ فَأَيْسَ^(٣) مِنْهَا حِينَئِذٍ وَزَالَ عَقْلُهُ ، فَقَالَ رَجَالُ الْحَيِّ لِأَبِيهِ : احْجُبْ بِهِ إِلَى مَكَّةَ ، وَادْعُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ ، وَمُرَّه أَنْ يَتَعَلَّقَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ ، فَيَسْأَلَ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَهُ بِمَا بِهِ ، وَيُبْقِصَهَا إِلَيْهِ ، فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُخَلِّصَهُ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ .

فَحَجَّ بِهِ أَبُوهُ ؛ فَلَمَّا صَارُوا بِبَنِي سَمْعٍ صَانِحًا فِي اللَّيْلِ بَصِيحٌ : يَا لَيْلَى ! فَصَرَخَ صَرْخَةً ظَنُّوا أَنَّ نَفْسَهُ قَدْ تَلَفَتْ ، وَسَقَطَ مَغْشِيًّا عَلَيْهِ ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى أَصْبَحَ ثُمَّ أَفَاقَ حَائِلٌ^(٤) اللَّوْنُ ذَاهِلًا ، فَأَنشَأَ يَقُولُ :

* الْأَغَانِي : ٢ - ٢١

(١) أَسِمَ : أَصَفَ (٢) بَنَى : دَخَلَ بِهَا (٣) أَيْسَ : يَثُسَ (٤) حَائِلُ اللَّوْنِ : مُتَغَيِّرُهُ .

عَرَضْتُ عَلَى قَلْبِي الْعَزَاءُ فَقَالَ لِي : مِنْ الْآنَ فَإِيَّاسُ لَا أَعَزَّكَ مِنْ صَبْرِ
إِذَا بَانَ مَنْ تَهَوَّى وَأَصْبَحَ نَائِيًا فَلَا شَيْءَ أَجْدَى مِنْ حُلُوكَ فِي الْقَبْرِ
وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ^(١) مِنْ مَنِي فَهَيَّجَ أَحْزَانَ الْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي
دَعَا بِاسْمِ لَيْلٍ غَيْرَهَا ، فَكَأَنَّمَا أَطَارَ بَلِيلِي طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي
دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى ضَلَّلَ اللَّهُ سَعِيَهُ وَلَيْلَى بِأَرْضٍ عَنْهُ نَازِحَةٌ قَفَرِ
نَمْ قَالَ لَهُ أَبُوهُ : تَعَلَّقْ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ ، وَاسْأَلِ اللَّهَ أَنْ يِعَافِيكَ مِنْ حَبِّ
لَيْلَى ؛ فَتَعَلَّقَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ ، وَقَالَ : اللَّهُمَّ زِدْنِي لِلَّيْلِ حُبًّا ، وَبِهَا كَافًّا ، وَلَا تُنْسِنِي
ذِكْرَهَا أَبَدًا . فَهَامَ حِينَئِذٍ وَاخْتَلَطَ .

فَكَانَ يَهِيمُ فِي الْبَرِّيَّةِ مَعَ الْوَحْشِ ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا مَا يَنْبَغُ فِي الْبَرِّيَّةِ مِنْ بَقْلِ ،
وَلَا يَشْرَبُ إِلَّا مَعَ الظَّبْيَاءِ إِذَا وَرَدَتْ مَنَاهِلَهَا ، وَطَالَ شَعْرُ جَسَدِهِ ، وَرَأْسُهُ ، وَأُفْقَتُهُ
الظَّبْيَاءُ وَالْوَحُوشُ ، فَكَانَتْ لَا تَنْفِرُ مِنْهُ ، وَجَعَلَ يَهِيمُ حَتَّى يَبْلُغَ حُدُودَ الشَّامِ ، فَإِذَا
ثَابَ إِلَيْهِ عَقْلُهُ سَأَلَ مَنْ يَمُرُّ بِهِ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ عَنْ نَجْدٍ ؛ فَيَقَالُ لَهُ : وَأَيْنَ أَنْتَ
مِنْ نَجْدٍ ؟ قَدْ سَارَقْتَ الشَّامَ ! أَنْتَ فِي مَوْضِعٍ كَذَا ، فَيَقُولُ : فَأُرُونِي وَجْهَةَ
الطَّرِيقِ ، فَيُرْجَمُونَهُ وَيَعْرِضُونَ عَلَيْهِ أَنْ يَحْمِلُوهُ أَوْ يَكْسُوهُ فَبَأْبَى ، فَيَدْلُونَهُ عَلَى طَرِيقِ
نَجْدٍ فَيَتَوَجَّهُ نَحْوَهُ !

(١) الْخَيْفُ : نَاحِيَةٌ فِي مَنَى .

٥٧ — ذهول *

قال نوفل بن مُساحِق : قَدِمْتُ الْبَادِيَةَ فَسَأَلْتُ عَنِ الْمَجْنُونِ ، فَقِيلَ لِي : تَوَحَّشَ
وما لنا به عهد ، ولا نَدْرِي إِلَى أَيْنَ صَارَ .

فَخَرَجْتُ يَوْمًا أَنْصِيدُ الْأَرَوَى ^(١) ، وَمَعِيَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَصْحَابِي ، حَتَّى إِذَا كُنْتُ
بِنَاحِيَةِ الْحِمَى إِذَا نَحْنُ بِأَرَاكَةِ ^(٢) عَظِيمَةٍ ، قَدْ بَدَأَ مِنْهَا قَطِيعٌ مِنَ الطُّبَّاءِ ، فِيهَا
شَخْصٌ إِنْسَانٌ يُرَى مِنْ خَلَلِ تِلْكَ الْأَرَاكَةِ ؛ فَعَجِبَ أَصْحَابِي مِنْ ذَلِكَ ، فَعَرَفْتُهُ
وَأَتَيْتُهُ ، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ الْمَجْنُونُ الَّذِي أَخْبِرْتُ عَنْهُ .

فَنَزَلْتُ عَنْ دَابَّتِي ، وَتَحَقَّقْتُ ^(٣) مِنْ ثِيَابِي ، وَخَرَجْتُ أَمْشِي رُؤِيدًا ، حَتَّى
أَتَيْتُ الْأَرَاكَةَ ؛ فَارْتَقَيْتُ حَتَّى صِرْتُ عَلَى أَعْلَاهَا ، وَأَشْرَفْتُ عَلَيْهِ وَعَلَى الطُّبَّاءِ ؛
فَإِذَا بِهِ وَقَدْ تَدَلَّى الشَّعْرُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَلَمْ أَكْذُبْ أَعْرِفُهُ إِلَّا بِتَأْمُلٍ شَدِيدٍ ، وَهُوَ يَرْتَعَى
فِي ثَمَرِ تِلْكَ الْأَرَاكَةِ ؛ فَرَفَعَ رَأْسَهُ ، فَتَمَثَّلْتُ بَيْتٍ مِنْ شِعْرِهِ :

أَتَبْكِي عَلَى لَيْلَى وَنَفْسُكَ بَاعَدَتْ مَزَارَكَ مِنْ لَيْلَى وَشَفِيعَا كَمَا مَعَا
فَنَفَرْتَ الطُّبَّاءُ ؛ وَأَنْدَفَعُ فِي بَاقِي الْقَصِيدَةِ يُنْشِدُهَا ، فَمَا أَنْسَى حُسْنَ نِعْمَتِهِ
وَحُسْنَ صَوْتِهِ ، وَهُوَ يَقُولُ ^(٤) :

فَمَا حَسَنٌ أَنْ تَأْتِيَ الْأَمْرَ طَائِعًا وَتَجْزِعَ أَنْ دَاعِيَ الصَّبَابَةِ أَسْمَاعًا

* الْأَغَانِي : ٢ - ٦٦

(١) الْأَرَوَى : الْوَعُولُ ، وَهُوَ نَبَسُ الْجَبَلِ ، وَاحِدُهُ أَرَوِيَّةٌ (٢) الْأَرَاكَةُ : وَاحِدَةُ الْأَرَاكِ
وَهُوَ شَجَرٌ كَثِيرُ الْوَرَقِ وَالْأَغْصَانِ (٣) أَيْ تَزَعَّتْ شَيْئًا مِنْهَا (٤) بَعْضُ هَذِهِ الْآيَاتِ يَنْسَبُ
إِلَى غَيْرِ الْمَجْنُونِ (انْظُرِ الْأَغَانِي ج ٢٢ ، ص ٦٧ وَالْأُمَالِي ج ١ ص ١٩٠) .

بَكَتْ عَيْنِي الْيُسْرَى فَلَمَّا زَجَرَتْهَا عَنْ الْجَهْلِ بَعْدَ الْحَلَمِ أُسْبَلَتْ مَعَا ^(١)
 وَأَذْكَرُ أَيَّامِ الْحَيَى ثُمَّ أَنْشَنِي عَلَى كَبْدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا
 فَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الْحَيَى بِرَوَاجِعٍ عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلَّ عَيْنِكَ تَذَمُّعَا
 مَعِيَ كُلُّ غَيْرٍ قَدْ عَصَى عَازِلَاتِهِ بَوْصَلِ الْغَوَانِي مِنْ لَدُنْ أَنْ تَرَعَّرَعَا
 إِذَا رَاحَ يَمْشِي فِي الرَّدَائِمِ أَسْرَعَتْ إِلَيْهِ الْعَيُونُ النَّاظِرَاتُ التَّطَلُّعَا
 ثُمَّ سَقَطَ مَعَشِيًّا عَلَيْهِ ، فَمَثَلَتْ بِقَوْلِهِ :

يَا دَارَ لَيْلِي سَقَطَ ^(٢) الْحَيُّ قَدْ دَرَسَتْ إِلَّا الثَّمَامُ وَإِلَّا مَوْقِدَ النَّارِ ^(٣)
 فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيَّ وَقَالَ : مَنْ أَنْتَ حَيَّاكَ اللَّهُ ؟ فَقُلْتُ : أَنَا نَوْفَلُ بْنُ مُسَاحِقٍ ،
 فَخَيَّأَنِي قُلْتُ لَهُ : مَا أَخَذْتِ بَعْدِي فِي يَأْسِكَ مِنْهَا ؟ فَأَنْشَدَنِي يَقُولُ :
 أَلَا حُجِبَتْ لَيْلِي وَآلَى أَمِيرُهَا عَلَى يَمِينًا جَاهِدًا لَا أَزُورُهَا
 وَأَوْعَدَتْنِي فِيهَا رِجَالُ أَبَوَيْهِمْ أَبِي وَأَبُوهَا خُشِّنَتْ لِي صُدُورُهَا
 عَلَى غَيْرِ جُرْمٍ غَيْرَ أَنِّي أَحِبُّهَا وَأَنْ فَوَادِي رَهْنُهَا وَأَسِيرُهَا
 ثُمَّ سَنَحَتْ لَهُ ظِبَاءَ فِقَامٍ يَمْدُو فِي أَثَرِهَا حَتَّى لَحِقَهَا ، فَضَى مَعَهَا .

(١) أُسْبَلَتْ السَّمَاءُ : أَمْطَرَتْ : أَيْ بَكَتْ عَيْنَاهُ . (٢) السَّقَطُ : حَيْثُ انْقَطَعَ مَعْظَمُ الرَّمْلِ وَرَقِ .

(٣) الثَّمَامُ : نَبَتٌ فِي الْبَادِيَةِ ، كَانَ الْعَرَبُ يَسْدُونَ بِهِ خِصَاصَ الْبُيُوتِ .

٥٨ — خاتمة المجنون *

خرج شيخٌ من بني مُرَّةٍ ليلقى المجنونَ في أرضِ بني عامرٍ ثم حدث فقال :
دللتُ على تحلته فأتيتها ، فإذا أبوه شيخٌ كبيرٌ وإخوةٌ له رجال ، وإذا نَمَ
كثيرٌ^(١) وخيرٌ ظاهر ، فسألتهم عنه فاستغبروا جميعاً .

وقال الشيخ : والله لقد كان آثرٌ في نفسى من هؤلاء وأحبهم إلى ! وإنه
هوئى امرأةً من قومه ، والله ما كانت تطعمُ في مثله ، فلما أن فشا أمرُهُ وأمرُها
كرِه أبوها أن يزوجهَا منه بعد ظهورِ الخبر ، فزوجهَا من غيره ، فذهب عقلُ ابني
ولحِقَه خبلٌ ، وهامَ في الفَيَاقِ وَجداً عليها ، فحبسناه وقيدناه ، فجعل يعَضُّ لسانَه
وشفتَيْه ، حتى خِفْنَا عليه أن يقطعهما ، فخلينا سبيلَه ، فهو يهيم في هذه الفَيَاقِ مع
الوحوش ؛ يُذهِبُ إليه كلَّ يوم بطعامه فيوضع له حيث يراه ، فإذا تنجَّوا عنه
جاء فأكل منه .

فسألتهم أن يدلُّوني عليه ، فدلُّوني على فتى من الحى كان صديقاً له ، وقالوا :
إنه لا يأنس إلا به ولا يأخذ أشعارَه عنه غيره ؛ فأتيتُه فسألته أن يدلُّنى عليه ،
فقال : إن كنت تريد شِعْرَه فكلُّ شِعْرٍ قاله إلى أمسى عفىدى ، وأنا ذاهبٌ
إليه غداً ، فإن كان قال شيئاً أتيتك به . فقلت : بل أريد أن تدلُّنى عليه لِأَتِيَه ؛

* الأغانى : ٢ - ٨٨ ، المسعودى : ٢ - ١٧ ؛

(١) النعم : يذكر ويؤث .

فقال لي : إن نَفَرَ منك نَفَرٌ مِنِّي فيذهبُ شِعْرُهُ ، فَأَيُّتُ إِلَّا أَنْ يَدُلَّنِي عَلَيْهِ ، فقال : اطلبه في هذه الصحارى ، فإذا رأيته فاذنُ منه مستأنساً ، ولا تُره أَنك تَهَابُهُ ، فإنه يتهَدَّدُك ويَتَوَعَّدُك أَنْ يَرِمِيكَ بشيء ، فلا يَرُوعَنَّكَ ، واجلس صارقاً بصرك عنه ، والحظه أحياناً ، فإذا رأيته قد سكن من نِفَارِهِ فَأَنْشِدْهُ شعراً غَزَلًا ، وإن كنتَ تروى من شعر قيس بن ذريح شيئاً فَأَنْشِدْهُ إياه فإنه مُعْجَبٌ بِهِ .

فخرجتُ فطلبته يَوْمِي إلى العصر ؛ فوجدته جالساً على رَمْلٍ قد خُطَّ فيه بإصبعه خُطوطاً ، فدنوتُ منه غيرَ مُنْقَبِضٍ ، فنَفَرَ مِنِّي نفورَ الوَحْشِ مِنَ الْإِنْسِ ، وإلى جانبه أحجارٌ فتناول حَجَرًا ، فأعرضتُ عنه ، فمكث ساعة كأنه نافرٌ يريد القيام ، فلما طال جُلُوسِي سكن وأقبل يخطُّ بإصبعه . فأقبلتُ عليه وقلت : أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول :

أَلَا يَا غُرَابَ الْبَيْنِ وَيْحَكَ نَبِيٌّ ^(١) بَعَلَمَكَ فِي لُبْنَى وَأَنْتَ خَبِيرٌ
فَإِنْ أَنْتَ لَمْ تُخْبِرْ بِشَيْءٍ عِلْمَتِهِ فَلَا طَرُتَ إِلَّا وَالْجَنَاحُ كَسِيرٌ
وَدُرْتُ بَأَعْدَاءِ حَبِيبِكَ فِيهِمْ كَمَا قَدْ تَرَانِي بِالْحَبِيبِ أَدُورُ

فأقبل عليّ وهو يبيكي ، ثم قال : وأنا أحسنُ منه قولاً حيثُ أقول :
كَانَ الْقَلْبَ لَيْلَةً قِيلَ يُفْدَى بِلَيْلى الْعَامِرَةِ أَوْ يُرَاحُ
قَطَاةٌ عَزَّهَا ^(٢) شَرَكُ فَبَاتَتْ تُفَارِغُهُ وَقَدْ عَلِقَ الْجَنَاحُ
فَأَمْسَكَتْ عَنْهُ هُنَيْهَةً ، ثم أقبلتُ عليه فقلتُ : وأحسنَ والله قيس .

(١) نبى : نبئى وأخبرنى .

(٢) عزها : غلبها .

ابن ذريح حيث يقول :

وإني لمُنْفٍ دمعَ عَيْنِي بالبُكا حِذاراً لما قد كان أو هو كائنُ
وقالوا : غَداً أو بعد ذلك بليلة فراقُ حبيبٍ لم يَبْنِ وهو بائنُ
وما كنتُ أخشى أن تكون مَنِيَّتِي بكفِّكَ إلا أن ما حانَ حائنُ
فبكي - والله - حتى ظننتُ أنَّ نفسه فاضَتْ ^(١) ، وقد رأيتُ دموعه
قد بَلَّتِ الرملَ الذي بين يديه ، ثم قال : أحسنَ لعمركُ الله ؛ وأنا والله أشعر منه
حيث أقول :

وأذِنَيْتَنِي حتى إذا ما سَبَيْتَنِي بقول يُحِلُّ العَصْمَ ^(٢) سهلاً الأباطحِ
تَناءيتَ عني حينَ لا لي حيلةٌ وخَلَفْتَ ما خَلَفْتَ بين الجواحِ
ثم سَنَحْتَ له ظَبِيَّةً فوثبَ بعدو خلفها حتى غاب عني ، وانصرفت .
وعُدْتُ من غَدٍ فطلبته فلم أجده ، وجاءت امرأة - كانت تَضَعُ له طعامه -
إلى الطعام فوجدته بحاله .

فلما كان اليوم الثالث غدوتُ ، وجاء أهله معي فطلبناه يومنا فلم نجده ، وغدونا
في اليوم الرابع نَسْتَقْرِى أثره ^(٣) ، حتى وجدناه في وادٍ كثير الحجارة خَشِنَ وهو
مَيِّتٌ بين تلك الحجارة ، فيدنا بقلوبنا إذ وجدوا خِرْقَةً فيها :

ألا أيها الشيخ الذي ما بنا يرضى شَقِيتَ ولا هُنَيْتَ من عيشك الغضا
شَقِيتَ كما أَشَقَيْتَنِي وتركْتَنِي أهِيمُ مع الهَلَاكِ لا أطمَعُ العَمُضا

(١) فاضت نفسه : خرجت ومات .

(٢) العَصْم : جمع أعصم ، وهو الوعل الذي في ذراعيه بياض ، يريد أن قولها يخلب العَصْم ويستزلها
من الجبال وهي مساكنها إلى الأباطح السهلة .

(٣) نستقرى أثره : نتبع أثره .

كَانَ فَوَادَى فِي مَخَالِبِ طَائِرٍ إِذَا ذُكِرَتْ لَيْلَى يَشْدُ بِهَا قَبْضًا
كَانَ فِجَاجٌ^(١) الْأَرْضِ حَلْقَةً خَاتَمٍ عَلَى فَمَا تَزْدَادُ طَوْلًا وَلَا عَرْضًا

واحتمله أهله ففسلوه وكفنوه ودفنوه ؛ فلم تبق فتاة من بنى جعدة ولا بنى
الحريش إلا خرجت حائرة صارخة عليه تندبه ، واجتمع فتيان الحى يبكون
عليه أحرًا بكاء ؛ وَيَنْشِجُونَ عليه أشدَّ نَشِيجٍ ، وحضرهم حتى ليلى مُعَزِّين ، وأبوها
معهم ، فكان أشدَّ القوم جزعًا وبكاءً عليه ، وجعل يقول : ما علمنا أَنَّ الأمرَ
يبلغُ كلَّ هذا ، ولكنى كنتُ امرأً عريياً أخافُ من العار ، وقُبِحَ الأحداثُ ،
ما يخافه مثلى ، فزوجتها وخرجتُ عن يدي ، ولو علمتُ أَنَّ أمرَه يجرى على هذا
ما أخرجتها عن يده ، ولا احتملتُ ما كان على في ذلك .

فَا رُئِيَ يَوْمٌ كَانَ أَكْثَرُ بَاكِيًا وَبَاكِيًا عَلَى مَيِّتٍ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ .

٥٩ — اليوم يجمعنا في بطنها الكفن*

قال الطفيل^(١) بن عامر العمرى : خرجت ذات يوم أريد الغارة - وكنت رجلاً أحبّ الوحدة - فبينما أنا أسير، إذ ضللتُ الطريقَ الذى أردتُه ، فسيرت أياماً لأدري أين أتوجّه ، حتى نفذَ زادى ، فجعلتُ آكلُ الحشيشَ وورقَ الشجر حتى أشرفت على الهلاك ، ويئستُ من الحياة .

فبينما أنا أسير إذ أبصرتُ قطعَ غنمٍ فى ناحيةٍ من الطريق ؛ فملتُ إليها ، وإذا شابٌ حسنُ الوجه ، فصيحُ اللسان .

قال لى : يا ابنَ العمِّ ؛ أين تريد ؟ فقلت : أردتُ حاجةً لى فى بعض المدن ، وما أظننى إلا قد ضللتُ الطريقَ . قال : أَجَلْ . إن بينك وبين الطريق مسيرة أيام ، فانزل حتى تستريح وتطمئنَّ وتريح فرسك .

فنزلتُ فرمى لفرسى حشيشاً ، وجاء إلى بئريد كثير ولَبَنٍ ، ثم قام إلى كبش فذبحه ، وأجج ناراً^(٢) ؛ وجعل يُكَبِّبُ^(٣) لى ، ويطعمنى حتى اكتفيت .

فلما جئنى الليل قام وفرش لى ، وقال : قم فارمِ بنفسك ؛ فإنَّ النومَ أذهب لتعبك ، وأرجع لنفسك .

فقمْتُ ووضعتُ رأسى ، فبينما أنا نائم إذ أقبلتُ جاريةٌ لم ترَ عيناى مثلها قطُّ

* المحاسن والأضداد : ٨٠ ، مسامرات الأبرار : ٢ - ٦٠ ، نهاية الأرب : ٢ - ١٩٦

(١) راوى القصة فى نهاية الأرب جيل العذرى (٢) أشعل (٣) أى يجعل لى اللحم كباباً .

حُسْنًا وَجَمَالًا ، فَمَعَدَّتْ إِلَى الْفَتَى وَجَعَلَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَشْكُو إِلَى صَاحِبِهِ مَا يَلْقَى مِنْ الْوَجْدِ بِهِ ؛ فَاِمْتَنَعَ عَلَى النَّوْمِ لِحَسَنِ حَدِيثِهِمَا . فَلَمَّا كَانَ وَقْتُ السَّحَرِ ، قَامَتْ إِلَى مَنْزِلِهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا دَنَوْتُ مِنْهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : مِمَّنَّ الرَّجُلُ ! قَالَ : أَنَا فَلَانُ ابْنِ فَلَانٍ : وَانْتَسَبَ لِي فَعَرَفْتَهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : وَيَحَاكَ ! إِنَّ أَبَاكَ لَسَيِّدُ قَوْمِهِ ، فَمَا حَمَلَكَ عَلَى وَضْعِكَ نَفْسَكَ فِي هَذَا الْمَكَانِ ! فَقَالَ : أَنَا وَاللَّهِ أَخْبِرَكَ :

كَفْتُ عَاشِقًا لِابْنَةِ عَمِّي هَذِهِ الَّتِي رَأَيْتَهَا ؛ وَكَانَتْ هِيَ أَيْضًا لِي وَامِقَةً ^(١) ، فَشَاغَ خَبَرَنَا فِي النَّاسِ ، فَأَتَيْتُ عَمِّي ، فَسَأَلْتُهُ أَنْ يَزَوِّجَنِيهَا ، فَقَالَ : يَا بَنِي ؛ وَاللَّهِ مَا سَأَلْتَ شَطَطًا ^(٢) ، وَمَا هِيَ بِأَثَرٍ عِنْدِي مِنْكَ ؛ وَلَكِنْ النَّاسُ قَدْ تَحَدَّثُوا بِشَيْءٍ وَعَمَّكَ يَكْرَهُ الْمَقَالَةَ الْقَبِيحَةَ ؛ وَلَكِنْ انْظُرْ غَيْرَهَا فِي قَوْمِكَ ، حَتَّى يَقُومَ عَمُّكَ بِالْوَاجِبِ لَكَ .

فَقُلْتُ : لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا ذَكَرْتُ ، وَتَحَمَّلْتُ ^(٣) عَلَيْهِ بِجَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِي فَرَدَّاهُمْ وَزَوَّجَهَا رَجُلًا مِنْ ثَقِيفٍ لَهُ رِيَاةٌ وَقَدَّرَ ؛ فَحَمَلَهَا إِلَى هُنَا - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى خَيْرِ كَثِيرَةٍ بِالْقَرَبِ مِنَّا - فَضَاقَتْ عَلَى الدُّنْيَا بِرُحْبِهَا ، وَخَرَجَتْ فِي إِثْرِهَا ؛ . . . أَنِّي فَرَحْتُ فَرَحًا شَدِيدًا ، فَقُلْتُ لَهَا : لَا تَخْبِرِي أَحَدًا أُنِّي مِنْكَ بِسَبِيلٍ ، ثُمَّ أَتَيْتُ زَوْجَهَا ، وَقَالَتْ : أَنَا رَجُلٌ مِنَ الْأَزْدِ ، أَصَبْتُ دَمًا وَأَنَا خَائِفٌ ، وَقَدْ قَصَدْتُكَ لِمَا أَعْرَفُ مِنْ رَغْبَتِكَ فِي اصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ ، وَلِي بَصَرٌ بِالْغَنَمِ ؛ إِنْ رَأَيْتَ أَنَّ تَعْطِينِي مِنْ غَنَمِكَ شَيْئًا فَأَكُونَ فِي جَوَارِكَ وَكَفَنُوكَ فَاَفْعَلْ . قَالَ : نَعَمْ ، وَكَرَامَةً . فَأَعْطَانِي مِائَةَ شَاةٍ وَقَالَ لِي : لَا تَبْعُدْ بَعْدَهَا مِنَ الْحَيِّ ، وَكَانَتْ ابْنَةُ عَمِّي

(١) وَامِقَةٌ : مَحَبَّةٌ (٢) شَيْئًا بَعِيدًا (٣) تَحَمَّلْتُ عَلَيْهِ : أَيُّ أَتَيْتُهُ بِقَوْمٍ يَشْفَعُونَ لِي عِنْدَهُ .

تخرج إلى كل ليلة في الوقت الذي رأيتَ وتنصرف ؛ فلما رأى حسنَ حال الغنم ؛ أعطاني هذه ، فرضيتُ من الدنيا بما ترى .

قال الطَّفِيلُ : فاقمت عنده أياماً ، فبينما أنا نائمٌ إذ نبهني ، وقال : يا أخا بني عامر . قلتُ له : ما شأنك ؟ قال : إن ابنةَ عمي قد أبطأت ولم تكن هذه عادتها ، والله ما أظنُّ ذلك إلا لأمرٍ حادث ، فخذني ، فجعلت أحدثه ، فأنشأ يقول :

ما بالُ مَيَّةَ لا تأتي كعادتها هل هاجها طرب^(١) أو صدَّها شغلُ ؟
لكنَّ قلبي لا يعنيه غيرهم حتى الماتِ ولا لي غيرهم أملُ
لو تعلمين الذي بي من فراقكم لما اعتلَّت ولا طابت لك العليلُ
نفسى فداؤك ! قد هيَّجت لي سقماً تسكاد من حرِّه الأعضاء تنفصلُ
لو كان عادتهُ منه على جبال لزال وانهدَّ من أركانه الجبلُ

فوالله ما اكتمحت بقمصٍ ، حتى انفجرَ عمودُ الصبح ، وقام ومرَّ نحو الحى فأبطأ عني ساعة ، ثم أقبل ومعه شيء ، وجعل ييكى عليه . فقلت له : ما هذا ؟ قال : هذه ابنةُ عمي افترسها السَّبع ، فأكل بعضها بالقرب منى ، فأوجعَ والله قلبي !

ثم تناول سيفه ومرَّ نحو الحى ، فأبطأ هنيئةً ، ثم أقبل إلى ، وعلى عاتقه ليثٌ كأنه حمار ؛ فقلت له : ما هذا ؟ قال : صاحبي ، قلت : وكيف علمته ؟ قال : إني قصدتُ الموضع الذى أصابها فيه ، وعلمتُ أنه سيعود إلى ما فضلَ منها ؛ فجاء قاصداً إلى ذلك الموضع ، فعلمت أنه هو ، فحملت عليه فقتلته ؛ ثم قام فحفرَ في

(١) الطرب : خفة تصيب الإنسان لشدة حزن أو سرور .

الأرض فأمعن ؛ وأخرج ثوباً جديداً ؛ وقال : يا أخا بني عامر ؛ إذا أنا متُ
فادرُجني ^(١) معها في هذا الثوب ؛ ثم ضَعْنَا في هذه الحفرة ، وأهْلِ التراب ^(٢) ،
واكتب هذين البيتين على قبرنا وعليك السلام :

كُنَّا على ظهْرِهَا والعَيْشُ في مَهْلٍ والدهرُ يَجْمَعُنَا ، والدارُ والوطنُ
فخَانَا الدهرُ في تفريقِ أَلْفَتِنَا واليوم يَجْمَعُنَا في بطنِهَا الكَفَنُ
ثم التفت إلى الأسد وقال :

أَلَا أَيُّهَا اللَّيْثُ المَدْلُ بِنَفْسِهِ هَلَكْتَ ، لَقَدْ جَرَّتْ يَدَاكُ لَنَا حُزْنَآ
وَعَادَرْتَنِي فَرْدَاً وَقَدْ كُنْتُ أَلْفَاً وَصَيَّرْتَ آفَاقَ الْبِلَادِ لَنَا سِجْنَآ
أَصْحَبُ دَهْرًا خَانِي بِفِرَاقِهَا مَعَاذَ إِلَهِي أَنْ أَكُونَ لَهُ خِدْنَا ^(٣)
ثم قال : يا أخا بني عامر ؛ إذا فرغت من شأننا فصِّحْ في أدبار هذه الغنم
فرُدَّهَا إلى صاحبها .

ثم مات ، فقامت فادرَجَتْهُمَا في ذلك الثوب ؛ ووضعتُهما في تلك الحفرة ؛
وكتبت البيتين على قبرها ، ورددتُ الغنم إلى صاحبها . وسألني القوم ، فأخبرتُهم
الخبر ؛ فخرج جماعة منهم فقالوا : والله لننحرنَّ عليه ؛ تعظيماً له ، فخرجوا ؛ وأخرجوا
مائة ناقة ؛ وتسامع الناس فاجتمعوا إلينا ؛ فنحرت ثم انصرفنا .

(١) ادرجني : اطوني معها (٢) هال التراب وأهاله : صب (٣) خدنا : صديقا .

٦٠ — العفة في الحب *

سَمَتْ أُمَّةً لُبْنَيْنَةً بِهَا إِلَى أَبِيهَا وَأَخِيهَا ، وَقَالَتْ لَهَا : إِنَّ جَمِيلًا ^(١) عِنْدَهَا
الَّيْلَةَ ؛ فَأَتَيْتَاهَا مُسْتَمِلِينَ عَلَى سَيْفِينَ ، فَرَأَاهَا جَالِسًا حَجْرَةً ^(٢) . مِنْهَا يَحْدُثُهَا وَيَشْكُو
إِلَيْهَا بَنَّهُ ، ثُمَّ قَالَ لَهَا : يَا بَنِيْمَةَ ؛ أَرَأَيْتِ وَدَّى إِيَّاكَ ، وَشَغَفَى بِكَ ، أَلَا تَجْزِينِيهِ ؟
قَالَتْ : بِمَاذَا ؟ قَالَ : بِمَا يَكُونُ بَيْنَ الْمُتَحَابِّينَ ، فَقَالَتْ لَهُ : يَا جَمِيل ؛ أَهَذَا تَبْغِي !
وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ عِنْدِي بِمَعْدَأٍ مِنْهُ ، وَلَئِنْ عَاوَدْتَ تَعْرِضًا بِرَبِيَّةٍ ، لَا رَأَيْتَ
وَجْهِي أَبَدًا .

فَضَحِكَ وَقَالَ : وَاللَّهِ مَا قُلْتُ لَكَ هَذَا إِلَّا لِأَعْلَمَ مَا عِنْدَكَ فِيهِ ، وَلَوْ عَلِمْتُ
أَنَّكَ تَجِييْنَنِي إِلَيْهِ لَعَلِمْتُ أَنَّكَ تُجِييْنِينَ غَيْرِي ، وَلَوْ رَأَيْتُ مِنْكَ مَسَاعِدَةً عَلَيْهِ لَضَرَبْتُكَ
بَسِيفِي هَذَا مَا اسْتَمْسَكَ فِي يَدِي ، وَلَوْ أَطَاعَتْنِي نَفْسِي لَهَجَرْتُكَ هَجْرَةَ الْأَبَدِ ، أَوْ
مَا سَمِعْتُ قَوْلِي :

وَإِنِّي لِأَرْضَى مِنْ بُنِيْنَةٍ بِالَّذِي لَوْ أَبْصَرَهُ الْوَاشِي لَقَرَّتْ بَلَابِلُهُ ^(٣)

* الْأَغَانِي : ٨ : ١٠٥

(١) هُوَ جَمِيلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْمَرِ الْعَنْزِيِّ ، كَانَ شَاعِرًا فَصِيحًا مُقَدِّمًا جَامِعًا لِلشَّعْرِ وَالرَّوَايَةِ .
اشْتَهَرَ بِحُبِّهِ بَنِيْنَةَ ابْنَتِهِ عَمَّهُ ، وَكَانَ يَجْتَمِعُ بِهَا سِرًّا عَنْ أَهْلِهَا ، فَأَلْحَوْا بِالشَّكْوَى عَلَيْهِ ، فَفَرَّ إِلَى الْيَمَنِ
ثُمَّ اتَّجَعَ أَهْلُ بَنِيْنَةَ الشَّامِ ، فَرحَلَ جَمِيلٌ إِلَيْهِمْ فَتَرَصَّدُوهُ وَشَكَّوهُ إِلَى عَشِيرَتِهِ ، فَغَنَفَهُ أَهْلُهُ وَهَدَّدُوهُ ،
فَانْقَطَعَ عَنْهَا ، وَأَخِيرًا لَجَأَ إِلَى مِصْرَ وَعَامَلَهَا عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ مَرْوَانَ ، فَأَحْسَنَ وَفَادَتَهُ ، وَمَرَضَ هُنَاكَ
وَمَاتَ بِهَا سَنَةَ ٨٢ هـ (٢) حَجْرَةٌ : نَاحِيَةٌ مُنْفَرِدَةٌ . (٣) الْبَلَابِلُ : وَسْوَاسُ الصَّدْرِ .

بِلاَ وَبِأَلَا أَسْتَطِيعُ وَبِأَلْمَنِ وَبِالْأَمَلِ الْمَرْجُوِّ قَدْ خَابَ أَمَلُهُ
وَبِالنَّظَرَةِ الْعَجَلَى وَبِالْحَوْلِ ثَقَفَظِي أَوَاخِرُهُ لَا نَلْتَقِي وَأَوَائِلُهُ
فَقَالَ أَبُوهُمَا لِأَخِيهَا : قُمْ بِنَا ؛ فَمَا يَنْبَغِي لَنَا بَعْدَ الْيَوْمِ أَنْ نَمْنَعَ هَذَا الرَّجُلَ مِنْ
لِقَائِهَا ؛ فَانْصَرَفَا وَتَرَكَاهَا .

٦١ — حديث جميل وبُشينة*

قال مُعَبَّد : خرجتُ إلى مكةَ في طلب لقاء الغريِّض ^(١) ، وقد بلغني حسنُ غفائه في لَحْنه :

وما أنسَ الأشياءَ لا أنسَ شاديًا ^(٢) بمكةَ مَكْحُولًا أَسِيلاً مداِمُهُ
وقد كان بلغني أَنَّهُ أولُ لَحْنٍ صنَّعه ، وأنَّ الجِنَّ نَهَتْهُ أن يَغَنِّيَهُ لِأَنَّهُ فتنُ طائفةً منهم ، فاتَّقُوا بَيْنَ مكةَ من أَجل حُسْنِهِ .

فلما قدمتُ مكةَ سألتُ عنه ، فدلَّلتُ على منزله ؛ فأتيتُه فقرعتُ البابَ فما
كلمني أحدٌ ، فسألتُ بعضَ الجيرانِ فقلت : هل في الدارِ أحدٌ ؟ قالوا لي : نعم ،
فيها الغريِّض ، فقلت : إني قد أكرتُ دقَّ الباب ، فما أجابني أحدٌ ! قالوا : إنَّ
الغريِّضَ هناك ، فرجمتُ فدفقتُ البابَ فلم يُجِبْنِي أحدٌ ، فقلت : إن نَفَعَنِي غفائي
يوماً نَفَعَنِي اليوم ، فاندفعتُ فغَنَّيْتُ لَحْنِي في شِعْرِ جَمِيل :

عَلَيْتُ الهَوَى منها وليداً فلم يَزَلْ إلى اليوم يَنْمِي حُبَّها وَيَزِيدُ

فوالله ما سَمِعْتُ حَرَكََةَ البَاب ، فقلت : بَطُلَ سِجْرِي ^(٣) وضاع سَقْرِي ،
وجئتُ أَطْلُبُ ما هو عَسِيرٌ عَلَيَّ ، واحتقرتُ نَفْسِي وقلت : لم يَتَوَهَّمَنِي ^(٤) لَضَعْفُ

* الأغاني : ٢ - ٣٨٧ ، تزيين الأسواق : ٣٧

(١) ممن مشهور ، أخذ الغناء عن أبي سريخ وبرع فيه ، واسمه عبد الملك ، والغريِّض لقبه ،
قال ابن الكلبي : شبه بالإغريض ، وهو الحمار فسمى به ، ثم نقل على الألسنة ، ولُحِذَتِ الألف منه
(٢) من أصله الأشياء (٣) بطل سحري : ضاعت حيلتي (٤) لم يتوهمني : لم يعرفني .

غِنَائِي عنده ، فما شَعَرْتُ إِلَّا بِصَاحٍ بِصِيح : يَا مَعْبُدَ الْمَغْنَى ؛ أَفْهَمَ وَتَلَقَّ عَنِّي شَعْرَ
جَمِيلِ الذِّي تُغْنِي فِيهِ يَا شَقِيَّ الْبَيْتِ ، وَغَنَّى :

وَمَا أَنَسَ بِمِ الْأَشْيَاءِ لَا أَنَسَ قَوْلَهَا وَقَدْ قَرَّبَتْ نِضْوِي ^(١) : أَمَصَرَ تَرِيدُ ؟
وَلَا قَوْلَهَا : لَوْلَا الْعَيُونُ الَّتِي تَرَى أَتَيْتُكَ فَأَعَذِرْنِي فَدَتِكَ جُدُودُ !
خَلِيلِيَّ مَا أَخْفَى مِنَ الْوَجْدِ بَاطِنُ وَدَمْعِي بِمَا قَلْتُ الْغَدَاةَ شَهِيدُ
يَقُولُونَ : جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بِفَرْوَةٍ وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرُهُنَّ أُرِيدُ
لِكُلِّ حَدِيثٍ عَنْدَهُنَّ بَشَاشَةٌ وَكُلِّ قَتِيلٍ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ

فَسَمِعْتُ شَيْئًا لَمْ أَسْمَعْ أَحْسَنَ مِنْهُ ، وَقَصَّرَ ^(٢) إِلَى نَفْسِي ؛ وَعَلِمْتُ فَضِيلَتَهُ عَلَيَّ
بِمَا أَحْسَنَ مِنْ نَفْسِهِ ، وَقُلْتُ : إِنَّهُ لِحُرَّى بِالْإِسْتِثَارِ مِنَ النَّاسِ تَنْزِيهَاً لِنَفْسِهِ ، وَتَعْظِيمًا
لِقُدْرِهِ ، وَإِنَّ مِثْلَهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْإِبْتِذَالَ ، وَلَا أَنْ تُتَدَاوَلَ الرِّجَالُ ؛ فَأَرَدْتُ
الْإِنْصِرَافَ إِلَى الْمَدِينَةِ رَاجِعًا .

فَلَمَّا كُنْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ إِذَا بِصَاحٍ بِصِيحَ بِي : مَعْبُدُ ؛ أَنْتَظِرْ أَكَلَمَكَ ، فَرَجَعْتُ
فَقَالَ لِي : إِنَّ الْغَرِيضَ يَدْعُوكَ ؛ فَأَمَرَعْتُ فَرِحًا ، فَدَنَوْتُ مِنَ الْبَابِ ، فَقَالَ لِي :
أَنْحِبُ الدَّخُولَ ؟ فَقُلْتُ : وَهَلْ إِلَى ذَلِكَ مِنْ سَبِيلٍ ؟ فَفَرَعَ الْبَابَ فَفُتِحَ ، فَقَالَ لِي
ادْخُلْ وَلَا تَطْلُ الْجُلُوسَ .

فَدَخَلْتُ فَإِذَا شَمْسٌ طَالِمَةٌ فِي بَيْتٍ ، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّ السَّلَامَ ، ثُمَّ قَالَ : اجْلِسْ
فَجَلَسْتُ ، فَإِذَا أَنْبَلُ النَّاسِ ، وَأَحْسَنُهُمْ وَجْهًا وَخُلُقًا وَخُلُقًا ؛ فَقَالَ : يَا مَعْبُدُ ؛ كَيْفَ

(١) النضو : المهزول من الإبل (٢) قصر إلى نفسى : صغرها في عيني .

حَارَات^(١) إلى مكة ؟ فقلتُ : جُعِلْتُ فداءك ! وكيف عرفتني ؟ فقال : بصوتك ؛ فقلت : وكيف وأنت لم تسمعه قط ؟ قال : لما غنيتَ عرفتك به وقلتُ : إن كان معبد في الدنيا فهذا . فقلت : جُعِلْتُ فداءك ! فكيف أجبتني بقولك :

وما أنس من الأشياء لا أنس قولها وقد قَرَّبْتُ لِمُضَى : أمِصْرَ تريد ؟ فقال : لقد علمتُ أنك تريد أن أُثِمِّعَكَ صوتي :

وما أنس من الأشياء لا أنس شادِنًا بمكة مكحولاً أسيلاً مَدَامِعُهُ ولم يكن إلى ذلك سبيلٌ ، لأنه صوتٌ نَهَيْتُ أن أُغْنِيَهُ ، فغَنَيْتُكَ هذا الصوت جواباً لما سألتَ وَغَنَيْتَ ؛ فقلتُ : والله ما عدوتَ ما أردتُ . فقال لي : يا أبا عَبَّاد ؛ لولا ملالةُ الحديثِ ، وثَقُلُ إطالةُ الجلوسِ لاستكثرتُ منك فاعْذِرْ . فخرجتُ من عنده ، وإنه لأَجَلُ الناسِ عندي ، ورجعتُ إلى المدينة فمحدثتُ بحديثه ، وعجبتُ من فِطْنَتِهِ وقِيَاظِهِ^(٢) ، فما رأيتُ إنساناً إلّا وهو أجلُّ منه في عيني .

وذَكَرْتُ جَمِيلاً وَبُشَيْنَةَ فقلتُ : أيتني عرفتُ إنساناً يحدِّثني بقصة جميل وخبر الشعر فأكون قد أخذتُ بفضيلةِ الأمرِ كله في الغناء والشعر ، فسألتُ عن ذلك فإذا الحديثُ مشهور ، وقيل لي : إن أردتَ أن تُخَبِّرَ بخبره فأنتَ بنى حَنْظَلَةَ ، فإنَّ فيهم شيخاً منهم يقال له : فلان ، يُخَبِّرُك الخبرَ .

فأتيتُ الشيخَ فسأَلْتُهُ فقال : نَعَمْ ؛ بينا أنا في إِبِلِي في الربيعِ إذا أنا برجلٍ مُنْطَوٍ على رَحْلِهِ كأنه جانٌّ^(٣) ، فسَلَّمْ عليّ ، ثم قال : بمن أنتَ يا عبد الله ؟ فقلت : أحد

(١) طرأت : أقبلت فجأة . (٢) فاف الأثر قيافة : تقيمه وعرفه (٣) حية لا تؤذى كثيرة في الدور .

بنى حَنْظَلَةَ ، قال : فانتسب ؛ فانتسبتُ حتى بلغتُ إلى فَخِذِي الذي أنا منه ؛ ثم سألني عن بني عُذْرَةَ أين نزلوا ؟ فقلت له : هل ترى ذلك السَّفْح ؟ فإنهم نزلوا من ورائه ؛ قال : يا أخا بني حَنْظَلَةَ ؛ هل لك في خير تصطنعه إلي ؟ فوالله لو أعطيتني ما أصبحتَ تسوق من هذه الإبل ما كنتُ بأشكرَ مني لك عليه ، فقلت : نعم ، ومن أنتَ أولاً ؟ قال : لا تسألني من أنا ولا أخبرك لو سألتني ؛ غير أني رجلٌ بيني وبين هؤلاء القوم ما يكونُ بين بني العم ، فإن رأيتَ أن تأتيهم فإنك تجدد القوم في مجلسهم ، فتَنَشِّدُهُمْ ^(١) بَكْرَةَ أَدْمَاءَ تَجُرُّ خُمَيْهَا غُفْلًا من السَّمة ^(٢) ، فإن ذكروا لك شيئاً فذاك ، وإلا استأذنتهم في البيوت وقلتُ : إن المرأة والصبي قد يريان ما لا يرى الرجال فتَنَشِّدُهُمْ ولا تدعُ أحداً تصيبه عينك ولا بيتاً من بيوتهم إلا نشدتها فيه .

فأتيتُ القومَ فإذا هم على جَزُورٍ ^(٣) يَقْتَسِمُونَهَا ، فسألتُ وانتسبتُ لهم ونشدتهم ضالتي ، فلم يذكروا لي شيئاً ، فاستأذنتهم في البيوت وقلت : إن الصبي والمرأة يريان ما لا يرى الرجال ، فأذِنُوا ، فأتيتُ أقصاها بيتاً ، ثم استقرتُها بيتاً بيتاً أنشدُهم فلا يذكرون شيئاً ، حتى إذا انتصفَ النهار ، وآذاني حرُّ الشمس وعَطِشْتُ وفرغتُ من البيوت ، وذهبتُ لأنصرفَ حانتُ مني التفاتةٌ فإذا بثلاثة أبيات فقلت : ما عند هؤلاء إلا ما عند غيرهم ، ثم قلت لنفسِي : سوءةٌ ؛ وثقَ بي رجلٌ ، وزعم أن حاجته تعدلُ مالي ، ثم آتبه فأقول : عَجَزْتُ عن ثلاثة أبيات !

(١) تنشدُهم : تناديهم وتسألهم عنها ، والبكرة الفتية من الإبل ، والآدم من الإبل : الأبيض .

(٢) السمة : العلامة ، وغفلاً من السمة : أي ليست فيها علامة (٣) الجزور من الإبل يقع على الذكر والأنثى .

فانصرفتُ عائداً إلى أعظمها بيتاً ، فإذا هو قد أُرْخِيَ مُؤَخَّرُهُ ومقدَّمُهُ ،
 فسلمتُ فردَّ عليَّ السلام ، وذكرت ضالَّتِي ، فقالت جارية منهم : يا عبدَ الله ؛
 قد أصبتَ ضالَّتَكَ ، وما أظنُّكَ إلَّا قد اشتدَّ عليك الحرُّ ، واشتهيتَ الشرابَ ؛
 قلت : أجل ؛ قالت : ادخل ؛ فدخلتُ ؛ فأتتني بصَحْفَةٍ فيها تَمْرٌ من تَمْرِ هَجَرَ ^(١)
 وقدَح فيه لبن ، والصَحْفَةُ مصرية مُقَضَّصَةٌ ، والقَدَحُ مُقَضَّضٌ لم أرَ إناء قطُّ
 أحسنَ منه ، فقالت : دونك . فتجمَّعتُ وشربتُ من اللبن حتى رَوَيْتُ ، ثم قلتُ :
 يا أمةَ الله ؛ والله ما أتيتُ اليومَ أكرمَ منك ولا أحقَّ بالفضل ؛ فهل ذكرتِ من
 ضالَّتِي شيئاً ؟ فقالت : هل ترى هذه الشجرة فوق الشَّرَفِ ^(٢) ؟ قلت : نعم ؛ قالت :
 فَإِنَّ الشمسَ غَرَبَتْ أَمْسَ وهي تُطِيفُ حولها ، ثم حال الليلُ بيني وبينها ؛ فقمْتُ
 وجزيتُها الخيرَ ، وقلت : والله لقد تغدَّيتُ ورَوَيْتُ .

فخرجتُ حتى أتيتُ الشجرةَ فَأَطَفْتُ بها ، فوالله ما رأيتُ من أثر ؛ فأتيتُ
 صاحِبِي فإذا هو مُتَشَحِّحٌ في الإبلِ بكسائه ورافِعٌ عَقِيرَتَهُ ^(٣) . يغني . قلت : السلام
 عليك . قال : وعليكَ السلام ، ما وراءك ؟ قلت : ما ورأى من شيء ؛ قال : لا
 عليك ! فأخبرني بما فعلتُ ، فاقْتَصَصْتُُ عَالِيَهُ القصةَ حتى انتهيتُ إلى ذِكْرِ المرأةِ
 وأخبرته بالذي صَنَعْتُ ؛ فقال : قد أصبتَ طَلِبَتَكَ ؛ فمعبتُ من قوله وأنا لم أجدُ
 شيئاً .

(١) هجر : بلد باليمن مشهورة بالتمر (٢) الشرف : المكان العالي (٣) عقيرة الرجل :
 صوته إذا غنى أو أبكى .

ثم سألني عن صفة الإناءين : الصَّحْفَةُ والقَدَحُ ؛ فوصفتها له ، فتنفَّس الصُّعْدَاءُ وقال : قد أصبتَ طلبتك ، وَنَحَكَ ! ثم ذكرتُ له الشجرةَ وأنها رأيتها تُطيفُ بها ، فقال : حَسْبُكَ ! فكثتُ حتى أَوْتُ إيلي إلى مَباركها ودعوتهُ إلى العشاء فلم يَدُنْ منه ، وجلس مني بمزَجَر^(١) الكلب .

فلما ظنَّ أني قد نمتُ رَمَقْتُهُ ، فقام إلى عَيْبَةِ^(٢) له ، فاستخرج منها بُرْدَيْنِ فَأَتَزَّرَ بأحدهما وتردَّى بالآخر ، ثم انطلق عامداً نحو الشجرة . واستبطنتُ الوادى فجعلتُ أخفي نفسي ، حتى إذا خِفْتُ أن يراني انبطحتُ ؛ فلم أزلْ كذلك حتى سَبَقْتُهُ إلى شجرات قريبة من تلك الشجرة ، بحيث أسمعُ كلامَهُما ، فاستترتُ بهنَّ ، وإذا صاحبه عند الشجرة ، فأقبل حتى كانَ منها غير بعيد ، فقالت : اجلس ؛ فوالله لكانه لصق بالأرض ، فسلمَ عليها وسألها عن حالها أكرمَ سؤال ، وأبعده عن كلِّ ريبة ، وسألته مثل مسأله ؛ ثم أمرت جارية معها ، فقرَّبتُ إليه طعاما ، فلما أكل وفرغ ، قالت : أنشدني ماقلت ، فأنشدها :

عَلِقْتُ الهَوَى منها وليداً فلم يَزَلْ إلى اليوم يَنْبِي حُبَّها وَيَزِيدُ
ثم لم يَزَلْا يتحدَّثان ، مايقولان فُحْشاً ولا هُجْراً ، حتى التفتت التفاتة ، فنظرت إلى الصبح ، فودَّع كلَّ واحدٍ منهما صاحبه أحسن وداع ما سمعت به قطَّ ، ثم انصرفا .

فمقت فمضيتُ إلى إيلي ، فاضْطَجَعْتُ ، وكلَّ واحدٍ منهما يمشي خطوةً ثم يلتفت إلى صاحبه ، فجاء بعد ما أَصْبَحْنَا فرفع بُرديه ثم قال : يا أخا بني تميم ؛ حتى متى

(١) أى جلس بعيداً (٢) العيبة : وعاء من جلد يكون فيه المتاع .

تَنَام ! فَقَمْتُ وَتَوَضَّأتُ وَصَلَيْتُ ، وَحَلَبْتُ إِبِلِي ، وَأَعَانَتِي عَلَيْهَا ، وَهُوَ أَظْهَرُ النَّاسِ
سُرُورًا ، ثُمَّ دَعَوْتُهُ إِلَى الْغَدَاءِ فَغَدَيْتِي ؛ ثُمَّ قَامَ إِلَى عَيْدَتِهِ فَافْتَحَهَا فَإِذَا فِيهَا سِلَاحٌ
وَبُرْدَانٌ مِمَّا كَسَتْهُ الْمَلُوكُ ، فَأَعْطَانِي أَحَدَهُمَا وَقَالَ : أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ كَانَ مَعِيَ شَيْءٌ مَا
ذَخَرْتُهُ عَنْكَ ، وَحَدَّثَنِي حَدِيثَهُ وَانْتَسَبَ لِي ، فَإِذَا هُوَ جَمِيلٌ بْنُ مَعْمَرٍ وَالْمَرْأَةُ بُثَيْنَةُ ،
وَقَالَ لِي : إِنِّي قُلْتُ أَيْيَاتًا فِي مُنْصَرَفِي مِنْ عَفْدِهَا ، فَهَلْ لَكَ إِنْ رَأَيْتَهَا أَنْ تُنْشِدَهَا ؟
قُلْتُ : نَعَمْ ؛ فَأَنْشَدَنِي :

وَمَا أُنْسِي الْأَشْيَاءَ لَا أُنْسِي قَوْلَهَا	وَقَدْ قَرَّبَتْ نِضْوِي : أَمَصَرَ تُرِيدُ ؟
وَلَا قَوْلَهَا لَوْلَا الْعَيُونُ الَّتِي تَرَى	أَتَيْتُكَ فَأَعْذِرْنِي قَدْ تَكَ جُدُودُ
خَلِيلِي مَا أَخْفَى مِنَ الْوَجْدِ بَاطِنٌ	وَدَمَعِي بِمَا قُلْتُ الْغَدَاءَ شَهِيدُ
يَقُولُونَ : جَاهِدْ يَا جَمِيلُ بِغَزْوَةٍ	وَأَيَّ جِهَادٍ غَيْرَهُنَّ أُرِيدُ
أَكُلْ حَدِيثَ عَفْدِهِنَّ بِشَاشَةٍ	وَكُلْ قَتِيلَ بَيْنَهُنَّ شَهِيدُ

ثُمَّ وَدَّعَنِي وَانْصَرَفَ

فَمَكَّنْتُ حَتَّى أَخَذَتِ الْإِبِلُ مَرَاتِمَهَا ، ثُمَّ عَمَدْتُ إِلَى دُهْنٍ كَانَ مَعِيَ فَدَهَنْتُ
بِهِ رَأْسِي ، ثُمَّ ارْتَدَيْتُ بِالْبُرْدِ وَأَتَيْتُ الْمَرْأَةَ ، فَقُلْتُ : السَّلَامُ عَلَيْكُمْ ؛ إِنِّي جِئْتُ أَمَسَ
طَالِبًا وَالْيَوْمَ زَائِرًا ، أَفَتَأْذَنُونَ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، فَسَمِعْتُ جَوِيرِيَّةً تَقُولُ لَهَا : يَا بُثَيْنَةُ ؛
عَلَيْهِ وَاللَّهِ بُرْدٌ جَمِيلٌ ، فَجَعَلْتُ أَثْنِي عَلَى ضَيْفِي وَأَذْكَرَ فَضْلَهُ ، وَقُلْتُ : إِنَّهُ ذَكَرَكَ
فَأَحْسَنَ الذِّكْرَ ، فَهَلْ أَنْتَ بَارِزَةٌ حَتَّى أَنْظُرَ إِلَيْكَ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، فَلَبَسْتُ ثِيَابَهَا ثُمَّ
بَرَزَتْ وَدَعَتْ لِي بِطَرَفٍ ، ثُمَّ قَالَتْ : يَا أَخَا بَنِي تَيْمٍ ، وَاللَّهِ مَا ثَوْبُكَ هَذَا بِمَشْتَبِهَيْنِ ،
وَدَعَتْ بِعَيْنَيْتَيْهَا ، فَأَخْرَجَتْ لِي مِلْحَفَةً ^(١) مَرْوِيَّةً مُسْبَعَةً مِنَ الْعَصْفَرِ ، ثُمَّ قَالَتْ :

(١) المِلْحَفَةُ : اللَّبَاسُ الَّذِي فَوْقَ اللَّبَاسِ مِنْ دِثَارِ الْبَرْدِ وَنَحْوِهِ ، وَمَرْوِيَّةٌ : نَسَبَةٌ إِلَى مَرْوٍ .

أقسمت عليك لتقومنَّ إلى كِسْرِ البيت ولتَخْلَعنَّ مِدرَعَتك^(١) ، ثم لَتَأْتِرَنَّ بهذه
الملحفة، فهي أشبه بِبُرْدك، ففعلتُ ذلك؛ وأخذت مِدرَعتي بيدي؛ فجعلتها إلى جانبي،
وأنشدتها الأبيات؛ فدمعتُ ، وتحدثنا طويلاً من النهار ، ثم انصرفتُ إلى أبي
بمَلْحَمَةٍ بُثِينَةٍ وَبُرْدٍ جَمِيلٍ وَنَظْرَةٍ مِنْ بَثِينَةٍ .

قال معبد : فجزيتُ الشيخَ خيراً ، وانصرفت من عنده . وأنا والله أحسنُ الناس
حالاً بِنَظْرَةٍ مِنَ الْغَرِيضِ وَاسْتِمَاعِ لَغَنَائِهِ ، وَعِلْمِ بِحَدِيثِ جَمِيلٍ وَبَثِينَةٍ فِيمَا غَنَيْتُ
أَنَا بِهِ ، وَفِيمَا غَنَى بِهِ الْغَرِيضُ عَلَى حَقِّ ذَلِكَ وَصَدَقَهُ ؛ فَمَا رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بُزُوجِينَ
قَطَّ أَحْسَنَ مِنْ جَمِيلٍ وَبُثِينَةٍ ، وَمَنْ الْغَرِيضُ وَمَنْ .

(١) المدرعة : نوع من الثياب ، ولا تكون إلا من الصوف .

٦٢ — عتاب بين بُثينة وجَمِيل *

لَقِيَ جَمِيلٌ بُثِينَةً بَعْدَ تَهَاجُرٍ ^(١) كَانَ بَيْنَهُمَا طَالَتْ مُدَّتُهُ ، فَبَعَثَتَا طَوِيلًا ؛
فَقَالَتْ لَهُ : وَيَحْكُ يَا جَمِيلُ ! أَنْزَعُمُ أَنْكَ تَهَوَانِي وَأَنْتَ الَّذِي تَقُولُ :
رَمَى اللَّهُ فِي عَيْنَيَّ بُثِينَةً بِالْقَذَى وَفِي الْغُرِّ مِنْ أَنْيَابِهَا بِالْقَوَادِحِ ^(٢)
فَأُطْرَقَ طَوِيلًا يَبْكِي ، ثُمَّ قَالَ : بَلْ أَنَا الْقَائِلُ :
أَلَا لَيْتَنِي أَعْمَى أَصُمُّ تَقُودُنِي بُثِينَةٌ لَا يَخْفَى عَلَيَّ كَلَامُهَا
فَقَالَتْ لَهُ : وَيَحْكُ ! مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذِهِ الْمُنَى ! أَوَلَيْسَ فِي سَعَةِ الْعَافِيَةِ
مَا كَفَانَا جَمِيعًا !

* الأغانى : ٨ - ١٠٤

(١) التهاجر : التقاطع . (٢) القوادح : سواد يظهر في الأسنان .

٦٣ — يَتَذَكَّرَانِ الشَّعْرَ وَالْهُوَى *

التقى جميلٌ وكثير فتذاكرا النسيب ؛ فقال كثير : يا جميل ؛ أترى بُدَيْنَةَ
لم تسمع بقولك :

يَقِيكَ جَمِيلٌ كُلُّ سُوءٍ ، أَمَا لَهُ لَدَيْكَ حَدِيثٌ أَوْ إِلَيْكَ رَسُولُ
وَقَدْ قُلْتُ فِي حُجِّي لَكُمْ وَصِيَّائِي مُحَاسِنَ شَعْرٍ ذِكْرُهُنَّ يَطُولُ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ قَوْلِي رِضَاكَ فَعَلِّي هُبُوبَ الصَّبَا يَا بَتْنُ كَيْفَ أَقُولُ
فَاغَابَ عَنِّ خِيَالُكَ لِحِظَةً وَلَا زَالَ عَنْهَا ، وَالْخِيَالُ يَزُولُ

فقال جميل : أترى عَزَّةَ يَا كَثِيرَ لَمْ تَسْمَعْ بِقَوْلِكَ :

يَقُولُ الْعِدَا : يَا عَزُّ قَدْ حَالَ دُونَكُمْ شُجَاعٌ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ مَصْمٌ ^(١)
فَقُلْتُ لَهَا : وَاللَّهِ لَوْ كَانَتْ دُونَكُمْ جَهَنَّمُ مَا رَاعَتْ فَوَادِي جَهَنَّمِ
وَكَيْفَ يَرُوعُ الْقَلْبَ يَا عَزُّ رَائِعٌ وَوُجْهَكَ فِي الظُّلُمَاءِ لِلسَّفَرِ مَعْلَمٌ
وَمَا ظَلَمْتُكَ النَّفْسَ يَا عَزُّ فِي الْهُوَى فَلَا تَنْقَمِي حُجِّي فَمَا فِيهِ مَنَقَمٌ

فَبَسْكَيَا قِطْعَةً مِنَ اللَّيْلِ ، ثُمَّ انْصَرَفَا .

* الأغانى : ٨ - ١٠٩

(١) يقال للضارب بالسيف إذا أصاب العظم فأنفذ الضربة : قد صمم ، فهو مصمم .

٦٤ - لا أزالُ أُنْكِيهِ إلى المَمَاتِ*

حَدَّثْتُ بُثَيْنَةَ - وكانت صدوقةَ اللسان ، جميلةَ الوجه ، حسنةَ البيان ، عفيفة - قالت : والله ما أَرَادَنِي جميل - رحمةُ الله عليه - بريبةٍ قَطُّ ، ولا حَدَّثْتُ أَنَا نفسِي بذلك منه ، وإن الحَيَّ اتَّجَعُوا موضعاً ، وإني لفي هَوْدَجٍ لِي أُسِيرُ إِذَا أَنَا بِهَاتِفٍ يُنْشِدُ أَيْتَانَا .

فَلَمْ أَتَمَلَّكَ أَنْ رَمَيْتُ بِنَفْسِي ، وَأَهْلُ الحَيِّ يَنْظُرُونَ ، فَبَقِيتُ أَطْلُبُ الْمُنْشِدَ فَلَمْ أَقِفْ عَلَيْهِ ، فَنَادَيْتُ : أَيُّهَا الْهَاتِفُ بِشَعْرِ جَبَلٍ ، مَا وَرَاءَكَ مِنْهُ ! وَإِنِّي أَحْسَبُهُ قَدْ قَضَى نَحْبَهُ وَمَضَى لَسْبِيلَهُ - فَلَمْ يُجِبْنِي مُجِيبٌ ، فَنَادَيْتُ ثَلَاثًا ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ لَا يَرُدُّ عَلَيَّ أَحَدٌ شَيْئًا ، فَقَالَتْ صَوَاحِبَاتِي : أَصَابَكَ يَا بُثَيْنَةُ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ ! فَقُلْتُ : كَلَّا ، لَقَدْ سَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ ! قُلْنَ : نَحْنُ مَعَكَ وَلَمْ نَسْمَعْ ، فَرَجَعْتُ فَرَكِبْتُ مَطِيَّتِي وَأَنَا حَيْرِي ، وَالْهَةُ الْعَقْلُ ، كَاسِفَةُ الْبَالِ .

ثُمَّ سَرْنَا ، فَلَمَّا كَانَ فِي اللَّيْلِ سَمِعْتُ ذَلِكَ الْهَاتِفَ يَهْتِفُ بِذَلِكَ الشَّعْرِ بِعَيْنِهِ ، فَرَمَيْتُ بِنَفْسِي ، وَسَعَيْتُ إِلَى الصَّوْتِ ؛ فَلَمَّا قَرُبْتُ مِنْهُ انْقَطَعَ ؛ فَقُلْتُ : أَيُّهَا الْهَاتِفُ ! ارْحَمْ حَيْرَتِي ، وَسَكِّنْ عَذْرَتِي بِخَبْرِ هَذِهِ الْأَيْتِ ؛ فَإِنْ لَهَا شَأْنًا ! فَلَمْ يَرُدُّ عَلَيَّ شَيْئًا !

فَرَجَعْتُ إِلَى رَحْلِي فَرَكِبْتُ وَسِرْتُ وَأَنَا ذَاهِبَةُ الْعَقْلِ ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ لَا تُخْبِرُنِي صَوَاحِبَاتِي أَنَّهُنَّ سَمِعْنَ شَيْئًا .

فلما كانت الليلة القابلة نزلنا وأخذ الحى مضاجعهم ونامت كل عين ، فإذا الهاتف يهتف بى ويقول : يا بليغة ! أقبلى إلى أنديك عما تريدن ، فأقبلت نحو الصوت ؛ فإذا شيخ كأنه من رجال الحى ؛ فسألته عن اسمه وبيته ، فقال : دعى هذا ، وخذى فيما هو أهم عليك ، فقلت له : وإن هذا لما يهمنى . قال : اقنعى بما قلت لك . فقلت له : أنت المنشد الأبيات ؟ قال : نعم . قلت : فما خبر جميل ؟ قال : نعم ! فارقته وقد قضى نحبه ، وصار إلى حُمرته - رحمة الله عليه .

فصرخت صرخةً آذيت منها الحى ، وسقطت لوجهى ؛ فأغشى على ، فكان صوتى لم يسمعه أحد ، وبقيت سائر ليلتى ، ثم أفقت عند طلوع الفجر ، وأهل يطلبوننى فلا يفتقون على موضعى ، ورفعت صوتى بالعويل والبكاء ورجعت إلى مكانى ، فقال لى أهلى : ما خبرك ؟ وما شأنك ؟ فقصصت عليهم القصة ، فقالوا : يرحم الله جميلاً ، واجتمع نساء الحى وأنشدن الأبيات فأسعدننى بالبكاء^(١) ، فلم نزل كذلك لا يفارقننى ثلاثاً ، وتحزن الرجال أيضاً ، وبكوا ورثوه وقالوا كلهم : يرحمه الله ؛ فإنه كان عفيفاً صدوقاً . فلم أكتحل بعده يائماً^(٢) ، ولا فرقْتُ رأسى بخيط ولا مشط ولا دهنته إلا من صداع خفت على بصرى منه ، ولا لبست خماراً مصبوغاً ولا إزاراً ، ولا أزال كذلك أبكيه إلى المات !

(١) بكين معى .

(٢) الإئتمد : حجر يكتحل به .

٦٥ — حَيِّ وَيَحْك مَنْ حَيَّاكَ يَا جَلُّ

أراد زوجُ عَزَّةَ أَنْ يَحْجَّ بِهَا ؛ فسمعَ كَثِيرٌ الْخَبْرَ ؛ فقال : والله لأُحْجِنَّ ،
لَعَلِّي أَفُوزُ مِنْ عَزَّةَ بِنَظَرَةٍ .

فبينما الناس في الطَّوَّافِ ، إذ نظرَ كَثِيرٌ عَزَّةَ ، وقد مضت إلى جملِه ، فحَيْثُ ،
ومسحت بين عينيه ، وقالت : حَيْثُ يَا جَلُّ ! فبادرَ ليلْحَقَهَا ، فقافته فوقف على
الجل وقال :

حَيْثُكَ عَزَّةُ بَعْدَ الْحِجِّ وانصرفتُ فحَيِّ وَيَحْك مَنْ حَيَّاكَ يَا جَلُّ
لو كنت حَيْثُهَا مازلتَ ذَا مِقَّةٍ ^(١) عندي ولا مَسَّكَ الإِدْلَاجُ ^(٢) وَالْعَمَلُ
ليت التَّحِيَّةَ كانت لي فأشكرها مكانَ ياجمِيلٍ حَيْثُ يَا رَجُلُ

فسمعه الفرزدق ، فتبسم ؛ وقال له : مَنْ تَكُونُ يرحمك الله ! قال : أنا كثيرُ
عَزَّةَ فمن أنت يرحمك الله ! قال : أنا الفرزدق بن غالب التميمي ! قال :
أنت القائل :

رحلتُ جِمالهم بكلِّ أَسِيلَةٍ ^(٣) تركتُ فؤادك هائماً مخبولا
لو كنت أملكهم إذا لم يرحلوا حتى أودعَ قلبي المُتَبَوِّلا ^(٤) !
ساروا بقلبي في الحُدُوجِ ^(٥) وغادروا جسمي بعِالجِ زَفْرَةٍ وَعَوِيلا

* المستطرف : ٢ : ١٧٩

(١) اللقمة : المحبة (٢) أدلج : سار من أول الليل (٣) أسيل الحدد : لبن الحد طويله
(٤) المتبول : الذاهب (٥) الحُدُوج : جمع حُدج ، وهو مركب للنساء كالخففة .

فقال الفرزدق : نعم . فقال كَثِيرٌ : والله لولا أُنِّي في البيت الحرام لأصيحَنَ صيحةً أَفْزَعُ هشام بن عبد الملك ، وهو على سريرٍ مُلْكِهِ ؛ فقال الفرزدق : والله لأعرَفَنَّ بذلك هشامًا .

ثم تَوَادَعَا وافترقا .

ولما وصل الفرزدقُ إلى دمشق دخل إلى هشام بن عبد الملك ، فعرفته بما اتفق له مع كثير ، فقال له : اكتبُ إليه بالحضور عندنا لنطْلُقَ عَزَّةَ من زوجها ونزَوِّجَه إياها ، فكتب إليه بذلك .

فخرج كثير يريد دمشق ، فلما خرج مِنْ حِيَةٍ وسار قليلا رأى غراباً على بَانَةٍ ^(١) ، وهو يَفْلَى نفسه ، وريشُه يتساقط ؛ فاصفرَ لونُه ، وارتاع من ذلك وجَدَّ في السير ، ثم إنه مال ليسقَى راحلته من حَيٍّ بنى نَهْدَ ^(٢) — وهم زَجَرَةُ الطير — فَبَصُرَ به شيخٌ من الحَيِّ ، فقال : يا بنَ أَخِي ؛ أَرَأَيْتَ في طريقك شيئاً فَرَّاعَكَ ؟ فقال : نعم يا عَمِّ ، رأيتُ غُراباً يَتَفْلَى وَيَنْتِفُ ريشَه ، فقال له الشيخ : أما الغرابُ فإنه اغتراب ، والبانةُ فرقة !

فازداد كثير حزنًا على حُزْنِه ، لِمَا سَمِعَ من كلام الشيخ ، وجَدَّ في السير ، إلى أَنْ وصلَ إلى دمشق ، ودخل من أَحَدِ أبوابها ، فرأى الناس يَصَلُّونَ على جنازة ، فنزل وصلى معهم ؛ فلما قُضِيَت الصلاة صاح صائحٌ : لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ! ما أَغْفَلَكَ يا كثيرٌ عَنْ هذا اليوم ! فقال له كَثِيرٌ : ما هذا اليوم ؟ فقال : إنَّ هذه عزة قد مَاتَتْ وهذه جنازتها !

(١) البان : شجر .

(٢) نهد : قبيلة باليمن ، وهناك وواية أخرى لهذه القصة ، وفيها أنه قدم على حَيٍّ من « لب » (انظر : ١ - ١٣٦ من هذا الكتاب ، والأغاني : ص ٣٤ ج ٩) .

فخرٌ مغشياً عليه ، فلما أفاق أنشأ يقول :

فما أعرف النّهدى ! لا درّ درّه ! وأزجره للطيّر لا عزّ ناصره
رأيتُ غراباً قد علّا فوق بانهٍ يَنْتِفُ أعلى ريشه ويطأيره
فقال : غرابُ اغترابٍ من النوى وبانهٍ بين من حبيب تُعَاشره
ثم شهِقَ شهقةً فارقت رُوحهُ الدنيا ، ومات من ساعته ودُفِنَ مع عزّة في
يوم واحد .

٦٦ — إلى الخلوات يأنسُ فيكِ قلبي *

قال يونس الكاتب :

كنّا يوماً مُتَنَزِّهِينَ بِالْعَفِيقِ أَنَا وَجَمَاعَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ ، فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى حَالِنَا إِذْ أَقْبَلَ ابْنُ عَائِشَةَ ^(١) يَمْشِي وَمَعَهُ غُلَامٌ مِنْ بَنِي آيَةَ ، وَهُوَ مُتَوَكِّلٌ عَلَى يَدِهِ ، فَلَمَّا رَأَى جَمَاعَتَنَا وَسَمِعَنِي أُغْنِي جَاءَنَا فَسَلَّمَ ، وَجَلَسَ إِلَيْنَا ، وَتَحَدَّثَ مَعَنَا ، وَكَانَتِ الْجَمَاعَةُ تَعْرِفُ سُوءَ خُلُقِهِ وَغَضَبَهُ إِذَا سُئِلَ أَنْ يُغْنِيَ ، فَأَقْبَلَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَحَدَّثُونَ بِأَحَادِيثٍ كَثِيرٍ وَجَمِيلٍ وَغَيْرَهَا مِنَ الشُّعْرَاءِ ، يَسْتَجِرُّونَ بِذَلِكَ أَنْ يَطْرَبَ فَيَغْنِيَ ، فَلَمْ يَجِدُوا عِنْدَهُ مَا أَرَادُوا .

فَقُلْتُ لَهُمْ : لَقَدْ حَدَّثَنِي الْيَوْمَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ حَدِيثًا يَا كُلُّ الْأَحَادِيثِ ، فَإِنْ شِئْتُمْ حَدَّثْتُكُمْ إِيَّاهُ ؛ قَالُوا : هَاتِ ، قَالَتْ : حَدَّثَنِي هَذَا الرَّجُلُ أَنَّهُ مَرَّ بِنَاحِيَةِ الرَّبَذَةِ ^(٢) فَإِذَا صَبِيحَانِ يَتَغَاطِسُونَ فِي غَدِيرٍ ، وَإِذَا شَابٌّ جَمِيلٌ مِنْهُوَكِ الْجِسْمِ ، عَلَيْهِ أَثَرُ الْعِلَّةِ ، وَالنُّحُولُ فِي جَسَمِهِ بَيِّنٌ ، وَهُوَ جَالِسٌ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ وَقَالَ : مَنْ أَيْنَ وَضَحَ ^(٣) الرَّاكِبُ ؟ قُلْتُ : مِنَ الْحِمَى ، قَالَ : وَمَتَى عَهْدُكَ بِهِ ؟ قُلْتُ : رَأَيْتُهَا ، قَالَ : وَأَيْنَ كَانَ مَبِيتُكَ ؟ قُلْتُ : بِبَنِي فَلَانٍ ،

* سَمَطُ اللَّاتِي : ١ - ١٥٢ ، ٢ - ٢٣٢ ، الْأَمَالِي : ٣٨

(١) هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَائِشَةَ ، يَكْنَى أَبُو جَعْفَرٍ ، وَلَمْ يَكُنْ يَعْرِفُ لَهُ أَبٌ ، فَكَانَ يَنْسَبُ إِلَى أُمِّهِ ، وَكَانَ حَسَنَ الْقَنَاءِ ، عَالِمًا بِفَنِّهِ ، طَرِيفَ الْمَجْلِسِ ، طَيِّبَ الْحَدِيثِ عَلَى سُوءِ قِيَّاسِهِ ، وَتَبَهُ فِي طَبْعِهِ ، تَوَفَّى نَحْوَ سَنَةِ ١٠٠ هـ (٢) الرَّبَذَةُ : قَرْيَةٌ عَلَى ثَلَاثَةِ أَمْيَالٍ مِنَ الْمَدِينَةِ (٣) أَيْ مِنْ أَيْنَ بَدَأَ وَطَلَعَ .

فقال : أَوْه ! وألقى بنفسه على ظهره ، وتنفّس الصُّعداء فقلت : إنه قد خرّقَ حِجَابَ قلبه ، ثم أنشأ يقول :

سَقَى بِلْدًا أُمَسْتُ سُلَيْمَى تَحُلُّهُ مِنْ الْمَزْنِ مَا يَرْوَى بِهِ وَبُسَيْمُ^(١)
وإن لم أكن من قاطنِيهِ فإنه يَحُلُّ بِهِ شَخْصٌ عَلَى كَرِيمُ
أَلَا حَبَّذَا مَنْ لَيْسَ يَعْدِلُ قُرْبَهُ لَدَى - وَإِنْ شَطَّ الْمَزَارُ - نَعِيمُ
وَمَنْ لَا مَنَى فِيهِ حَمِيمٌ وَصَاحِبُ فَرْدٌ بَغِيْظٌ صَاحِبٌ وَحَمِيمُ
ثم سكن كالغشي عليه ، فصِحْتُ بالصُّبْيَةِ ، فأتوا بماء ، فصَبَبْتُهُ عَلَى وَجْهِهِ ،
فَأَفَاقَ وَأَنشَأ يَقُولُ :

إِذَا الصَّبُّ الْغَرِيبُ رَأَى خُشُوعِي وَأَنفَاسِي تَزِينُ بِالْخُشُوعِ
وَلِي عَيْنٌ أَضَرَّ بِهَا التَّفَاقِي إِلَى الْأَجْزَاعِ^(٢) مُطْلَقَةَ الدَّمُوعِ
إِلَى الْخَلَوَاتِ يَأْنَسُ فِيكَ قَلْبِي كَمَا أَنَسَ الْغَرِيبُ إِلَى الْجَمِيعِ
فَقُلْتُ لَهُ : أَلَا أُنْزِلُ فَأَسَاعِدُكَ ، أَوْ أَكْرَهُ عَوْدِي عَلَى بَدْنِي إِلَى الْحِمَى إِنْ
كَانَتْ لَكَ فِيهِ حَاجَةٌ أَوْ رِسَالَةٌ ؟ فَقَالَ : جُزَيْتَ خَيْرًا وَصَحْبَتُكَ السَّلَامَةُ ! اَمْضِ
إِطِيقَتِكَ^(٣) ، فَلَوْ أَنِّي عَلِمْتُ أَنَّكَ تُغْنِي عَنِّي شَيْئًا لَكُنْتُ مَوْضِعًا لِلرَّغْبَةِ وَحَقِيقَةً
يَاسَعَاغُ الْمَسْأَلَةَ ، وَلَكِنَّكَ أَدْرَكْتَنِي فِي صُبَابَةٍ مِنْ حَيَاتِي بِسِيرَةٍ ، فَانصرفتُ وَأَنَا
لَا أَرَاهُ يُمَسِّي لَيْلَتَهُ إِلَّا سَيِّئًا .

فقال القوم : مَا أَتَجَبَ هَذَا الْحَدِيثُ ! واندفع ابنُ عائشة فتغنى في السُّعْرَيْنِ
جميعًا ، وَطَرَبَ وَشَرَبَ بَقِيَّةَ يَوْمِهِ ، وَلَمْ يَزَلْ يَفْنِيْنَا إِلَى أَنْ انصرفنا .

(١) يسيم : يكون صالحاً للإِسَامَةِ بما يكون من خصب وكلاء (٢) الأجزاء جمع جزع : وهو
جانب الوادى ومنعطفه (٣) إطيقتك : لوجهتك

٦٧ — من لم يُقَيِّدْ جوارحه أتعب قلبه *

جَجَّ عبد الملك بن مَرْوَانَ ، وحجَّ معه خالد^(١) بن يزيد بن معاوية — وكان من رجالات قريش المعدودين وعلمائهم ، عظيم القدر ، جليل المنزلة ، مهيب المجلس ، موقراً مُعَظَّماً عند عبد الملك ، فينما هو يطوفُ بالبيت إذ بَصُرَ برملة بنت الزبير ابن العوام . فعشقها عشقاً شديداً ، وأخذت بجميع قلبه ، وتغيَّرَ عليه الحال ، ولم يملك من أمره شيئاً ، فلما أراد عبد الملك القولُ هَمَّ خالد بالتخلُّفِ عنه ، فبعث إليه فسأله عن أمره ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ رَمَلَةٌ بنت الزبير رأيتها تطوفُ بالبيتِ ، فأذهلتْ عقلي ! فوالله ما أبديتُ لك مابى إلا حين عَمِلَ صبرى ، ولقد عَرَضْتُ النومَ على عيني فلم تقبله ، والسلوَّ على قلبي فامتنع منه . . .

فأطال عبد الملك التعجُّبَ من ذلك ، وقال : ما كنتُ أقول : إن الهوى يَسْتَأْسِرُ مَلَكَ ، فقال خالد : وإني لأشدُّ تعجباً من تعجبك منى ، فلقد كنتُ أقول : إن الهوى لا يَتِمَكَّنُ إلا من صِنْفَيْنِ من الناس : الأعراب والشعراء ، أما الشعراء فإنهم أَلْزَمُوا قلوبهم الفكر في النساء والفزل ، فمال طبعهم إلى النساء ، فضَعُفَتْ قلوبهم عن دفع الهوى ، فاستسلموا له مُنْقَادِينَ . وأما الأعراب فإنَّ أحدهم يخلو بامرأة فلا يكون الغالبُ عنده إلا حبُّه لها .

وجملةُ أمرى : أنى ما رأيتُ نظرةً حَسَنَةً عندي ركوبَ الإثم مثل نظرتى هذه .

* محاضرات الأبرار : ٢ - ٢٦ ، الأغاني : ١٦ - ٨٥ .

(١) هو خالد بن يزيد كان من رجالات قريش سخاء وعارضة وفصاحة ، وكان قد شغل نفسه بطلب الكيمياء ، فأفنى بذلك عمره ، وأُخِلَّ ذكره ، توفى سنة ٨٥ هـ .

فَبَسَّمَ عَبْدُ الْمَلِكِ وَقَالَ : أَوْ كُلُّ هَذَا بَنَغَ بَكَ ؟ فَقَالَ : وَاللَّهِ مَا عَرَفْتُ هَذِهِ
الْبَلِيَّةَ قَبْلَ وَقْتِي هَذَا .

فَوَجَّهَ عَبْدُ الْمَلِكِ إِلَى آلِ الزُّبَيْرِ يَخْطُبُ رَمْلَةً عَلَى خَالِدٍ ، فَذَكَرُوا لَهَا ذَلِكَ ،
فَقَالَتْ : لَا وَاللَّهِ أَوْ يُطَلَّقَ نِسَاءهُ ، فَطَلَّقَ امْرَأَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ ، وَتَزَوَّجَهَا وَظَمَنَ بِهَا
إِلَى الشَّامِ ، وَفِيهَا يَقُولُ :

أَلَيْسَ يَزِيدُ السَّيْرُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ	وَفِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَحْبَبِنَا قُرْبًا
أَحْنُ إِلَى بِنْتِ الزُّبَيْرِ وَقَدْ عَدَّتْ	بِنَا الْعَيْنُ خَرْقًا ^(١) مِنْ تَهَامَةٍ أَوْ قَبَا ^(٢)
إِذَا نَزَلَتْ أَرْضًا تُحَبِّبُ أَهْلَهَا	إِلَيْنَا وَإِنْ كَانَتْ مَنَازِلُهَا حَرْبًا
وَإِنْ نَزَاتْ مَاءٌ وَإِنْ كَانَ قَبْلِهَا	مُلِيحًا ^(٣) وَجَدْنَا مَاءَهُ بَارِدًا عَذْبًا
تَجُولُ خَلَائِلُ النِّسَاءِ وَلَا أَرَى	لِرَمْلَةٍ خَلْجًا لَا يَجُولُ وَلَا قُلْبًا ^(٤)
أَقِلُّوا عَلَى اللُّومِ فِيهَا فَإِنِّي	تَحَيَّرْتُهَا مِنْهُمْ زَبِيرِيَّةً قَلْبًا ^(٥)
أَحِبُّ بَنَى الْعَوَامِ طَرًّا لِحَبِّهَا	وَمِنْ حَبِّهَا أَحْبَبْتُ أَخْوَالَهَا كَلْبًا

فَلَمَّا وَقَفَ عَبْدُ الْمَلِكِ عَلَى هَذِهِ الْأَبْيَاتِ نَظَّمَ بَيْتًا وَدَسَّهَ لِيَكِيدَ بِهِ خَالِدًا ؛ لِأَنَّهُ
كَانَ يَرُدُّمُ الْخُلَافَةَ كَأَبِيهِ يَزِيدَ وَجَدَّهُ مُعَاوِيَةَ ، فَقَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ : يَا خَالِدُ ؛
أَنْتَ الْقَائِلُ :

فَإِنْ تُسَلِّمِي أُسَلِّمُ وَإِنْ تَدَنْصَرِي تَحْطُّ دَجَالٌ بَيْنَ أَعْيُنِهِمْ صَلْبًا !
فَقَالَ خَالِدُ : لَعَنَ اللَّهُ قَائِلَهُ ! فَخَجَلَ عَبْدُ الْمَلِكِ وَلَا مَ نَفْسَهُ .

(١) الْحَرْقُ : الْقَلَاةُ الْوَاسِعَةُ (٢) النَّقْبُ : الطَّرِيقُ فِي الْجَبَلِ (٣) الْمَلِيحُ : الْمَلِيحُ ، ضِدُّ
الْعَذْبِ (٤) الْقَلْبُ : سَوَارِ الْمَرْأَةِ ، يَرِيدُ أَنْ سَاقَهَا مَلِيئَةً ، وَيَدْعَاهَا عَبْلَةً ، فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْجَوْلِ
(٥) فَهِيَ صِفَاتُ النِّسَاءِ الْحَسَنَاتِ ، كَمَا سَبَقَ ، وَلَهَا قَلْبٌ كَقُلُوبِ آلِ الزُّبَيْرِ طَهَارَةً ، وَحِفَاطَ عَهْدٍ .

٦٨ — غداً يكثر الباكون منّا ومنكم*

قال أبو رِيحانة حاجب عبد الملك^(١) بن مروان : كان عبيد الملك يجلس في كل أسبوع يومين جلوساً عاماً للناس ؛ فبينما هو جالس في مُسْتَشْرِفٍ^(٢) له ، وقد أُدْخِلَتْ عليه القِصَصُ إذ وقعت في يده قصةٌ ، فيها : « إن رأى أمير المؤمنين أن يأمرَ جاريته فلانة أن تتنبنى ثلاثة أصوات ، ثم يُنفِذَ في ما شاء من حكمه فعل ! » .

فاستشاط من ذلك غضبا ، وقال : يا رَبَّاح ؛ علىّ بصاحب هذه القصة ! فخرج الناس جميعاً ، وأدخل عليه غلامٌ من أجمل الفتيان وأحسنهم ، فقال له عبد الملك : يا غلام ؛ أهذه قِصَّتُك ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : وما الذى غرّك منى ، والله لأمثلنّ بك ! ولأردعنّ بك نظراءك من أهل الجسارة ! ثم قال : علىّ بالجارية ، فجاء بها كأنها فِلَقَةٌ قَمَر ! وبيدها عودُها فطرح لها السكرى ، فجلست ، فقال عبد الملك : مرّها يا غلام ؛ فقال لها : غنّينى يا جارية بشعر قيس ابن ذريح :

لقد كنتِ حَسْبَ النفس ، لودام ودُّنا ؛ ولَكِما الدينى متاعُ غرور !
وكنّا جميعاً قبل أن يظهرَ الهوى بأنعمِ حالى غبطةٍ وسُرورِ
فما برحَ الواشوان حتى بدتُ لنا بطونُ الهوى مقلوبةً لظهورِ

* مصارع العشاق : ٢٥٣ ، نهاية الأرب : ٢ - ١٦٠

(١) عبد الملك بن مروان : من أعظم الخلفاء ، نشأ في المدينة فقيهاً واسع العلم وتوفى سنة ٨٦ هـ

(٢) استشرف الشيء : رفع بصره إليه ، والمكان مستشرف ، والمراد مجلسه العالى .

فَفَتَّتْ ، فخرج الغلامُ بجميع ما كان عليه من الثياب تحريقاً ، ثم قال له عبد الملك : مُرْها تُعَنَّكَ الصوتَ الثاني ، فقال : غَنِّني بشعر جميل :

ألا ليتَ شعري ! هل أبيتَنَ ليلةً بوادي القرى ؟ إني إذَنْ لسعيد !
إذا قلتُ : ما بي يا بُدَيِّنة قاتِلي من الحب ! قالت : ثابتٌ ويزيدُ
وإن قلتُ : رُدِّي بعضَ عَمَلِي أعشْ به مع الناسِ ! قالت : ذاكَ منك بعيدُ !
فلا أنا مرودٌ بما جئتُ طالباً ولا جئُها فيما يَبيدُ يَبيدُ
يموتُ الهوى متى إذا ما لقيتها ، ويحيا إذا فارقتها فيعودُ
ففتته الجارية : فسقط الغلامُ مغشياً عليه ساعة ، ثم أفاق ؛ فقال له عبد الملك :

مُرْها فلتعَنَّكَ الصوتَ الثالث ؛ فقال : يا جارية ؛ غَنِّني بشعر قيس بن الملوِّح :

وفي الجيرةِ الغادينَ من بطنٍ وجِرةٍ^(١) غزالٌ غَضِيضُ المُقلَتَيْنِ رَبيبُ
فلا تحسبي أنَّ الغريبَ الذي نأى ولكنَّ مَنْ تَأَيَّنَ عنه غريبُ !
ففتته الجارية ، فطَرَحَ الغلامُ نفسهُ من المُستَشْرِفِ ، فلم يصل إلى الأرض
حتى تَقَطَّعَ ؛ فقال عبد الملك : وَيْحَهُ ! لقد عَجَّلَ على نفسه ! ولقد كان تقديرى فيه
غيرَ الذي فعلَ ! وأمر فأُخْرِجَتِ الجارية من قصره ؛ ثم سأل عن الغلام ؛ فقالوا :
غريب لا يُعرَفُ إلا أنه منذ ثلاث ينادى في الأسواق ويَدُّه على رأسه :
غداً يكثرُ الباكونَ منا ومنكم وتزدادُ داري من دياركم بُعداً !

(١) وجرة : موضع بين مكة والبصرة .

٦٩ — وذو الشوق القديم وإن تمرى

مَشُوقٌ حِينَ يَلْقَى العاشِقينا *

بيننا عمر^(١) بن أبي ربيعة يطوفُ بالبيت في حالِ نُسْكه - وكان قد حلف
ألا يقول بيت شعر إلا أعتق رَقبة - فإذا هو بشابٍ قد دنا من شابة ظاهرة الجلال
فألقى إليها كلاماً ، فقال له عمر : يا عدوَّ الله ؛ في بلد الله الحرام وعند بيته تصنعُ
هذا ! فقال : يا عمَّاه ؛ إنها ابنةُ عمي ، وأحبُّ الناس إليَّ ؛ وإني عندها كذلك ،
وما كان بيني وبينها من سوء قط أكثر مما رأيتَ ، قال : ومن أنت ؟ قال : أنا
فلان ابن فلان ، قال : أفلا تزوجُها ؟ قال : أبى عليَّ أبوها . قال : : ولم ؟ قال :
يقول : ليس لك مال ؛ فقال : انصرف والقي .

فلقيه بعد ذلك ، فدعا ببغلته فركبها ؛ ثم أتى عمَّ الفتى في منزله فخرج إليه ،
وفرَّح بمجيئه ، ورحَّب وقرَّب ، ثم قال : ما حاجتُك يا أبا الخطاب ؟ قال : لم أرك
منذ أيام فاشتقتُ إليك ! قال : فانزل . فانزله وألطفه^(٢) ، فقال له عمر في بعض
حديثه : إني رأيتُ ابنَ أخيسك فأعجبني ما رأيتُ من جماله وشبابه ، قال له :
أجل ! ما يغيبُ عنك أفضلُ مما رأيتُ ؛ قال : فهل لك من ولد ؟ قال : لا ، إلا

* الأغانى : ١ - ١٢٥ ، المحاسن والأضداد : ٣٥٩ ، العقد الفريد : ١ - ٩
(١) كان عمر بن أبي ربيعة أشعر قریش ، ولكنه اختص في شعره بوصف النساء ، ولم يصف
سواهن ، وله في التشبيب طريقة عرفت باسمه سلكها الشعراء ، وشبب بكثيرات من النساء ، توفي
سنة ٩٣ هـ (٢) ألطفه : بره .

فلانة . قال : فما يمنعك أن تزوجه إياها ؟ قال : إنه لا مال له ، قال : فإن لم يكن له مال فلك مال ، قال : فإني أضين به عنه . قال : لكني لا أضين به عنه ، فزوجه واحتكم ، قال : مائة دينار ، قال : نعم ! فدفعها عنه ، وتزوجها الفتى .

وانصرف عمر إلى منزله ، فقامت إليه جارية من جواريه ، فأخذت رداءه ، وألقت بنفسه على الفراش وجعل يتقلب ، فأتته بطعام فلم يتعرّض له ؛ فقالت له : إن لك لأمرأ ، وأراك تريد أن تقول شعراً ، فقال : هاتى الدواة ، فكتب :

تقول وليدنى لما رأتنى طربت^(١) وكنت قد أقصرت^(٢) حيناً
أراك اليوم قد أخذت شوقاً وهاج لك الهوى داء دفيناً
وكنت زعمت أنك ذو عزاء إذا ما شئت فارقت القربى
يربك هل أذاك لها رسول فشأقك أم لقيت لها خدينا^(٣) ؟
قللت : شكاً إلى أخ محب كـبعض زماننا إذ تعلمينا
قصص على ما يلقى بهند فذكر بعض ما كنا نسينا
وذو الشوق القديم وإن تمرى مشوق حين يلقى العاشقين
وكم من خلة^(٤) أعرضت عنها لغير قلى وكنت بها ضنينا
أردت بعداها فصددت عنها ولو جُنّ الفؤاد بها جنونا

ثم دعا تسعة من رقيقه فأعنتهم لكل بيت واحد ا

(١) طربت : حزن . (٢) أقصرت : تزعجت عنه وأنا قادر عليه ، وكففت (٣) الخدين : الصديق ، ومنه الخدن ، وهو محدث الجارية ، وكانت العرب لا يمتنعون من خدن يحدث الجارية ، فجاء الإسلام يهدمه (٤) الخلة : الخيلة .

٧٠ — قضى كلُّ ذي دينٍ فوقَ غريمه

وعزةٌ تمطولُ معني غريمها *

كان أول علاقة كثير^(١) بعزة أنه خرج من منزله خلف غنم يسوقها إلى الجار^(٢)؛ فلما كان بالخبث^(٣) وقف على نسوة من بنى ضمرة؛ فسألن عن الماء؛ فقلن لعزة - وهي جارية حين كعب^(٤) ثدياها : أرشديه إلى الماء ، فأرشدته وأعجبته .

فبينما هو يسقى غنمه إذ جاءت عزة بدراهم ، فقالت : يقلن لك النسوة : بعنا بهذه الدراهم كبشا من ضأنك . فأمر الغلام فدفع إليها كبشا ، وقال لها : ردّي الدراهم وقولى لهن : إذا رحت بكن اقتضيت حقي .

فلما راح مرّ بهن ، قلن له : هذا حقك فخذ . فقال : عزة غريمي ، ولست أقضى حقي إلا منها . فزحّن معه ، وقلن : ويحك عزة جارية صغيرة ، وليس فيها وفاء لحقك فأحله على إحداها ، فإتنا أملا به وأسرع له أداء . فقال : ما أنا بمُحِيل حقي عنها . ومضى لوجهه ، ثم رجع إليهن حين فرغ من بيع جليبه^(٥) فأنشدن فيها :

* الأغاني : ٩ - ٢٥

(١) هو كثير بن عبد الرحمن ، كان رافضيا شديدا التعصب لآل أبي طالب ، ومعشوقته عزة بنت حميد من ضمرة ، وكانت من أجل النساء وأدهن وأعقلهن ، ويقال إنه لم ير لها وجهاً ، إلا أنه استهم بها لما ذكر له عنها ، توفي سنة ١٠٥ هـ . (٢) الجار : موضع بساحل البحر قريب من المدينة (٣) الخبث : الوادى العميق الضيق (٤) نهدي ثدياها (٥) الجلب : ما جلب من الحيوان .

نظرتُ إليها نظرةً وهى عَانِقُ^(١) على حين أن شَبَّتْ وبَانَ نُهْودُهَا
وقد دَرَّعَوهَا^(٢) وهى ذاتُ مُوَأَصَّد^(٣) حُجُوبٍ^(٤) ولَمَّا يَلْبَسِ الدَّرْعَ رِيْدُهَا^(٥)
من الخَفِرَاتِ البيضِ وَدَّ جَلِيسُهَا إذا ما أُنْقَضَتْ أُحْدُوْتُهُ لَوْ تُعِيْدُهَا
وقال :

قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوَفَّى غَرِيْمَهُ وَعَزَّةٌ مَمْطُوْلٌ مُعْنَى غَرِيْمُهَا
فقلن له : أَيْتَ إِلَّا عَزَّةُ ! وأبرزنها إليه وهى كارهة . ثم أَحْبَبَتْهُ عَزَّةٌ بعد ذلك
أشدَّ من حُبِّه إِيَّاهَا .

(١) العَانِقُ : الجارية أول ما تدرك (٢) الدرع : التميص (٣) المؤصّد : صدر تلبسه
الفتاة الصغيرة فإذا أدركت درعت (٤) الحُجُوب : الذى له جيب (٥) الريد : الترب والتدبير

٧١ — تَغْنِيهِ فِيمُوت *

كانت بالمدينة قَيْنَةٌ من أَحْسَنِ النَّاسِ وَجْهًا ، وَأَكْلَهُمْ عَقْلًا ، وَأَفْضَلَهُمْ أَدْبَاءً ،
قَرَأَتْ الْقُرْآنَ وَرَوَتْ الْأَشْعَارَ ، وَتَعَلَّمَتِ الْقَرِيْبَةَ ، فَوَقَعَتْ عِنْدَ يَزِيدَ ^(١) بِنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ،
فَأَخَذَتْ بِمَجَامِعِ قَلْبِهِ ؛ فَقَالَ لَهَا ذَاتَ يَوْمٍ : وَيْحَكَ ! أَمَا لَكَ قَرَابَةٌ أَوْ أَحَدٌ يَحْسُنُ
أَنْ أَصْطَنِعَهُ ، أَوْ أَسْدِيَ إِلَيْهِ مَعْرُوفًا ؟ قَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَمَا قَرَابَةٌ فَلَا ،
وَلَكِنْ بِالْمَدِينَةِ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ كَانُوا أَصْدِقَاءَ لِمَوْلَايَ ، كُنْتُ أَحِبُّ أَنْ يَنْفَالَهُمْ مِنْ خَيْرِ
مَا صَرْتُ إِلَيْهِ .

فَكَتَبَ إِلَى عَامِلِهِ بِالْمَدِينَةِ فِي إِشْخَاصِهِمْ ، وَأَنْ يُعْطِيَ كُلَّ رَجُلٍ مِنْهُمْ عَشْرَةَ
آلَافٍ دِرْهَمٍ ، وَأَنْ يُعَجِّلَ بِسَرَّاحِهِمْ إِلَيْهِ .

فَفَعَلَ عَامِلُ الْمَدِينَةِ ذَلِكَ ؛ فَلَمَّا وَصَلُوا إِلَى بَابِ يَزِيدَ اسْتَأْذَنُوا ، فَأَذِنَ لَهُمْ ،
وَأَكْرَمَهُمْ ، وَسَلَّمَهُمْ حَوَائِجَهُمْ ؛ فَأَمَّا الْاِثْنَانِ فَذَكَرَا حَوَائِجَهُمَا فَقَضَاهَا لَهَا ؛ وَأَمَّا الْثَالِثُ
فَسَأَلَهُ عَنْ حَاجَتِهِ ، فَقَالَ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ مَا لِي حَاجَةٌ . قَالَ : وَلِمَ ؟ أَلَسْتُ أَقْدِرُ
عَلَى حَوَائِجِكَ ؟ قَالَ : بَلَى يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنْ حَاجَتِي لَا أَحْسِبُكَ تَقْضِيهَا ، قَالَ :
وَيْحَكَ ! فَسَلْنِي فَإِنَّكَ لَا تَسْأَلُنِي حَاجَةً أَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا قَضَيْتُهَا ، قَالَ : وَلِي الْأَمَانُ
يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَكَرَامَةٌ . قَالَ : إِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَأْمَرَ جَارِيَتَكَ فَلَانَةَ

* المقعد الفريد : ٤ - ١٢٥

(١) يزيد بن عبد الملك : من ملوك الدولة الأموية في الشام ، ولد في دمشق ، وتوفي بها سنة ١٠٥ هـ

التي أكرمتمنا لها أن تغنّيني ثلاثة أصوات أشربُ عليها ثلاثة أرطال فافعل .
فتغيّر وجهُ يزيد ؛ وقام من مجلسه - فدخل على الجارية ، فأعلمها ، فقالت :
وما عليك يا أمير المؤمنين ! افعل ذلك ، فلما كان من الغد أمر بالفتى فأحضّر ، وأمر
بثلاثة كرامى من ذهب فألقيت ، فقعده يزيد على أحدها ، وقعدت الجارية على
الآخر ، وقعد الفتى على الثالث ، ثم دعا بطعام فتفدّوا جميعا ، ثم دعا بصنوف
الرياحين والطيب فوضعت ، ثم أمر بثلاثة أرطال فملئت ، ثم قال للفتى : قل
مابدا لك ، وسل حاجتك ، قال : تأمرها أن تغنى :

لا أستطيع سؤلًا عن مودّتهم — أو يصنع الحبُّ بى فوق الذى صنعًا
أدعو إلى هجرها قلبى فيسعدنى حتى إذا قلت : هذا صادقٌ نزعًا
فأمرها فغنّت ؛ فشرّب يزيد ، وشرّب الفتى ، ثم شرّبت الجارية ، ثم أمر
بالأرطال فملئت ، ثم قال للفتى : سل حاجتك . قال : تأمرها أن تغنى :
تخيّرتُ من نعمان ^(١) عودَ أراكه لهند ، ولكن من يبلّغه هندا
ألا عرجًا بى ، يارك الله فيكما وإن لم تكن هند لأرضكما قصدا
فغنّت بهما ، وشرّب يزيد ، ثم الفتى ، ثم الجارية . ثم أمر بالأرطال فملئت ،
ثم قال للفتى : سل حاجتك . قال : يا أمير المؤمنين ، مرّها تغنى :

منا الوصالُ ومنكم المجرُ حتى يفرّق بيننا الدهر
والله ما أشـلـوكم أبداً ما لاح نجمٌ أو بدا فجرٌ

فلم تأت على آخر الأبيات حتى خَرَّ الفتى مَغْشِيًّا عليه . فقال يزيد
للجارية : انظري ما حاله ؟ فقامت إليه ، فخرَّ كتفه فإذا هوميَّت ، فقال لها :
ابكيه . قالت : لا أبكيه يا أمير المؤمنين وأنت حي . قال لها : ابكيه ،
فوالله لو عاش ما انصرف إلا بك ؛ فَبَكَتْهُ ، وأمر بالفتى فأُحْسِنَ جِهازه
ودَفَنَهُ ^(١) !

(٢) روى أن مثل هذا حصل مع جارية للرشيد (انظر صفحة ١٦٣ ج ٢ من نهاية الأرب) .

٧٢ — فاضت نفسها عليه *

قال محمد بن قيس :

وجئني عامل المدينة إلى يزيد بن عبد الملك - وهو إذ ذاك خليفة - فلما خرجتُ عن المدينة إذا أنا بامرأة جالسة على الطريق ، وشاب نائم ، وهو يتلو ، ورأسه يسقط في حجرها ، وكلما سقط أعادته مكانه . فسلمتُ ، فردت السلام - والشاب مشغول بنفسه - فسألتها عنه ، فقالت : يا عبد الله ؛ هل لك في الأجر والثوبة ؟ فقلت : لا أبغى سواهما .

قالت : هذا ولدي ، وكانت له ابنة عم تربياً معها ، وشُفقتُ به ، وشُففتُ بها ، وعلم بذلك أبوها ، وعلم بها أهل المدينة ؛ فحببها عنه ، وكان يأتي الموضع والخباء^(١) فيبكي ، ثم خطبها من أيها ، فأبى أن يزوجه ؛ لأننا نرى ذلك عيباً ، أن تزوج امرأة لرجل كان يحبها . ثم خطبها رجلٌ غيره ؛ فزوجها أبوها منه منذ خمسة أيام ، وهو على ماترى ؛ لا يأكل ولا يشرب ولا يعقل ، فلو نزلت إليه ، وتحدثت معه ووعظته وسليته ، فلعله يسكن إلى حديثك ، ويتقوتُ بشيء من الطعام !

قال محمد : فنزلتُ ودنوتُ منه ، وتلطفْتُ به ؛ فرجع إلى طرفه وقال بصوت

حزين :

* المختار من نواذر الأخبار ، نهاية الأرب : ٢ - ١٨٧
(١) الخباء من الأبنية ، يكون من وبر أو صوف أو شعر .

أَلَا مَا لِللَّيْحَةِ لَا تَعُودُ؟ أَيْحَلْ بِالْمَلِيحَةِ أَمْ صَدُودُ؟
 مَرَضْتُ فَعَادَنِي أَهْلِي جَمِيعًا فَمَا لَكَ لَا تَرَى فِيمَنْ يَعُودُ!
 فَقَدْتُكَ بَيْنَهُمْ فَكَيْتُ شَوْقًا، وَقَدُّ الْإِلْفِ يَأْسَمِي شَدِيدُ
 وَمَا اسْتَبْطَأْتُ غَيْرَكَ فَاعْلَمِيهِ وَحَوْلِي مِنْ ذَوِي رَحْمِي عَدِيدُ
 فَلَوْ كُنْتُ الْمَرِيضَةَ كُنْتُ أَسْعَى إِلَيْكَ وَلَمْ يُنْهِنِيهِنَّ الْوَعِيدُ!

ثم سكن ، فنظرت المرأة إلى وجهه وصرخت وقالت : والله فاضت نفسه !
 قالتها والله ثلاث مرات . فغشيتني من ذلك همٌّ وغَمٌّ . ولما رأت العجوزُ ماحلَّ بي
 عليه من الحزن قالت : يا ولدي ؛ هوّن عليك ، والله لقد استراح مما كان فيه ،
 عاش بأجلٍ ، ومات بقدرٍ ، وقَدِمَ على ربِّ كريم ، واستراح من تباريحِهِ وعُصَصِهِ ،
 فهل لك في استكمال الأجر ؟ قلت : قولي ما أحبيت ، قالت : هذا الحى منك
 قريبٌ ، فإن رأيت أن تَمْضَى إليهم تَنْعِيهِ لَهُمْ ، وتَسْأَلُهُمُ الحُضُورَ لِيُعِينُونِي عَلَى
 مَوَارَاتِهِ فافْعَلْ .

قال محمد : فركبت وأُنِيتُ الحى ، ففَعَيْتُهُ لَهُمْ ، وأخبرتَهُمْ بصورةِ أمرِهِ ، فبينما
 أنا أدور في الحى إذا أنا بامرأة خرجت من خبائها تَجْرُ خِمَارَهَا ، ناشرةً شَعْرَهَا ،
 فقالت لى : أيُّهَا النَاعِي ؛ مَنْ تَنْعَى ؟ فقلت : فلان ، فقالت : بالله عليك ، مات !
 قلت : نعم ، قالت : هل سمعت منه شيئاً قبل موته ؟ قلت : نعم وأنشدتها الشعر ،
 فاستعبرت باكية ، وأنشأت تقول :

عَدَانِي أَنْ أَرْوَرَكَ يَا حَبِيبِي معاشِر كلِّهم واشٍ حَسُودُ
 أَشَاعُوا مَا عَلِمْتَ مِنَ الرِّزَايَا وعابونا ، وما فيهم رَشِيدُ

فَأَمَّا إِذْ تَوَيْتَ الْيَوْمَ لِحِداً فَدُورُ النَّاسِ كُلِّهِمْ لِحُودُ
فَلَا طَابَتْ لِي الدُّنْيَا حَيَاةً وَلَا سَحَّتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ الرَّعُودُ

ثم خرجت مع القوم ، وهى تؤلّول حتى انتهينا إلى الغلام ، فغسلناه وصليّنا عليه ودفناه ، فلما تفرّقنا عن قبره جعلت تصرخ وتلطم .

ثم ركبْتُ ومضيتُ ، وهى على تلك الحال . فأتيت يزيد بن عبد الملك وناولته الكتاب ، فسألنى عن أمورِ الناس وما رأيته فى طريقى ، فأخبرته الخبر ، فقال لى : يا محمد ؛ امضِ الساعةَ قبل أن تشتغل فى غير هذا حتى تمرّ بأهل الفتى وبنى عمه وتمضى بهم إلى عامل المدينة ، فتأمره أن يُثبِتَهُمْ فى شرفِ العطاء ، وإن كان أصابَ الجارية ما أصابه فافعل بأهلها كما فعلت بأهله ؛ وارجع حتى تخبرنى بالخبر ، وتأخذ جوابَ الكتاب .

قال محمد : فخرجت حتى انتهيتُ إلى قبر الغلام ، فوجدتُ بجانبه قبراً آخر فسألْتُ عنه ، فقالوا : هذا قبرُ الجارية ، لم تزل تصرخ وتلطم حتى فاضت نفسها ، ودُفِنَتْ بجانبه ، فدفعْتُ أهلهما ومضيتُ بهم إلى عامل المدينة ، فأثبّتَهُمْ فى شرفِ العطاء ، وعُدْتُ فأخبرته ، فأجازنى على ذلك جائزةً حسنة .

٧٣ — يموتان في وقت واحد *

قال أبو مالك الراوية :

سمعتُ الفرزدقَ^(١) يقول : أبى^(٢) غلامان لرجل مفاً يقال له الخضر ، فحدثني قال : خرجتُ في طلبهما ، وأنا على ناقَةٍ عيساءَ كَوْماءَ^(٣) أريد اليمامة ، فلما صرتُ في ماءٍ لبني حَنِيفَةَ ارتفعت سحابةٌ فرعدتُ وبرقتُ وأرختُ عزَّ إليها^(٤) ؛ فعدلتُ إلى بعض ديارهم وسألتُ القرى ؛ فأجابوا .

فدخلتُ دارا لهم ، وأنختُ الناقةَ ؛ وجلستُ تحت ظِلِّ^(٥) لهم من جريد النخل ، وفي الدار جُويريةٌ لهم سوداء ؛ فدخلتُ جاريةً كأنها سبيكة فضة ، وكان عينيها كوكبان دُرَّيان ؛ فسألتُ الجاريةَ : لمن هذه العيسفاء ؟ « تعني ناقتي » . فقالت : لضيفِك هذا .

فعدلتُ إلىَّ فقالت : السلام عليكم ، فرَدَدْتُ عليها السلام ؛ فقالت لي : ممن الرجل ؟ فقلت : من بني حنظلة . فقالت : من أيَّهم ؟ قلت : من بني نهشل . فتبسَّمت وقالت : أنت إذن بمن عناه الفرزدقُ بقوله .

إنَّ الذي سمَكَ^(٦) السماءَ بني لها بيتاً دعائمه أَعَزُّ وأطولُ

* الأغاني : ٨ - ٤٤

(١) الفرزدق : همام بن غالب ، من صعصة ، شاعر عظيم الأثر في اللغة ، وهو صاحب الأخبار مع جرير والأخطل ، توفي سنة ١١٠ هـ . (٢) أبى العبد : هرب (٣) العيساء من الإبل : التي يضرب لونها إلى الأدمة ، والكوماء ، عظيمة السنم طويلته (٤) العزالي : جمع عزلاء ، والعزلاء في الأصل : مصب الماء من القرية والراوية (٥) الظلة : الشيء يستتر به من الحر والبرد (٦) سمَكَ السماء : رفعها .

بَيْتًا بَنَاهُ لَنَا الْمَلِكُ وَمَا بَنَى مَلِكُ السَّمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يُنْقَلُ
 بَيْتًا زُرَّارَةً مُحْتَبٍ بِفِنَائِهِ وَجَاشِعٌ وَأَبُو الْفَوَارِسِ نَهْشَلٌ^(١)
 فقلت : نعم ، جُعِلْتُ فداك ! وأعجبني ما سمعتُ منها . فضحكتُ وقالت :
 فَإِنْ ابْنُ الْخَطَفَى^(٢) قَدْ هَدَمَ عَلَيْكُمْ بَيْتَكُمْ هَذَا الَّذِي فَخَرْتُمْ بِهِ حَيْثُ يَقُولُ :
 أَخْزَى الَّذِي رَفَعَ السَّمَاءَ مُجَاشِعًا وَبَنَى بِنَاءَكَ بِالْحَضِيضِ الْأَسْفَلِ
 بَيْتًا يُحْمَمُ قَيْنُكُمْ^(٣) بِفِنَائِهِ دَنَسًا مَقَاعِدُهُ خَبِيثَ الْمَدْخَلِ
 فَوَجَّحْتُ .

فلما رأتُ ذلكَ في وجهي ؛ قالت : لا عليك ! فإنَّ الناسَ يقالُ فيهمُ ويقولون .
 ثمَّ قالت : أَيْنَ تَوْؤَمُ^(٤) ؟ قلت : اليمامة . فتنفستِ الصَّعْدَاءُ ؛ ثمَّ قالت : هاهي تلكَ
 أمامك ؛ ثمَّ أنشأتُ تقول :

تَذَكَّرْنِي بِلَادًا خَيْرُ أَهْلِهَا بَهَا أَهْلُ الْمُرُوءَةِ وَالْكَرَامَةِ
 أَلَا فَسَقَى إِلَهُهُ أَجَشَّ صَوْبًا^(٥) يَسُحُّ بِدَرِّهِ بَسَلَدَ الْيَمَامَةِ
 وَحَيًّا بِالسَّلَامِ أَبَا نُجَيْدٍ فَأَهْلُهُ لِلنَّجِيَةِ وَالسَّلَامَةِ

قال : فَأَنِيتُ بِهَا وَقُلْتُ لَهَا : أَذَاتُ خِدْنٍ أَمْ ذَاتُ بَعْلٍ ؟ فَأَنشَأْتُ تقول :
 إِذَا رَقَدَ النَّيَامُ فَإِنَّ عَمْرًا تُورِّقُهُ الْهَوْمُ إِلَى الصَّبَاحِ
 تَقْطَعُ قَلْبَهُ الذِّكْرَى وَقَلْبِي فَلَا هُوَ بِالْخَلَى وَلَا بِصَاحِ
 سَقَى اللَّهُ الْيَمَامَةَ دَارَ قَوْمٍ بِهَا عَمْرُو يَحْنُ إِلَى الرَّوَاحِ

(١) زُرَّارَةُ ومجاشع ونهشل : من سادة تميم ، قوم الفرزدق .
 (٢) جرير (٣) يحمم : يسخن ، والقين : الحداد ، يشير إلى أن مجاشعا قبيلة الفرزدق كانت
 قبولا لعبد كان لصعصعة بن ناجية ، فنسب جرير غالباً أبا الفرزدق إلى القين (٤) تقصد .
 (٥) الصوب : بجى " السماء بالطر ، والأجش : الصوت المرتفع .

فقلت لها : مَنْ عمرو هذا ؟ فأنشأت تقول :

سَأَلَتْ ، وَلَوْ عَلِمْتَ كَفَفْتَ عَنْهُ وَمَنْ لَكَ بِالْجَوَابِ سِوَى الْخَبِيرِ ؟
فَإِنْ تَكُ ذَا قَبُولٍ إِنَّ عَمْرًا هُوَ الْقَمَرُ الْمَضَى الْمُسْتَنِيرُ^(١)
وَمَا لِي بِالتَّبَعِ^(٢) مُسْتَرَاخٌ وَلَوْ رَدَّ التَّبَعُ لِي أَسِيرِي
نَمْ سَكَّتْ سَكَنَةً كَأَنهَا تَسْمَعُ إِلَى كَلَامِي ، ثُمَّ تَهَافَتَ^(٣) وَأَنْشَأَتْ تَقُولُ :
يُخِيلُ هَيَا عَمْرُو بْنُ كَعْبٍ كَأَنَّكَ قَدْ مُحِمْتَ عَلَى سِرِيرِ
يَسِيرُ بِكَ الْهُوَيْنِيُّ الْقَوْمُ لَمَّا رَمَاكَ الْحَبُّ بِالْعَلَقِ^(٤) الْعَسِيرِ
فَإِنْ تَكُ هَكَذَا يَا عَمْرُو إِنِّي مُبَكَّرَةٌ عَلَيْكَ إِلَى الْقُبُورِ
نَمْ شَهَقَتْ شَهَقَةً فَخَرَّتْ مَيِّتَةً .

فقلت لهم : مَنْ هذه ؟ فقالوا : هذه عَمِيلَةُ بِنْتُ الضَّحَّاك . فقلت لهم : فَمَنْ عَمْرُو
هذا ؟ قالوا : ابْنُ عَمِّهَا ، فَارْتَحَلْتُ مِنْ عِنْدِهِمْ .

فلما دخلتُ البَيْمَةَ سَأَلْتُ عَنْ عَمْرٍو هَذَا ؛ فَإِذَا هُوَ قَدْ دُفِنَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ
الَّذِي قَالَتْ فِيهِ مَا قَالَتْ !

(١) فِي الْبَيْتِ إِقْوَاءٌ ، وَهُوَ اخْتِلَافُ حَرَكَةِ الرَّوْيِ (٢) تَبَعْتُ الْمَرْأَةَ : أَضَاعَتْ بِعِلْمِهَا أَوْ تَزِينَتْ لَهُ
(٣) تَسَاقَطَتْ مِنْ ضَعْفِهَا وَخَوَرِهَا (٤) الْعَلَقُ : الْهُوَى ، يَكُونُ لِلرَّجُلِ فِي الْمَرْأَةِ .

٧٤ — رحلت مئة ولم يبق إلا الديار *

قال أبو صالح الفزاري : تَذَكَّرْنَا يوماً ذَا الرُّمَّةِ ^(١) ؛ فقال لنا عِصْمَةُ بْنُ مَالِكِ
الْفَزَارِيُّ - وكان قد بلغ عشرين ومائة سنة : إِيَّايَ فَاسْأَلُوا عَنْهُ ؛ كَانَ حُلُوَ الْعِظَمَيْنِ
خَفِيفَ الْعَارِضِينَ ، بَرَّاقَ الثَّنَائِيَا ، وَاضِحَ الْجَبِينِ ، حَسَنَ الْحَدِيثِ ، إِذَا أُنْشِدَ بَرَبْرُ
وَجَشَّ صَوْتُهُ ^(٢) .

جَعْنِي وَإِيَّاهُ مُرْتَبِعٌ ^(٣) مرةً ، فَأَنَانِي فَقَالَ لِي : هَيَّا عِصْمَةُ ، إِنَّ مِئَةَ مَنَقَرِيَّةٍ
وَمَنَقَرُ أَحَبُّ حَيٍّ ، وَأَقْوَفُهُ ^(٤) لَأَثَرٍ ، وَأَثْبَتُهُ فِي نَظَرٍ ، وَقَدْ عَرَفُوا آثَارَ إِيَّايَ ،
فَهَلْ مِنْ نَاقَةٍ نَزْدَارُ عَلَيْهَا مِئَةٌ ؟ قُلْتُ : إِي وَاللَّهِ ؛ الْجَوْذَرُ ، بِنْتُ يُمَانِيَةَ لَجْدِي لِي .
فَقَالَ : عَلَىَّ بِهَا .

فَأَثْبَتَهُ بِهَا فَرَكِبَ وَرَدِفْتُهُ ، حَتَّى إِذَا أَشْرَفْنَا عَلَى مَنَزَلٍ مَيٍّ ؛ فَإِذَا الْحَيُّ
خُلُوفٌ ^(٥) ، فَأَمَهَلْنَا وَتَقَوَّضَ النِّسَاءُ مِنْ بِيُوتِهِنَّ إِلَى بَيْتِ مَيٍّ ، وَإِذَا فِيهِنَّ ظَرِيفَةٌ
جَمْعُهُنَّ فَنَزَلْنَا بِهَا ؛ فَقَالَتْ : أُنْشِدْنَا يَا ذَا الرُّمَّةِ ؛ فَقَالَ : أُنْشِدْهُنَّ يَا عِصْمَةُ - وَكَانَ
عِصْمَةُ رَاوِيَتَهُ - فَأُنْشِدْتُهُنَّ قَصِيدَتَهُ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا :

* الْحَاسَنُ : ٢٢٤ ، الْعَقْدُ : ٤ - ٣٦٦ ، الْأَغَانِي : ١٦ - ١٢٤ ، الْمَصَارِعُ : ١٣٧
ذِي الْأَمَالِي : ١٢٤ ، تَرْيِيزُ الْأَسْوَاقِ : ١٩

(١) ذُو الرَّمَّةِ : هُوَ غِيلَانُ بْنُ عَقِيبةَ الْكِنَانِيِّ ، كَانَ شَاعِراً رَقِيقاً خَيْرَاً بِأَحْوَالِ الْعَشِقِ ، وَالرَّمَّةُ :
حَبَلٌ يَحْمِلُ فِي عُنُقِ الْبَعِيرِ ، وَكَانَ كَثِيراً مَا يَجْعَلُهُ فِي عُنُقِهِ ، وَلِذَلِكَ سَمِيَ بِهِ ، وَصَاحِبَتُهُ مِئَةُ بَنَاتٍ
مُقَاتِلَاتٍ لِمَنْقَرَى . وَكَانَ كَثِيراً الْمَدِيعَ لِبِلَالِ بْنِ أَبِي بَرْدَةَ ، وَكَانَ أَحْسَنَ شِعْرَاءَ عَصْرِهِ تَشْبِيهاً ، كَامِرِيءَ
الْقَيْسِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ . تَوُفِيَ سَنَةَ ١١٧ هـ (٢) الْبَرْبَرَةُ : التَّخْلِيْطُ فِي الْكَلَامِ مَعَ غَضَبٍ وَفُجُورٍ .
وَالْأَجَشُ : الْفَلِيطُ الصَّوْتِ (٣) الْمُرْتَبِعُ : الْمَوْضِعُ الَّذِي يَنْزِلُ فِيهِ أَيَّامَ الرِّبْعِ (٤) مِنْ قَافٍ
الْأَثَرُ : إِذَا عَرَفَهُ (٥) خُلُوفٌ : غَائِبُونَ .

نظرتُ إلى أظعانٍ^(١) مَيَّ كَانَهَا ذُرَا النخلِ أَوْ أَثْلَ تَمِيلِ ذَوَائِبُهُ
فَأَسْبَلَتِ الْعَيْنَانِ وَالصَّدْرُ كَانِمٌ بِمُغْرُورِقٍ نَمَتْ عَلَيْهِ سِوَا كِبِهِ
بِكَاءِ الْفَتَى خَافَ الْفِرَاقَ وَلَمْ تَجُلْ جَوَائِلُهَا أَسْرَارُهُ وَمَعَاتِبُهُ

فَقَالَتِ الظَّرِيفَةُ : فَالآنَ فَلْتَجُلْ ! فَقَالَتْ لَهَا مَيَّةٌ : قَاتِلِكِ اللَّهُ ؟ مَا تَجِيبِينَ بِهِ
مُنْذُ الْيَوْمِ ؟ ثُمَّ أَنْشَدَتْ حَتَّى بَلَغَتْ إِلَى قَوْلِهِ :

إِذَا سَرَحْتَ مِنْ حُبِّ مَيَّ سَوَارِحُ عَنْ الْقَلْبِ آبَتُهُ بَلِيلٌ عَوَازِبُهُ
فَقَالَتْ لَهَا الظَّرِيفَةُ : قَتَلْتِهِ ، قَاتِلِكِ اللَّهُ ! فَقَالَتْ مَيَّ : إِنَّهُ لَصَحِيحٌ ،
وَهَنِيئًا لَهُ .

فَتَنَفَّسَ ذُو الرُّمَةِ تَنَفُّسًا كَادَ يُطِيرُ حَرُّ شَعْرِهِ وَجْهِي ، ثُمَّ أَنْشَدَتْ حَتَّى بَلَغَتْ
إِلَى قَوْلِهِ :

وَقَدْ حَلَفْتَ بِاللَّهِ مَيَّةُ مَا الَّذِي أَحَدْتُهُمَا إِلَّا الَّذِي أَنَا كَاذِبُهُ
إِذَنْ فَرَمَانِي اللَّهُ مِنْ خَيْثُ لَا أَرَى وَلَا زَالَ فِي أَرْضِي عَدُوٌّ أَحَارِبُهُ
فَقَالَتْ مَيَّ : خَفَ عَوَاقِبَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَا غَيَّالَانَ ، ثُمَّ أَنْشَدَتْ حَتَّى بَلَغَتْ
إِلَى قَوْلِهِ :

إِذَا نَازَعْتَكِ الْقَوْلَ مَيَّةُ أَوْ بَدَا لَكَ الْوَجْهُ مِنْهَا أَوْ نَضَا الدَّرْعَ سَالِبُهُ
فَيَا لَكَ مِنْ خَدِّ أَسِيلٍ وَمَنْطِقِ رَخِيمٍ وَمِنْ خَلْقٍ تَعَلَّلَ جَادِبُهُ^(٢)
فَقَالَتِ الظَّرِيفَةُ : هَذَا الْوَجْهُ قَدْ بَدَا ، وَهَذَا الْقَوْلُ قَدْ تَنُوزَعُ فِيهِ ؛ فَمَنْ لَنَا أَنْ
يَنْضُو الدَّرْعَ سَالِبُهُ ؟ فَقَالَتْ مَيَّ : مَا أَنْكَرَ مَا تَجِيبِينَ بِهِ مِنْذُ الْيَوْمِ !

(١) أظعان : جمع ظئفة : الهودج كانت نبيه امرأة أم لا (٢) الجادب : العائب ، ويريد أن الناظر إليها لا يجد في خلقها مغمراً ؛ فيتعلل بالباطل ، وبالشئ بهيبه وليس بهيب .

فقامت الظريفة وقمن معها ؛ فقالت : دَعُوهم ؛ فَإِنْ لَمْ لَشَأْنَا ؛ فقمْتُ فجلست ناحيةً ؛ وجلسا بحيث نَرَاهما ولا نسمع من كلامهما إلا الحرفَ بعد الحرفِ ، والله ما رأيتُهما بَرِحَا من مكانهما ، وسمعتُها تقول له : كذبتُ ، فوالله ما أدرى ما الذى كذبتُ فيه إلى الساعة .

ثم خرج ومعه قارورةٌ فيها دُهْنٌ وقلائدُ ، فقال : يا عِصْمَةُ ؛ هذه دُهْنَةٌ طيبةٌ اتحفننا بها مى ، وهذه قلائدٌ قلدهنَّها مى الجوّذَرُ^(١) ، ولا والله لا قلدهنَّ بعيراً أبداً ، فعقدنَّ فى ذُؤَابَةِ سيفه ، وانصرفنا .

فلما كان بعدُ أتانى ، فقال : هَيَا عِصْمَةُ ؛ قد رحلت مى ، فلم يبق إلا الديار والنظر فى الآثار ؛ فانْهَضَ بنا فنظر إلى آثارها ، فركب وتبعته ؛ فلما أشرف على المُرْتَبِعِ قال :

أَلَا يَا أَسْلَمَى يَا دَارَ مى عَلَى الْبَلَى وَلَا زَالُ مُنْهَلًا^(٢) نَجْرُ عَائِكَ^(٣) الْقَطْرُ
وإنْ لَمْ تَكُونِ غَيْرَ شَامٍ^(٤) بَقْفَرَةٍ نَجْرُهَا الْأَذْيَالُ صَيْفِيَّةٌ^(٥) كُدْرُ^(٦)
ثم انفضحت عيناه بالبكاء ؛ فقلت : مَهْ يَا ذَا الرِّمَةِ ! فقال : إِنِّى لَجِلْدٌ عَلَى مَا تَرَى ، وَإِنِّى لَصَبُورٌ !

فما رأيت أشدَّ صَبَابَةً ، وَلَا أَحْسَنَ عِزَاءً مِنْهُ .
ثم افترقنا ؛ فكان آخرَ العهدِ به .

(١) اسم الناقة التى سارا عليها (٢) منهلا : نازلا (٣) الجرعاء : الرملة المستوية لانبت شيئا .
(٤) الشام : جمع شامة ، وهو بقعة تتخالف لون الأرض (٥) الصيفية : رياح الصيف .
(٦) الكدر : جمع كدراء ، وهى التى فى لونها غبرة .

٧٥ — صباية ابن الطَّيرِية*

أصابَ الناسَ سَنَةٌ وَجَدَبٌ ، فَأَقْبَلَ جَمَاعَةٌ مِنْ جَرَمٍ^(٢) يَرِيدُونَ بَنِي قُشَيْرٍ ،
وَكَانَتْ بَيْنَهُمَا عَدَاوَةٌ وَحَرْبٌ عَظِيمَةٌ ، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَجِدُوا بُدًّا مِنْ ذَلِكَ ، لِمَا قَدْ
سَاقَهُمْ مِنَ الْجَدْبِ وَالْجَمَاعَةِ وَرَقَّةِ الْأَمْوَالِ ، وَمَا أَشْرَفُوا عَلَيْهِ مِنَ الْهَلَكَةِ ،
فَنَصَبَتْ^(٣) قُشَيْرٌ لَهُمُ الْحَرْبَ . فَقَالَتْ جَرَمٌ : إِنَّمَا جِئْنَا مُسْتَجِيرِينَ غَيْرَ مُحَارِبِينَ .
قَالُوا : مِمَّ ؟ قَالُوا : مِنَ السَّنَةِ وَالْجَدْبِ وَالْهَلَكَةِ الَّتِي لَا بَاقِيَةَ لَهَا . فَأَجَارَتْهُمْ قُشَيْرٌ
وَسَالَمَتْهُمْ وَأَرْعَتْهُمْ طَرَفًا مِنْ بِلَادِهَا .

وَكَانَ فِي جَرَمٍ فِتْنٌ يَقَالُ لَهُ مَيَّادُ الْجَرْمِيِّ ، وَكَانَ غَزِيلاً حَسَنَ الْوَجْهِ تَامَ
الْقَامَةِ ، آخِذاً بِقُلُوبِ النِّسَاءِ - وَالْفَزَلُ فِي جَرَمٍ جَائِزٌ حَسَنٌ ، وَهُوَ فِي قُشَيْرٍ نَائِرَةٌ^(٤) .
فَلَمَّا نَازَلَتْ جَرَمٌ قُشَيْرٌ وَجَاوَزَتْهَا أَصْبَحَ مَيَّادُ الْجَرْمِيِّ يَفْدُو إِلَى الْقُشَيْرِيَّاتِ يَطْلُبُ
مِنْهُنَّ الْفَزَلَ وَالصَّبَاَ وَالْحَدِيثَ عِنْدَ غَيْبَةِ الرِّجَالِ ، وَاشْتَغَلَهُمُ بِالسَّقَى وَالرَّغِيَةِ وَمَا أَشْبَهَ
ذَلِكَ ، فَدَفَعَتْهُ عَنْهُنَّ وَأَسْمَعَتْهُ مَا يَكْرَهُ .

وَرَأَتْ رِجَالَهُنَّ عَلَيْهِنَّ وَهُنَّ مُغْضَبَاتٌ ؛ فَقَالَتْ عَجَائِزُ مِنْهُنَّ : وَاللَّهِ مَا نَدْرِي

* الْأَغَانِي : ٨ - ١٥٧ .

(١) اسْمُهُ يَزِيدُ بْنُ الصَّمَةِ ، وَالطَّيرِيَّةُ أُمُّهُ ، كَانَ حَسَنَ الْوَجْهِ وَالشَّعْرِ ، حَلَوَ الْحَدِيثِ ، غَزَا آخِذاً
بِقُلُوبِ النِّسَاءِ ، وَقَدْ أَحَبَّ امْرَأَةً مِنْ جَرَمٍ ، وَقَاسَى فِي سَبِيلِهَا مِنَ الْوَجْدِ مَا قَاسَى مِثْلُهُ مِنَ الْمُتَمِيمِينَ
فِي الْحُبِّ ، وَنَظَّمَ فِيهَا الشَّعْرَ الرَّقِيقَ ، وَتَوَفَّى سَنَةَ ١٢٦ هـ (٢) بَطْنُ فَيْيَ (٣) نَصَبَ لَهُ
الْحَرْبَ : وَضَعَهَا (٤) النَّائِرَةُ : الْعَدَاوَةُ وَالشَّجْنَاءُ ، أَيْ أَنَّ الْفَزَلَ فِي قُشَيْرٍ سَبَبُ الْعَدَاوَةِ .

أَرْعَيْتُمْ جَرْمًا مَرَعَى أَمْ أَرْعَيْتُمُوهُمْ نِسَاءَكُمْ ! فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ فَقَالُوا : وَمَاذَا ؟
قُلْنَا : رَجُلٌ مِنْذُ الْيَوْمِ ظَلَّ مُجْحِرًا ^(١) لَنَا مَا يَطْلُعُ مِنْ رَأْسٍ وَاحِدَةٍ ، يَدُورُ
بَيْنَ بَيوتِنَا .

فَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَيِّتُوا جَرْمًا فَاصْطَلِمُوهَا ^(٢) . وَقَالَ بَعْضُهُمْ : قَبِيحٌ . قَوْمٌ قَدْ
سَقَيْتُمُوهُمْ مِيَاهَكُمْ ، وَأَرْعَيْتُمُوهُمْ مَرَاعِيَكُمْ ، وَخَلَطْتُمُوهُمْ بِأَنْفُسِكُمْ ، وَأَجْرَتُمُوهُمْ
مِنَ الْقَحْطِ وَالسَّنَةِ ، تَفْتَاتُونَ ^(٣) عَلَيْهِمْ هَذَا الْاَفْتِيَاءُ ! لَا تَفْعَلُوا وَلَكِنْ لَتُصْبِحُوا ^(٤)
وَتَقْدَمُوا إِلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ فِي هَذَا الرَّجُلِ ؛ فَإِنَّهُ سَفِيهٌ مِنْ سَفَهَائِهِمْ ، فَلْيَأْخُذُوا ظِلَّ
يَدَيْهِ ؛ فَإِنْ يَفْعَلُوا فَاتِمُّوا لَهُمْ إِحْسَانَكُمْ ، وَإِنْ يَمْتَنِعُوا وَيُقِرُّوا مَا كَانَ مِنْهُ يَحِلُّ
لَكُمْ الْبَسْطُ ^(٥) عَلَيْهِمْ ، وَتَخْرُجُوا مِنْ ذِمَّتِهِمْ . فَاجْتَمِعُوا عَلَى ذَلِكَ .

فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَاً نَفَرَتْ مِنْهُمْ إِلَى جَرْمٍ فَقَالُوا : مَا هَذِهِ الْبِدْعَةُ الَّتِي قَدْ
جَاوَرْتُمُونَا بِهَا ! إِنْ كَانَتْ هَذِهِ الْبِدْعَةُ سَجِيَّةً لَكُمْ فَلَيْسَ لَكُمْ عِنْدَنَا إِرْعَاءٌ وَلَا
إِسْقَاءٌ ، فَأَبْعِدُوا عَنَّا أَنْفُسَكُمْ ، وَأَذْنُوا ^(٦) بِحَرْبٍ . وَإِنْ كَانَ افْتِتَانًا فَفَيِّرُوا ^(٧) عَلَى
مَنْ فَعَلَهُ .

فَقَامَ رَجَالٌ مِنْ جَرْمٍ فَقَالُوا : مَا هَذَا الَّذِي نَالَكُمْ ؟ قَالُوا : رَجُلٌ مِنْكُمْ
أَمْسَ ظِلٌّ يَجُرُّ أَذْيَالَهُ بَيْنَ أَيْيَاتِنَا ، مَا نَدْرِي عِلَامَ كَانَ أَمْرُهُ ! فَهَقَمَتْ جَرْمٌ مِنْ
جَفَاءِ الْقَشِيرِ بَيْنَ وَعَجَرِ قَهْطِهَا وَقَالُوا : إِنْ كُمْ لَتُحْسِنَ مِنْ نِسَائِكُمْ بِيَلَاءٍ ، أَلَا فَاثْبِتُوا
إِلَى بَيوتِنَا رَجُلًا وَرَجُلًا .

(١) مَنْ أَجْحَرَهُ ، إِذَا أَلْزَمَهُ أَنْ يَدْخُلَ جَحْرَهُ (٢) اسْتَأْصَلَوْهَا (٣) افْتَاتَ عَلَيْهِ : اخْتَلَقَ
عَلَيْهِ الْبَاطِلُ (٤) اللَامُ لَامُ الْأَمْرِ (٥) بَسَطَ يَدَهُ عَلَيْهِ : سَلَطَ عَلَيْهِ (٦) كُونُوا عَلَى عِلْمٍ
بِحَرْبٍ (٧) فَفَيِّرُوا : أَيُّ أَزْجَرُوهُ وَأَنْكَرُوا عَلَيْهِ مَا فَعَلَهُ .

فقالوا : والله ما نحسُّ من نسايتنا بيلاءٍ ، وما نعرفُ منهن إلا العفةَ والكرمَ ، ولكن فيكم الذى قلم .

قالوا : فإننا نبعث رجلاً إلى بيوتكم ، يابنى قُشيرَ ، إذا غدت الرجال وأخلفَ النساءُ ، وتبعثون رجلاً إلى البيوتِ ، وتتحالفُ أنه لا يتقدَّمُ رجلٌ منا إلى زوجةٍ ولا أختٍ ولا بنتٍ ، ولا يُعلمُها بشيءٍ مما دار بين القومِ ؛ فيظلُّ كلاهما فى بيوت أصحابه حتى يردَّا علينا عَشِيًّا الماءَ وتُخلى لهما البيوتُ ، ولا تبرزُ عليهما امرأةٌ ، ولا تُصادقُ منهما واحداً إلا بموثقٍ يأخذه عليها وعلامةٍ تكون معه منها !

قالوا : اللهم نعم . فظلوا يَوْمَهُم ذلك وباتوا ليلتهم ، حتى إذا كان من الغد غَدَوْا إلى الماءِ وتحالفوا أنه لا يعودُ إلى البيوتِ منهم أحدٌ دون الليل .

وَعَدَا مِيَادَ الْجُرُمَى إلى القُشَيْرِيَّاتِ ، وغدا بَرِيدُ بْنُ الطَّائِرَةِ القُشَيْرَى إلى الجُرُمِيَّاتِ ، وكان من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم حديثاً ؛ فظلَّ عندهن بأكرم مَظَلٍّ لا يصيرُ إلى واحدةٍ منهن إلا افْتَنَنْتْ به ، وتابعتنه إلى المودَّةِ والإخاءِ ، وقبض منها رَهْناً ، وسألته ألا يدخل من بيوت جَرَمٍ إلا بيتها ؛ فيقول لها : وأى شيء تخافين وقد أخذتِ عنى الموائيقَ والمعهود ، وليس لأحد فى قلبى نصيبٌ غيرك ، حتى صُلِّيت العصر .

فانصرف يزيدُ بفتح^(١) كثير وبراقيعَ ، وانصرف مكحولاً مذهبوناً شعبانَ ريانَ مَرَجَلِ الأَمةِ^(٢) . وظل مِيَادَ يَدُورُ بين بيوت القُشَيْرِيَّاتِ مَرَجوماً مُتَمَصِّياً

(١) الفتح واحد فنتخه ، وهى حلقة من فضة لا فس لها فإذا كان فيها فس فهى الحاتم

(٢) الأمة : الشعر المجاور شحمة الأذن .

لا يتقربُ إلى بيتٍ إلا استقبلته الولائدُ بالعمدِ^(١) والجندل ؛ فتهالكَ لهنّ ، وظنّ أنه ارتيادُ^(٢) منهنّ له ، حتى أخذَهُ ضربٌ كثيرٌ بالجندل ، ورأى اليأسَ منهنّ ، وجهده العطشُ ؛ فانصرف حتى جاء إلى سَمُرَةٍ^(٣) قريباً إلى نصف النهار ؛ فتوسّدَ يده ونامَ تحتها نُوَيْمَةً حتى أَفْرَجَتْ عنه الظهيرة ، وفاءت الأظلال ، وسكن بعضُ ما به من ألمِ الضرب ، وبرّدَ عطشه قليلاً .

ثم قرب إلى الماء حتى وردَ على القوم قبلَ يزيدَ ، فوجد أُمَّةً تَدُودُ غنماً في بعض الظّننِ^(٤) ، فأخذ برُقعَهَا ، فقال : هذا برقع واحدة من نسائكُم ، فطرحه بين يدي القوم ، وجاءتِ الأُمَّةُ تَعْدُو فتعلقتُ ببرُقعها فرُدَّ عليها ، وخجل مِيَادُ خَجَلًا شديدًا .

وجاء يزيدُ مُنْسِيًا وقد كاد القوم أن يتفرّقوا ، فَنَثَرَ كُفَّهُ بين أيديهم ملآنَ براقعٍ وَفَتَخًا ، وقد حَلَفَ القومُ ألا يعرف رجل شيئًا إلا رفعه .

فلما نثر مامعه اسودّت وجوه جَرَمٍ ، وأمسكوا^(٥) بأيديهم إمساكةً : فقالت قُشَيْرٌ : أأنتم تعرفون ما كاذبٌ بيننا أمس من العهود والمواثيق وتخرج الأموال والأهل ؛ فمن شاء أن ينصرف إلى حرامِ فليُؤْمِسِكْ يده ، فبسط كلُّ رجل يده إلى ماعرفَ فأخذه ، وتفرّقوا عن حَرْبٍ ؛ وقالوا : هذه مكيدة يا قُشَيْرُ .

وبُلي يزيد بعشقي جارية من جَرَمٍ في ذلك اليوم يقال لها وَخْشِيَّةٌ ، وكانت من أحسنِ النساء . ونافرتهم جَرَمٌ فلم يجدوا إليها سبيلا ، فصار من العشق إلى أن

(١) العمدة : قضبان الحديد (٢) ارتياد : طلب (٣) السمرة : شجرة عظيمة (٤) الظنن : سير البادية للنجعة (٥) يريد أنهم قبضوا بأيديهم ، ولم يمدوها إلى شيء مما نثر أمامهم .

أشرف على الموت ، واشتدَّ به الجُهدُ ، فجاء ابنُ عم له يقال له : خليفة بن بوزَل ، بعد اختلاف الأطباء إليه ويأمِهم منه ، فقال له : يا بن عمِّ ؛ قد تعلمُ أنَّه ليس إلى هذه المرأة سبيل ، وأنَّ التعزَّى أَجمل ، فما أَرَبُك في أن تقتل نفسك وتَأثم عند ربك !

قال : وما همِّي يا بن عمِّ بنفسى ومالى فيها أمر ولا نهى ؛ ولا همِّي إلا نفس الجرْمية ؛ فإن كنتَ تريد حياتى فأرِنِها . قال : كيف الحيلة ؟ قال : تحملنى إليها ؛ فحمله إليها وهو لا يطعمُ فيها ، إلا إناهم كانوا إذا قالوا له نذهب بك إلى وَحْشِيَّة أَبَلٍ قليلا ، وإذا أيس منها اشتدَّ به الوجع .

فخرج به خليفة بن بوزَل فحمله فتخلَّل به اليمين ، حتى إذا دخل فى قبيلة انتسب إلى أخرى وهو يخبر أنه طالب حاجة . وأبَلٌ حتى صلَح بعض الصلاح ؛ وطعم فيه ابن عمه ، وصارا بعد زمان إلى حى وَحْشِيَّة ، فلقيا الرُعَيمان ^(١) ، وكَمَنا فى جبلٍ من الجبال . فجعل خليفة يَنزِلُ فيتعرَّض لرعيانِ الشاء فيسألهم عن راعى وَحْشِيَّة ، حتى لقي غلامها وغنَمها ؛ فواعدهم موعداً ، وسألهم ما حال وَحْشِيَّة ؟ فقال غلامها : هى والله بَشَرٌ ! لاحفظ الله بنى قُشير ولا يوماً رأيناها فيه ! فما زالت عليلةً منذ رأيناها - وكان بها طَرْفٌ ممَّا بابتِ الطَّائِرِيَّة .

فقال : وَيَحْكَ ! فإنَّ هاهنا إنساناً يُدَاوِيها ، فلا تقل لأحد غيرها . قال : نعم إن شاء الله تعالى .

فأعلمها الراعى ما قال له الرجل حين صار إليها ، فقالت له : ويحك ! فجيء به .
ثم إنه خرج فاتميه ، فأعلمه ، وظلَّ عنده يرعى غنمه ، وتأخر عن الشاء حتى
تقدمته الشاء وجنح الليل ، وانحدر بين يدي غنمه ، حتى أراحها . ومشى فيها يزيد
حين قرُبَت من البيت على أربع ، وتجلَّلَ شملةً سوداء بلون شاة من الغنم !
فصار إلى وحشية ، فسرَّت به مروراً شديداً ، وجمعت عليه من تنق به من
صواحباتها وأترابها ؛ وقد كان عهد إلى ابن عمه أن يقيم في الجبل ثلاث ليال ، فإن لم
يَرَهُ فلم ينصرف .

فأقام يزيد ثلاث ليال ، ورجع إلى أصحَّ ما كان عليه ، ثم انصرف فصار
إلى صاحبه . فقال : ما وراءك يا يزيد ؟ ورأى من سروره وطيب نفسه ما سرَّه .
فقال :

لو أنك شاهدت الصبا يابنَ بوزلٍ	بفرع الغضا إذ راجعتني غياطله ^(١)
لشاهدت لهواً بعد شحطٍ من النوى	على سخطِ الأعداء حُلواً شمائله
بنفسي من لَوٍّ مرَّ بردُ بنانه	على كبدِي كانت شفاءً أنامله
ومن هنيئٍ في كلِّ أمرٍ وهبته	فلا هو يطمئني ولا أنا سائله

(١) الفيائل : جمع غيطة ، وهي الظلمة المتراكمة ، استعارها هنا لجهالات الصبا .

٧٦ — معبد الصغير وأحد العشاق *

قال معبد^(١) الصغير المغني : كنت منقطعاً إلى البرامكة أخذ منهم وألزمهم؛
فبينما أنا ذات يوم في منزلي إذا بابي يدق ، فخرج غلامي ثم رجع إلي ، فقال :
على الباب فتى ظاهر المروءة ، يستأذن عليك ، فأذنت له .

فدخل على شاب ما رأيت أحسن وجهاً ، ولا أنظف ثوباً ، ولا أجل زياً
منه ، دنف^(٢) ، عليه آثار السقم ظاهرة ، فقال لي : إني أرجو لقاءك منذ مدة ،
فلا أجد إليه سبيلاً ، وإن لي حاجة ، قلت : ماهي ؟ فأخرج ثلاثمائة دينار فوضعها
بين يدي ، ثم قال : أسألك أن تقبلها ، وتصنع في بيتين قلتهما لحناً تغنيني به .
فقلت : هاتهما ؛ فأنشدتهما وقال :

بالله ياطرني الجاني على بدني لتطفن بدمعي لوعة الحزن
لألا أبوحن حتى يحبوا سكني فلا أراه ولو أدرجت في كفني

قال معبد : فصنعت فيهما لحناً ، ثم غنيته إياه ، فأغنى عليه ، حتى ظننته قد
مات ، ثم أفاق ، فقال : أعيد فديتك ! فناشدته الله في نفسه وقلت : أخشى
أن تموت ؛ قال : هيهات ! أنا أشقى من ذاك ! وما زال يخضع لي ويتضرع حتى أعدته ،
فصعق صعقة أشد من الأولى حتى ظننت أن نفسه قد فاضت .

* الأغاني : ١٢ - ١٦١ ، تزيين الأسواق : ١٢٥ .

(١) كان معبد الصغير غلاماً مولداً من مولدى المدينة ، شدا بها ، وأخذ الفناء عن جماعة من
أهلها ، وعن جماعة أخرى من علية المغنين بالمراق ، مثل إسحاق وابن جامع ، وكان أكثر انقطاعه
إلى البرامكة (٢) دنف : مريض .

فلما أفاق رددتُ الدنانيرَ عليه ، ووضعتها بين يديه ، وقلت : يا هذا ؛ خذ دنانيرك ، وانصرفْ عني ، فقد قضيتُ حاجتك ، وبلغت ما أردته ، ولستُ أحبُّ أن أشركَ في دمك ، فقال : يا هذا ؛ لا حاجةَ لي في الدنانير ، فقلت : لا والله ، ولا بعشرةِ أضعافها إلا على ثلاثِ شرائط ، قال : وما هن ؟ قلت : أولاً أن تقيمَ عندي وتحرِّمَ بطعامي ، والثانية أن تشربَ أقداً واحداً من النبيذِ يشدُّ قلبك ، ويسكنُ مابك ، والثالثة أن تحدِّثني بقصصك ، فقال : أفعل ما تريد .

فأخذتُ الدنانير ، ودعوتُ بطعام فأصاب منه ، ثم دعوتُ بالنبيذ فشرب أقداً واحداً ، وغنَّيته بشعرٍ غيره في معناه ، وهو يشرب ويبيكي ، ثم قال : الشرطُ أعزَّكَ الله ، فغنَّيته ، فجعل يبيكي أحراً بكاءً ، وينشج أشدَّ نشيجاً وينتحب ، فلما رأيتُ مابه قد خَفَّ عما كان يلحقه ، ورأيتُ النبيذَ قد شدَّ من قلبه كرَّرتُ عليه صوته صراراً ، ثم قلتُ : حدِّثني حديثك ، فقال :

أنا رجل من أهل المدينة خرجتُ منزهاً في ظاهرها ، وقد سالَ العقيقُ ، في فِتْيَةٍ من أقراني وأخذاني ؛ فبصُرنا بفتيات قد خرجنَ لمثل ما خرجنا له ، فجلسن حَجْرَةً^(١) منا ، وبصرتُ فيهن بفتاةٍ كأنها قضيبةٌ^(٢) قد طَلَّه الندى ، تنظر بعينين ما ارتدَّ طرفُهما إلا بنفس من يلاحظهما ، فأطَّلنا وأطْلُن حتى تفرق الناس ، وانصرفن وانصرفنا ، وقد أبقتُ بقلبي جُرْحاً بطيئاً اندمأه ، فعدتُ إلى منزلي وأنا وقيدٌ^(٣)

وخرجت من الغد إلى العقيق وليس به أحد ، فلم أرَ لها ولا لصواحبها أثراً ؛ ثم جعلتُ أتبعها في طرق المدينة وأسواقها ، فكانَّ الأرض أضمرتُها ، فلم أحسن لها

(١) حجرة : بعيداً (٢) القضيبة : الغصن (٣) الوقيد : الشديد المرض المشرف .

بعين ولا أثر ، وسقمتُ حتى أيسُ مني أهلي ، ودخلتُ ظنري^(١) ، فاستملمتني حالي ، وضمنتُ لي السعيَ فيما أحبهُ منها ؛ فأخبرتها بقصتي ؛ فقالت : لا بأس عليك ، هذه أيام الربيع ، وهي سنةُ خضبٍ ، وليس يبعد عنك المطر ؛ وهذا العقيق ، فتخرج حينئذ وأخرج معك ، فإن النسوة سيجئن ، فإذا فعلن ورأيتهن اتبعتهن حتى أعرف موضعها ، ثم أصل بينك وبينها ، وأسعى لك في تزويجها ؛ فكانت نفسى اطمأنت إلى ذلك ، ووثقت به ، وسكنت إليه ، ثم قويت وطمعت ، وتراجعت نفسى .

وجاء مطرٌ فأسال الوادى ، وخارج الناس ؛ وخرجتُ مع إخوانى إليه ، فجلسنا مجلسنا الأول بمَينِه ؛ فما كُنَّا والنسوة إلا كفرسَى رِهان ، وأوماتُ إلى ظنري فجلست حَجْرَةً منا ومنهن ، وأقبلتُ على إخوانى ، فقلت : لقد أحسن القائل حيث قال :

• رَمَعْنِي بِسَهْمِ أَقْصَدِ الْقَلْبِ وَانْتَدَتْ وَقَدْ غَادَرَتْ جُرْحًا بِهِ وَنُدُوبًا^(٢)
فأقبلت على صواحباتها ، فقالت : أحسن والله القائل ، وأحسن من أجابه حيث يقول :

بِنا مِثْلُ مَا تَشْكُو فَصَبْرًا لَعَلَّنَا نَرَى فَرَجًا يَشْفِي السَّقَامَ قَرِيبًا
فأمسكتُ عن الجواب خوفاً من أن يظهر ما يفضحني وإياها ، وعرفت ما أرادت ، ثم تفرق الناس وانصرفنا .

وتبعتهن ظنري حتى عرفت منزلها ، وصارت إليّ ، فأخذت بيدي ، ومضينا إليها ، فلم نزل نتلطّف حتى وصلت إليها ، فتلاقينا ، وشاع حديثي وحديثها وظهر

(١) الظئر : العاطفة على ولد غيرها ، الموضع له (٢) الندوب : جمع ندبة ، أثر الجرح الباقي على الجلد .

ما بيني وبينها، فحجبتها أهلها، وتشدد عليها أبوها؛ فسا زلت أجهد في لقائها فلا أقدر عليه، وشكوت إلى أبي لشدته ما نالني؛ وسألته في خطبتها لي، فضى أبي ومشيخة أهلي إلى أبيها، فخطبوها؛ فقال: لو كان بداً بهذا لأسمفته بما التمس ولكنه قد شهّر^(١)ها، فلم أكن لأحقق قول الناس فيها بتزويجه إياها؛ فانصرفت على يأس منها ومن نفسي.

قال معبد: ثم صارت بيننا عشرة، وجلس جعفر بن يحيى للشرب، فأنثته؛ فكان أول صوت غنيته صوتي في شعر الفتى؛ فطرب عليه طرباً شديداً، وقال: ونحك! إن لهذا الصوت حديثاً فما هو؟ فحدثته به، فأمر بإحضار الفتى فأحضر من وقته، واستعاده الحديث فأعاده عليه، فقال: هي في ذمتي حتى أزوجه إياها، فطابت نفسه، وأقام معنا ليلتنا حتى أصبح؛ وغداً جعفر إلى الرشيد، فحدثه الحديث، فمجب منه، وأمر بإحضارنا جميعاً، فأحضرنا، وأمر بأن أغنيته الصوت، فغنيته وشرب عليه، وسمع حديث الفتى، فأمر من وقته بالكتاب إلى عامل الحجاز بإشخاص الرجل وابنته، وجميع أهله إلى حضرته، فلم يمض إلا مسافة الطريق حتى أحضر، فأمر الرشيد بإيصاله إليه فأوصل، وخطب إليه الجارية للفتى، وأقسم عليه ألا يخالف أمره، فأجابه، وزوجه إياها، وحمل إليه الرشيد ألف دينار لجهازها، وألف دينار لنفقة طريقه؛ وأمر للفتى بألف دينار، وأمر جعفر لي وللفتى بألف دينار؛ وكان بعد ذلك في جملة ندماء^(٢) جعفر بن يحيى.

٧٧ — نَعَبُ الْغُرَابُ بِفِرَاقِهِمَا*

قال زياد بن عَمَّانَ الْغَطَفَانِيّ : كُنَّا بِيَابِ بَعْضِ وُلاَةِ الْمَدِينَةِ ، فَعَرَضْنَا^(١) مِنْ طُولِ الثَّوَاءِ^(٢) ، فَإِذَا أُعْرَابِيٌّ يَقُولُ : يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ ؛ أَمَّا مِنْكُمْ رَجُلٌ يَأْتِينِي أُعَلِّهُ إِذْ غَرَضْنَا مِنْ هَذَا الْمَكَانِ فَأُخْبِرَهُ عَنْ أُمِّ جَحْدَرٍ وَعَنِّي !

فَجِئْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَقَالَ : أَنَا الرَّمَّاحُ^(٣) بْنُ أَبِرْدَ ، قُلْتُ : فَأُخْبِرْنِي بَيِّدِ أَمْرِكَا ؛ قَالَ : كَانَتْ أُمُّ جَحْدَرٍ مِنْ عَشِيرَتِي فَأَعْجَبَتْنِي ؛ وَكَانَتْ بَيْنِي وَبَيْنَهَا خُسْلَةٌ^(٤) ، ثُمَّ إِنِّي عَقَّبْتُ عَلَيْهَا فِي شَيْءٍ بَلَغَنِي عَنْهَا ؛ فَأَتَيْتُهَا فَقُلْتُ : يَا أُمَّ جَحْدَرٍ ؛ إِنَّ الْوَصْلَ عَلَيْكَ مَرْدُودٌ ؛ فَقَالَتْ : مَا قَضَى اللَّهُ فَهُوَ خَيْرٌ . فَلَبِثْتُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ سَنَةً .

وَذَهَبَتْ بِهِمْ تُجْعَةٌ فَيَبَاعِدُوا . وَاشْتَقْتُ إِلَيْهَا شَوْقًا شَدِيدًا ؛ فَقُلْتُ لَأَمْرَأَةٍ أَخِي لِي : وَاللَّهِ لَئِنْ دَنَتْ دَارُنَا مِنْ أُمِّ جَحْدَرٍ لَأَتَيْنَهَا ؛ وَلَأَطْلُبَنَّ إِلَيْهَا أَنْ تَرُدَّ الْوَصْلَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا ، وَلَئِنْ رَدَّتْهُ لَا تَقْضُهُ أَبَدًا !

وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَانِ حَتَّى رَجَعُوا ، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ عَلَيْهِمْ ، فَإِذَا أَنَا بِبَيْتَيْنِ نَازِلَيْنِ إِلَى سَنْدٍ^(٥) أَبْرَقَ طَوِيلٍ ، وَإِذَا امْرَأَتَانِ جَالِسَتَانِ فِي كِسَاءٍ وَاحِدٍ بَيْنَ

* الْأَغَانِي : ٢ - ٢٧٣

(١) غَرَضْنَا : ضَجَرْنَا (٢) الثَّوَاءُ : طُولُ الْإِقَامَةِ (٣) كَانَ الرَّمَّاحُ بْنُ أَبِرْدَ أَشْعَرُ غَطَفَانٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ ، عَاصِرُ الْوَلِيدِ بْنِ يَزِيدٍ وَمَدْحُهُ ، وَأَدْرَكَ أَوَّلَ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، فَدَحَ النَّصُورَ وَاشْتَهَرَ بِنَسَبِهِ إِلَى أُمِّهِ مِيَادَةَ . تَوَفَّى نَحْوَ سَنَةِ ١٤٠ هـ (٤) الْحَلَّةُ : الصَّدَاقَةُ (٥) السَّنْدُ : مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ قَبْلَ الْجَبَلِ أَوْ الْوَادِي . وَالْأَبْرَقُ مِنَ الْجِبَالِ : مَا كَانَ لَهُ لَوْنَانِ مِنْ سُودٍ وَبَيَاضٍ .

البيتين ؛ فجئتُ فسلمتُ ؛ فردَّت إحداها ولم ترد الأخرى ، وقالت : ما جاء بك يارمّاح إلينا ؟ ما كنّا حسينا إلا أنه قد انقطع ما بيننا وبينك . فقلت : إني جعلتُ على نذراً لئن دت بأم جحدَر دارٍ لآتينها ، ولأطلبن منها أن تردّ الوصل بيني وبينها ، ولئن هي فعلت لا نقضته أبداً - وإذا التي تسلمني امرأةٌ أخيها ، وإذا الساكنة أمٌ جحدَر .

فقال امرأةٌ أخيها : فادخل مُقدّم البيت ، فدخلتُ ، وجاءت من مؤخره فدنت قليلاً ، ثم إذا هي قد برزت ، فساعة برزت جاء غراب فنعب على رأس الأبرق^(١) ، فنظرت إليه ، وشهقت وتغيّر وجهها ، فقلت : ما شأنك ؟ قالت : لا شيء ؛ قلت : بالله إلا أخبرتنى ؛ قالت : أرى هذا الغراب يخبرني أنا لا نجتمع بعد هذا اليوم إلا ببلد غير هذا البلد ، فتقبّضت نفسي ، ثم قلت : جاريةٌ والله ، ما هي في بيت عيافة^(٢) ولا قيافة^(٣) .

ثم تروّخت^(٤) إلى أهلي ، فكثت عندهم يومين ، ثم أصبحت غادياً إليها ، فقالت لي امرأةٌ أخيها : ويحك يارمّاح ! أين تذهب ؟ فقلت : إليكم ، فقالت : وما تريد ؟ قد والله زوّجت أمٌ جحدَر البارحة ، فقلت : بمن ؟ ويحك ! قالت : برجل من أهل الشام من أهل بيتها ، جاءهم من الشام فخطبها فزوّجها ، وقد حلت إليه !

(١) الأبرق : مكان مرتفع فيه حجارة ورمل وطين (٢) العيافة : زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها ، والمعروف بالعيافة من العرب بنو أسد وبنو لهب (٣) القيافة : تتبع الآثار ومعرفتها ، والمعروف بالقيافة بنو مدلج (٤) تروّخت : سرت في وقت الرواح .

فمضيتُ إليهم فإذا هو قد ضربُ سُرَادِقَاتٍ ، فجلبتُ إليه فأنشدته ، وحدثته
وعدتُ إليه إياماً ، ثم إنه احتملها ، فذهب بها ، فقلت :

أَجَارْتَنَا إِنَّ الْخُطُوبَ تَنْوِبُ عَلَيْنَا ، وَبَعْضَ الْأَمْنِينَ تُصِيبُ
أَجَارْتَنَا لَسْتُ الْغَدَاةَ بِيَارِحَ وَلَكِنْ مَقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبٌ^(١)
فَإِنْ تَسْأَلْنِي هَلْ صَبَرْتُ فَإِنِّي صَبَرْتُ عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ صَلِيبٌ^(٢)
جَرَى بَانْتِنَاتٍ^(٣) الْحَبْلِ مِنْ أُمِّ جَحْدَرٍ وَطَبَّاءُ وَطَيْرٌ بِالْفِرَاقِ نَعُوبُ
نَظَرْتُ فَلَمْ أَغْتَفِ^(٤) وَعَاقَتْ فَيَنْتِ لَهَا الطَّيْرُ قَبْلِي ، وَاللَّيْبُ لَيْبُ
فَقَالَتْ : حَرَامٌ أَنْ نَرَى بَعْدَ هَذِهِ جَمِيعِينَ إِلَّا أَنْ يُلَمَّ غَرِيبُ
أَجَارْتَنَا صَبْرًا ؛ فَيَارُبَّ هَالِكٍ تَقَطَّعُ مِنْ وَجْدٍ عَلَيْهِ قُلُوبُ

ثم انحدرتُ في طلبها ، وطمعتُ في كلتها : « إِلَّا أَنْ نَجْتَمِعَ فِي بَلَدٍ غَيْرِ
هَذَا الْبَلَدِ » .

فَجِئْتُ فَدُرْتُ الشَّامَ زَمَانًا ، فَتَلَقَانِي زَوْجُهَا ، فَقَالَ : مَا لَكَ لَا تَغْسِلُ ثِيَابَكَ
هَذِهِ ! أُرْسِلُ بِهَا إِلَى الدَّارِ تُغْسَلُ ؛ فَأُرْسِلْتُ بِهَا .

ثم إِنِّي وَقَفْتُ أَنْتَظِرَ خُرُوجَ الْجَارِيَةِ بِالثِّيَابِ ، فَقَالَتْ أُمُّ جَحْدَرٍ لَجَارِيَتِهَا :
إِذَا جَاءَ فَأَعْلَمِينِي ؛ فَلَمَّا جِئْتُ إِذَا أُمُّ جَحْدَرٍ وَرَاءَ الْبَابِ ، فَقَالَتْ : وَيْحَكَ يَا رِمَاحُ !
قَدْ كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ لَكَ عَقْلًا ! أَمَا تَرَى أَمْرًا قَدْ حِيلَ دُونَهُ ، وَطَابَتْ أَنْفُسُنَا

(١) عَسِيبُ : اسم جبل بعلية نجد ، يقال : لَا أَفْعَلُ كَذَا مَا أَقَامَ عَسِيبُ ، أَيْ لَا أَفْعَلُهُ أَبَدًا
(٢) الصَّالِبُ : الشَّدِيدُ (٣) ابْتِنَاتُ : انْقِطَاعُ (٤) عَافَ الطَّيْرُ : زَجَرَهَا ، وَهُوَ أَنْ يُعْتَبَرُ
بِأَسْمَائِهَا وَمَسَاقِطِهَا فَيَتَسَمَدُّ أَوْ يَتَشَامَمُ .

عنه ؟ انصرف إلى عشيرتك فإني أستحي لك من هذا المقام ؛ فانصرفت
وأنا أقول :

عسى إن حَجَجْنَا أَنْ نَرَى أُمَّ جَحْدَرٍ ويجمعنا من نخلتين ^(١) طريقُ
ونَضَطَّكَ أَعْضَادُ الْمَطَى وَبَيْنَنَا حديثُ مُسَرَّةٍ دُونَ كُلِّ رَفِيقٍ ^(٢)

٧٨ -- نَخَلْتَا حُلُوانَ *

قال مُطِيع^(١) بن إبّاس : كنت بالرّيّ^(٢) مع سالم بن قُتَيْبَةَ ، وكانت لى جارية يقال لها جودانة

و كنت أتعشّقُ امرأةً من بنات الدهاقين^(٣) ، كنتُ نازلاً إلى جنبها فى دارها ، فلما خرج إبراهيم بن عبد الله بن الحسن - كتب المنصور إلى سالم يأمره باستخلاف رجل على عمله والقدوم عليه فى خاصّته على البريد ، فأمرنى سالم بالخروج معه فاضطّرت إلى بيع الجارية ، فبعْتُها ، ثم نَدِمْتُ بعد ذلك على خروجى ، وتمنيت أن أكون أقمّت .

ثم نزاتُ حُلُوانَ^(٤) ، فجلستُ على العقبة أنتظر نَقْلَى ، وعِنَانُ دابّتى فى يدي ، وأنا مُسْتَنِدٌّ إلى نَخْلَةِ الْعَقْبَةِ ، وإلى جانبها نخلة أخرى ، فتذكرتُ المرأة واشتقتها .
وقلت :

أُسْعِدَانِي بِالنَّخْلَتَيْنِ حُلُوانَ وابكيا لى من رَيْبِ هذا الزمان
واعلمَا أنَّ رَيْبَهُ لم يزل يفرقُ بين الألفِ والجيران
ولعمرى لو ذُقْتَا أَلَمَ الْفَرْقَةِ أبكا كما الذى أبكاني

* معجم البلدان : ٣ - ٣٢٣ ، الأغانى : ١٢ - ١٠٣

- (١) مطيع بن إبّاس : عربى الأصل يرجع نسبه إلى كنانة ، عاصر الدوائنين : الأموية والعباسية ، كان ماجنًا خليما ظريفا مليح النادرة . ولكنه منهم بالزندقة والفجور ، توفى سنة ١٦٦ هـ .
(٢) الرى : مدينة عظيمة ببلاد الجبال ؛ تخرج فيها كثير من عظماء المسلمين . (٣) الدهقان : التاجر ، وزعيم فلاحى العجم ، ورئيس الإقليم (مرب) وجمعه دهاقين . (٤) حلوان : مدينة كانت مشهورة بالان ، وهى غير حلوان مصر .

أَسْمِدَانِي وَأَيُّنَا نَحْسًا سوف يلقا كما فتنفراق
 كم رمتني صروف هذى الليالي بفراق الأحباب والخللان
 غير أني لم تلق نفسي كما لا قيت من فرقة ابنة الدهقان
 جارة لي بالرأي تذهب همي ويسأل دنوؤها أحزاني
 فجعتني الأيام أغبط ما كنت بصدع للبين غير مداني
 وبرغى أن أصبحت لا تراها العين مني وأصبحت لا تراني
 إن تكن ودعت فقد تركت بي لهباً في الضمير ليس بوان
 كحريق الضرام في قصب الغا ب رمته رينجان مختلطان^(١)
 وسمعتي سالم فقال : ويلك ! فيمن هذه الأبيات ؟ أفي جاريتك ؟ فاستجيت
 أن أصدقه فقلت : نعم .
 فكتب من وقته إلى خليفته أن يبتاعها لي ، فلم ألبث أن ورد كتابه : إني
 وجدتها قد تداولها الرجال فزفت نفسي عنها .

(١) روى أن المهدي قال : قد أكثر الشعراء في نخلتي حلوان ، ولهممت أن آمر بقطعها ،
 فبلغ قوله المنصور ، فكتب إليه : بلغني أنك هممت بقطع نخلتي حلوان ، ولا فائدة لك في قطعها ،
 ولا ضرر عليك في بنائها ، فأنا أعيدك بالله أن تكون النخس الذي يلقاها فتفرق بينهما .
 (١٥ - قصص - رابع)

٩٧ - وَارْتَحَمْتُ لِلْعَاشِقِينَ *

قال الجاحظ ^(١) : ذُكِرْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِ لِتَأْدِيبِ بَعْضِ وَلَدِهِ ، فَلَمَّا رَأَى اسْتَبْشَعَ مَنْظَرِي ، فَأَمَرَ لِي بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ وَصَرَفَنِي .

وخرجتُ من عنده ، فلقيتُ محمد بن إبراهيم وهو يُريدُ الانصرافَ إلى مدينة السلام ، فعرض عليّ الخروجَ معه ، والانحدارَ في حرّاقته ^(٢) ، فركبنا فيها ، فلما أتينا قَمَ نَهْرَ الْقَاطُولِ ^(٣) ، وخرجنا من سَامُرَا ^(٤) نَصَبَ سِتَارَتَهُ ، وأمر بالفناء ، فاندفعتُ عَوَادَةَ فغنت :

كَلُّ يَوْمٍ قَطِيعَةٌ وَعَتَابُ
يَنْقُضِي دَهْرَنَا وَنَحْنُ غَضَابُ
لَيْتَ شِعْرِي أَنَا خُصِمْتُ بِهِذَا
دُونَ ذَا الْخَلْقِ أَمْ كَذَا الْأَحْبَابُ !
وَسَكَّتْ ، فَأَمَرَ الطَّنْبُورِيَّةُ فغنت :

وَرَا حَتْمًا لِلْعَاشِقِينَ مَا إِنْ أَرَى لَهُمْ مُعِينًا !
كَمْ يَهْجَرُونَ وَيُصْرَمُونَ نَ وَيُقَطَّعُونَ فَيَصْبِرُونَ !

* المسعودي : ٢ - ٣٧٨ ، نهاية الأرب : ٢ - ١٩٥ .

(١) هو أبو عثمان عمرو بن بحر ، وعرف بالجاحظ لجحوظ عينيه ، كان إمام الأدباء في العصر العباسي ، وله أساليب ومذاهب وآراء في الأدب واللغة ، خاصة به ، ومؤلفاته كثيرة ، وتوفي سنة ٢٥٥ هـ (٢) الحرافقة : نوع من السفن (٣) القاطول : نهر يتفرع من دجلة ، حفره الرشيد (٤) بلد على نهر دجلة بناه المعتصم سنة ٢٢١ هـ ، حينما ضاقت بغداد بأهلها .

فَقَالَتْ هَذِهِ الْعَوَادَةُ : فَيَصْنَعُونَ مَاذَا ؟ قَالَتْ : هَكَذَا يَصْنَعُونَ ، وَضَرَبَتْ
بِيَدِهَا إِلَى السَّتَارَةِ فَهَتَكَتْهَا ، وَبَرَزَتْ كَأَنَّهَا فَلَقَةٌ قُرْ ، فَزَجَّتْ بِنَفْسِهَا إِلَى الْمَاءِ ،
وَعَلَى رَأْسِ مُحَمَّدٍ غِلَامٌ يُضَاهِيهَا فِي الْجَمَالِ ، وَبِيَدِهِ مِذْبَةٌ ، فَأَتَى الْمَوْضِعَ ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا ،
وَهِيَ تَمْرَةٌ بَيْنَ الْمَاءِ ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَنْتِ الَّتِي غَرَّقْتَنِي بَعْدَ الْقَضَا لَوْ تَعْلَمِينَا
وَزَجَّ بِنَفْسِهِ فِي أَنْرِهَا ، فَأَدَارَ الْمَلَّاحُ الْحَرَاقَةَ ، فَإِذَا بِهِمَا مُعْتِنَقَانِ ، ثُمَّ غَاصَا
فَلَمْ يَرُيا !

فَهَالِ مُحَمَّدًا ذَلِكَ وَاسْتَعْظَمَهُ وَقَالَ : يَا عَمْرُو ، لَتَحْدِثَنِي حَدِيثًا يُسَلِّينِي عَنْ فَقَدِ
هَذَيْنِ ؛ وَإِلَّا أَلْحَقْتُكَ بِهِمَا .

فَحَضَرَنِي حَدِيثُ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، وَقَدْ قَعَدَ الْمَظَالِمَ ، وَرُضَتْ عَلَيْهِ
الْقِصَصُ ، فَفَرَّتْ بِهِ قِصَّةٌ فِيهَا : « إِنْ رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - أَنْ يَخْرُجَ
جَارِيَتُهُ فَلَانَةٌ حَتَّى تَفْنِيَنِي ثَلَاثُ أَصْوَاتٍ فَعَلَّ » ؛ فَاعْتَظَ يَزِيدُ ، وَأَمَرَ مَنْ يَخْرُجُ
إِلَيْهِ ، وَيَأْتِيهِ بِرَأْسِهِ ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يَتَّبِعَ الرَّسُولَ بِرَسُولٍ آخِرٍ بِأَمْرِهِ أَنْ يُدْخِلَ إِلَيْهِ
الرَّجُلَ ؛ فَلَمَّا وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ قَالَ لَهُ : مَا الَّذِي حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : الثَّقَةُ
بِحِمْلِكَ ، وَالْاِتِّكَالُ عَلَى عَفْوِكَ . فَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ أَحَدٌ مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ
إِلَّا خَرَجَ ، ثُمَّ أَمَرَ فَأَخْرَجَتْ الْجَارِيَةُ وَمَعَهَا عَوْدُهَا ، فَقَالَ لَهَا الْفَتَى غَنَى :

أَفَاطَمُ مَهَلًا بَعْضُ هَذَا التَّدَلُّلِ وَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَرْمَعْتَ صَرْمِي فَأَنْجِلِي
فَمَنْتَهُ ، فَقَالَ لَهُ يَزِيدُ : قُلْ ، قَالَ : غَنَى :

تَأَلَّقَ الْبَرْقُ نَجْدِيًّا فَقُلْتَ لَهُ يَا أَيُّهَا الْبَرْقُ ؛ إِنْ عِنْدَكَ مَشْغُولٌ

فَنَتَتْهُ ، فَقَالَ : قُلْ ، قَالَ : تَأْمُرُنِي بِرُطْلٍ خَرُّ ، فَمَا اسْتَمْتُمْ شَرَابَهُ حَتَّى وَثَبَ
وَصَدَّ عَلَى أَعْلَى قَبَةِ لِيَزِيدَ ، فَرَمَى بِنَفْسِهِ عَلَى دِمَاعِهِ فَمَاتَ !
فَقَالَ يَزِيدُ : إِنْ أَلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ! أَتَرَاهُ الْأَحَقَّ الْجَاهِلُ ظَنُّ أَنِّي أَخْرَجْتُ
إِلَيْهِ جَارِيَّتِي وَأَرَدْتُهَا إِلَى مَالِي ، يَا غُلَامَانِ : خَذُوا بِيَدَيْهَا ، وَاحْمِلُوهَا إِلَى أَهْلِهَا إِنْ كَانَ
لَهُ أَهْلٌ ، وَإِلَّا فَبَيْعُوهَا وَتَصَدَّقُوا بِشَمَنِهَا عَنْهُ .
فَانْطَلَقُوا بِهَا ، فَلَمَّا تَوَسَّطَتِ الدَّارَ ، نَظَرَتْ إِلَى حُفْرَةٍ فِي دَارِ يَزِيدَ قَدْ أُعِدَّتْ
لِلطَّرِ ، فَجَذِبَتْ نَفْسَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ ، وَأَنْشَأَتْ تَقُولُ :
مَنْ مَاتَ عِشْقًا فَلَيْمَتْ هَكَذَا ! لَا خَيْرَ فِي عِشْقٍ بِلَا مَوْتٍ
ثُمَّ رَجَّتْ بِنَفْسِهَا عَلَى دِمَاعِهَا فَمَاتَتْ .
فَسَرَى عَنْ مُحَمَّدٍ ، وَأَحْسَنَ صَلَاتِي .

٨٠ - الله يعلم أننى كمد *

قال أبو العباس المبرد^(١) : دخلتُ فى حدثتى أنا وصديق لى من أهل الأدب إلى دِيرٍ لَنَنْظُرَ إلى مجانين وُصِفُوا لنا فيه ، فرأيتُ منهم عجائب ، حتى انتهينا إلى شاب جالس حَجَرَةً^(٢) منهم ، نظيف الوجه والثياب على حصير نظيف ، بيده مرآة ومُشط وهو ينظر فى المرآة ، ويُسَرِّحُ لحيته ، فقالت : ما يُقَمِّدُك ها هنا وأنت مُباين^(٣) لهؤلاء ؟ فرفع طَرَفًا وأمال آخر وأنشأ يقول :

الله يعلم أننى كمد لا أستطيعُ أبثُ ما أجدُ
نَفْسَانِ لى : نفس تَضُمُّهَا بلد وأخرى حازها بلدُ
وأرى المقيمةَ ليس ينفعُها صبر ولا يقوى لها جلدُ
وأظنُّ غائبى كشاهدتى فكانها تجدُ الذى أجدُ

فقلت له : أراك عاشقًا . قال : أجل ، قلت : لِمَنْ ؟ قال : إنك لسئول ! قلت : محسنٌ إن أخبرت . قال : إنَّ أبى عقد لى على ابنة عمِّ لى فتوفى قبل أن تُزَفَّ إلىَّ ، وخلف لى مالا عظيمًا ، فقبض عمى على جميع المال ، وحَبَسَنِ فى هذا الدَّيرِ ، وزعم أنى مجنون ، وقِيمُ الدار فى خلال ذلك يقول لنا : احذروه فإنه الآن يتغير . ثم قال لى : بالله أنشدنى شيئًا ، فإنى أظنك من أهل الأدب ، فقلت : لرفيقى :

* أمالى الدجاجى : ١٠٥ ، نهاية الأرب : ٢ - ١٩٠

(١) هو أبو العباس محمد بن يزيد ، كان فى عصره شيخ أهل النحو والعربية ، وإليه انتهى علمهما ، وكان قوى الذاكرة حسن العبارة ، فصيح اللسان ، توفى سنة ٢٧٥ هـ (٢) حجرة : فاحية . (٣) مباين : مغاير .

أنشده فأنشأ يقول :

قبلتُ فاما على خوفٍ مُحَالَسَةٍ كقابس النار لم يشمر من العجل
ماذا على رصد^(١) في الدار لو غفلوا عنى فقبلتها عشراً على مهـل
غضّي جفونك عنى وانظري أُمّاً^(٢) فإنما افتضح العشاق بالمقل

فقال لى : أبو من أنت ؟ جعلت فداك ! فقلت : أبو العباس ، قال : يا أبا العباس : أنا وهذا الفتى فى طرفين ؛ هذا مجاور من يهواه ، مستقبل لما يناله منه ، وأنا ناء مقصى ، فبالله أنشدنى أنت شيئاً ، فلم يحضرنى غير قول ابن أبى ربيعة :

قالت سَكِينَةُ والدموعُ ذوارفٌ تجرى على الخدين والجلباب :
ليت المغيرة الذى لم أجزه فيما أطال تصبّرى وطلابى
كانت تردّ لنا المنى أيا منّا إذ لا ألام على هوى وتصابى
خبرتُ ما قالت فبت كائنا يرعى الحشا بصوائب النشاب
أسكن ما ماء الفرات وطيبه منى على ظمأٍ وحبّ شراب
بالذم منك وإن نابتِ وقلما يرعى النساء أمانة الغياب

ثم قلت له : أنشدنا شيئاً آخر ، فأنشأ يقول :

أبى لى أيها الطللُ عن الأحباب ما فعلوا
ترى ساروا ؟ ترى نزلوا بأرض الشام أو رحلوا ؟

فقال له رفيقى - مجوناً ولعباً : ماتوا ، فقال : ويلك ! ماتوا ؟ فقال : نعم ! ماتوا ، فاضطرب واحمرت عيناه ، فجعل يضرب برأسه الأرض ، ويقول : ويلك ! ماتوا ؟ حتى هالنا أمره ، وانصرفنا عنه ، ثم عدنا بعد أيام فسالنا عنه صاحب الدير ، فقال : مازالت تلك حاله إلى أن مات .

(١) الرصد : الراسدون ، أى المراقبون . (٢) الأمم : اليسير .

٨١ — فى دار المجانين *

قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد : ذُكرت للمتوكل منازعة جرت بينى وبين الفتح بن خاقان فى تأويل آية ، وتنازع الناس فى قراءتها ، فبعث إلى محمد ابن القاسم — وكانت إليه البصرة ، فحملنى إليه مكرماً .

فلما اجتزْتُ بناحية النعمان بين واسط وبغداد ، ذُكر لى أن بدير هرقل جماعة من المجانين يعالجون ، فلما حاذَيْتُهُ دَعَتْنى نفسى إلى دخوله ؛ فدخلته ومعى شابٌ ممن يُرْجَعُ إليه فى دينٍ وأدبٍ ، فإذا أنا بمجنون من المجانين قد دنا إلى ؛ فقلت : ما يُعَدُّك بينهم ، وأنت بائسٌ عنهم ؟ فكسر جفنه ورفع عَقِيرَتَهُ ^(١) وأنشأ يقول :

إِنْ وَصَّفُونى فَنَاحِلُ الجَسَدِ أَوْ قَتَشُونى فَأَيُّضُ الكَبَدِ
أَضَعَفَ وَجدى وزاد فى سَقَمى أَنْ لَسْتُ أَشْكو الهوى إلى أَحَدِ
وَضَعْتُ كفى على فَوَادى مِنْ حَرِّ الأَسَى ، وانطويت فوق يَدَى
أَهٍ مِنْ الحب آهٍ مِنْ كَبَدِ إِنْ لَمْ أَمِتْ فى غَدٍ فَبَعْدَ غَدِ
كَأَنَّ قَلْبى إِذَا تَذَكَّرَهُم فَرِيْسَةٌ بَيْنَ سَاعِدَيْ أُسْدِ
فَقُلْتُ : لَقَدْ أَحْسَنْتَ ، اللَّهُ دَرَكُ ! زِدْنى ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

مَا أَقْتُلُ البَيْنَ لِلنَّفُوسِ ! وَمَا أَوْجَعُ فَقْدَ الحَبِيبِ لِلْكَبَدِ !
عَرَضْتُ نَفْسى مِنَ البَلَاءِ لَمَّا أَسْرَفْتُ فى مُهْجَتى وَفى جِلْدِى
يَا حَسْرَتى أَنْ أَمُوتَ مَعْتَقِلاً بَيْنَ اعْتِلَاجِ الهمومِ وَالْكَدِ

* المسمودى : ٢ - ٣٨١ .

(١) العقيرة : الصوت .

فقلت : أحسنت ، لا فضَّ فوك ! زدنى ، فأنشأ يقول :

الله يعلم أنى كد لا أستطيع أثبت ما أجد
نفسان لى : نفس تضمَّنها بلدٌ وأخرى حازها بلدٌ
وأرى المقيمة ليس ينفعها صبرٌ ؛ وليس يُعينها جلدٌ
وأظنُّ غائبتي كشاهدتى فكانها تجدُ الذى أُحِدُ

فقلت : والله لقد أحسنت . فاستزدته ، فقال : أراك كلما أنشدتك استزدتني ، وما ذاك إلا لفرط أدب ، وفراق شجن ، فأنشدني أنت أيضاً ، فقلت للذى معي : أنشده ؛ فأنشد يقول :

عذلٌ وبينٌ وتوديعٌ ومُرٌّ تحمل أى العيون على ذاليس تنهمل ؟
تا الله ماجلدى من بعدهم جلدٌ ولا اختزان دموعى عنهم بُخل
وددت أن البحار السبع لى مدد وأن جسمى دموعٌ كلها همـل
وأن لى بدلا من كل جائحةٍ فى كل جارحة يوم النوى مُقل
لا درّ درّ النوى لو صادفت جبلاً لانهدّ منها وشيكاً ذلك الجبلُ
الهجر والبين والواشون والإبل طلائعٌ يترامى أنها الأجلُ

فقال الجنون : أحسنت ! وقد حضرني فى معنى ما أنشدت إلى شعراً ، أفأنشده ؟ قلت : هات ؛ فأنشأ يقول :

ترحلوا نم نيطت دونهم سُجفٌ لو كنت أملككم يوماً لما رحلوا
يا حادى العيس ، مهلاً كي نودعها رفقاً ؛ قليلاً ؛ فى توديعها الأجلُ

ماراعنى اليوم شىء غيرُ فقدم حتى استقلت وطلال الدهر ، ما فعلوا
 فقال الفتى الذى معى : ماتوا ، فقال المجنون : آه ، آه ! إن ماتوا فسوف أموت ؛
 وسقط ميتاً ، فما برحتُ حتى غُسلَ وكفنَ ؛ وصليت عليه ودفنته .
 ووردتُ سرّاً من رأى ، فأدخلت على المتوكل ؛ فسئلت عن بعض ما وردتُ له
 فأجبت ، وبين يدى المتوكل البحترى الشاعر ؛ فابتدأ ينشده قصيدة يمدحه بها ،
 وفى المجلس أبو العنبس الصيمرى ^(١) ، فأنشد البحترى :

عن أنى نفرٍ تبسمُ وبأى طرفٍ تحتكمُ
 حسنٌ يضىء بحسنه والحسن أشبه بالكرم
 يابانى المجد الذى قد كان قوُصَ فأنهدم
 اسلمَ لدين محمدٍ فإذا سلمت فقد سلم
 نلنا الهدى بعد العمى بك والغنى بعد العدم

فلما انتهى مشى القهقرى للانصراف ، فوثب أبو العنبس ؛ فقال : يا أمير
 المؤمنين ؛ تأمر برده ؛ فقد - والله - عارضته فى قصيدته هذه !

فأمر برده ، فأخذ أبو العنبس ينشد :

من أى سَلَحٍ تلتفم وبأى كَفٍ تلتطم
 أدخلت رأس البحترى أبى عبادة فى الرّحِم

(١) محمد بن إسحاق بن إبراهيم الصيمرى ، نديم المتوكل ، كان أديباً ظريفاً عازفاً بالنجوم شاعراً
 هجاء ، وهو من أهل الكوفة ، ولى قضاء الصيمرة فنسب إليها . توفى سنة ١٧٥ هـ .

ووصل ذلك بما أشبهه من الشَّتم ، فضحك المتوكل حتى استلقى على قفاه ،
 وحُص برجله اليسرى ، وقال : يُدفع إلى أبي العنْبَس عشرة آلاف درهم ؛
 فقال الفتح : ياسيدى ، البحترى الذى هُجى وأُسمع المكروه ينصرف خائباً !
 قال : ويُدفع إلى البحترى عشرة آلاف درهم ؛ قال : ياسيدى ، وهذا البصرى
 الذى أشْخَصناه من بلده لا يشركهم فيما حَصَلوه ؟ قال : ويدفع إليه عشرة
 آلاف درهم ! فانصرفنا كلنا فى شفاعة الهزل ، ولم ينفع البحترى جدُّه واجتهاده
 وحزْمه .

ثم قال المتوكل لأبي العنْبَس : أخبرنى عن حارك ووفاته ، وما كان من شعره
 فى الرؤيا التى رأيتها ! قال : نعم يا أمير المؤمنين ؛ كان أعقل من القضاة ، ولم
 يكن له جرْية ولا زَلَّة ، فاعتلَّ على غفلة ، فمات منها ، فرأيتُه فيما يرى النَّائم
 فقلت له : يا حمارى ؛ ألم أُبرِّد لك الماء ، وأنقَّ لك الشعير ، وأحسن إليك
 جهدى ؟ فلم متَّ على غفلة ! وما خبرك ؟ قال : نعم ! لما كان فى اليوم الذى
 وقفت على فلان الصَّيْد لانى تُكَلِّمُه فى كذا وكذا ، مرّت بى أتان
 حسناء ، فرأيتها فأخذت بمجامع قلبى ؛ فعشقها واشتدَّ وجدى بها ، فمت كذا
 متأسفاً . فقلت له : يا حمارى ؛ فهل قلت فى ذلك شعراً ؟ قال : نعم ،
 وأنشدنى :

هـام قلبى بأتانٍ عند باب الصَّيْد لانى
 تيمِّنى يوم رُحنا بثناياها الحسان

وَبَخَذَ ذِي دَلَالٍ مِثْلَ خَدِّ الشَّنْفَرَانِ
فَبِهَامَتِ وَلَوْ عَشْرَتِ إِذْنِ طَالِ هَوَانِ

فقلت : يا حمارى ؛ فما الشنفرانى ؟ فقال : هذا من غريب الخير ؟ فطرب
المتوكل وأمر الملهين والمغنين أن يغنّوا ذلك اليوم بشعر الجمار ، وفرح فى ذلك اليوم
فرحاً وسروراً لم ير مثله ، وزاد فى تكرمه أبى العنّيس وجأزته .

٨٢ — عتاب *

قال أبو الحسن البتّاء .

بيننا أنا وصديق لي من قُرَيْشٍ نمشي بالبلّاط ^(١) ليلاً ، إذا بظُلِّ نِسْوةٍ في القمر ؛ فسمعتُ إحداهن تقول : أهو هو ! فقالت لها أخرى معها : إى والله إنه لهو هو ! فدنت مني ثم قالت : يا كهلُ ، قل لهذا الذى معك :

ليست لياليك في خَاخٍ ^(٢) بعائدةٍ كما عهدتَ ولا أيام ذِي سَلَمٍ ^(٣)

فقلت : أجب فقد سمعت . فقال : قد والله قُطِعَ بى وأُرْتِجَ على فأجب عني ، فقلت :

فقلت لها : يا عزّ كلِّ مصيبةٍ إذا وطّنت يوماً لها النفسُ ذَلَّتْ

ثم مضينا حتى إذا كنّا بمفرّق طريقين مضى الفتى إلى منزله ، ومضيتُ إلى منزلي ، فإذا أنا بجُؤَيْرِيةٍ تجذب ردائي ، فالتفتُ ، فقالت لي : المرأة التي كلمتها تدعوك ، فمضيتُ معها حتى دخلتُ داراً واسعة ، ثم صرتُ إلى بيتٍ فيه حصيرٌ ، وقد ثلّتُ لي وسادة فجلستُ عليها . ثم جاءت جاريةٌ بوسادةٍ مثنّيةٍ فطرحتها ، ثم جاءت المرأة فجلستُ عليها ، فقالت لي : أنت الحبيب ، قلتُ : نعم ، قالت :

* الأغانى : ٢ - ٥٨

(١) البلّاط : مكان بالمدينة

(٢) موضح يقال له : روضة خاخ بين الحرمين .

(٣) ذو سلم : موضح .

ما كان أَوْفَى جَوَابِكَ وأَغْلَظَهُ ! فقلت لها : ما حضرني غيرُهُ ، فسَكَتَتْ ، ثم قالت : لا ، والله ما خلق اللهُ خَلْقًا أَحَبَّ إلى من إنسان كان معكَ ! فقلت لها : أنا الضامِنُ ، لكِ عنه ما تحبِّين ، فقالت : هيهات أن يقعَ بذلك وفاء ! فقلت : أنا الضامِنُ وعلى أن آتيكَ به في الليلة القابلة .

فانصرفْتُ فإذا الفتى بِيَابِي ، فقلت : ما جاء بك ! قال : ظننتُ أنها سترسلُ إليكَ ، وسألتُ عنكَ فلم أعرف لك خبراً ، فظننتُ أنك عندها ، فجلستُ أنتظرُكَ ، فقلت له : وقد كان الذي ظننتُ ، وقد وعدتُها أن آتيكَ فأَمِضِي بك إليها في الليلة المقبلة .

فلما أصبحنا تهيأنا وانتظرنا المساء ، فلما جاء الليلُ رحلنا إليها ، فإذا الجاريةُ منتظرةٌ لنا ، فضمتُ أماننا حين رأتنا حتى دخلتُ تلك الدار ودخلنا معها ، فإذا رائحةٌ طيبة ومجلسٌ قد أُعِدَّ ونُضِدَّ ، فجلسنا على وسائدٍ قد بُدِئَتْ لنا ، وجلستُ ملياً ثم أقبلتُ عليه ، فعاتبتهُ ثم قالت :

وأنتَ الذي أخلفتني ما وعدتني وأشمتَ بي مَنْ كان فيكَ يَومُ
وأبرزتني للناسِ ثم تركتني لهم غَرضاً أرمتي وأنتَ سليمُ
فلو كان قولُ يَسْكُلمُ الجِلْدَ قد بدا بِجِلْدِي من قولِ الوشاةِ كُلوْمُ
ثم سَكَتْ وسَكَتَ الفتى هُنيئةً ثم قال :

عَدَرْتُ ولم أَغْدِرْ وخُنْتُ ولم أَخُنْ وفي بعضِ هذا للمحبِّ عزاءُ
جزيتُكَ ضعفَ الوُدِّ ثم صرمتُني لِحُبِّكَ من قلبِي إليك أداءُ^(١)

(١) أداء نادية : أوصله وقضاه ، والاسم الأداء .

فالتفتت إلى فقالت : ألا تسمع ما يقول ! قد خبّرتك ، ففمّزته أن كُفّ
فكفّ ، ثم أقبلت عليه وقالت :

تجاهلت وصلى حين جدّت^(١) عمّايّتي فهلا صرمت الحبل إذ أنا أبصرُ
ولى من قوى الحبل الذى قد قطعته نصيبٌ وإذ رأيت جميعٌ موفّرُ
ولكنما آذنت بالصّرم بفتنة ولست على مثل الذى جئت أقدرُ

فقال :

لقد جعلت نفسى - وأنت اجترمتى وكنت أعزّ الناس - عنك تطيبُ
فبكّت ، ثم قالت : أوقد طابت نفسك ! لا ، والله ما فيك بعدها
خيرٌ ، ثم التفتت إلى وقالت : قد علمت أنك لا تبنى بضمانك ، ولا
ينى به عنك .

(١) جذبته الأمر : اشتد ، والمباية : النواية والفضال .

٨٣ — يا غريب الدارِ عن وطنه *

قال جماعةٌ من أهل البصرة : خرجنا نريدُ الحج ، فلما كنا ببعض الطريق إذا غلام واقفٌ على الحجّة^(١) ، وهو ينادى : أيها الناس ؛ هل فيكم أحدٌ من أهل البصرة ؟ فلما إليه وقلنا له : ما تريد ؟ قال : إن مولائى لما به يريدُ أن يُوصيكم ، فلينا معه ، فإذا شخص ملقًى على بُعد من الطريق تحت شجرةٍ لا يحيرُ جواباً ، فحسنا حواله ، فأحسن بنا ، ورفع طرفه وهو لا يكاد يرفعه ضعفاً ، وأنشأ يقول :

يا غريب الدار عن وطنه مُفرداً يبكي على شجته
كلما جدَّ البُكاء به دبَّتِ الأسقامُ في يده

ثم أغمى عليه طويلاً ؛ وإنا لجلوس حوله إذ أقبل طائر ، فوقع على أعلى الشجرة ، وجعل يُغرّد ، ففتح الفتى عينيه ، وجعل يسمع تغريد الطائر ثم قال :

ولقد زاد الفؤاد شجى طائر يبكي على فننه
شفه ماشقنى فبكى كلُّنا يبكى على سكه

ثم تنفس تنفساً فاظت نفسه منه ، فلم نبرح من عنده حتى غسلناه وكفناه ، وتولينا الصلاة عليه ، فلما فرغنا من دفنه سألنا الغلام عنه ، فقال : هذا العباس ابن الأحنف !

* السعوى : ١ - ٢٨٥ ، ثار الأزهار : ٨٢ .

(١) الحجّة : جادة الطريق ، والجادة معظم الطريق (٢) كان العباس بن الأحنف عربياً شريف النسب ، لم يتكسب بالشعر ، وإنما ينظم ما يهيش في خاطره ، وأكثره في الغزل ، ولم يتجاوزهُ إلى مدح أو هجاء ، وكان له مذهب حسن ، ولد يابجة شعره رونق ، ولعماليه عذوبة واطف ، توفي سنة ١٩٢ هـ .

البَابُ الثَّالِثُ

في القصص التي تحتج لما اتصفوا به من شدة
الغيرة على الحریم، وبالغ المخافة من التهمة، إغلاء بالشرف
وضمناً لوفرة المرض، وما جرّه بعض ذلك من إزهاق
الأرواح وسفك الدماء، درءاً للظنّة، واتقاءً للسمعة.

٨٤ — لا أحد أذلّ من جدّيس *

كانت منازل طسّم في موضع اليمامة^(١)، وكان يملكهم عَمَلِيق، وكانت معهم جدّيس، ولكنّ عمليقاً في أول مملكته قد تَمَادَى في الظُّلْم والغشْم^(٢) والسيرة بغير الحق.

وكانت امرأة من جدّيس يقال لها هُزَيْلَة، ولها زوج يُقال له مَاشِق، فطلّقها وأراد أخذَ ولدها منها، فخاصّمته إلى عَمَلِيق، فقالت: يا أيها الملك؛ إني حملته تسعاً، ووضعيّه دَفْعاً، وأرضعته شَفْعاً؛ حتى إذا تَمَّتْ أوصاله، ودنا فِصّاله، أراد أن يأخذه مني كَرْهاً، ويتركني من بعده ورّهاً^(٣).

فقال لزوجها: ما حِجَّتْكَ؟ قال: حُجَّتِي أيها الملك أني قد أعطيتها المهر كاملاً، ولم أصب منها طائلاً، إلا وليداً خاملاً، فافعل ما كنت فاعلاً. فأمر بالفلام أن يُنزع منها جميعاً ويجعل في غِلْمَانِه. فقالت هُزَيْلَة:

أَتَيْنَا أَخَا طَسْمَ لِيُحْكَمَ بَيْنَنَا فَأَنْقَذَ حَكماً فِي هُزَيْلَة ظالماً
لِعَمْرِي لَقَدْ حُسِّمْتُ لَامْتُورَعاً وَلَا كُنْتُ فِيمَا يُبْرِمُ الْحُكْمَ عالماً
نَدِمْتُ وَلَمْ أُنْدَمْ وَأَنْتَى لَعَنَتِي وَأَصْبَحَ بَعْلِي فِي الْحُكُومَةِ نادماً

فلما سمع عَمَلِيق قولها أمر ألا تزوّج بكرّاً من جدّيس وتهدى إلى زوجها

* مذهب الأغاني: ١ - ١، ابن الأنبار: ١ - ٢٣، الخزائن: ٢ - ٢٣٥.

(١) اليمامة: بلاد «دون المدينة في وسط الشرق عن مكة على ست عشرة مرحلة من البصرة

(٢) الغشْم: الظلم (٣) وره كفرح: حق.

(٢) الغشْم: الظلم

حتى يراها هو قبل زوجها ، فلقوا من ذلك بلاءً وجهداً وذللاً ، فلم يزل يفعل هذا حتى زوجت الشُّمُوس ، فلما أرادوا حملها إلى زوجها انطلقوا بها إلى عمليق ومعها القيان يتغنين :

ابدىْ بعمليق وقومي فاركي وبادري الصبح لأمرٍ مُعجب
فسوف تلقينَ الذي تطلبي وما ليكبرِ عنده من مهرَبِ

فدخلت عليه ، ثم خلى سبيلها ، فخرجت إلى قومها شاقَّةً درعها وهي في أقبح منظر ، وهي تقول :

لا أحدٌ أذلُّ من جدِّيس أهكذا يُفعلُ بالعُرُوسِ !
يرضى بهذا بالقومي حرٌّ أهدى وقد أعطى وسيقَ المهر
لأخذة الموت كذا لنفسه خيرٌ من أن يُفعلَ ذا بعِرسِه

وقالت - تخرِّص قومها فيما أتى إليها :

أَيجْمَلُ ما يؤتى إلى فتياتِكُم وأنتمُ رجالٌ فيكم عددُ النمل
وتصبحُ تمشي في الدماء عُفيرةٌ عشية زُفَّتْ في النساءِ إلى بعلِ
ولو أننا كنَّا رجالاً وكننمُ نساءً لكننا لا نُقرُّ بهذا الفعلِ
فموتوا كراماً أو أميتوا عدوَّكم ودبُّوا النارَ الحربِ بالحطبِ الجزلِ^(١)
وإلا فخلُّوا بطنها ، وتحمَّلوا إلى بلادٍ قفرٍ وموتوا من الهزل
فللبين خيرٌ من تمارٍ على أذى وللموتُ خيرٌ من مقامٍ على الذلِّ
وإن أنتم لم تنضبوا بعد هذه فكونوا نساءً لاتعاب من الكحل

(١) الحطب الجزل : اليابس ، أو الغليظ العظيم منه .

ودونكم طيبُ العَرُوسِ فَإِنَّمَا خُلِقْتُمْ لِأَثْوَابِ العَرُوسِ وَلِلنَّسْلِ
فَبُعْدًا وَسُحْقًا لِلَّذِي لَيْسَ دَافِعًا وَيَحْتَالُ يَمْشِي بَيْنَنَا مِشْيَةَ الْفَحْلِ

فَلَمَّا سَمِعَ أَخُوهَا الْأَسْوَدَ — وَكَانَ سَيِّدًا مَطَاعًا — قَالَ لِقَوْمِهِ : يَا مَعْشَرَ
جَدِيسَ ، إِنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَيْسُوا بِأَعَزَّ مِنْكُمْ فِي دَارِكُمْ إِلَّا بِمَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ صَاحِبِهِمْ
عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمْ ، وَلَوْلَا عَجْزُنَا وَإِدْهَانُنَا ^(١) مَا كَانَ لَهُ فَضْلٌ عَلَيْنَا ، وَلَوْ امْتَنَعْنَا
لَكَانَ لَنَا مِنْهُ النِّصْفُ ^(٢) ، فَاطْمِئِنُّوْنِي فِيمَا أَمَرَكُم بِهِ ؛ فَإِنَّهُ عَزَّ الدَّهْرُ ، وَذَهَابُ ذُلِّ
الْعَمْرِ ؛ وَاقْبَلُوا رَأْيِي .

وَقَدْ أَحْمَى جَدِيسًا مَا سَمِعُوا مِنْ قَوْلِهَا ، فَقَالُوا : نَطْعِمُكَ ، وَلَكِنَّ الْقَوْمَ
أَكْثَرُ وَأَنْجَحَى وَأَقْوَى . قَالَ : فَإِنِّي أَصْنَعُ لِّلْمَلِكِ طَعَامًا ثُمَّ أَدْعُوهُمْ لَهُ جَمِيعًا ،
فَإِذَا جَاءُوا يَرِفُلُونُ فِي الْحُلَلِ تُرْنَا إِلَى سَيُوفِنَا ، فَأَهْمَدْنَاهُمْ بِهَا . قَالُوا :
نَفْعَلُ .

وَصَنَعَ طَعَامًا كَثِيرًا ، وَخَرَجَ بِهِ إِلَى ظَهَرِ بَلَدِهِمْ ، وَدَعَا عَمَلِيْقًا وَسَأَلَهُ أَنْ يَتَفَدَّى
عِنْدَهُ هُوَ وَأَهْلُ بَيْتِهِ ، فَأَجَابَهُ إِلَى ذَلِكَ ؛ وَخَرَجَ إِلَيْهِ مَعَ أَهْلِهِ يَرِفُلُونَ فِي الْحُلَى
وَالْحُلَلِ ، حَتَّى إِذَا أَخَذُوا بِجَالِسِهِمْ ، وَمَدَّوْا أَيْدِيَهُمْ إِلَى الطَّعَامِ أَخَذُوا سَيُوفَهُمْ
مِنْ تَحْتِ أَقْدَامِهِمْ ، فَشَدَّ الْأَسْوَدُ عَلَى عَمَلِيْقٍ فَقَتَلَهُ ، وَكُلَّ رَجُلٌ مِنْهُمْ عَلَى جَلِيسِهِ
حَتَّى أَمَاتُوهُمْ ؛ فَلَمَّا فَرَّغُوا مِنَ الْأَشْرَافِ شَدُّوا عَلَى السَّفَلَةِ ، فَلَمْ يَدْعُوا مِنْهُمْ أَحَدًا ،
وَقَالَ الْأَسْوَدُ فِي ذَلِكَ :

ذَوْقِي بِبَغْيِكَ يَا طَسْمُ مَجَلَّةً فَقَدْ أَتَيْتَ لِعَمْرِي أَعْجَبَ الْعَجَبِ

(٢) النصفة: العدل في الأمور.

(١) الإدھان: إظهار خلاف ما يضرر، والغش

إنا أتينا فلم ننفك نقتلهم والبغى هيج منا سورة الغضب
ولن يعود علينا بغيهم أبداً ولم يكونوا كذى أنف ولا ذنب
وإن رعيم لنا قرّبي مؤكدة كئنا الأقارب في الأرحام والنسب

٨٥ — آبي الذل*

قال عمرو بن^(١) هند صاحب الحيرة يوماً لجلسائه : هل تعلمون أن أحداً من العرب من أهل مملكتي يأنف أن تخدم أمّه أمى ؟ قالوا : ما نعرفه إلا أن يكون عمرو^(٢) بن كلثوم التغلبي ، فإن أمّه ليلي بنت مهلهل بن ربيعة وعمها كليب ، وزوجها كلثوم ، وابنها عمرو ؛ فسكت عمرو على ما في نفسه ، وبعث إلى عمرو بن كلثوم يستزيّره ، ويأمره أن تزور أمّه ليلي أمّه هند بنت الحارث .

فقدم عمرو بن كلثوم في فرسان بني تغلب ، ومعه أمّه ليلي ، فنزل على شاطئ الفرات ، وبلغ عمرو بن هند قدومه ، فأمر فضربت خيامه بين الحيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته ، وصنع لهم طعاماً ، ثم دعا الناس إليه ، فقرب إليهم الطعام على باب السرداق ، وجلس هو وعمرو بن كلثوم وخواص أصحابه في السرداق ، وليلى أم عمرو بن كلثوم معها في القبة ، وقال عمرو لأمه : إذا فرغ الناس من الطعام ، ولم يبق إلا الطرف^(٣) فتحنى خدّمك عنك واستخدم ليلى ومريها

* ابن الأثير : ١ - ٢٣١ ، بلوغ الأرب : ٢ - ١٤٢

(١) عمرو بن هند : ملك الحيرة في الجاهلية ، عرف بنسبته إلى أمه هند . ويلقب بالحرن ، وهو صاحب صحيفة التلمس ، وقاتل طرفة بن العبد ، وكان شديد البأس ، كثير الفتك ، هاجته العرب وأطاعته القبائل . وتوفى سنة ٥٧٨ م

(٢) عمرو بن كلثوم : صاحب المعلقة المشهورة ، وينتهي نسبه إلى تغلب ، وكان فارساً شاعراً ، وهو أحد فتاك العرب ، ومات قبل الإسلام بنحو نصف قرن (٣) الطرف : جمع طرفة : ماتمطيه غيرك ، ويراد به ما يتنقل به بعد الطعام .

فلتُناولك الشيء بعد الشيء ؛ ففعلتْ هند ما أمرها به ابنُها ، فلما استدعى الطُّرف
قالت هند لليلي : ناوليني الطَّبَق ! قالت : لَتَقُمُ صاحبةُ الحاجة إلى حاجتها !
فألحَّت عليها ، فقالت ليلي : واؤلّاه يا آل تغلب ! فسمِعها ولدُها عمرو بن كلثوم ؛
فثار الدمُ في وجهه ؛ والقوم يشربون ، فعرف عمرو بن هند الشرَّ في وجهه ،
وثار ابنُ كلثوم إلى سيفِ ابن هند وهو معلق بالسُّرَّادق - وليس هناك سيفٌ
غيره - فأخذه ، ثم ضرب به رأسَ عمرو بن هند فقتله ، وخرج فنَادى يا آل تغلب !
فانتهبوا ماله وخيله ، وسَبَّوْا النساءَ وساروا فالحقوا بالحيرة^(١) .

(١) في هذه الواقعة قال عمرو بن كلثوم معاقته المشهورة :

ألا هي بصحنك فاصبحينا ولا تبقى خور الأندرينا

وقال فيها :

بأى مشيئة عمرو بن هند ترى أنا نكون الأردلينا
بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
تهددنا وتوعدنا رويداً متى كنا لأمك مقتوليننا

٨٦ — أَجَبَنُ النَّاسِ وَأَحِيلُ النَّاسِ وَأَشْجَعُ النَّاسِ *

دخل عمرو ^(١) بن معد يكرب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقال له عمر :
يا عمرو ؛ أخبرنى عن أشجع من أقيمت . فقال : والله يا أمير المؤمنين لأخبرنك عن
أجبن الناس وأحيل الناس ، وأشجع الناس : خرجت مرة أريد الغارة ، فبينما أنا
أسيرُ بفرس مشدودٍ ، ورُمحٍ مرَّ كوز ، وإذا رجلٌ جالس ، وهو كأعظم ما يكون
من الرجال خلقاً ، وهو مُحْتَبٍ بسيف .

فقلت له : خذ حذرَكَ فَإِنِ قَاتَلَكَ . فقال : ومن أنت ؟ قلت : أنا عمرو
ابن معد يكرب ، فشهِقَ شهقةً ، فمات . فهذا أجبنُ مَنْ رَأَيْتُ يا أمير المؤمنين .
وخرجتُ يوماً حتى انتهيتُ إلى حيٍّ ، فإذا أنا بفرسٍ مشدودٍ ، ورُمحٍ مرَّ كوز ،
وإذا صاحبه فى وَهْدَةٍ يقضى حاجة .

فقلت : خذ حذرَكَ فَإِنِ قَاتَلَكَ . قال : مَنْ أنت ؟ قلت : أنا عمرو بن
معد يكرب . قال : أبا ثور ^(٢) ، ما أنصفْتَنِي ! أَنْتَ على ظهرِ فرسِكَ ، وأنا فى بئر ،
فأعطني عهداً أنك لا تقتلنى حتى أركبَ فرسى ، وأخذَ حذرِي ؛ فأعطيته عهداً
ألا أقتله حتى يركب فرسه ، ويأخذ حذرَه .

* نهاية الأرب : ٢ - ١٧٦ ، الفرر : ٢٢٧

(١) عمرو بن معد يكرب : فارس مشهور صاحب وقائع مذكورة ، فى الجاهلية والإسلام . توفى
سنة ٢١ (٢) أبو ثور : كنية عمرو :

فخرج من الموضع الذى كان فيه ، حتى احتبى بسيفه وجلس . فقلت له :
ما هذا ؟ فقال : ما أنا براكب فرسى ، ولا بمقاتلك ، فإن نكثت عهدك فأنت
أعلم ، فتركته ومضيت .

فهذا يا أمير المؤمنين أحيل من رأيت !

ثم إنى خرجت يوماً آخر ؛ حتى انتهيت إلى موضع كنت أقطع فيه ، فلم أر
أحدًا ، فأجريت فرسى يمينًا وشمالًا ، فظهر لى فارس .

فلما دنا منى إذا هو غلام قد أقبل نحو اليمامة . فلما قرّب منى سلم ؛ فرددت
عليه وقلت : من الفتى ؟ قال : أنا الحارث بن سعد ، فارس الشهباء ^(١) ؛ فقلت له :
خذ حذرک ، فإنى قاتلك ، فقال : الويل لك ! من أنت ؟ قلت : أنا عمرو بن
معد يكرب . قال : الحقير الذليل ؟ والله ما يمنعنى من قتلك إلا استضعفارك ، فتصاغرت
نفسى إلى وعظم عندى ما استقبلنى به .

فقلت له : خذ حذرک ، فوالله لا ينصرف إلا أحدنا . قال : اغرب ^(٢) ،
ثكلتك أمك ! فإنى من أهل بيت ما نكلنا ^(٣) عن فارس قط ! فقلت . هو
الذى تسمع . قال : اختر لنفسك : إما أن تطرد ^(٤) لى ، وإما أن أطرِد لك ؛
فاغتنمتها منه ، فقلت : أطرِد لى . فأطرد ، وحملت عليه ، حتى إذا قلت : إنى وضعت
الرُمح بين كفتيه ، إذا هو قد صار حزامًا لفرسه ، ثم اتبعنى ، ففرع بالقناة رأسى ،
وقال : يا عمرو ؛ خذها إليك واحدة ، فوالله لولا أنى أكره قتل مثلك لقتلتك ؛

(١) الشهباء : علم على فرس (٢) اغرب : تنح

(٣) ما نكلنا : ما جبننا (٤) أطرِد الرجل : جعلته طريدًا لا يأمن .

فتصاغرت إلى نفسى ، وكان الموت - والله يا أمير المؤمنين - أحبَّ إلىَّ مما رأيت ،
فقلت : والله لا ينصرف إلا أحدنا ، فقال : اختر لنفسك ؛ فقلت : أطرد لى .

فأطرد لى ؛ فظننتُ أنى قد تمكّنتُ منه ، واتبعته حتى إذا قلت : إنى قد
وضعتُ الرمح بين كتفيه ؛ فإذا هو قد صار لَبِيًّا ^(١) لفرسه ، ثم اتبعنى ففرع رأسى
بالقناة ، وقال : ياعمرؤ ؛ خذها إليك ثانية . فتصاغرتُ إلى نفسى ؛ فقلت : والله
لا ينصرف إلا أحدنا .

فقال : اختر لنفسك . فقلت : أطرد لى . فَأُطْرِدَ حتى إذا قلت : إنى وضعتُ
الرمح بين كتفيه وثب عن فرسه ؛ فإذا هو على الأرض ؛ فأخطأته ومضيت .
فاستوى على فرسه ، واتبعنى ففرع بالقناة رأسى ، وقال : ياعمرؤ ؛ خذها إليك
ثالثة . ولولا أنى أكره قتلَ مثلك لقتلتُك .

فقلت له : اقتننى ، فإن الموت أحبَّ إلىَّ مما أرى بنفسى ، وأن تسمع فتیان
العرب بهذا . فقال : ياعمرؤ ؛ إنما العفو ثلاث ، وإنى إن استمكنت منك الرابعة
قتلتك وأنشأ يقول :

وَكَدْتُ أَغْلَاظًا مِنَ الْإِيمَانِ إِنْ عُدْتَ يَاعَمْرُؤَ إِلَى الطَّعَانِ
لَتَوْجِرَنَّ ^(٢) لَهَبَ السَّنَانِ ^(٣) أَوْلَا ، فَلَسْتُ مِنْ بَنَى شِيْبَانِ!

فلما قال هذا كرهتُ الموت ، وهبته هيمَةً شديدة ، وقلت : إن لى إليك
حاجة . قال : وما هى ؟ قلت : أكون لك صاحباً ، ورضيتُ بذلك يا أمير المؤمنين !

(١) اللبب : ما يشد فى صدر الدابة ليمنع استئخار الرجل (٢) أوجره الرمح : طعنه به فى فيه .
(٣) السنان : طرف الرمح .

قال : لست من أصحابي . فكان ذلك والله أشدَّ عليَّ وأعظمَ مما صنع .
فلم أزل أطلبُ إليه حتى قال : ويحك ! وهل تدري أين أريد ؟ قلت : لا .
قال : أريدُ الموتَ عياناً . فقلت : رضيتُ بالموتِ معك . فقال : امضِ بنا ؛ فسيرنا
جميعَ يومنا وليلتنا حتى جئنا الليل ، وذهبَ شطرُهُ .

فوردنا على حيٍّ من أحياء العرب ، فقال لي : يا عمرو ، في هذا الحي الموت .
ثم أومأ إلى قُبَّة في الحي ، فقال : وفي تلك القُبَّة الموتُ الأحمر ؛ فإما أن تمسك
عليَّ فرسي ؛ فأُنزل ، فأَتني بحاجتي ، وإما أن أُمسِكَ عليك فرسك ؛ فتُنزل فتأتني
بحاجتي . فقلت : لا ، بل انزل أنت ؛ فأنت أعرفُ بموضع حاجتك ؛ فرمى إليَّ
بعنان الفرس ونزل ، فرضيتُ لنفسي يا أمير المؤمنين أن أكون له سائساً .

ثم مضى حتى دخل القُبَّة ؛ فاستخرج منها جارية ، لم تر عيناى قط مثلها حسناً
وجالاً ؛ فحملها على ناقة ، ثم قال : يا عمرو . قلت : لبيك ! قال : عليك بزِمَامِ
الناقة .

وسرنا بين يديه ، وهو خلفنا حتى أصبحنا ، فقال لي : يا عمرو . قلت : لبيك !
ماتشاء ؟ قال : التفتُ ، فانظر هل ترى أحداً ؟ فالتفتُ ، وقلت : أرى جبالاً ،
قال : أغدَّ السير ^(١) ، ثم قال لي : يا عمرو . قلت : لبيك ! قال : انظر ، فإن كان
القوم قليلاً ، فالجلد والقوة والموت . وإن كانوا كثيراً فليسوا بشيء . فالتفتُ ،
فقلت : هم أربعة أو خمسة . قال : أغدَّ السير ، وسمع وقع الخيل ؛ فقال لي : يا عمرو ،

(١) أغدَّ السير : أسرع فيه .

قلت : لَبَّيْكَ ! قال : كُنْ عَلَى يَمِينِ الطَّرِيقِ ، وَقِفْ ، وَحَوِّلْ وَجْهَهُ دَوَابَّنَا إِلَى الطَّرِيقِ ؛ فَفَعَلْتُ ، وَوَقَفْتُ عَلَى يَمِينِ الرَّاحِلَةِ وَوَقَفَ هُوَ عَنْ يَسَارِهَا .

وَدَنَا الْقَوْمُ مِنْهَا ؛ فَإِذَا هُمْ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ فِيهِمْ شَيْخٌ ، وَهُوَ أَبُو الْجَارِيَةِ وَأَخْوَاهَا وَهِيَ غُلَامَانِ شَابَانِ ؛ فَسَلَّمُوا فَرَدَدْنَا السَّلَامَ ، وَوَقَفُوا عَنْ يَسَارِ الطَّرِيقِ .

فَقَالَ الشَّيْخُ : خَلِّ عَنْ الْجَارِيَةِ يَا بَنُ أَخِي ؛ فَقَالَ : مَا كُنْتُ لِأَخْلِيهَا ، وَلَا لِهَذَا أَخَذْتُهَا ؛ فَقَالَ لِأَصْغَرِ ابْنَيْهِ : أَخْرِجْ إِلَيْهِ ؛ فَخَرَجَ وَهُوَ يَجْرُ رَمَحَهُ ، وَحَمَلَ عَلَيْهِ الْحَارِثُ ، وَهُوَ يَقُولُ :

مِنْ دُونِ مَا تَرَجُّوهُ خَضْبُ الذَّابِلِ^(١) مِنْ فَارِسٍ مُسْتَعْتِمٍ^(٢) مُقَاتِلٍ ،
يُنْمِي إِلَى شَيْبَانَ خَيْرٍ وَائِلٍ مَا كَانَ سَيْرِي نَحْوَهَا بَيَاطِلٍ !
ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ ، فَطَعَنَهُ طَعْنَةً ، دَقَّ مِنْهَا صُلْبَهُ ؛ فَسَقَطَ مَيِّتًا .

فَقَالَ الشَّيْخُ لِابْنِهِ الْآخَرِ : أَخْرِجْ إِلَيْهِ يَا بَنِي ، فَلَا خَيْرَ فِي الْحَيَاةِ عَلَى الذَّلِّ ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ وَأَقْبَلَ الْحَارِثُ يَقُولُ :

لَقَدْ رَأَيْتَ كَيْفَ كَانَتْ طَعْنَتِي ! وَالطَّعْنُ لِلْقِرْنِ الشَّدِيدِ هِمَّتِي
وَالْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ فِرَاقِ خُلَّتِي فَقَتَلْتَنِي الْيَوْمَ وَلَا مَـذَلَّتِي !
ثُمَّ شَدَّ عَلَيْهِ ، فَطَعَنَهُ طَعْنَةً ، سَقَطَ مِنْهَا مَيِّتًا .

فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : خَلِّ عَنْ الظَّعِينَةِ^(٣) يَا بَنُ أَخِي ؛ فَإِنِّي لَسْتُ كَمَنْ رَأَيْتَ . قَالَ : مَا كُنْتُ لِأَخْلِيهَا وَلَا لِهَذَا قَصَدْتُ . فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ : اخْتَرْتُ يَا بَنُ أَخِي ، فَإِنْ شِئْتَ

(١) الذَّابِلُ : الْقِنَالُ الرَّقِيقُ ، وَيَقْصَدُ بِخَضْبِهِ نَحْسَهُ فِي الدِّمِ (٢) اسْتِعْلَامُ الْفَارِسِ : لِبَسُ اللَّأَمَةِ ؛ وَهِيَ الدَّرْعُ (٣) الظَّعِينَةُ : الْمَرْأَةُ مَا دَامَتْ فِي الْمَوْجِدِ .

طاردتك ، وإن شئت نازلتك ؛ فاعتنمها الفتى ونزل . ونزل الشيخ ، وهو يقول :

ما أرتجى بعد فناء عمري ؟ سأجعل السنين مثل الشهر
شيخ يحامى دون بيض الخدر ^(١) إن استباح البيض قضم الظهر
سوف ترى كيف يكون صبرى

فأقبل الحارث ، وهو يقول :

بعد ارتجالي وطويل سفري وقد ظفرت وشفيت صدري
والموت خير من لباس الغدر والعار أهديه لحي بكر

ثم دنا ، فقال له الشيخ : يا بن أخى ؛ إن شئت نازلتك ، وإن بقيت فيك
قوة ضربتنى ؛ وإن شئت فاضربنى ؛ فإن بقيت فى قوة ضربتك .

فاغتنمها الفتى ، فقال : وأنا أبدؤك . قال : هات . فرفع الحارث السيف ،
فلما نظر الشيخ أنه قد أهوى به إلى رأسه ، ضرب بطنه ضربة فقد معاه ، ووقعت
ضربة الحارث فى رأسه ؛ فسقطا ميتين .

فأخذتُ يا أمير المؤمنين أربعة أفراس ، وأربعة أسياف . ثم أقبلت إلى الناقة
فمعدتُ أعنة الأفراس بعضها إلى بعض وجعلت أقودها . فقالت الجارية : يا عمرو ؛
إلى أين ؟ ولست لى بصاحب ، ولست كمن رأيت ، ولو كنت صاحبى لسلكت
سبيلهم ! فقلت : اسكتى ؛ قالت : فإن كنت صادقاً فأعطني سيفاً ورحماً ؛ فإن
غلبتنى فأنا لك ، وإن غلبتك قتلتك .

(١) بيض الخدر : يريد به النساء .

فقلت لها : ما أنا بمعطيك ذلك ، وقد عرفت أصلك ، وجُرأة قومك وشجاعتهم ،
فرمت بنفسها عن البعير ، وهى تقول :

أَبَعَدَ مَا شَيْخِي وَبَعَدَ إِخْوَتِي أَطْلُبُ عَيْشًا بَعْدَهُمْ فِي لَذَّةٍ ؟
هَلْ لَا تَكُونُ قَبْلَ ذَا مَنِينِي ؟

وأهوت إلى الرَّمح ، فكادت تنزعه من يدي . فلما رأيت ذلك خفت إن
هى ظفرت بى أَنْ تقتلنى ، فقتلتها .

فهذا أشدُّ ما رأيته يا أمير المؤمنين . فقال عمر بن الخطاب : صدقت يا عمرو !

٨٧ — خَلَّ سَبِيلَ الْحُرَّةِ الْمَنِيعةِ *

خرج دُرَيْدُ^(١) بن الصَّمة في فوارس بني جُشَم يريد الغارة على بني كِنانة ،
فلما كان بؤادٍ لبني كِنانة رُفِع له رجلٌ من ناحية الوادي معه ظُعينة^(٢) . فلما
نظر إليه قال لفارسٍ من أصحابه : صَحَّ به أن خلَّ عن الظُعينة وانجُ بنفسك -
وهو لا يعرفه - فأتتهى إليه الرجل وألَحَّ عليه ؛ فلما أبى ألقى زمام الراحلة ، وقال
للظُعينة :

سِيرِي عَلَى رِسْلِكَ . سِيرِ الْآمِنِ سَيْرَ رَدَاحٍ^(٣) ذَاتِ جَاشٍ سَاكِنِ
إِنَّ انْتِنَائِي دُونَ قِرْنِي^(٤) شَائِنِي^(٥) أَبْلَى بِلَائِي وَاحْـبِرِي وَعَايِنِي

ثم حمل على الفارس فصرعه ، واخذ فرسه فأعطاه الظُعينة . فبعث دُرَيْدُ
فارساً آخر لينظر ما صنع صاحبه ؛ فراه صريعاً ، فصاح به ، فتصامَّ عنه فظنَّ
أنه لم يسمع ففشيَّه ، فألقى زمام الراحلة إلى الظُعينة ! ثم حمل على الفارس فصرعه ،
وهو يقول :

خَلَّ سَبِيلَ الْحُرَّةِ الْمَنِيعةِ إِنَّكَ لَاقٍ دُونَهَا رَبِيعَهُ

* الأغاني : ٤ - ١٢٩ ، الأملی : ٢ - ٢٧١ ، السمط : ٢ - ٩١٠ ، العقد الفريد : ٣ - ٣٢٤
(١) دريد بن الصمة : سيد بني جشم وفارسهم وقائدهم ، كان مظفراً ميمون النقية ، غزا نحو
مائة غزوة ما أخفق في واحدة منها ، وأدرك الإسلام ولم يسلم . توفي سنة ٨ هـ (٢) الظُعينة .
المرأة ما دامت في الهودج (٣) امرأة رداح : عجزاء ثقيلة الأوراك تامة الخلق (٤) القرن :
الكف (٥) شائني : يعيبي .

فِي كَفِّهِ خَطِيئَةٌ ^(١) مُطِيعَةٌ أَوَّلًا فَخَذُّهَا طَعْنَةً سَرِيعَةً
فَالطَّمَنُ مَنِّي فِي الْوَعَى سَرِيعَةً

ثم حمل عليه فصرعه .

فلما أبطأ على دُرَيْدَ بَعَثَ فَارِسًا آخَرَ ؛ لِيَنْظُرَ مَا صَنَعَا ، فَاتَهَى إِلَيْهِمَا ، فَرَأَاهُمَا
صَرِيعَيْنِ ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ يَقُودُ ظَعِينَتَهُ ، وَيَجْرُ رُحْمَهُ ، فَقَالَ لَهُ الْفَارِسُ : خَلَّ عَنْ
الظَّعِينَةَ . فَقَالَ لَهَا رِبِيعَةٌ : اقْصِدِي قَصْدَ الْبَيْتِ ، ثُمَّ أَقْبِلْ عَلَيْهِ فَقَالَ :

مَاذَا تَرِيدُ مِنْ شَتِيمٍ ^(٢) عَابِسٍ أَلَمْ تَرَ الْفَارِسَ بَعْدَ الْفَارِسِ

أَرَدَا مَا عَامَلَ رُحْمُ يَابِسٍ

ثم طعنه فصرعه ، فأنكسر رُحْمُهُ .

فَارْتَابَ دُرَيْدُ ، وَظَنَّ أَنَّهُمْ قَدْ أَخَذُوا الظَّعِينَةَ وَقَتَلُوا الرَّجُلَ ، فَلَحَقَ بِهِمْ
فَوْجِدَ رِبِيعَةٍ ^(٣) بَنَ مَكْدَمَ لَا رُحْمَ مَعَهُ وَقَدْ دَنَا مِنَ الْحَيِّ ، وَوَجَدَ أَصْحَابَهُ قَدْ
قَتَلُوا ، فَقَالَ لَهُ دُرَيْدُ : أَيُّهَا الْفَارِسُ ؛ إِنْ مِثْلَكَ لَا يُقْتَلُ ، وَإِنَّ الْخَيْلَ ثَائِرَةٌ
بِأَصْحَابِهَا ، وَلَا أَرَى مَعَكَ رُحْمًا ، وَأَرَاكَ حَدِيثَ السِّنِّ فَدُونَكَ هَذَا الرَّحْمَ ، فَإِنِّي
رَاجِعٌ إِلَى أَصْحَابِي ، فَمُنْبِّطُهُمْ عَنْكَ .

فَأَتَى دُرَيْدُ أَصْحَابَهُ ، فَقَالَ : إِنْ فَارِسَ الظَّعِينَةِ قَدْ حَمَاهَا وَقَتَلَ فَوَارِسَكُمْ وَانْتَزَعَ
رُحْمِي وَلَا طَمَعَ لَكُمْ فِيهِ ؛ فَانْصَرَفَ الْقَوْمُ ، وَقَالَ دُرَيْدُ :

مَا إِنْ رَأَيْتُ وَلَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ حَامِيَ الظَّعِينَةِ فَارِسًا لَمْ يُقْتَلِ

(١) بريد رُحْمًا ، والرماح تنسب إلى الخط ، تفر بالبحرين (٢) الشقيم : الأسد العابس .

(٣) ربيعة بن مكدم : هو أحد فرسان مضر العدودين ، وشجعانهم المشهورين . توفي سنة ٥٨ هـ . م .

أَرَدَى فَوَارِسَ لَمْ يَكُونُوا نَهْزَةً ^(١) ثُمَّ اسْتَمَرَّ كَأَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ
 مَتَهَامًا تَبْدُو أَسِيرَةً وَجْهَهُ ———
 يَزُجِي ظَعِينَتَهُ وَيَسْحَبُ رُحْمَهُ
 وَتَرَى الْفَوَارِسَ مِنْ مَخَافَةِ رُحْمِهِ
 يَا لَيْتَ شِعْرِي مَنْ أَبُوهُ وَأُمُّهُ ؟
 فَقَالَ رِبِيعَةٌ :

إِنْ كَانَتْ يَنْفَعُكَ الْيَقِينُ فَسَأُتْلِي
 إِذْ هِيَ لِأَوَّلِ مَنْ أَتَاهَا نَهْزَةٌ
 إِذْ قَالَ لِي أَدْنَى الْفَوَارِسِ مِيتَةٌ :
 فَصُرْتُ رَاحِلَةَ الظَّعِينَةِ نَحْوَهُ
 وَهَتَكْتُ بِالرَّمْحِ الطَّوِيلِ إِهَابَهُ ^(٥)
 وَمَنْحْتُ آخَرَ بَعْدَهُ جِيَّاشَةً
 وَلَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بِآخِرِ ثَالِثٍ
 عَنِّي الظَّعِينَةُ يَوْمَ وَادِي الْأَخْرَمِ
 لَوْلَا طِعَانُ رِبِيعَةَ بْنِ مُكْدَمٍ
 خَلَّ الظَّعِينَةَ طَائِفًا لَا تَنْدَمُ
 عَمْدًا لِيَعْلَمَ بَعْضَ مَا لَمْ يَعْلَمْ
 فَهُوَ صَرِيحًا لِلْيَدِينِ وَلِلْفَمِ
 نَجَاءً فَاغْرَةً كَشِدْقِ الْأَضْجَمِ ^(٦)
 وَأَبَى الْفِرَارَ لِيِ الْغَدَاةِ تَكْرُمِي

ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ مَدَّ ذَلِكَ بَنُو مَالِكِ بْنِ كِفَانَةَ رَهْطَ رِبِيعَةَ بْنِ مُكْدَمٍ أَنْ أَغَارُوا
 عَلَى بَنِي جُشَمٍ رَهْطِ دُرَيْدٍ ، فَفَتَسَكَّوْا وَأَسْرَوْا وَغَنَمُوا ، وَأَسْرَوْا دُرَيْدَ بْنَ الصَّمَةِ ،
 فَأَخْفَى نَسَبَهُ ، فَبَيْنَا هُوَ عِنْدَهُمْ إِذَا جَاءَ نِسْوَةٌ يَتَهَادَيْنَ إِلَيْهِ ، فَصَرَخَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ
 فَقَالَتْ : هَلِكْتُمْ وَأَهْلِكْتُمْ ، مَاذَا جَرَّ عَلَيْنَا قَوْمُنَا ؟ هَذَا وَاللَّهِ الَّذِي أَعْطَى رِبِيعَةَ

(١) النهزة : الشيء الذي هولاك معرض كالغنيمة ، يقال : فلان نهزة الخنثلس ، أي صيد لكل
 أحد (٢) الصيقل : جلاء السيوف وشحاذها (٣) البغات : طائر أغبر (٤) الأجذل :
 الصقر (٥) إهابه : جلده (٦) الضجم : عوج في الفم ، وميل الشدق . ويشبه الجرح
 الواسع بالفم الأضجم .

رُحْمُهُ يَوْمَ الظُّعِينَةِ ، ثُمَّ أَلْقَتْ عَلَيْهِ ثَوْبَهَا وَقَالَتْ : يَا آلَ فِرَاسٍ ، أَنَا جَارَةٌ لَه
مِنْكُمْ ، هَذَا صَاحِبُنَا يَوْمَ الْوَادِي ، فَسَأَلُوهُ : مَنْ هُوَ ؟ فَقَالَ : أَنَا دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ ،
فَمَا فَعَلَ رَبِيعَةُ بْنُ مُكْدَمٍ ؟ قَالُوا : قَتَلْتَهُ بَنُو سُكَيْمٍ ، قَالَ : فَمَنْ الظُّعِينَةُ الَّتِي كَانَتْ
مَعَهُ ؟ قَالَتِ الْمَرْأَةُ : رَبِيعَةُ بِنْتُ جَذَلٍ وَأَنَا هِيَ ، خَبِسَهُ الْقَوْمُ ، وَأَمَرُوا أَنْفُسَهُمْ ^(١)
وَقَالُوا : لَا يَنْبَغِي أَنْ تُكْفَرَ نِعْمَةٌ دُرَيْدٍ عِنْدَنَا ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : وَاللَّهِ لَا يَخْرُجُ مِنْ
أَيْدِينَا إِلَّا بِرِضَا الْمُخَارِقِ الَّذِي أَسْرَهُ . فَانْبَعَثَتِ الْمَرْأَةُ فِي اللَّيْلِ فَقَالَتْ :

سَنَجْزِي دُرَيْدًا عَنْ رَبِيعَةَ نِعْمَةً	وَكُلُّ فِتْنٍ يُجْزَى بِمَا كَانَ قَدَمًا
فَإِنْ كَانَ خَيْرًا كَانَ خَيْرًا جَزَاؤُهُ	وَإِنْ كَانَ شَرًّا كَانَ شَرًّا مَذْمَمًا
سَنَجْزِيهِ نِعْمَى لَمْ تَكُنْ بِصَغِيرَةٍ	يَا عِطَانُهُ الرُّمَحَ السَّيِّدَ الْمُقَوِّمًا
فَقَدْ أَدْرَكْتَ كِفَاهَ فِينَا جَزَاءَهُ	وَأَهْلٌ بَانَ يُجْزَى الَّذِي كَانَ أَنْعَمًا
فَلَا تَكْفُرُوهُ حَقَّ نِعْمَاهُ فَيْكُمْ	وَلَا تَرْكَبُوا تِلْكَ الَّذِي تَمَلَأَ الْفَمَا
فَإِنْ كَانَ حَيًّا لَمْ يَضِقْ بِشَوَابِهِ	ذِرَاعًا غَنِيًّا كَانَ أَوْ كَانَ مُعْدِمًا
فَقُكُّوا دُرَيْدًا مِنْ إِسَارِ مُخَارِقٍ	وَلَا تَجْعَلُوا الْبُؤْسَى إِلَى الشَّرِّ سُلَمًا

فَأَصْبَحَ الْقَوْمُ ، فَعَمَّاوَنُوا بَيْنَهُمْ فَأَطْلَقُوهُ ، وَكَسَّتْهُ رِبِيعَةُ وَجْهَ زَنَتِهِ ، وَلَحِقَ بِقَوْمِهِ ،
وَلَمْ يَزَلْ كَافًا عَنْ غَزْوِ بَنِي فِرَاسٍ حَتَّى هَلَكَ .

(١) آمَرُوا أَنْفُسَهُمْ : تَشَاوَرُوا .

٨٨ — عند الموت *

حَلَّ هُدْبَةُ بْنُ خَشْرَمٍ ^(١) الْعُذْرِيَّ إِلَى مَعَاوِيَةَ ، وَكَانَ قَدْ قَتَلَ ^(٢) زِيَادَةَ بْنَ زَيْدِ الْعُذْرِيَّ ؛ وَتَقَدَّمَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ أَخُو زِيَادَةَ ؛ فَادَّعَى عَلَيْهِ ؛ فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : مَا تَقُولُ ؟ قَالَ : أَحَبُّ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ شِعْراً أَمْ نَثْراً ؟ قَالَ : بَلْ شِعْراً ؛ فَإِنَّهُ أَمْتَعُ أَقَالَ هُدْبَةُ :

فَلَمَّا رَأَيْتُ أَنَّهَا هِيَ ضَرْبَةُ	مِنَ السِّيفِ أَوْ إِغْضَاءِ عَيْنٍ عَلَى وَتَرٍ ^(٣)
عَمَدْتُ لِأَمْرِ لَا يُعَيِّرُ وَالِدِي	خَزَائِنَتَهُ ^(٤) وَلَا يُسَبُّ بِهِ قَبْرِي
رُمِينَا فَرَامِينَا فَصَادَفَ سَهْمُنَا	مَنْيَّةَ نَفْسٍ فِي كِتَابٍ وَفِي قَدْرِ
وَأَنْتَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَالْبَنَّا	وَدَاءُكَ مِنْ مَعْدَى وَلَا عَنكَ مِنْ قَصْرِ
فَإِنْ تَكُ فِي أَمْوَالِنَا لَا نَضِيقُ بِهَا	ذِرَاعاً وَإِنْ صَبْرٌ ^(٥) فَنَصْبِرُ لِلصَّبْرِ

فَقَالَ لَهُ مَعَاوِيَةُ : أَرَأَيْكَ قَدْ أَقْرَرْتَ يَا هُدْبَةُ أَقَالَ : هُوَ ذَاكَ ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : أَقِذْنِي ^(٦) ؛ فَفَكَّرَ ذَلِكَ مَعَاوِيَةَ ، وَضَنَّ بِهَدْبَةَ عَنِ الْقَتْلِ .

* رَغْبَةُ الْآمَلِ : ٢ - ٢٣٩ ، السَّكَاكِلِ : ٢ - ٣٠٣ .

(١) هُدْبَةُ : شَاعِرٌ لِسُلَامَى فَصِيحٌ مُتَقَدِّمٌ مِنْ بَادِيَةِ الْحِجَازِ ، وَكَانَ رَاوِيَةً لِلْحَطِيبَةِ ، وَكَانَ جَيْلُ رَاوِيَةِ هُدْبَةَ . وَأَمَّا زِيَادَةُ فَيُنْتَهَى نَسَبُهُ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ سَعْدٍ ، وَكَلَامُهُمَا شَاعِرٌ لِسُلَامَى كَانَ فِي عَهْدِ بَنِي أُمَيَّةَ ، تَوَفَّى سَنَةَ ٥٤ هـ . (٢) كَانَ مِنْ أَمْرِ قَتْلِ هُدْبَةَ لَزِيَادَةَ أَنَّهُمَا أَقْبِلَا مِنَ الشَّامِ فِي رَكْبٍ مِنْ قَوْمِهِمَا وَكَانَا يَتَعَاقِبَانِ سَوْقَ الْإِبِلِ ، فَرَجَزَ كَلَامُهُمَا بِأَخْتِ الْآخِرِ بَمَا يَقْبِضُ ذَاكِرُهُ ، فَفَضِبَ هُدْبَةُ حَتَّى أَصَابَ مِنْهُ غَرَّةٌ فَقَتَلَتْهُ (٣) الْوَتَرُ : النَّأْرُ (٤) الْخَزَائِنَةُ : الْأَسْتَحْيَاءُ ، وَيُقَالُ : رَجُلٌ خَزْيَانٌ ، وَهُوَ الَّذِي عَمِلَ أَمْراً قَبِيحاً فَاشْتَدَّ لِدَاكِ حَيَاؤُهُ وَخَزَائِنَتُهُ (٥) الصَّبْرُ هُنَا : الْحَبْسُ حَتَّى يَمُوتَ (٦) أَقَادَ الْقَاتِلَ بِالْقِتِيلِ : قَتَلَهُ بِهِ .

وكان ابن زيادة صغيراً فوجّه به إلى المدينة ؛ وقال : يحبس إلى أن يبلغ .
فلما بلغ كان والى المدينة سعيد بن العاص .
فمما وقف عليه من قسوته قوله :

ولما دخلت السجن يا أم مالك ذكركِ والأطراف في خلقٍ سُمرٍ^(١)
وعند سعيدٍ غير أن لم أُنَجِّ به ذكركِ ، إن الأمر يُدْكَرُ بالأمرِ
فُسِّلَ عن هذا القول ، فقال : لما رأيت ثغر^(٢) سعيد ، ذكرتُ به ثغرها .
ثم إنه عرّض^(٣) على ابن زيادة عشرُ دياتٍ ؛ فأبى إلا القود ، فلما خرج
بهذهبة ليقاد بالحرّة^(٤) ، جعل يُنشدُ الأشعارَ ، فقالت له حبي^(٥) المدينة : مارأيتُ
أفسى قلباً منك ! أتُنشدُ الأشعارَ وأنتَ يُمضَى بك إلى القتل ، وهذه خلقتُ كأنها
ظبيٌ عطشانٌ تُؤلول - تعنى امرأته ؛ فوقف ووقف الناسُ معه ، فأقبل على
حبي فقال :

مَا وَجَدْتُ وَجْدِي بِهَا أَمْ وَاحِدٍ وَلَا وَجَدَ حَبِّي بَابِنِ أُمِّ كَلَابِ^(٦)
رَأَتْهُ طَوِيلَ السَّاعِدِينَ شَمْرَدَ لَا^(٧) كَمَا اتَّعَمْتُ^(٨) مِنْ قُوَّةِ وَشَبَابِ
فَأَغْلَقْتُ حَبِّي الْبَابَ فِي وَجْهِهِ وَسَدَّيْتُهُ .

(١) الأطراف : يريد يديه ورجليه ، والخلق السمر : القيود والأغلال (٢) كان سعيد من أحسن الناس ثغراً (٣) كان ممن عرض الديات عليه الحسين بن علي ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص ومروان بن الحكم ، وسائر القوم من قريش والأنصار (٤) موضع بالمدينة (٥) حبي : اسم امرأة كانت معروفة بالمدينة ، والمدينة يثبت الباء ، نقل ياقوت : أنه يقال : مدني ، لمن تحول عن المدينة وكان منها ، ومدني لمن أقام فيها (٦) ابن أم كلاب : زوج حبي ، وكان شاباً تزوجته وكانت عجوزاً (٧) الفتى : القوى (٨) التمتع من الدواب والناس : الموصوف بما يفضل على غيره (اللسان - مادة نعت) .

وعرض له عبد الرحمن بن حستان ؛ فقال : أنشدني ، فقال له : أعلّٰى هذه الحال ! قال : نعم ، فأنشده :

ولستُ بِمِفْرَاحٍ إِذَا الدَّهْرُ سَرَّني وَلَا جازِعٍ مِنْ صَرَفِهِ ^(١) الْمَتَقَلِّبِ
وَلَا أَتَبَغَّى الشَّرَّ وَالشَّرُّ تَارِكِي وَلَكِنْ مَتَى أُحْمَلْ عَلَى الشَّرِّ أَزْكَبِ
وَحَرْبِي ^(٢) مَوْلَايَ حَتَّى غَشِيَتْهُ مَتَى مَا يُحَرِّبُكَ ابْنُ عَمِّكَ تَحْرِبِ
فَلَمَّا قَدَّمَ نَظَرَ إِلَى امْرَأَتِهِ ، فَدَخَلَتْهُ غَيْرَةٌ ، وَقَدْ كَانَ جُدِعَ فِي حَرْبِهِمْ ،
فقال :

فإِنْ يَكُ أَنفِي بَانَ ^(٣) مِنْهُ جِمالُهُ فَمَا حَسَبِي فِي الصَّالِحِينَ بِأَجْدَعَا
فَلَا تَنْكَحِي إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا أَغَمَّ ^(٤) الْقَفَا وَالْوَجْهَ لَيْسَ بِأَنْزَعَا ^(٥)
فَقَالَتْ : قِفُوا عَنْهُ سَاعَةً ، ثُمَّ مَضَتْ وَرَجَعَتْ . وَقَدْ اضْطَلَمَتْ ^(٦) أَنْفَهَا فَقَالَتْ :
أَهَذَا فَعْلٌ مَنْ لَهُ فِي الرِّجَالِ حَاجَةٌ ؟ فقال : الْآنَ طَابَ الْمَوْتُ !

ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَبُوَيْهِ فَقَالَ :

أَبْلِيَانِ الْيَوْمَ صَبْرًا مِنْكَ إِنَّ حُزْنَنا مِنْكُمَا الْيَوْمَ لَشَرُّ
مَا أَظُنُّ الْمَوْتَ إِلَّا هَيْنًا إِنَّ بَعْدَ الْمَوْتِ دَارَ الْمُسْتَقَرِّ

ثُمَّ قَالَ :

(١) صرف الدهر : حدثانه وتوابعه (٢) حربى : حملنى على الفضب (٣) بان : هنا انفصل وذهب عنه (٤) الغم : سيلان الشعر حتى تضيق به الجبهة والقفا (٥) الزرع : انحصار الشعر من جانبي الجبهة (٦) الضلم : قطع الأذن والأنف من أصله . واسطلمه : استأصله .

أَذَا الْعَرْشِ إِنِّي عَائِدٌ بِكَ مُؤْمِنٌ مُقَرَّبٌ بِزَلَالٍ إِلَيْكَ فَقِيرٌ
وإِنِّي وَإِنْ قَالُوا: أَمِيرٌ مُسَلِّطٌ وَحُجَّابٌ أَبْوَابِ لَهْنٍ صَرِيرٌ
لَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَمْرَ أَمْرُكَ إِنْ تَدِنُ^(١) قَرَبٌ وَإِنْ تَغْفِرُ فَأَنْتَ غَفُورٌ
ثم قال لابن زيادة: أثبتت قدميك، وأجد الضربة، فإني أيتيمتك صغيراً،
وأزملت أملك شابة!

(١) تدن: تجازى.

٨٩ - تَعَذُّو الذَّنَابُ عَلَى مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ*

حَجَّ أَبُو الْأَسْوَدُ ^(١) الدَّوْلِيُّ وَمَعَهُ امْرَأَتُهُ - وَكَانَتْ جَمِيلَةً - فَبَيْنَمَا هِيَ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ إِذْ عَرَضَ لَهَا عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، فَأَتَتْ أَبَا الْأَسْوَدِ فَأَخْبَرَتْهُ ، فَأَتَاهُ أَبُو الْأَسْوَدِ فَعَاتَبَهُ ، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ : مَا فَعَلْتَ شَيْئًا ، فَلَمَّا عَادَتْ إِلَى الْمَسْجِدِ عَادَ فِكَلَمَهَا ؛ فَأَخْبَرَتْ أَبَا الْأَسْوَدِ فَأَتَاهُ فِي الْمَسْجِدِ وَهُوَ مَعَ قَوْمٍ جَالِسٌ فَقَالَ لَهُ :

وَإِنِّي كَيْئَنِّي عَنِ الْجَهْلِ وَالْخَفَا وَعَنْ شَمِّ أَقْوَامٍ خَلَاتِقُ أَرْبَعُ
حِيَلًا وَإِسْلَامٌ وَبُقْيَا ^(٢) وَأَنْتَى كَرِيمٌ ، وَمِثْلِي قَدْ يَصْرُءُ وَيَنْفَعُ
فَشَتَّانَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكَ إِنِّي عَلَى كُلِّ حَالٍ أَسْتَقِيمُ وَتَظْلَعُ ^(٣)

فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ : لَسْتُ أَعُودُ يَا عَمُّ لِكَلَامِهَا بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ ، ثُمَّ عَادَ فِكَلَمَهَا ؛
فَأَتَتْ أَبَا الْأَسْوَدِ فَأَخْبَرَتْهُ ، فَجَاءَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ :

أَنْتَ الْفَتَى وَابْنُ الْفَتَى وَأَخُو الْفَتَى وَسَيِّدُنَا لَوْلَا خَلَاتِقُ أَرْبَعُ
نُكُولٌ عَنِ الْجُلَى ، وَقُرْبٌ مِنَ الْخَفَا وَبُخْلٌ عَنِ الْجَدْوَى ؛ وَأَنْتَ تُبْعُ ^(٤)
ثُمَّ خَرَجْتُ وَخَرَجَ مَعَهَا أَبُو الْأَسْوَدِ مُشْتَمِلًا عَلَى سَيْفٍ ، فَلَمَّا رَأَاهَا عَمْرٌ أَعْرَضَ
عَنْهَا ، فَتَمَثَّلَ أَبُو الْأَسْوَدِ :

تَعَذُّو الذَّنَابُ عَلَى مَنْ لَا كِلَابَ لَهُ وَتَتَّقِ صَوْلَةَ الْمُسْتَأْسَدِ الْحَامِي

* الْأَغَانِي : ١ - ١٤٨ .

(١) هُوَ ظَالِمُ بْنُ عَمْرٍو أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيُّ الْكِنَانِيُّ صَاحِبُ عَلَى وَوَاضِعُ النُّحُو ، وَصَاحِبُ النُّوَادِرِ
الْمُتَمَتِّعَةِ فِي الْأَدَابِ الْعَرَبِيَّةِ . تَوَفَّى سَنَةَ ٦٩ هـ (٢) يُقَالُ : أَبْقَيْتُ عَلَيْهِ بَقِيَّةً : أَشْفَقْتُ عَلَيْهِ وَرَحِمْتُهُ
(٣) ظَلَعَ : عَرَجَ وَغَمَزَ فِي مَشْيِهِ (٤) يُقَالُ : هُوَ تَبِعَ نِسَاءً ، إِذَا جَدَّ فِي طَلَبِنَ .

٩٠ — الأحوص وابن حزم الأنصارى *

شَبَّ الأحوص ^(١) بامرأة يقال لها : أم جعفر ، فقال فيها :

أدورُ ولولا أن أرى أمَّ جعفرِ بأبياتكم ما درتُ حيثُ أدورُ
وما كنتُ زوّاراً ولكن ذا الهوى إذ لم يُرزَ لا بدَّ أن سيزورُ

وكان لأم جعفر أخ يقال له أيمنُ ، فاستعدى عليه ابن حزم الأنصارى وهو
وَالِي المدينة للوليد بن عبد الملك ، فبعث ابنُ حزم إلى الأحوص فأتاه - وكان
ابنُ حزم يُبغضه - فقال : ما تقول فيما يقولُ هذا ؟ قال : وما يقول ؟ قال : يزعم
أنك تُشَبُّ بأخته ، وقد فضّختَه وشهرَّت به ! فأنكر الأحوص ذلك .

فقال لهما : قد اشتبه عليّ أمركما ؛ ولكنني أدفع إلى كل واحدٍ منكما سوطاً ،
ثم اجتليدا - وكان الأحوص قصيراً نحيفاً ، وكا أيمن طويلاً ضخماً - فاجتليدا ، فغلب
أيمنُ الأحوص فضر به حتى صرعه وأثخنه .

فلما رأى الأحوص تحامُل ابن حزم عليه امتدح الوليد بن عبد الملك ، ثم
شخص إليه في الشام ، ودخل عليه وأنشده :

أَهْوَى أُمِّيَّةَ إِن شَطَّتْ وَإِنْ قَرَبْتُ يَوْمًا وَأَهْدَى لَهَا نَصْحِي وَأَشْعَارِي

* العقد الفرید : ٣ - ٢٩١ ، الأغاني : ٤ - ٢٣٨

(١) كان الأحوص شاعراً ممتعاً الطبع ، سهل الكلام ، صحيح معاني الشعر ، ولشعره رونق
ودياحة صافية ، مع حلاوة وعذوبة ألفاظ ، إلا أنه كان قليل المروءة والدين ، هجاء للناس .
توفي سنة ١٠٥ هـ

ولو وردت عليها الفيض^(١) ما حلفت ولا شفت عَطَشِي من مائه الجاري
لا ترثين الحزمية رأيت به ضُرًّا ولو أُلقيَ الحزمية في النار
الناخسين^(٢) بمروان بذي خُشب^(٣) والمقحمين على عثمان في الدار

فقال له الوليد : صدقت ، والله لقد كنّا غفلنا عن حَزْم وآل حزم ، ثم دعا
كاتبه فقال : اكتب عهد عثمان بن حَيَّان المُرسى على المدينة ، واعزل ابن حزم ،
واكتب بقبض أمواله وأموال آل حزم ، وإسقاطهم أجمعين من الديوان ، ولا
ياخذوا لأموالي عطاءً أبداً . ففعل ذلك ، فلم يزالوا في الحرمان للعطاء مع ذهاب
الأموال والضياع حتى انقضت دولة بني أمية ، وجاءت دولة بني العباس .

فلما قام أبو جعفر المنصور بأمر الدولة ، قدم عليه أهل المدينة ، فجلس لهم ،
وأمر حاجبه أن يتقدم إلى كل رجل منهم أن ينتسب له إذا قام بين يديه ،
فلم يزالوا على ذلك يفعلون حتى دخل عليه رجل قصير قبيح الوجه ؛ فلما مثل بين يديه
قال له : يا أمير المؤمنين ؛ أنا ابن حزم الأنصار الذي يقول فينا الأخوص :

لا ترثين الحزمية رأيت به ضُرًّا ولو أُلقيَ الحزمية في النار
الناخسين بمروان بذي خُشب والمقحمين على عثمان في الدار

ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ حرمتنا العطاء منذ سنين ، وقبضت أموالنا وضياعنا ،
فقال المنصور : أعد على البيتتين ، فأعادها عليه ، فقال : أما والله لن كان ذلك

(١) الفيض : نهر بالبصرة (٢) الناخسين بمروان : يريد الطاردين لمروان والمزعجين له ،
يقال : نخسوا بفلان ، إذا نخسوا دابته من خلفه ، وطردوه حتى سيروه في الآفاق (٣) ذو خُشب :
واد على مسيرة ليلة من المدينة ، وكان مروان بن الحكم في المدينة في خلافة يزيد ، ولما كانت وقعة
الحرّة أخرجه الثائرون هو وعثمان بن محمد بن أبي سفيان وبقيّة بني أمية ممن كان يقيم بالمدينة ،
وكان في الثائرين محمد بن عمرو بن حزم .

ضرَّكم في ذلك الحين لينفَعَنَّكم اليوم . ثم كتب إلى عامل المدينة أن يردَّ جميعَ ما اقتطعه بنو أمية من ضياع بني حَزَم وأموالهم ، ويحسب لهم ما فاتهم من عطائهم ، وما استغلَّ من غلاتهم من يؤمئذ إلى اليوم ، فيخالف لهم جميع ذلك من ضياع بني مروان ، ويفرض لكل واحدٍ منهم في شَرَفِ العطاء ^(١) . ثم قال : عليَّ الساعة بعشرة آلاف درهم تُدْفَع إلى هذا الرجل لنفقته ؛ فخرج من عنده بما لم يخرج به أحدٌ مِمَّنْ دخلوا عليه .

(١) كان شرف العطاء يومئذ مائتي دينار في السنة .

البَابُ الرَّابِعُ

في القصص التي أراد بها الكتاب تصويرَ حالة
أَوْ شخص، أو مجلس، واخترغوا لها من الكلام ما يبلغ
إرادتهم، ويدخل في ذلك الباب ما وضعوه على السنة
الطير والبهائم، وأنواع الحيوان من محاورات وأحاديث
تحمل في أثنائها العبرة والعظة والنصح .

٩١ - أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلَ الثَّورُ الْأَبْيَضَ *

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إنما مثلي ومثل عثمان كمثل أنوار ثلاثة كنَّ في أجنة : أبيض ، وأسود ، وأحمر ؛ ومعهنَّ فيها أسد ، فكان لا يقدر منهن على شيء لاجتماعهنَّ عليه .

فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا يدل علينا في أجتنا إلا الثور الأبيض ، فإنَّ لونه مشهور ، ولوني على لولسكما ، فلو تركماني آكله صفت لنا الأجنة ، فقالا له : دونك فكله ، فأكله .

فلما مضت أيام ، قال للأحمر : لوني على لونك فدعني آكل الأسود لتصفوا لنا الأجنة ! فقال له : دونك فكله ، فأكله .

ثم قال للأحمر : إني آكلك لا محالة ، فقال : دعني أنادي ثلاثاً ، فقال : افعل ؛ فنادى : ألا إني أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلَ الثَّورُ الْأَبْيَضَ ؛ ثم قال على رضي الله عنه : ألا إني أَهَنْتُ يَوْمَ قَتَلَ عثمان ! يرفع بها صوته !

* مجمع الأمثال : ١ - ٢٣ .
(١) الأجنة : الشجر الكثير الملتف .

٩٢ — حديث السقيفة *

قال أبو حيان ^(١) علي بن محمد التوحيدى البغدادى : سَمَرْنَا لَيْلَةً عِنْدَ الْقَاضِي أَبِي حَامِدٍ أَحْمَدَ ^(٢) بْنِ بَشْرِ الْمُرُوزِيِّ بِبَغْدَادَ ، فَتَصَرَّفَ فِي الْحَدِيثِ كُلِّ مُتَصَرَّفٍ ، وَكَانَ غَزِيرَ الرِّوَايَةِ ، لَطِيفَ الدَّرَايَةِ ، خَجَرَى حَدِيثِ السَّقِيفَةِ ؛ فَرَكِبَ كُلُّ مَرْكَبًا ، وَقَالَ قَوْلًا ، وَعَرَضَ بَشْيَءَ ، وَنَزَعَ إِلَى فَنٍ .

فَقَالَ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَحْفَظُ رِسَالَةَ لِأَبِي بَكْرٍ الصَّدِيقِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَجَوَابَ عَلِيٍّ عَنْهَا ، وَمُبَايَعَتُهُ إِيَّاهُ عَقِبَ تِلْكَ الْمَنَاطِرَةِ ؟ فَقَالَ الْجَمَاعَةُ : لَا وَاللَّهِ ، فَقَالَ : هِيَ وَاللَّهِ مِنْ بَنَاتِ الْحَقَائِقِ ، وَمُحَبَّاتِ الصَّنَادِقِ ، وَمَنْذُ حَفِظْتُهَا مَارَوَيْتُهَا إِلَّا لِأَبِي مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيِّ فِي وَزَارَتِهِ ، فَكَتَبْتُهَا عَنْ يَدِهِ وَقَالَ : لَا أَعْرِفُ رِسَالَةَ أَعْقَلَ مِنْهَا وَلَا أَبْيَنَ ، وَإِنِّهَا لَتَدُلُّ عَلَى عِلْمٍ وَحِلْمٍ ، وَفَصَاحَةٍ وَنَبَاهَةٍ ، وَبُعْدٍ غَوْرٍ ، وَشِدَّةٍ غَوْصٍ .

فَقَالَ لَهُ الْعَبَّادَانِي : أَيُّهَا الْقَاضِي ؛ فَلَوْ أَتَمَّتِ الْمَنَّةَ عَلَيْنَا بِرَوَايَتِهَا ؛ أَسَمِعْنَاهَا ؛ فَفُحِّنْ أَوْعَى لَكَ مِنَ الْمُهَلَّبِيِّ ، وَأَوْجِبْ ذِمَامًا عَلَيْكَ ، فَاذْفَعْ ، وَقَالَ :

حَدَّثَنَا عَيْسَى بْنُ دَأْبٍ ، قَالَ : سَمِعْتُ مُوَلَايَ أَبَا عُبَيْدَةَ يَقُولُ : لَمَّا اسْتَقَامَتِ الْخِلَافَةُ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، بَعْدَ فِتْنَةِ كَادِ الشَّيْطَانِ

* ابن أبي الحديد : ٢ - ٥٩٣ ، صبح الأعشى : ٢ - ٢٧٣ ، نهاية الأرب : ٧ - ٢١٣ .

(١) فيلسوف متصوف، ولد في نيسابور، وأقام مدة ببغداد، وانتقل إلى الري فصحب ابن العميد والصاحب بن عباد، توفي نحو سنة ٤٠٠ هـ .

(٢) قاض من أكابر الفقهاء أصحاب الشافعى ، أقام زمناً بالبصرة ، ثم رحل إلى بغداد . توفي سنة ٣٦٢ هـ .

بها ، فدفع الله شرها ، ويسر خيرها ، بلغ أبا بكر عن عليّ تلکؤ وشماس^(١) ،
وتهمم^(٢) ونفاس^(٣) ، فکرة أن يتماذى الحال فتبذو العورة ، وتشتعل الجرة ،
وتتفرق ذات البين ؛ فدعاني بحضرته في خلوة - وكان عنده عمر بن الخطاب ،
رضي الله عنه وحده - فقال : يا أبا عبيدة ؛ ما أئمن ناصيتك ، وأبين الخير
بين عينيك ؛ طالما أعز الله بك الإسلام ، وأصلح شأنه على يديك ، ولقد كنت
من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط ، والحل المغبوط ؛ ولقد قال فيك
في يوم مشهود « لكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة » ولم تزل
للدين ملتجأ ، وللمؤمنين مرجئ ، ولأهلك ركنًا ، ولإخوانك رداء .

قد أردتک لأمرٍ خطرُه تخوف ، وإصلاحه من أعظم المعروف ، ولئن لم
يندمل جرحه بيسارك ورفقك ، ولم تجب^(٤) حيتته برقيتك ، وقَعَ التأس ،
وأغضل التأس ، واحتيج بعد ذلك إلى ما هو أمر منه وأغلق ، وأعسر منه وأغلق ،
والله أسألُ تمامه بك ونظامه على يديك ، فتأت^(٥) له أبا عبيدة وتلطّف فيه ،
وانصح لله عزّ وجلّ ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا المصابة غير آلٍ جهداً ،
ولا قال حمداً ، والله كالثّك وناصرك ، وهاديك ومبصرک إن شاء الله .

امضِ إلى عليّ ، واخفِض له جناحك ، واغضضْ عنده صوتك ، واعلم أنه
سلاة أبي طالب ، ومكانه ممن فقدناه بالأمس - صلى الله عليه وسلم - مكانه

(١) الشماس : العائدة والمعادة (٢) التهمم : من تهم الشيء طلبه وتحسسه (٣) نفاس في
الشيء : رغب فيه على وجه المبالاة والفساخرة (٤) تجب : تقطع (٥) تأت له : تهيأ له وأتته
من وجهه .

وقل له : البحر مَفْرَقَةٌ ، والبرُّ مَفْرَقَةٌ ، والجوُّ أَكْلَفٌ ^(١) ، واللَّيلُ أَغْدَفٌ ^(٢) ، والسماءُ جَلَوَاءٌ ^(٣) ، والأرضُ صَلَمَاءٌ ^(٤) ، والصعودُ مُتَعَدِّرٌ ، والهبوطُ مُتَمَسِّرٌ ، والحقُّ عَطُوفٌ رَعُوفٌ ، والباطلُ عَنُوفٌ عَسُوفٌ ، والعُجْبُ قَدَاحَةٌ الشَّرِّ ، والضَّغْنُ رائدُ البَوَارِ ، والتعريضُ شِجَارُ الفتنَةِ ، والقِحَّةُ ثَقُوبٌ ^(٥) العداوة ؛ وهذا الشيطانُ مُتَّكِئٌ على شِمَانِهِ ، مُتَّحِيلٌ ^(٦) يَمِينُهُ ، نافخُ حِصْنَيْهِ ^(٧) ، ينتظرُ الشَّتَاتِ والفُرْقَةَ ، ويدبُّ بين الأُمّةِ بالشَّخْنَاءِ والعداوةِ عِنَادًا لله عزَّ وجلَّ أولاً ، ولآدمَ ثانياً ، ولنَبِيِّهِ - صلى الله عليه وسلم - ودينه ثالثاً ، يُوسِّسُ بالفجور ، ويدلِّي بالغرور ، ويمنِّي أهلَ الشرور ، يُوحى إلى أوليائه زُخْرُفَ القولِ غروراً بالباطل ، دُأْباً له منذ كان على عهدِ أيننا آدمَ ، وعادةً له منذ أهانَهُ اللهُ تعالى في سالفِ الدهرِ ، لا مَنَجَى مِنْهُ إِلَّا بِمَضِّ الناجِذِ ^(٨) على الحقِّ ، وَغَضِّ الطرفِ عن الباطل ، وَوِطْءِ هَامَةِ عَدُوِّ اللهِ بالأشدِّ فالأشدِّ ، وَالْأَكْدِ فالأكد ، وإسلامِ النفسِ لله عزَّ وجلَّ في ابتغاءِ رضاه .

ولابد الآن من قولٍ ينفع إذ قد أضرَّ السكوت ، وخيف غِبُّهُ ؛ ولقد أُرشدك مَنْ أَفَاءَ ^(٩) ضَالَّتَكَ ، وَصَافَاكَ مِنْ أَحْيَا مَوَدَّتِهِ بِعِتَابِكَ ، وأراد لك الخيرَ مَنْ آثَرَ البقاءَ معك .

ما هذا الذي تسوَّلُ لك نفسك ؟ ويدوِّي ^(١٠) به قلبُك ، ويلتوى عليه رأيُك ،

(١) أَكْلَفُ : أسود تعلوه حمرة (٢) أَغْدَفُ : مظلم (٣) جَلَوَاءُ : مصحبة (٤) صَلَمَاءُ : خالية لأشجار فيها (٥) ثَقُوبُ : ما أشعل به (٦) التَّحِيلُ : الاحتيال (٧) نافخ حِصْنَيْهِ : أى مستعد لأن يعمل عمله من الشر (٨) غَضُّ عليه بالتواجد ، أى تمسك به (٩) أَفَاءَ : أرجع . (١٠) دوى الطائر : إذا دار في طيرانه .

وَيَتَخَاوُسُ^(١) دُونَهُ طَرَفَكَ ، وَيَسْرِى فِيهِ ظَعْنُكَ ، وَيَتَرَادُ مَعَهُ نَفْسُكَ ، وَتَكْثُرُ مَعَهُ صُعْدَاؤُكَ ، وَلَا يَفِيضُ بِهِ لِسَانُكَ ؟ أَعْجَمْتُ بَعْدَ إِفْصَاحِ ! أَتَلْبِيسُ^(٢) بَعْدَ إِبْضَاحِ ؟ أَدِينُ غَيْرُ دِينِ اللَّهِ ؟ أَخْلَقُ غَيْرُ خَلْقِ الْقُرْآنِ ؟ أَهْدَى غَيْرُ هُدَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! أَمِثْلِي تَمِثْنِي لَهُ الضَّرَاءُ ، وَتَدِبُّ لَهُ الْخَمَرُ^(٣) ! أَمْ مِثْلُكَ يَنْقَبِضُ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ ، وَيُكْسِفُ فِي عَيْنِهِ الْقَمَرُ ؟ مَا هَذِهِ الْقَعْقَعَةُ بِالشَّئَانِ^(٤) ! وَمَا هَذِهِ الْوَعْوَعَةُ بِاللِّسَانِ !

إِنَّكَ وَاللَّهِ جِدُّ عَارِفٍ بِاسْتِجَابَتِنَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَبَخْرُوجِنَا عَنْ أَوْطَانِنَا وَأَمْوَالِنَا وَأَوْلَادِنَا وَأَحِبَّتِنَا ؛ هَجْرَةً إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَنُصْرَةً لَدَيْهِ فِي زَمَانٍ أَنْتَ فِيهِ فِي كِنِّ الصَّبَا ، وَخِذْرِ الْفَرَارَةِ ، وَعُنْفُوانِ الشَّيْبَةِ ، غَافِلٌ عَمَّا يُشِيبُ وَيُرِيْبُ ، لَا تَعْبَى مَا يُرَادُ وَيُشَادُ ، وَلَا تُحْصِلُ مَا يُسَاقُ وَيُقَادُ ، سِوَى مَا أَنْتَ جَارٍ عَلَيْهِ إِلَى غَايَتِكَ الَّتِي إِلَيْهَا عُدِلَ بِكَ ، وَعِنْدَهَا حُطٌّ رَحْلُكَ ، غَيْرَ مَجْهُولِ الْقَدْرِ ، وَلَا مَجْجُودِ الْفَضْلِ ؛ وَنَحْنُ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ نُعَانِي أَحْوَالًا تَزِيلُ الرِّوَايَةَ ، وَنُقَاسَى أَهْوَالًا وَتُشِيبُ النَّوَاصِي ، خَائِضِينَ غِمَارَهَا ، رَاكِبِينَ تَيَّارَهَا نَتَجَرَّعُ صَابَهَا ، وَنَشْرَجُ^(٥) عِيَابَهَا ، وَنُخْكِمُ آسَاءَهَا ، وَنُبْرِمُ أَمْرَاسَهَا^(٦) ، وَالْعَيُونَُ تُحَدِّجُ^(٧) بِالْحَسَدِ ، وَالْأَنْوْفُ نَعْطِسُ بِالْكِبَرِ ، وَالصُّدُورُ تَسْتَعِيرُ بِالْفَيْظِ ، وَالْأَعْنَاقُ

(١) يتخاوص : يفض عن بصره (٢) التلبس : التخليط (٣) الضراء ، أصل الضراء : الشجر الملتف في الوادي ، والمراد الاستخفاء . والخر : ما وراءك من شجر ، وهو مثل يضرب لمن يخدع صاحبه (٤) الشئان : جمع شن ، وهو القرية الخلق الصغيرة ، والقعة : الصوت . يريد أنه لا يخوف بعمل هذا (٥) أشرج العيبة وشرجها : ضم بعض عراها إلى بعض ، والعياب : جمع عيبة وهي وعاء من آدم تجعل فيه الثياب (٦) أمراسها جمع مرس ككتف : وهو الحبل (٧) تحدج :

تتطاول بالفخر ، والشَّفَارُ تُشَحِّدُ بِالْمَكْرِ ، والأَرْضُ تَمِيدُ بِالْخَوْفِ ، لَا نَنْتَظِرُ عِنْدَ الْمَسَاءِ صَبَاحًا ، وَلَا عِنْدَ الصَّبَاحِ مَسَاءً ، وَلَا نَدْفَعُ فِي نَحْرِ أَمْرٍ إِلَّا بَعْدَ أَنْ نَحْسُوَ الْمَوْتَ دُونَهُ ، وَلَا نَبْلُغُ مُرَادًا إِلَّا بَعْدَ الْإِيَّاسِ مِنَ الْحَيَاةِ عِنْدَهُ ، فَادِينِ فِي جَمِيعِ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْأَبِّ وَالْأُمِّ ، وَالْخَالِ وَالْعَمِّ ، وَالْمَالِ وَالنَّسَبِ ، وَالسَّبَدِ وَاللَّبَدِ ^(١) ، وَالْهَلَّةِ ^(٢) وَالْبِلَّةِ ، بِطَيْبِ أَنْفُسٍ ، وَقُرَّةِ أَعْيُنٍ ، وَرُخْبِ أَعْطَانٍ ، وَثَبَاتِ عَزَائِمٍ ، وَصِحَّةِ عُقُولٍ ، وَطَلَاقَةِ أَوْجِهٍ ، وَذَلَّاقَةِ أَلْسُنٍ .

هَذَا مَعَ خَفِيَّاتِ أَسْرَارٍ ، وَمَكْنُونَاتِ أَخْبَارٍ ، كُنْتَ عَنْهَا غَافِلًا ، وَلَوْلَا سِنُّكَ لَمْ تَكُنْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا نَاقِلًا ^(٣) ، وَكَيْفَ وَفَوَادُكَ مَشْهُومٌ ^(٤) ، وَعَوْدُكَ مَعْجُومٌ ! وَالْآنَ قَدْ بَلَغَ اللَّهُ بِكَ ، وَأَنْهَضَ الْخَيْرَ لَكَ ، وَجَعَلَ مُرَادَكَ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَعَنْ عِلْمٍ أَقُولُ مَا تَسْمَعُ ، فَارْتَقِبْ زَمَانَكَ ، وَقَلِّصْ أَرْذَانَكَ ^(٥) ، وَدَعِ التَّعَسُّسَ وَالتَّجَسُّسَ لِمَنْ لَا يَظْلَعُ ^(٦) لَكَ إِذَا خَطَا ، وَلَا يَتَزَحَّزَحُ عَنْكَ إِذَا عَطَا ^(٧) ؛ فَالْأَمْرُ غَضٌّ ؛ وَالنَّفُوسُ فِيهَا مَضٌّ ، وَإِنَّكَ أَدِيمٌ هَذِهِ الْأُمَّةَ ، فَلَا تَعْلَمْ ^(٨) لَجَاجًا ، وَسَيْفُهَا الْعَضْبُ ، فَلَا تَنْبُ اغْوِجَاجًا ، وَمَاؤُهَا الْعَذْبُ ، فَلَا تَحُلْ أُجَاجًا .

وَاللَّهِ لَقَدْ سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ ، فَقَالَ لِي : يَا أَبَا بَكْرٍ ؛ هُوَ لِمَنْ يَرْغَبُ عَنْهُ لَا لِمَنْ يُجَاحِشُ ^(٩) عَلَيْهِ ، وَلِمَنْ يَتَضَاعَلُ عَنْهُ لَا لِمَنْ

(١) السبد : الشعر ، واللبد : الصوف . والمراد : نفديه بكل ما نملك (٢) يقال : جاءنا فلان فلم يأتنا بهلة ولا بلة : أى لم يأتنا بشيء ، فاهلة من الفرح والاستهلال ، والبله من البلل والخير . (٣) نكّل عن الشيء : نكس وجبن (٤) مشهوم : ذكى متوقد (٥) الأرذان : جمع رذن : وهو أصل السكم ، أو السكم كله (٦) ظلع في مشيه : عرج وعمز (٧) عطا : مد إليك عنقه وأقبل نحوك (٨) حلم الجلد : فسد وتثقب (٩) يطلبه ويدافع عنه .

يَنْفَجُّ^(١) إِلَيْهِ ؛ هُوَ لِمَنْ يُقَالُ هَوَلَكَ ، لَا لِمَنْ يَقُولُ هُوَ لِي .

ولقد شاورني رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّهْرِ ، فَذَكَرَ فَنِيَانًا مِنْ قُرَيْشٍ ، فَقُلْتُ : أَيْنَ أَنْتَ مِنْ عَلِيٍّ ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : إِنِّي أَكْرَهُ لِقَاطِمَةَ مَيْمَةَ^(٢) شَبَابِهِ ، وَحَدَاثَةَ سِنِّهِ . فَقُلْتُ لَهُ : مَتَى كُنْفَتُهُ يَدُكَ ، وَرَعْتُهُ عَيْنُكَ ، حَقَّتْ بِهِمَا الْبَرَكَةُ ، وَأُسْبِغَتْ عَلَيْهِمَا النِّعْمَةُ ؛ مَعَ كَلَامٍ كَثِيرٍ خَاطِبْتُهُ بِهِ ؛ رَغْبَةً فِيكَ ، وَمَا كُنْتُ عَرَفْتُ مِنْكَ فِي ذَلِكَ لَا حَوَاجَاءَ^(٣) وَلَا لَوَاجَاءَ ، فَقُلْتُ مَا قُلْتُ وَأَنَا أَرَى مَكَانَ غَيْرِكَ ، وَأَجْدُ رَاحَةً سِوَاكَ ، وَكُنْتُ إِذَا ذَاكَ خَيْرًا لَكَ مِنْكَ الْآنَ لِي .

وَلَئِنْ كَانَ عَرَضَ بِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْأَمْرِ ، فَلَمْ يَكُنْ مُعْرِضًا عَنْ غَيْرِكَ ؛ وَإِنْ كَانَ قَالَ فِيكَ فَمَا سَكَتَ عَنْ سِوَاكَ ؛ وَإِنْ تَلَجَّلَجَ^(٤) فِي نَفْسِكَ شَيْءٌ فَهَلَمْ ، فَالْحَسْبُكُمْ مَرْضَى^(٥) ، وَالصَّوَابُ مَسْمُوعٌ ، وَالْحَقُّ مُطَاعٌ .

وَلَقَدْ نَقَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا ، وَهُوَ عَنِ الْمَصَابَةِ رَاضٍ ، وَعَلَيْهَا حَدِبٌ ، بِسَرِّهِ مَا سَرَّهَا ، وَبِسُوءِهِ مَا سَاءَهَا ، وَبِكَيْدِهِ مَا كَادَهَا ، وَبِرِضِيهِ مَا أَرْضَاهَا ، وَبِسُخْطِهِ مَا أَسْخَطَهَا .

أَمَّا تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَدْعُ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِهِ وَأَقَارِبِهِ وَسُجَرَائِهِ^(٥) ، إِلَّا أَبَانَهُ بِفَضِيلَةٍ ، وَخَصَّهُ بِمِزْيَةٍ ، وَأَفْرَدَهُ بِحَالَةٍ ، لَوْ أَصْفَقَتِ الْأُمَّةُ عَلَيْهِ لِأَجْلِهَا لَكَانَ عِنْدَهُ إِبَالَتُهَا

(١) يتظلم ويرتفع إليه (٢) ميمة الشباب : أوله (٣) أى ما كنت عرفت منك شيئاً

(٤) تلجلج : تردد (٥) سجرائه : أصفياه .

وَكَفَّالَتَهَا^(١) . أَنْظُنْ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ الْأُمَّةَ سُذًى بَدَدًا ؛ عَبَاهِلَ^(٢) مَبَاهِلَ ، طَلَاحِي^(٣) مَقْتُونَةً بِالْبَاطِلِ ، مَعْنُونَةً^(٤) عَنِ الْحَقِّ ؛ لَا رَائِدَ وَلَا ذَائِدَ ، وَلَا ضَابِطَ وَلَا حَائِطَ ، وَلَا سَاقِيَّ وَلَا وَاقِيَّ ، وَلَا هَادِيَّ وَلَا حَادِيَّ ! كَلَّا ! وَاللَّهِ مَا اشْتَقَّ إِلَى رَبِّهِ ، وَلَا سَأَلَ الْمَصِيرَ إِلَى رِضْوَانِهِ وَقُرْبِهِ ؛ إِلَّا بَعْدَ أَنْ ضَرَبَ الْمَدَى ، وَأَوْضَحَ الْهُدَى ، وَأَبَانَ الصُّوَى^(٥) ؛ وَأَمَّنَ الْمَسَالِكَ وَالْمَطَارِحَ ؛ وَسَهَّلَ الْمُبَارَكَ وَالْمَهَائِجَ^(٦) ؛ وَإِلَّا بَعْدَ أَنْ شَدَخَ يَافُوخُ^(٧) الشَّرِّكَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَشَرَمَ وَجْهَ النِّفَاقِ لَوَجْهِ اللَّهِ ، وَجَدَعَ أَنْفَ الْفِتْنَةِ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، وَتَقَلَّ فِي عَيْنِ الشَّيْطَانِ بَعُونَ اللَّهِ ، وَصَدَعَ بَمَلٍّ فِيهِ وَيَدُهُ بِأَمْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ .

وَبَعْدُ فَهَؤُلَاءِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ عِنْدَكَ ؛ وَمَعَكَ فِي بُقْعَةٍ وَاحِدَةٍ ؛ وَدَارِ جَامِعَةٍ ، إِنْ اسْتَقَالُونِي لَكَ ، وَأَشَارُوا عِنْدِي بِكَ ، فَأَنَا وَاضِعٌ يَدِي فِي يَدِكَ ، وَصَائِرٌ إِلَى رَأْيِهِمْ فِيكَ .

وَإِنْ تَكُنِ الْآخَرَى فَادْخُلْ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ الْمُسْلِمُونَ ؛ وَكُنِ الْعَوْنَ عَلَى مُضَالِحِهِمْ ، وَالْفَاتِحَ لِمَعَانِقِهِمْ ، وَالْمُرْشِدَ لِمَضَالَتِهِمْ ، وَالرَّادِعَ لِنُفَوَايَتِهِمْ ؛ فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَمَلِ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَالتَّنَاصُرِ عَلَى الْحَقِّ ، وَدَعَانَا نَقْضِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا بِصُدُورِ بَرِيئَةٍ مِنَ الْغُلِّ ؛ وَنَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى بِقُلُوبِ سَلِيمَةٍ مِنَ الضُّغْنِ .

(١) أَصْفَقُوا عَلَى كَذَا : أَطْبَقُوا ، وَآلَ عَلَى الْقَوْمِ إِيَالَةً : وَلَّى (٢) عَبَاهِلَ مَبَاهِلَ : مَهْمَلَةٌ

(٣) الطَّلَاحِي : السَّكَاةُ الْمَعْيِيَّةُ (٤) مَعْنُونَةٌ : مَنْ عَنَنْتُ الْفَرَسَ : حَبَسْتَهُ بِالْعَنَانِ (٥) الصُّوَى :

الْأَعْلَامُ (٦) الْمَهَائِجُ : الطَّرِيقُ (٧) الْيَافُوخُ : مِلْتَقَى عِظَمِ مَقْدَمِ الرَّأْسِ وَمُؤَخَّرِهِ .

وبعد فالناس ثُمَامَةٌ^(١) فارفق بهم ؛ واخُنْ عليهم ، وَلِنْ لهم ، ولا تُشَقْ
نفسك بنا خاصة منهم ؛ وانتركْ ناجِمَ^(٢) الحقدِ حصيداً ؛ وطائر الشر واقعاً ؛ وباب
الفتنة مغلقاً ، فلا قال ولا قيل ؛ ولا لَوَمَ ولا تعنيف ، والله على ما نقول شهيد ،
وبما نحن عليه بصير .

قال أبو عُبَيْدَةَ : فلما تأهَّبتُ للنهوض قال عمر - رضى الله عنه : كُنْ لَدَى
الباب هُنَيْهَةً ، فلى معك دورٌ من القول ، فوَقَفْتُ وما أدري ما كان بعدى ، إلا
أنَّهُ لحقنى بوجهٍ يُبْدِي تَهَلُّلاً ، وقال لى : قل لِمَلِي : الرقادُ مَحَلَّةٌ ، والهوى
مَقْحَمَةٌ^(٣) ، وما منَّا إلا له مقام معلوم ، وحقٌّ مشاعٌ أو مقسوم ، ونَبَأٌ ظاهر
أو مكتوم ؛ وإن أَكْبَسَ الكَيْسَ من مَنَحَ الشاردَ تَأَلُّفاً ، وقاربَ البعيدَ تَلَطُّفاً ،
وَوَزَنَ كلَّ شَيْءٍ بِمِزَانِهِ ، ولم يخلط خبره بَعْيَانِهِ ، ولم يجعل فِتْرَهُ مكانَ شِئْرِهِ ؛
دِيناً كان أو دنياً ؛ ضلالاً كان أو هُدًى .

ولا خير فى عِلْمٍ مُسْتَعْمَلٍ فى جهل ، ولا خير فى معرفةٍ مَشُوبَةٍ بِنُكْرٍ .
ولسنا كَجِلْدَةٍ رُفِعَ^(٤) البعير بين العجان والذَّئِبِ . وكل صالٍ قَبِنَارِهِ ؛ وكلُّ
سَيْلٍ فَالِى قَرَارِهِ . وما كان سكوتُ هذه العصابةِ إلى هذه الغايةِ لِيَعَى ، ولا
كلامها اليوم لِفَرَقٍ أَوْ رِفْقٍ . وقد جدد الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنْفَ كلِّ ذى كِبَرٍ ،
وقصم ظهرَ كلِّ جبار ؛ وقطع لسانَ كلِّ كذوب ، فإِذَا بَعَدَ الحقُّ إِلا الضلال !

(١) الثَّامَةُ : واحدة الثَّام ، وهو نبت ضعيف وهو على التشبيه . (٢) نجم : طلم وظهر ،
والحصيد : المحصود (٣) قصم فى الأمر : رى بنفسه فيه فجأةً بلا روية (٤) الرفغ : أصل
الغخذ من باطن ، والعجان : الاست ، يريد أن منزلتهم بين الأحياء ليست حقيرة مهينة .

ماهذه اُنْخَزُوَانَةُ ^(١) التي في فَرَّاش ^(٢) رَأْسِكَ ! ما هذا الشَّجَا المَعْتَرِض في مَدَارِجِ
أَنْفَاسِكَ ! ماهذه الْقَدَّاءُ التي أَغَشَتْ نَاطِرَكَ ! وما هذه الْوَحَرَةُ ^(٣) التي أَكَلَتْ
شِرَاسِيْفَكَ ^(٤) ! وما هذا الذی لبستَ بِسَبِيهِ جِلْدَ الْفَمَرِ ، واشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ بِالشَّحْنَاءِ
وَالنُّكْرِ !

ولسنا في كِسْرِيَّةٍ كِسْرِيٍّ ، ولا في قَيْصَرِيَّةٍ قَيْصَرٍ ! تَأَمَّلْ لِإِخْوَانِ فَارِسٍ
وَأَبْنَاءِ الْأَصْفَرِ ، قَدْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ جَزْرًا ^(٥) لِسِيوفِنَا ، وَدَرِيَّةً ^(٦) لِرُمَاحِنَا ، وَمَرْمًى لِبُطْعَانِنَا ،
وَتَبَعًا لِسُلْطَانِنَا ؛ بَلْ نَمُنُّ فِي نُورِ نُبُوَّةٍ ، وَضِيَاءِ رِسَالَةٍ ، وَثَمَرَةِ حِكْمَةٍ ، وَآثَرَةِ رَحْمَةٍ ،
وَعُنْوَانِ نِعْمَةٍ ، وَظِلِّ عِصْمَةٍ ، بَيْنَ أُمَّةٍ مَهْدِيَّةٍ بِالْحَقِّ وَالصِّدْقِ ، مَأْمُونَةٍ عَلَى الرَّتْقِ
وَالْفَتْقِ ، لَهَا مِنَ اللَّهِ قَلْبٌ أَبَدِيٌّ ، وَسَاعِدٌ قَوِيٌّ ، وَيدٌ نَاصِرَةٌ ، وَعَيْنٌ نَاطِرَةٌ .

أَتَنْظُنُّ ظَنًّا يَاعْلَى أَنْ أَبَا بَكْرٍ وَثَبَّ عَلَى هَذَا الْأَمْرِ مُفْتَاتًا عَلَى الْأُمَّةِ ، خَادِعًا
لَهَا أَوْ مُتَسَلِّطًا عَلَيْهَا ! أَتُرَاهُ حَلَّ عَقُودِهَا ، وَأَحَالَ عَقُولَهَا ! أَتُرَاهُ جَعَلَ نَهَارَهَا لَيْلًا ،
وَوَزَنَهَا كَيْلًا ، وَيَقَطَّتْهَا رُقَادًا ، وَصَلَحَهَا فُسَادًا ! لَا وَاللَّهِ ! سَلَا عَنْهَا قَوْلُهَا
لَهُ ، وَتَطَامَنَ لَهَا فَلَصِقَتْ بِهِ ، وَمَالَ عَنْهَا فَالَتْ إِلَيْهِ ؛ وَاشْتَارَتْ دُونَهَا فَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ ،
حَبُوءَةً حَبَاهُ اللَّهُ بِهَا ، وَعَاقِبَةً بَلَّغَهُ اللَّهُ إِلَيْهَا ، وَنِعْمَةً سَرَّ بِهِ اللَّهُ جَمَالَهَا ، وَيدٌ أَوْجَبَ
اللَّهُ عَلَيْهِ شُكْرَهَا ، وَأُمَّةٌ نَظَرَ اللَّهُ بِهِ إِلَيْهَا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِخَلْقِهِ ، وَأَزْأَفُ بِعِبَادِهِ ،
يَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ .

وَإِنَّكَ بِمِثْلِ لَا يُجْهَلُ مَوْضِعُكَ مِنْ بَيْتِ النُّبُوَّةِ ، وَمَعْدِنِ الرِّسَالَةِ ، وَلَا يُجْحَدُ

(١) الخنزروانة : السكبر (٢) فراش الرأس : عظام رفاق تلى القحف (٣) الوحرة : وزغة ،
واللراد العدواة والحقد (٤) الشراسيف : جمع شرسوف : وهو الطرف المشرف على البطن
من الضلع (٥) الجزر : كل شيء مباح للذبح (٦) الدريثة : الحلقة يتعلم عليها الطعن والرمي .

حَقُّكَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ ؛ وَلَكِنْ لَكَ مَنْ يَزَاحُكَ بِمَنْسَكِبٍ أَضْخَمَ مِنْ مَنْسَكِبِكَ ،
وَقُرْبَى أَمْسٍ مِنْ قُرْبَاكَ ، وَسَنٍ أَعْلَى مِنْ سَنِّكَ ، وَشِبَعٍ أَرْوَعَ مِنْ شَيْبِكَ ،
وَسَيَادَةٍ لَهَا أَصْلٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَفِرْعَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَمَوَاقِفَ لَيْسَ لَكَ فِيهَا جَهْلٌ وَلَا
نَاقَةٌ ، وَلَا تُذْكَرُ فِيهَا فِي مَقْدَمَةٍ وَلَا سَاقَةٍ ^(١) ، وَلَا تُضْرَبُ فِيهَا بِذِرَاعٍ وَلَا بِإِصْبَعٍ ،
وَلَا تَخْرُجُ مِنْهَا بِبَازِلٍ وَلَا هُمُجٍ ^(٢) ، وَلَمْ يَزَلْ أَبُو بَكْرٍ حَبَّةَ قَلْبٍ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَعَلَاقَةً نَفْسِهِ ، وَعَيْيَةً سِرِّهِ ، وَمَفْزَعَ رَأْيِهِ وَمَشُورَتِهِ ، وَرَاحَةَ كَفِّهِ ،
وَمَرْمَقَ طَرَفِهِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ بِمَحْضَرِ الصَّادِرِ وَالْوَارِدِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ؛ شُهِرَتْ
مَغْنِيَةً عَنِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ .

وَلَعَمْرِي إِنَّكَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَرَابَةً ، وَلَكِنَّهُ أَقْرَبُ
مِنْكَ قُرْبَةً ^(٣) ، وَالْقَرَابَةُ لَحْمٌ وَدَمٌ ، وَالْقُرْبَةُ نَفْسٌ وَرُوحٌ .

وَهَذَا فَرَقٌ عَرَفَهُ الْمُؤْمِنُونَ ، وَلِذَلِكَ صَارُوا إِلَيْهِ أَجْمَعُونَ . وَمَهْمَا شَكَّكَ
فِي ذَلِكَ ، فَلَا تَشْكُ فِي أَنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ ، وَرِضْوَانَهُ لِأَهْلِ الطَّاعَةِ . فَادْخُلْ فِيمَا
هُوَ خَيْرُكَ الْيَوْمَ ، وَأَنْفَعُكَ غَدًا ، وَالْفِطْرُ مِنْ فَيْكَ مَا يَلْقَى بِلَهَاتِكَ ، فَإِنْ يَكُ
فِي الْأَمَدِ طَوْلٌ ، وَفِي الْأَجْلِ فَسُحَّةٌ ، فَسَتَأْكُلُهُ مَرِيئًا أَوْ غَيْرَ مَرِيءٍ ، وَسَتَشْرَبُهُ
هَنِيئًا أَوْ غَيْرَ هَنِيءٍ ، حِينَ لَا رَادَّ لِقَوْلِكَ إِلَّا مَنْ كَانَ آيِسًا مِنْكَ ، وَلَا تَابِعَ لَكَ إِلَّا
مَنْ كَانَ طَامِعًا فَيْكَ ، يَمْضُ ^(٤) إِهَابُكَ ، وَيَمْرُكُ ^(٥) أَدِيمُكَ ، وَيَزْرِي عَلَى
هَدْيِكَ ، هِنَالِكَ تَقْرَعُ السَّنَّ مِنْ نَدَمٍ ، وَتَجْرَعُ الْمَاءَ مَمْزُوجًا بِدَمٍ ، وَحِينَئِذٍ تَأْسَى ^(٦)

(١) ساقاة الجيش : مؤخره (٢) البازل : الجمل القوى الذى دخل فى سنته التاسعة ،
والهجم : الفصيل الذى ينتج فى الصيف فىكون ضعيفاً (٣) القرية : الوسيلة (٤) يمض إهابك :
يمرق جلده (٥) يمرك أديمك : يدلك (٦) تأسى : تحزن .

على ما مضى من عيرك ودَارِجِ قوتك ، فتودَّ أَنْ لو سقيت بالكأس التي أيتها ،
وَرُدِدَتْ إلى حالتك التي استغويتها . والله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغه ، وغيب
هو شاهده ، وعاقبة هو المرجو لسرائها وضرائها ، وهو الولي الحميد ، الغفور
الودود .

قال أبو عبيدة : فتمشيتُ مترملاً^(١) ، أنوء كأنما أخطو على رأسي ، فرَقَا
من الفرقة ، وشفقاً^(٢) على الأمة حتى وصلت إلى علي رضي الله عنه في خلاء ،
فابتنثته^(٣) بنبي كله ، وبرئت إليه منه ، ورققت به ؛ فلما سمعها ووعاها ، وسرَّتْ
في مفاصله حياءها قال : حَلَّتْ مُعْلَوِّطَةً^(٤) ، وولتْ مُخْرَوِّطَةً^(٥) ، وأنشأ يقول :

إِحْدَى لِيَالِيكَ فِهَيْسِي^(٦) هَيْسِي لَا تَنْعَمِي اللَّيْلَةَ بِالتَّعْرِيسِ^(٧)

نعم يا أبا عبيدة ، أكلُ هذا في أنفس القوم ، ويحسُّون به ، ويضطغنُون^(٨)
عليه !

قال أبو عبيدة :

فقلت : لا جوابَ لك عندي ، إنما أنا قاضٍ حقَّ الدين ، وراتقٌ
فتقَّ المسلمين ، وسادُّ ثُلُمَةَ الأمة ، يعلم الله ذلك من جُلْجُلَانٍ^(٩) قلبي ،
وقرارةِ نفسي .

فقال علي رضي الله عنه : والله ما كان قعودي في كسرِ هذا البيت قصداً

(١) مترملاً : تزمّل : تلفف (٢) الشفق : الشفقة (٣) أبثنثته السر : أظهرته له : والبت :
الحال (٤) معلوطة : مقتحمة من غير روية (٥) مخروطة : مسرعة (٦) هيسي : سيري
أي سير كان (٧) عرس القوم : تزلوا في آخر الليل للاستراحة (٨) أي ينطوون على الضغن
وهو الحقد (٩) جلجلان قلبي : أي حفته .

للخلاف ، ولا إنكاراً للمعروف ، ولا زِراية على مُسلمٍ ؛ بل لما قد وَقَدَنِي ^(١) به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفقده . وذلك أني لم أشهد بعده مشهداً إلا جدد عليّ حزناً ، وذكرني شجناً ، وإنَّ الشوق إلى اللحاق به كافٍ عن الطمع في غيره ، وقد عَكَفْتُ على عهدِ الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرق ؛ رجاء ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عمله ، وأسلم لعله ومشيئته ، وأمره ونهيه ، على أني ما علمت أنَّ التظاهر على واقعٍ ، ولا عن الحق الذي سيقَ إلى دافع .

وإذ قد أَفْعِمَ الوادي بي ، وحشد النادى من أَجْلِي ، فلا مرحباً بما ساء أحداً من المسلمين وسرنى . وفي النفس كلامٌ لولا سابقُ عَقْدٍ وسالفُ عَهْدٍ ، لشفيتُ غيظي بِخَنْصَرِي وبِنَصْرِي ؛ وخضتُ لِحُجَّتِهِ بِأَخْمَصِي وَمَقَرِّي ، ولكني مُلْجِمٌ إلى أَنَّ أَلْقَى الله ربي ، وعنده أَحْتَسِبُ ما نزل بي . وإني غاد إلى جماعتكم ، فمبايعٌ صاحبكم ، صابرٌ على ما ساءني وسرَّكم ، ليقضى الله أمراً كان مفعولاً .

قال أبو عُبَيْدَةَ : فَعُدْتُ إلى أبي بكرٍ رضى الله عنه ، فقصصت عليه القول على غَرَّةٍ ^(٢) ، ولم أختزل شيئاً من حلوه ومرّه ؛ وبكَّرتُ غُدُوَّةً إلى المسجد ، فلما كان صباح يومئذٍ إذا علىَّ يَحْتَرِقُ الجماعةُ إلى أبي بكرٍ رضى الله عنهما ، فبايعه ، وقال خيراً ، ووصف جليلاً ، وجلس زميتاً ، واستأذن للقيام ، فمضى وتبعه عمر مُكْرِماً له ، مستثيراً لما عنده .

وقام أبو بكرٍ إليه فأخذ بيده وقال : إن عصابةً أنتَ منها يا أبا الحسن

(١) وفذه : تركه عليلاً ، وصرعه (٢) على غره : أي كما هو ، وكما نس على .

لمصومة ، وإن أمة أنت فيها لمرحومة ، ولقد أصبحت عزيزاً علينا ، كريماً لدينا ، نخافُ الله إذا سخطَ ، ونرجوه إذا رضى ، ولولا أنى شدته^(١) لما أجبْتُ إلى ما دُعيتُ إليه ، ولكنى خِفْتُ الفرقة ، واستثنار الأنصار بالأمر على قريش ، وأعجلتُ عن حضورك ومشاورتك ، ولو كنتُ حاضراً لبايعتُك ولم أعدِلْ بك ، ولقد حطَّ الله عن ظهرك ما أثقل كاهلي به ، وما أسدَّ من ينظر الله إليه بالكفاية ؛ وإنا إليك محتاجون ، وبفضلك عالمون ، وإلى رأيك وهديك فى جميع الأحوال راغبون ، وعلى حمايتك وحفيظتك^(٢) معوِّلون . ثم انصرف وتركه مع عمر ؛ فالتفت على إلى عمر فقال :

والله ما قعدتُ عن صاحبكم كارهاً ، ولا أتيتُهُ فرقاً ، ولا أقولُ ما أقولُ
تَعَلَّةً^(٣) .

وإنى لأعرف منتهى طرفى ، ومَحْطَ قدى ، ومَتَرَعِ قوسى ، ومَوْقِعِ سَهْمى ؛
ولكن قد أَرَمْتُ^(٤) على فأسمى ؛ ثَقَّةَ رَبِّى فى الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضى الله عنه : كَفَّفَكَ غَرَبَكَ ، واستوقِفْ سِرْبَكَ ، ودع
العَصِيَّ بلحائها ، والدَّلَاءَ على رشائها^(٥) ، فَإِنَّا من خلفها وورائها ، إِن قَدَحْنَا
أَوْزِينَآ ، وإِن مَتَّحْنَا أَرْوِينَآ ، وإِن قَرَحْنَا^(٦) أَدَمِينَآ ، ولقد سميتُ أُمَائِيْلَكَ^(٧)
التي لَفَزَتْ بها صادرة عن صدرٍ أَكِلَ بِالْجَوَى ، ولو شئتُ لَقُلْتُ على مَقَالَتِكَ
ما إِن سَمِعْتَهُ نَدِمْتَ على ما قلتَ ، وزعمتُ أَنك قعدتَ فى كِنِّ بيتك لما وَقَدَكَ
به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من فَقْدِهِ ، فهو وَقْدَكَ ولم يَقْدِ غيرَكَ ! بل مصابه

(١) شدة : دهشت (٢) الحفيظة : اسم بمعنى الحافظة (٣) التعلقة : ما يتعلق به
(٤) أزمُ الفرس على فأس الاجام : إذا عضها وقبض عليها ، وفأس الاجام : الحديدة المعترضة منه
فى الخنك ، يريد أنه كتم ما فى نفسه (٥) الرشاء : جبل الدلو (٦) قرح : جرح
(٧) أمائيل : جمع أمثلة ، تمثل : إذا أنشد بيتاً ثم آخر ، ثم آخر وهى الأمثلة .

أَعْظَمُ وَأَعْمُ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ مِنْ حَقِّ مُصَابِهِ أَلَّا تَصْدَعَ شَمْلَ الْجَمَاعَةِ بِفُرْقَةٍ لَا عَصَامَ لَهَا ، وَلَا يُؤْمِنُ كَيْدُ الشَّيْطَانِ فِي بَقَائِهَا ، هَذِهِ الْعَرَبُ حَوْلَنَا ، وَاللَّهُ لَوْ تَدَاعَتْ عَلَيْنَا فِي صُبْحِ نَهَارٍ لَمْ نَلْتَقَ فِي مَسَانِهِ .

وَزَعَمْتَ أَنَّ الشَّوْقَ إِلَى اللَّحَاقِ بِهِ كَافٍ عَنِ الطَّمَعِ فِي غَيْرِهِ ! فَمِنْ عَلَامَةِ الشَّوْقِ إِلَيْهِ نَصْرَةُ دِينِهِ ، وَمُؤَاوَزَةُ أَوْلِيَائِهِ ، وَمَعَاوِزَتُهُمْ .

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ عَكَفْتَ عَلَى عَهْدِ اللَّهِ تَجْمَعُ مَا تَفَرَّقَ مِنْهُ ؛ فَمِنْ الْعُكُوفِ عَلَى عَهْدِ اللَّهِ النَّصِيحَةُ لِعِبَادِ اللَّهِ ، وَالرَّافَةُ عَلَى خَلْقِ اللَّهِ ، وَبَذْلُ مَا يَصْلُحُونَ بِهِ وَيَرْشُدُونَ عَلَيْهِ .

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ التَّظَاهَرَ وَاقِعٌ عَلَيْكَ ، أَيْ حَقٌّ لُطَّ (١) دُونَكَ ! قَدْ سَمِعْتَ وَعَلِمْتَ مَا قَالَ الْأَنْصَارُ بِالْأَمْسِ سِرًّا وَجَهْرًا ، وَتَقَلَّبْتَ عَلَيْهِ بَطْنًا وَظَهْرًا ، فَهَلْ ذَكَرْتَنكَ أَوْ أَشَادْتَ بِكَ ، أَوْ وَجَدْتَ رِضَاهُمْ عَنْكَ ؟ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِلِسَانِهِ : إِنَّكَ تَصْلِحُ لِهَذَا الْأَمْرِ ، أَوْ أَوْمَأَ بَعَيْنِهِ ، أَوْ هَمَّ فِي نَفْسِهِ ؟ أَنْظِنُ أَنَّ النَّاسَ ضَلُّوا مِنْ أَجْلِكَ ، وَعَادُوا كُفَّارًا زُهْدًا فَيْكَ ، وَبَاعُوا اللَّهَ تَحَامُلًا عَلَيْكَ ؟ لَا وَاللَّهِ ! لَقَدْ جَاءَنِي عَقِيلُ بْنُ زِيَادِ الْخَزْرَجِيِّ فِي نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، وَمَعَهُمْ شَرْحَبِيلُ بْنُ يَعْقُوبِ الْخَزْرَجِيِّ وَقَالُوا : إِنَّ عَلِيًّا يَنْتَظِرُ الْإِمَامَةَ وَيَزْعُمُ أَنَّهُ أَوْلَى بِهِمَا مِنْ غَيْرِهِ ، وَيُنْكَرُ عَلَى مَنْ يَعْقِدُ الْخِلَافَةَ ؛ فَأَنْكَرْتُ عَلَيْهِمْ ، وَرَدَدْتُ الْقَوْلَ فِي تَحْرِيمِهِمْ حَيْثُ قَالُوا : إِنَّهُ يَنْتَظِرُ الْوَحْيَ ، وَيَتَوَكَّفُ (٢) مُنَاجَاةَ الْمَلِكِ .

فَقُلْتُ : ذَاكَ أَمْرٌ طَوَّاهُ اللَّهُ بَعْدَ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَوْ كَانَ الْأَمْرُ

(٢) يتوكف : ينتظر .

(١) لط : جحد

مَعْقُوداً بِأَنْشُوطَةٍ^(١) ، أَوْ مَشْدُوداً بِأَطْرَافِ لِيْطَةٍ^(٢) ؟ كَلَّا ! وَاللّٰهُ لَا عَجَاءَ بِحَمْدِ اللّٰهِ
إِلَّا أَفْصَحَتْ ، وَلَا شُكَّاءَ إِلَّا وَقَدْ تَفَقَّحَتْ .

وَمِنْ أَعْجَبِ شَأْنِكَ قَوْلُكَ : « وَلَوْلَا سَالِفُ عَهْدٍ وَسَابِقُ عَقْدٍ ، لَشَفِيتُ
غِيْظِيْ » ! وَهَلْ تَرَكَ الدِّينُ لِأَهْلِهِ أَنْ يَشْفُوْا غِيْظَهُمْ يَدٍ أَوْ بِلْسَانٍ ؟ تَاكَ جَاهِلِيَّةٌ ،
وَقَدْ اسْتَأْصَلَ اللّٰهُ شَأْفَتَهَا ، وَاقْتَلَعَ جُرْثُومَتَهَا ، وَهُوَرٌ^(٣) لَيْلَهَا ، وَغَوْرٌ سَيْلَهَا ،
وَأَبْدَلَ مِنْهَا الرُّوحَ وَالرَّيْحَانَ ، وَالْهَدْيَ وَالْبَرْهَانَ . وَزَعَمْتَ أَنَّكَ مُلْجِمٌ ؛ وَلَعَمْرِي
إِنَّ مَنْ اتَّقَى اللّٰهَ ، وَآثَرَ رِضَاهُ ، وَطَلَبَ مَا عِنْدَهُ ، أَمْسَكَ لِسَانَهُ ، وَأَطْبَقَ فَاهُ ،
وَجَعَلَ سَعْيَهُ لِمَا وَرَاهُ ..

وَأَمَّا قَوْلُكَ : إِنِّي لِأَعْرِفُ مَنَزِعَ قَوْمِيْ ، فَإِذَا عَرَفْتَ مَنَزِعَ قَوْمِكَ عَرَفَ
غَيْرُكَ مُضْرِبَ سَيْفِهِ وَمَطْعَنَ رِجْلِهِ ؛ وَأَمَّا مَا تَزْعُمُهُ مِنَ الْأَمْرِ الَّذِي جَعَلَهُ رَسُولُ اللّٰهِ
لَكَ فَتَخَلَّفْتَ إِعْذَاراً إِلَى اللّٰهِ وَإِلَى الْعَارِفَةِ بِهِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، فَلَوْ عَرَفَهُ الْمَسَامُونَ لَجَفَحُوا
إِلَيْهِ ، وَأَصْفَقُوا عَلَيْهِ ، وَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيَجْعَمَهُمْ عَلَى الْعَمَى ، وَلَا لِيُضْرِبَهُمْ بِالضَّلَالِ بَعْدَ
الْهُدَى ، وَلَوْ كَانَ لِرَسُولِ اللّٰهِ فِيكَ رَأْيٌ ، وَعَلَيْكَ عَزْمٌ ، ثُمَّ بَعَثَهُ اللّٰهُ ، فَرَأَى اجْتِمَاعَ
أُمَّتِهِ عَلَى أَبِي بَكْرٍ لِمَا سَقَاهُ آرَاءَهُمْ ، وَلَا ضَلَلَ أَحْلَامَهُمْ ، وَلَا آثَرَكَ عَلَيْهِمْ ، وَلَا
أَرْضَاكَ بِسُخْطِهِمْ ، وَلَا أَمَرَكَ بِاتِّبَاعِهِمْ وَالِدُخُولِ مَعَهُمْ فِيمَا ارْتَضَوْهُ لَدِينِهِمْ .

فَقَالَ عَلَى رِضَى اللّٰهِ عَنْهُ : مَهْلًا يَا أَبَا حَفْصٍ ، وَاللّٰهُ مَا بَذَلْتُ مَا بَذَلْتُ وَأَنَا
أُرِيدُ نَكْتَهُ ، وَلَا أَقَرَّرْتُ مَا أَقَرَّرْتُ وَأَنَا أَبْتَغِيْ حَوْلًا عَنْهُ : وَإِنَّ أَحْسَرَ

(١) الْأَنْشُوطَةُ : عَقْدَةٌ يَسْهَلُ انْحِلَالُهَا إِذَا أُخِذَ بِأَحَدِ طَرَفَيْهَا انْتَفَحَتْ
(٢) اللَّيْطَةُ : قَشْرَةُ
(٣) هَوْرٌ : أَذْهَبٌ .

الناس صَفَقَةً عند الله مَنْ آثَرَ النِّفَاقَ ، واحتَضَنَ الشَّقَاقَ ، وفي الله خَلَفَ من كل فائت ، وعَوَضَ من كل ذاهب ، وسلَوَةٌ عن كل حادث ، وعليه التوكل في جميع الحوادث . ارجع يا أبا حفص إلى مجلسك نَاقِعَ القَلْبِ مَبْرُودَ الغَلِيلِ ، فسيح اللِّبَانِ ^(١) ، فصيح اللسان ؛ فليس وراء ما سمعتَ وقلتُ إلا ما يشدُّ الأزرَ ، ويحطِّ الوِزرَ ، ويضع الإِصرَ ^(٢) ، ويجمع الألفَةَ بِمَشِيئَةِ اللهِ وحسن توفيقه .

قال أبو عُبيدة : فانصرف على وعمر رضى الله عنهما ، وهذا أصعب ما مر على بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(٣) .

(١) اللبان : الصدر (٢) الإصر : الذنب والثقل (٣) قال ابن أبي الحديد في نهاية هذه القصة : الذى يغلب على ظنى أن هذه المراسلات والمحاورات والكلام كله موضوع مصنوع ، وأنه من كلام أبي جيان التوحيدى لأنه بكلامه ومذهبه في الخطابة والبلاغة أشبه (انظر صفحة ٥٩٧ من ج ٢) .

٩٣ — بِمَنْ أَسْتَجِيرُ مِنْ جَوْرِكَ؟ *

جلس معاوية بن أبي سفيان في مجلس كان له بدمشق ، وكان ذلك الموضع مفتوح الجوانب يدخل منه النسيم ، فبينما هو جالس ينظر إلى بعض الجهات في يوم شديد الحر ، وقد اشتدَّ نفحُ الهجير^(١) ، إذ نظرَ إلى رجل يمشی نحوه وهو يتلظى بالنار من حرِّ التراب ، ويحجِل في مَشْيِهِ حافياً ، فتأمله معاوية وقال لجلسائه : هل خلق الله أشقَّ ممن يحتاج إلى الحركة في هذه الساعة ؟ فقال بعضهم : لعله يقصدُ أمير المؤمنين ، فقال : والله لئن كان قاصدي سائلاً لأعطينه ، أو مستجيراً لأجيرنه ، أو مظلوماً لأنصرنه . . . يا غلام ؛ قف بالباب ؛ فإن طلبني هذا الأعرابي فلا تمنعه الدخول على .

فخرج الغلامُ قَوَّافٍ الأعرابيُّ ، وقال : ما تريد ؟ قال : أمير المؤمنين . قال : ادخل ، فدخل وسلم على معاوية ، فقال له : ممن الرجل ؟ قال : من تميم ، قال : ما الذي جاء بك في مثل هذا الوقت ؟ قال : جئتُك مشتكياً وبك مستجيراً . قال : ممن ؟ قال : من مروان بن الحكم ، عاملك ، ثم أنشد هذه الأبيات :

معاوى ، يا ذا الفضل والحلم والعقل وذا البرِّ والإحسان والجود والبذل
أنتك لما ضاق في الأرض مذهبى وأنكرت مما قد أصبت به على
ففرج - كلاك الله - عني فإنني لقيت الذي لم يلقه أحد قبلي

* المختار من نواهد الأخبار « مخطوط » ، نهاية الأرب : ٢ - ١٥٦

(١) الهجير : نصف النهار عند اشتداد الحر .

وَحُدْنِي - هَذَاكَ اللَّهُ - حَقٌّ مِنَ الَّذِي رَمَانِي بِسَهْمٍ كَانَ أَبْسَرُهُ قَتْلِي !
وَكُنْتُ أُرْجَى عَدْلَهُ إِنْ أَتَيْتُهُ فَأَكْثَرَ تَرَدَّادِي مَعَ الْحَبْسِ وَالْكَبْلِ
سَبَّانِي سُعْدِي وَانْبَرَى لِخُصُومَتِي وَجَارَ وَلَمْ يَعْدِلْ وَغَاصَبَنِي أَهْلِي
فَطَلَقْتُهَا مِنْ جَهْدٍ مَا قَدْ أَصَابَنِي فَيْذَا ، أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، مِنَ الْعَدْلِ ؟

فلما سمع معاوية إنشاده والنارُ تتوقد من فيه قال : مَهْلًا يَا أَخَا الْعَرَبِ ، اذْكُرْ
قِصَّتَكَ وَأَفْصَحْ عَنْ أَمْرِكَ .

قال : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، كَانَتْ لِي زَوْجَةٌ وَهِيَ ابْنَةُ عَمِّي وَكُنْتُ لَهَا مَحَبًّا وَبِهَا
كَلِفًا ؛ وَكُنْتُ بِهَا قَرِيرَ الْعَيْنِ ، طَيِّبَ الْعَيْشِ ، وَكَانَتْ لِي صِرْمَةً ^(١) مِنَ الْإِبِلِ
أَسْتَمِينُ بِهَا عَلَى قِيَامِ حَالِي وَإِصْلَاحِ أَوْدِي ^(٢) ؛ فَأَصَابَتْنَا سَنَةٌ ذَاتَ قَحْطٍ شَدِيدٍ ،
أَذْهَبَتْ الْخُفَّ وَالظَّلْفَ ، وَبَقِيَتْ لَا أَمْلَكَ شَيْئًا ؛ فَلَمَّا قَلَّ مَا بِيَدِي ؛ وَذَهَبَ حَالِي
وَمَالِي ، بَقِيَتْ مُهَانًا ثَقِيلًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ ؛ قَدْ أَبْعَدَنِي مَنْ كَانَ يَشْتَهِي الْقُرْبَ
مَنِي ، وَازْوَرَّ عَنِّي مَنْ كَانَ يَرْغَبُ فِي زِيَارَتِي !

فَلَمَّا عَلِمَ أَبُوهُمَا مَا بِي مِنْ سُوءِ الْحَالِ وَشَرِّ الْمَالِ أَخَذَهَا مَنِي ، وَسَأَلَنِي الْفِرَاقَ
وَجَعَدَنِي وَطَرَدَنِي ، وَأَغْلَظَ عَلَيَّ ؛ فَاتَيْتُ إِلَى عَامِلِكَ مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ مُسْتَضْرِحًا ،
وَبِهِ رَاجِيًا لِيَنْصُرَنِي ، فَاحْضَرْنَا أَبَاهَا وَسَأَلَهُ عَنْ حَالِي ، فَقَالَ : مَا أَعْرَفَهُ قَبْلَ الْيَوْمِ ،
فَقُلْتُ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ! إِنْ رَأَى أَنَّ يُحْضَرُهَا وَيَسْأَلُهَا عَنْ قَوْلِ أَبِيهَا فَلْيَفْعَلْ .

(١) الصِرْمَةُ : الْقِطْعَةُ مِنَ الْإِبِلِ ، وَهِيَ مَا بَيْنَ الْعَشْرِينَ إِلَى الثَّلَاثِينَ (٢) الْأَوْدُ : الْعُوجُ .

فبعثت إليها مروّان وأحضرها مجلسه ، فلما وقفت بين يديه وقعت منه موقع الإعجاب ؛ فصار لي خصماً وعلىّ منكرًا ! واتهرنى وأظهر لى الفضبَ وبث بي إلى السجن ، فبقيت كأنما خرّرتُ من السماء في مكان سحيق !

ثم قال لأبيها : هل لك أن تزوجها منى على ألف دينار وعشرة آلاف درهم لك ؟ وأنا ضامن لك خلاصها من هذا الأعرابي . فرغب أبوها في البذل وأجابه لذلك !

فلما كان من الغد بعث إلىّ وأخرجني من السجن ؛ وأوقفني بين يديه ، ونظر إلىّ كالأسد الفضيّان ؛ وقال : يا أعرابي ، طلقْ سُمُدى ؛ فقلت : لا أقدر على هذا ، فسלט علىّ جماعة من غلمانِه ، فأخذوا يمدُّونني بأنواع العذاب ، فلم أجد بُدًّا من ذلك ففعلت ؛ ثم عادوا بي إلى السجن ؛ فكثت فيه إلى أن انقضت عِدَّتُها ، فتزوجها ودخل بها . وقد أتيتك مستجيرًا وإليك ملجئًا ثم أنشد :

في القلب منى نار	والنار فيها استعار !
والجسم منى سقيم	واللون فيه اصفرار
وفي فؤادى جحر	والجحر فيه شرار
والعين تبكي بشجو	فدمعها مدرار
والحب داء عسير	فيه الطيب يحار
تحملت منه عظيمًا	فما عليه اضطبار
فليس ليلى ليل	ولا نهاري نهار !

ثم اضطرب وخرّ مغشيًا عليه ، وأخذ يتلوّى كالحية المقتولة ؛ فلما سمع كلامه وإنشاده قال : تمدّى فظلم مروّان بن الحكم في حدود الدّين ، واجترأ على حُرْم

المسلمين ، ، ثم قال : والله يا أعرابي ، لقد أتيتني بحديث لم أسمع بمثله قط ؛ ثم دعا بدواة وقرطاس ، وكتب إلى مروان بن الحكم : قد بلغني أنك اعتديت على رعيته ، وانتهكت حرمة من حرم المسلمين ؛ وتعديت حدود الدين ، وينبغي لمن كان والياً أن يفضَّ بصره عن شهواته ، ويزجر نفسه عن لذاته ، وكتب في آخره :

رَكَبْتُ أَمْرًا عَظِيمًا لَسْتُ أَعْرِفُهُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ جَوْرِ أَمْرِي زَانِي
قَدْ كُنْتُ تَشْبَهُ صُوفِيًّا لَهُ كُتُبٌ مِنْ الْفَرَائِضِ أَوْ آيَاتِ فُرْقَانٍ
حَتَّى أَتَانِي الْفَتَى الْمُذْرَى مُنْتَحِبًا يَشْكُو إِلَيَّ بِحَقِّ غَيْرِ بُهْتَانٍ
أَعْطَى الْإِلَهِ عَهْدًا لَا أَخِيسُ بِهَا أَوْلَا فَبَرْتُ مِنْ دِينٍ وَإِيمَانٍ
إِنْ أَنْتَ رَاجَعْتَنِي فِيمَا كُتِبْتُ بِهِ لِأَجْمَلَنَكَ لِحْمًا بَيْنَ عِقْبَانٍ
طَلَّقَ سُعَادَ ، وَعَجَّلَهَا مَجْمُورَةً مَعَ الْكُمَيْتِ وَمَعَ نَصْرِ بْنِ ذِيانٍ !
فَمَا سَمِعْتُ كَمَا بُلِّغْتُ مِنْ عَجَبٍ وَلَا فِعَالِكَ حَقًّا فَعَلَ إِنْسَانٌ

ثم طوى الكتاب وطبعه بخاتمه ، واستدعى الكميث ونصر بن ذبيان - وكان يستنهما في قضاء الحوائج لأماتهما - فأخذهما وسارا حتى قدما المدينة ؛ ودخلا على مروان وسلمما إليه الكتاب ، ففضَّه وقرأه ، ثم ارتعدت فرائضه ، وطلَّقها في الحال وبعث بها إلى أمير المؤمنين ، وكتب إلى معاوية كتاباً فيه :

حوراء يقصر عنها الإصْفُ إِنْ وَصِفَتْ أَقُولُ ذَلِكَ فِي سِرِّ وَإِعْلَانٍ
فلما قرأه قال : لقد أحسن في الطاعة ؛ وأطنب في حسن الجارية .

ولما رأى معاوية الجارية رأى صورة لم ير مثلاً في الحسن والقدر والجمال ؛ وخاطبها فوجدها أفصح النساء بمذوبة منطق ، ثم قال : على بالأعرابي ؛ فأتى إليه

وهو على غاية من سوء الحال ، فقال : يا أعرابي ؛ هل لك عنها من سلوة ، وأعوّضك ثلاث جوارٍ مع كل جارية ألف دينار ، وأقسّم لك من بيت المال في كل سنة ما يكفيك ويُعِينك على صحبتهن ؟

فلما سمع الأعرابي كلام معاوية شفق شفقة ظن معاوية أنه قد مات ، ولما أفاق قال له : ما بالاك ؟ فقال : شرّ بال ، وأسوأ حال ؛ استجرتُ بعدلك من جور ابن الحكم ، فبِمَنْ أَسْتَجِيرُ من جَوْرِكَ ! ثم أنشد :

لا تَجْعَلْنِي وَالْأَمْثَالُ تُضْرَبُ بِي كَلِمَتَجِيرٍ مِنَ الرِّمَاءِ بِالنَّارِ
ارْدُدْ سَعَادَ عَلَى حَيْرَانٍ مَكْتَنِبٍ يُنْمِي وَيُصْبِحُ فِي هَمٍّ وَتَذْكَارِ
قَدْ شَفَّهَ قَلْقٌ مَامْشُلُهُ قَلْقٌ وَأُسْعِرَ الْقَلْبُ مِنِّي أَى إِسْعَارِ
كَيْفَ السَّلْوُ وَقَدْ هَامَ الْفَوَادُ بِهَا وَأَصْبَحَ الْقَلْبُ عَنْهَا غَيْرَ صَبَّارِ !
ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ لو أعطيتنى ما حوته الخلافة ما اعتصمتُهُ دون سَعْدَى .

فقال معاوية : يا أعرابي ؛ إنك مُقِرٌّ أنك طلقَها ، ومروان مُقِرٌّ أنه طلقَها ، ونحن نَحْيَرُها ، فإن اختارت سواك زَوَّجناه بها ، وإن اختارتك رجعنا بها إليك . قال : افعل ، ولا حول ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ .

ودعاها معاوية . وقال لها : ماتقولين ياسعدى ؟ أى أحبُّ إليك ؟ أمير المؤمنين فى عزّه وشرفه وسلطانهِ وقُصُوره وما يصيرُ من عُنْدِهِ ، أو مروان بن الحكم فى عُسْفِهِ وجوره ، أو هذا الأعرابي مع جُوعِهِ وفقرهِ وسوء حالهِ ؟ فأنشدت هذين البيتين :

هذا وإن كان في فقرٍ وإضرارٍ أعزُّ عندي من قوى ومن جارى !
وصاحبِ التاجِ أو مروانَ عاملِهِ وكلُّ ذى درهمٍ عندي ودينارٍ
ثم قالت : والله يا أمير المؤمنين ؛ ما أنا بخاذلته لحادثة الزمان ، ولا لغدّرات
الأيام ؛ وإنّ لى معهُ صحبةً قديمةً لا تنسى ، ومحبةً لا تبلى ، وأنا أحقّ من صبر
معه على الضّرّاء ، كما تنعمتُ معه فى السّرّاء .
فتمعّجب معاويةُ من عقلها ومروءتها ، وأمر لها بعشرة آلاف درهم ، وردّها بعقد
جديد ، فأخذها الأعرابى وانصرف يقول :
خلّوا عن الطريق للأعرابى ألم ترقّوا ويحكم ، بما بى !

٩٤ — خدعة لمعاوية *

سمع يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بجمال زينب بنت إسحاق زوج عبد الله بن سلام القرشي ؛ وكانت من أجمل النساء في وقتها ، وأحسنهن أدباً ، وأكثرهن مالاً ؛ ففتن بها ؛ فلما عيل صبره ذكر ذلك لبعض خاصة أبيه ، واسمه رفيق ، فذكر ذلك لمعاوية ، وقال له : إن يزيد قد ضاق ذرعاً بها .

فبعث معاوية إلى يزيد ، فاستفسره عن أمره ؛ فبث له شأنه ؛ فقال : مهلاً يا يزيد ؛ فقال له : علام تأمرني بالمهل وقد انقطع منها الأمل ؟ فقال له معاوية : فأين مرؤءتك وحججك وتقالك ؟ فقال : قد عيل الصبر ، ولو كان أحدٌ ينتفع فيما يُبتلى به من الهوى بتقاه ، أو يدفع ما أقصده ^(١) بحججه ، لكان أولى الناس به داود ^(٢) حين ابتلى به .

فقال : أكنتم يا بني أمرك ؛ فإن البؤح به غير نافعك ؛ والله بالغ أمره فيك ، ولا بد مما هو كائن .

وأخذ معاوية في الاحتيال في تبليغ يزيد مناه ؛ فكتب إلى زوجها عبد الله بن سلام — وكان قد استعمله على العراق : أن أقبل حين تنظرُ كتابي لأمرٍ فيه حظك إن شاء الله تعالى ، فلا تتأخر عنه .

* نهاية الأرب : ٦ - ١٨٠

(١) أقصده : أقصدت الرجل إذا طعنته أو رميته بسهم فلم تخطىء مقائله (٢) يشير إلى داود عليه السلام ، حينما تروج من خطيبة أحد جنوده ، ولقد عاتبه الله في ذلك ، فاستغفره ، فغفر له .

فَأَغَذَّ^(١) السَّيْرَ وَقَدِّمَ ؛ فَأَنْزَلَهُ مَعَاوِيَةَ مِنْزِلًا كَانَ قَدْ هَيَّأَ لَهُ ، وَكَانَ عِنْدَ مَعَاوِيَةَ يَوْمَئِذٍ بِالشَّامِ أَبُو هُرَيْرَةَ وَأَبُو الدَّرْدَاءُ ، فَقَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : إِنْ أَلَلَّكَ اللَّهُ قَدْ قَسَمَ بَيْنَ عِبَادِهِ قِسْمًا ، وَوَهَبَهُمْ نِعْمًا أَوْجَبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا شُكْرَهُ ، وَحَتَمَ عَلَيْهِمْ حِفْظَهَا ، خِفَانِي مِنْهَا عَزَّ وَجَلَّ بِأَتَمِّ الشَّرَفِ وَأَفْضَلِ الذِّكْرِ ، وَأَوْسَعَ عَلَى الرِّزْقِ ، وَجَعَلَنِي رَاعِيَ خَلْقِهِ ، وَأَمِينَهُ فِي بِلَادِهِ ، وَالْحَاكِمَ فِي أَمْرِ عِبَادِهِ ؛ لِيَبْلُغَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ! وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلْمَرْءِ أَنْ يَتَّقِدَ وَيَنْظُرَ مِنْ اسْتِرْعَاءِ اللَّهِ أَمْرَهُ ، وَمَنْ لَا غِنَى بِهِ عَنْهُ .

وَقَدْ بَلَغَتْ لِي ابْنَةُ أَرِيدَ زَوَاجَهَا وَالنَّظَرَ فِي اخْتِيَارِ مَنْ يُبَاعِلُهَا^(٢) ، لَعَلَّ مِنْ يَكُونُ بَعْدِي يَقْتَدِي فِيهِ بِهَدْيِي ، وَيَتَّبِعَ فِيهِ أَثَرِي ؛ فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَ هَذَا الْمَلِكَ بَعْدِي مِنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ ، وَيَحْمِلُهُ عَلَى تَمْضِيلِ الْبَنَاتِ^(٣) ؛ فَلَا يَرُونَ لَهَا كِفْئًا وَلَا نَظِيرًا . وَقَدْ رَضِيتُ لَهَا ابْنَ سَلَامٍ الْقُرَشِيَّ ؛ لَدِينَهُ وَشَرَفُهُ ، وَفَضْلُهُ وَسُرُوءَتُهُ وَأَدَبُهُ ؛ فَقَالَ لَهُ : إِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِرِعَايَةِ نَعَمِ اللَّهِ وَشُكْرِهَا ، وَطَلَبِ مَرْضَاتِهِ فِيمَا اخْتَصَصَهُ لَأَنْتَ .

فَقَالَ لَهَا مَعَاوِيَةُ : فَاذْكُرَا لَهُ ذَلِكَ عَنِّي ! وَقَدْ كُنْتُ جَعَلْتُ لَهَا فِي نَفْسِي شُورَى ، غَيْرَ أَنِّي أَرْجُو أَلَّا تَخْرُجَ مِنْ رَأْيِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ ، وَأَتَيَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ ، وَذَكَرَا لَهُ الْقِصَّةَ .

ثُمَّ دَخَلَ مَعَاوِيَةُ عَلَى ابْنَتِهِ ، وَقَالَ لَهَا : إِذَا دَخَلَ عَلَيْكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ وَأَبُو هُرَيْرَةَ ، فَمَرْضَا عَلَيْكَ أَمْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ ، وَحِضَّاكَ عَلَى الْمَسَارَعَةِ إِلَى اتِّبَاعِ رَأْيِي

(١) أَغَذَّ السَّيْرَ فِيهِ : أَسْرَعَ (٢) يَبَاعِلُهَا : يَتَّخِذُهَا زَوْجًا وَبَعْلًا (٣) تَمْضِيلُ الْبَنَاتِ : حَبْسُهُنَّ عَنِ الزَّوَاجِ ظُلْمًا .

فيه ؛ فقولى لها : إنه كفء كريم ، وقريب حميم ، غير أن تحتة زينب بنت إسحاق ، وأخاف أن يعرض لى من الفيرة ما يعرض للنساء ؛ فأتناول منه ما يسخط الله تعالى فيه ، فيعذبني عليه ، ولستُ بفاعلة حتى يفارقها .

فلما اجتمع أبو هريرة وأبو الدرداء بعبد الله ، وأعلماه بقول معاوية ، ردها إليه بخطين له منه ، فأتياه ؛ فقال : قد علمتا رضائى به ، وحرمى عليه ، وكنت قد أعلمتكما الذى جعلتُ لها فى نفسها من الشورى ؛ فاذخلا عليها ، واغريضا عليها الذى رأيتُ لها .

فذخلا عليها وأعلماهما ، فقالت لها ماقاله معاوية لها ؛ فرجعا إلى ابن سلام ، وأعلماه بما قالته .

فلما ظن أنه لا يمنعها منه إلا فراق زينب أشهدهما بطلاقها ، وأعادها إلى ابنة معاوية .

فأتيا معاوية ، وأعلماه بما كان من فراق عبد الله زوجته ؛ رغبةً فى الاتصال بابنته ؛ فأظهر معاوية كراهة فعله ، وفراقه لزينب ، وقال : ما استحسنْتُ له طلاق امرأته ، ولا أحببته ؛ فانصرفا فى عافية ، ثم عودا إليها ، وخذا رضاها .

فقاما ثم عادا إليه ؛ فأمرهما بالدخول على ابنته وسؤالها عن رضاها ؛ وقال : لم يكن لى أن أُكرهها ، وقد جعلتُ لها الشورى فى نفسها .

فذخلا عليها فأعلماهما بطلاق عبد الله بن سلام امرأته ليسرها ؛ وذكرهما فضله وكال مروءته وكرم محتديه ؛ فقالت لها : إنه فى قریش لرفيع القدر ، وقد تعرفان أن الأناة فى الأمور أرفق لما يُخافُ من المحذور ؛ وإنى سائلة عنه حتى

أعرفَ دِخْلَةَ أمره ، وأعلمك بالذى يُزِيِّنُهُ الله لى ، ولا قوة إلا بالله ، فقالا : وَقَفَكَ
الله ، وخَارَ لك : وانصرَفَا عنها ، وأعلما عبد الله بقولها ، فأنشد :

فإن يك صدرُ هذا اليوم ولّى فإنَّ غداً لناظره قريبُ
وتحدث الناس بما كان من طلاق عبد الله زينب ، وخطبته ابنة معاوية ، ولأموه
على مبادرته بالطلاق قبل إحكام أمره وإبرامه .

ثم استحثَّ عبد الله أبا هريرة وأبا الدرداء ؛ فأتياها وقالا لها : اصنعى ما أنتِ
صانعة واستخبرى الله ، فإنَّه يهْدِي من استهداه ؛ فقالت : أرجو أن يكونَ الله
قد خارَ لى ، وقد استبرأتُ ^(١) أمره ، وسألتُ عنه ، فوجدتُه غيرَ ملائم ولا مرافق
لما أريد لنفسى .

ولقد اختلف من استشرته فيه ، فمنهم الناهى عنه ، ومنهم الأمر به ، واختلافهم
أولُ ما كرهت .

فلما بلغناه كلامها علم أنه تخدوع ، وقال : ليس لأمر الله رَادٌّ ، ولا لما لا بدَّ
منه صادٌّ ؛ فإن المرأة وإن كَمَلَ حِلْمُها ، واجتمع له عقله ، واستدَّ رأيه ، ليس بدافع
عن نفسه قَدَرًا برأى ولا كيد ، ولعل ماسرَّوا به واستجذلوا له لا يدوم لهم سرُّوره ،
ولا يصرف عنهم محذوره .

وذاع أمره ، وفشا في الناس . وقالوا : خدعه معاوية حتى طلق امرأته ! وإنما
أرادها لابنه ، وقبحوا فعله .

(١) المعنى أنها استقصت جميع أموره حتى عرفتَه كل المعرفة .

فتمت مكيدته تلك ، لكن المقادير أتت بخلاف تدبيره ؛ وذلك أنه لما انقضت أقرأء^(١) زينب ، وجه معاوية أبا الدرداء إلى العراق خاطباً لها على ابنه يزيد ؛ فخرج حتى قدم الكوفة ، وبها يومئذ الحسين بن علي رضي الله عنهما ؛ فبدأ أبو الدرداء بزيارته ، فسلم عليه الحسين ، وسأله عن سبب مقدمه ؛ فقال :

وجّهني معاوية خاطباً على ابنه يزيد زينب بنت إسحاق ؛ فقال له الحسين : لقد كنت أردتُ نكاحها ، وقصدت الإرسال إليها إذا انقضت أقرأؤها ، فلم يمنعني من ذلك إلا تخيير^(٢) مثلك ؛ فقد أنى الله بك ؛ فاخطب - رحمك الله - على وعليه ، لتتخير من اختاره الله لها ، وهي أمانة في عنقك حتى تؤديها إليها ، وأعطيتها من المهر مثل ما بذل معاوية عن ابنه ؛ فقال : أفعلُ إن شاء الله .

فلما دخل عليها أبو الدرداء ، قال : أيتها المرأة ؛ إن الله خلق الأمور بقدرته ، وكونها بعزته ، فجعل لكل أمر قدرًا ، ولكل قدرٍ سببًا ؛ فليس لأحدٍ عن قدرِ الله مَحِيص ، ولا للخروج عن أمره مَهْرَب ؛ فكان مما سبق لك ، وقدر عليك ، الذي كان من فراق عبد الله بن سلام إياك ، ولعل ذلك لا يضرّك ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً ؛ وقد خطبتُ أميرُ هذه الأمة وابنُ ملكها ، وولى عهده والخليفةُ من بعده : يزيد بن معاوية ، والحسين ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيدُ شباب أهل الجنة ، وقد بلغك شأنهما وسفاؤهما وفضلهما ، وقد جئتُك خاطباً عليهما فاخترى أيهما شئت .

فسكتت طويلاً ، ثم قالت : يا أبا الدرداء ؛ لو أن هذا الأمر جاءني وأنت

(١) المراد عدتها (٢) التخير : الاتقاء .

غائب لأشخصتُ فيه الرسل إليك ، واتبعتُ فيه رأيك ، ولم أقتطعه دونك ؛
فأما إذ كفتَ أنت المرسل ؛ فقد فوّضتُ أمرى بعد الله إليك وجعلتهُ في يديك ؛
فاختَر لي أَرْضاها لديك ، والله شاهد عليك ، فاقضِ في أمرى بالتحرّى ،
ولا يصدّنك عن ذلك اتباعُ هوى ، فليس أمرها عليك خفياً ، ولا أنت عما
طوّقتك غيباً .

فقال : أيتها المرأة ؛ إنما علىّ إعلامك ، وعليك الاختيار لنفسك . قالت :
عفا الله عنك ! إنما أنا ابنة أخيك ، ولا غنى لى عنك ، فلا تمنعك رهبةُ أحدٍ عن
قول الحق فيما طوّقتك ، فقد وجب عليك أداء الأمانة فيما حملتك ؛ والله خير من
رؤعى وخيف ، إنه بنا خير لطيف .

فلما لم يجد بداً من القول والإشارة قال : أى بنية ؛ إن ابنَ بنت رسول الله
صلى الله عليه وسلم أحبُّ إلىّ وأَرْضى عندى ، والله أعلم بخيرها لك .
قالت : قد اخترته وأردته ورضيته .

فتزوَّجها الحسين ، وساق لها مهرأ عظيماً . فبلغ ذلك معاوية ، فتعاظمه ولام
أبا الدرداء لوماً شديداً ، وقال : من يرسل ذا بَلَهٍ وعمى يركب خلاف ما يهوى .
ثم اطرح معاوية عبد الله بن سلام ، وقطع عنه جميع روافده ، لسوء قوله فيه ،
وتهمته أنه خدعه ، ولم يزل يحفّوه حتى عيلَ صبره ، وقلّ ما فى يده .

فرجع إلى العراق ، وكان قد استودع زينب قبل طلاقه مالا عظيماً ، ودُرّاً
كثيراً ؛ فظن أنها تجنّده ؛ لسوء فعله بها ، وطلاقها من غير شيء كان منها .

فلقي حسيناً فسلم عليه ، ثم قال : قد علمت ما كان من خبري وخبر زينب ، وإني كنت قد استودعتها مالا ، ولم أقبضه - وأثنى عليها - وقال له : ذاكِركَها أمرى ، واحضضها على ردِّ مالي .

فلما انصرف الحسين إليها ، قال لها : قد قدِّم عبد الله بن سلام ، وهو يُحْسِنُ الثناء عليك ، ويحمل النِّشْرَ عنك في حسن صحبتك ، وما آتاه قديماً من أمانتك ؛ فسرَّني ذلك وأعجبني ، وذكر أنه كان قد استودعك مالا ، فأدِّى إليه أمانته ، ورُدِّى عليه ماله ، فإنه لم يقل إلا صدقاً ، ولم يطلب إلا حقاً .

فقالت : صدق ، استودعني مالا لا أدري ما هو ، فادفعه إليه بطابعه ، فأثنى عليها حسين خيراً ، وقال : ألا أدخله إليك حتى تتبرَّئي إليه منه كما دفعه إليك ؟

ثم لقي عبد الله وقال : ما أنكرت مالك ، وإنيها زعمت أنه بطابعك فادخل إليها ، وتسلم مالك منها .

فقال : أو ما تأمر من يدفعه إليّ ؟ قال : لا ؛ بل تقبضه منها كما دفعته إليها . ودخل عليها حسين ، وقال : هذا عبد الله قد جاء يطلبُ وديعته ؛ فأخرجت إليه البدر ، فوضعتها بين يديه ، وقالت : هذا مالك ، فشكر وأثنى .

وخرج حسين عنهما ، وفضَّ عبد الله بن سلام خواتم بدره^(١) ، وحتى لما من ذلك ، وقال : خُذِي فهو قليل مني ؛ فاستعبراً جميعاً ، حتى علَّتْ أصواتهما

(١) البدره : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف .

أسفًا على ما ابتليًا به ، فدخل الحسين عليهما ، وقد رقَّ لهما ، فقال :
أشهد الله أنى طلقتهما ؟ اللهم إنك تعلم أنى لم أتزوجها رغبة فى مالها ولا جمالها ،
ولكنى أردت إحلالها لبعْلِها .
فسألها عبد الله أن تصرف إلى حسين ما كان قد ساقه إليها من مهر ؛ فأجابته
إلى ذلك ؛ فلم يقبله الحسين ، وقال : الذى أرجوه من الثواب خيرٌ لى .
فلما انقضت أقرأها تزوجها عبد الله ، وحرّمها الله يزيد بن معاوية .

٩٥ — مَنْ صَدَقَ اللَّهُ ^(١) نَجَا *

روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ أنه قال : إن ثلاثة نفرٍ انطلقوا إلى الصحراء فمَطَرَتْهم السماء ؛ فلجئوا إلى كهفٍ في جبلٍ ينتظرون إقلاعَ المطر ؛ فبينما هم كذلك إذ هبطت صخرةٌ من الجبل ، وجئمتْ على باب الغار فينسوا من الحياة والنَّجاة ، فقال أحدهم : لينظر كلُّ واحدٍ منكم إلى أفضلِ عملٍ عملهُ فليذكره ، ثم ليدعُ الله تعالى عسى أن يرَحِمنا وينجينا .

فقال أحدهم : اللهم إني كنت بارًّا بالدي ، وكنت آتيهما بغُوقهما ^(٢) فيقتَبِانه ، فأثيت ليلَةً بغُوقهما ، فوجدتهما قد ناما ، وكهتُ أن أوقظهما ، وكهت الرجوع ؛ فلم يزل ذلك دأبى حتى طلع الفجر ؛ فإن كنتُ عملتُ ذلك لوجهك ، فأفرج عنا ؛ فمالت الصخرةُ عن مكانها حتى دخل عليهم الضوء .

وقال الآخر : اللهم إني كنت تعلم أنى هويت امرأة ، ولقيت في شأنها أهوالاً حتى ظفرتُ بها ، ولكنى تركتها خوفاً منك ؛ فإن كنت تعلم أنه ما حملني على ذلك إلا مخافتُك فأفرج عنا فانفرجت الصخرةُ حتى لو شاء القوم أن يخرجوا لقدروا .

* جمع الأمثال : ٢ - ١٦٧ .

(١) صدق الله : لقي الله بالصدق ، وهو أن يحقق قوله عمله (٢) الغُوق : شراب العشى .

وقال الثالث : اللهم إني استأجرتُ أُجْرَاءَ ، فعملوا لي فوقيتهم
أجورهم إلا رجلاً واحداً ترك أُجْرَه عندي ، وخرج مُغاضباً ، فرييت أُجْرَه حتى
نما وبلغ مبلغاً ، ثم جاء الأجيرُ ، فطلب أُجْرَتَه ؛ فقلت : هاك ماترى من المال ؛
فإن كنتُ عملتُ ذلك لك فأفرج عنا ؛ فمالت الصخرة وانطلقوا سالمين ! فقال
صلى الله عليه وسلم : « من صدق نجا » .

٩٦ — عمر بن أبي ربيعة في مضرب فاطمة بنت عبد الملك *

كان عمر^(١) بن أبي ربيعة جالساً بمنى في فناء^(٢) مضربه ، وغلمانُه حوله إذ أقبلت امرأة برزة^(٣) عليها أثر النعمة ؛ فسلمت فردّ عليها عمرُ السلام ، فقالت له : أنت عمرُ بن أبي ربيعة ؟ فقال لها : أنا هو ؛ فما حاجتك ؛ قالت له : حيّاك الله وقرّبك ؛ هل لك في محادثة أحسن الناس وجهاً ، وأنمّم خَلْقاً ، وأكلمهم أدباً وأشرفهم حسباً ؛ قال : ما أحبّ إلىّ ذلك ؛ قالت : على شرط ؛ قال : قولى ، قالت : تُمكننى من عينيك فأشدّها وأقودك ، حتى إذا توسّطت الموضع الذى أريدُ حلّلت الشدّة ، ثم أفعلُ ذلك بك عند إخراجك حتى أنتهى بك إلى مضربك ، قال : شأنك . ففعلت ذلك به .

قال عمر : فلما انتهت بى إلى المضرب الذى أرادتُ كَشَفْتُ عن وجهى فإذا أنا بامرأة على كرسى لم أرَ مثلها قطّ جمالاً وكالاً ، فسلمتُ وجلستُ ، فقالت : أنتَ عمر بن أبي ربيعة ؟ قلت : أنا عمر ، قالت : أنت الفاضح للحرائر ؟ قلت : وما ذاك — جعلنى الله فداءك ؛ قالت : أأنت القائل :

* الأغاني : ١ - ١٩٠ .

(١) هو عمر بن أبي ربيعة ، اختص شعره بوصف النساء وعد أنسب الشعراء ، وكان يقيم بمكة ويتمرّض للحجاج ~~عنه~~ قوله في ذلك أخبار كثيرة . توفى سنة ٩٣ هـ (٢) الفناء : الساحة على باب الدار (٣) برزة : بارزة الجمال .

قالت : وَعَيْشٍ أَخِي وَنِعْمَةِ وَالِدِي لَا تُبْنِيَنَّ الْحَيَّ إِنْ لَمْ تَخْرُجْ
فَخَرَجْتُ خَوْفَ يَمِينِهَا فَتَبَسَّمتُ فَعَلِمْتُ أَنَّ يَمِينَهَا لَمْ تَخْرُجْ ^(١)
فَتَنَاولْتُ رَأْسِي لِتَعْرِفَ مَسَّهُ بِمُخَضَّبِ الْأَطْرَافِ غَيْرِ مُشْنَجٍ ^(٢)
فَلِئِمْتُ فَاهَا آخِذَا بِقُرُونِهَا شَرِبْتُ الزَّيْفَ ^(٣) بِبَرْدِ مَاءِ الْحُمْرِجِ ^(٤)

ثم قالت : قم فاخرج عني ، ثم قامت من مجلسها وجاءت المرأة فشَدَّتْ
عَيْنِي ، ثم أَخْرَجَتْنِي حَتَّى اتَّهَتْ بِي إِلَى مَضْرَبِي وَانصَرَفَتْ وَتَرَكْتَنِي ، فَخَلَّتْ
عَيْنِي وَقَدْ دَخَلَنِي مِنَ السَّكَّابَةِ وَالْحَزْنِ مَا اللَّهُ بِهِ أَعْلَمُ ؛ وَبَتُّ لِيَلَتِي ؛ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ
إِذَا أَنَا بِهَا ، فَقَالَتْ : هَلْ لَكَ فِي الْعَوْدِ ؟ فَقُلْتُ : شَأْنُكَ ، فَعَلِمْتُ بِي مِثْلَ فِعْلِهَا
بِالْأَمْسِ حَتَّى اتَّهَتْ بِي إِلَى الْمَوْضِعِ ، فَلَمَّا دَخَلْتُ إِذَا بِتِلْكَ الْفَتَاةِ عَلَى كُرْسِيٍّ ،
فَقَالَتْ : إِيهَ يَا فَضَّاحَ الْحَوَارِثِ ! قُلْتُ : بِمَاذَا - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ ؟ قَالَتْ : بِقَوْلِكَ :
« وَنَاهِدَةُ الثَّالِثِينَ » .

ثم قالت : قم فاخرج عني .

فَقَعْتُ فَخَرَجْتُ ثُمَّ رُدِدْتُ ، فَقَالَتْ لِي : لَوْلَا وَشَكَ الرَّحِيلِ ، وَخَوْفُ الْفَوْتِ ،
وَمَحَبَّتِي لِمَنَا جَانِكَ ، وَالْإِسْتِكْنَارِ مِنْ مُحَادَثِكَ لِأَفْصِيئَتِكَ ، هَاتِ الْآنَ كَلَامِي
وَحَدِّثْنِي وَأُنْشِدْنِي ، فَكَلِمْتُ آدَبَ النَّاسِ وَأَعْلَمَهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ ، ثُمَّ نَهَضْتُ

(١) لم تخرج : لم تضق ولم تكن جادة في حلفها (٢) مشنج : متقبض (٣) الزيف :
الزورف ، وهو من عطش حتى يبست عروقه وجف لسانه (٤) الحمرج : النقرة في الجبل
يجتمع فيها الماء فيصفو :

وأبطأت المعجوز وخَلَا لي البيت ، فأخذت أنظر ، فإذا أنا بتور^(١) فيه خُلُوق^(٢) ، فأدخلت يدي فيه ثم خبأتها في رُذني^(٣) ؛ وجاءت تلك المعجوز فشَدَّت عيني ونهضت بي تقودني ، حتى إذا صرتُ على باب المضرب ، أخرجت يدي فضربتُ بها على المضرب ثم صرت إلى مضربي ، فدعوت غِلْماني قُلْتُ : أيكم يقفني على باب مضرب عليه خُلُوق ، كأنه أثر كف فهو حرٌّ وله خمسمائة درهم .

فلم ألبث أن جاء بعضهم فقال : قم ، فنهضت معه فإذا أنا بالكف طرية ؛ وإذا المضرب مضربُ فاطمة بنتِ عبد الملك بن مروان ، فأخذت في أهبة الرحيل ، فلما نفرتُ نفرتُ معها فبصرتُ في طريقها بقبابٍ ومضرب وهيئة جميلة ، فسألت عن ذلك ، فقليل لها : هذا عمرُ بن أبي ربيعة ، فسأها أسره ؛ وقالت للمعجوز التي كانت تُرسلها إليه : قولي له : نَشَدْتُكَ اللهَ والرحمَ ألا تصحبنى ، وَيُنْحِكْ ما شَأْنُكَ ؛ وما الذي تُريد ؟ انصرف ولا تفضحني وتُشيط^(٤) بدمك .

فسارت المعجوز إليه فأدَّتْ إليه ما قالت لها فاطمة ، فقال : لست بمنصرف أو تُوجِّه إلى بقميصها ، فوجهت إليه بقميص من ثيابها ، فزاده ذلك شَغَفًا ؛ ولم يزل يتبعهم ولا يخالطهم حتى إذا صاروا على أميال من دمشق انصرف ، وقال في ذلك :

ضاق الغدَاة بحاجتي صدرى ويئستُ بعد تقارب الأمر
وذكرتُ فاطمةَ التي علَّقْتُها عَرَضًا فيا لِجَوَادِثِ الدهرِ
وكانَ فَاهاً عند رَقْدَتِها تجرى عليه سُلَاقَةُ الحمرِ

(١) التور : إناء صغير (٢) الخُلُوق : نوع من الطيب (٣) الرذن : السم (٤) أشاط بدمه : أهدره .

فَسَبَتْ فَوَادِي إِذْ عَرَضَتْ لَهَا يَوْمَ الرِّحِيلِ بِسَاحَةِ الْقَصْرِ
بِمَزِينٍ رَدْعٌ^(١) الْعَبِيرِ بِهِ حَسَنَ التَّرَائِبِ^(٢) وَاضِحَ الْفَحْرِ
وَبِحَيْدَادِمٍ^(٣) شَادِنٍ^(٤) خَرَقٍ^(٥) يَرْعَى الرِّيَاضَ بَيْلَدَةٍ قَفَرٍ
لَمَّا رَأَيْتُ مَطِيئَهَا حَزَقًا^(٦) خَفَقَ الْفَوَادُ وَكُنْتُ ذَا صَبْرِ
وَتَبَادَرَتْ^(٧) عَيْنَايَ بَعْدَهُمُ وَانْهَلَتْ دُمُعُهُمَا عَلَى الصَّدْرِ
وَلَقَدْ عَصَيْتُ ذَوِي الْقَرَابَةِ فِيكُمْ طَرًّا وَأَهْلَ الْوُدِّ وَالصَّهْرِ
حَتَّى لَقَدْ قَالُوا وَمَا كَذَبُوا : أَجْنَنْتَ أَمْ بِكَ دَاخِلُ السَّحْرِ !

(١) الردع : أثر الطيب في الجسد (٢) الترائب : جمع تريبة ، وهى موضع الفلادة من الصدر .
(٣) الآدم : الأسمر (٤) شدن الظبي : ترعرع وشب (٥) الخرق : الحائف المتحير
(٦) حزقاً : جاعاً (٧) تبادرت : سالك دموعها .

٩٧ - عمارة*

كانت عند عبد الله^(١) بن جعفر جاريةٌ مُغَنِّيةٌ يقال لها عمارة ، وكان لها منه مكان لم يكن لأحدٍ من جواريه .

فلما وقد عبد الله بن جعفر على معاويةَ خرج بها معه ، فزاره يزيدُ ذاتَ يومٍ فأخرجها إليه ، فلما نظر إليها وسمع غناءها وقَعَتْ في نفسه ، وجعل لا يمنعه من أن يبوحَ بما يجدُ بها إلا مكانُ أبيه ، مع يأسه من الظفر بها ، فلم يزل يكاتُمُ الناس أمرها إلى أن مات معاوية ، وأفضى الأمرُ إليه ، فاستشار بعضَ سن قدم عليه من أهل المدينة وعامة مَنْ يثق به في أمرها ، وكيف الحيلةُ فيها ، فقيل له : إن أمر عبد الله ابن جعفر لا يُرام ، ومنزلته من الخاصة والعامة ومنك ما قد علمت ، وأنت لا تستجيز إكراهه ، وهو لا يبيعها بشيء أبداً ، وليس يُغْنِي في هذا إلا الحيلة .

فقال : انظروا إلى رجالِ عِراقٍ له أدبٌ وظَرْفٌ ومعرفة ، فطلبوه فَأَتَوْه به ؛ فلما دخل رأى بيانا وحلاوة وفهما ، فقال يزيد : إني دعوتك لأمرٍ إن ظَفِرْتَ به فهو حظُّك آخر الدهر ، ويدُّ أكافئُك عليها إن شاء الله ؛ ثم أخبره بأمره ، فقال له : عبد الله بن جعفر ليس يُرام ما في قلبه إلا بالخدِيعَةِ ، ولن يقدر أحدٌ على ما سألت ، فأرحوا أن أكونه والقوةُ بالله ، فأعِنِّي بالمال . قال : خذ ما أحبيت .

* مصارع العشاق : ٣١٠

(١) هو عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، كان كريماً جواداً ، يميل إلى سماع الغناء ، وأخباره في الكرم والسماع كثيرة ، توفي سنة ٩٠ هـ .

فأخذ من طُرف الشام وثياب مصر، واشترى متاعاً للتجارة من رقيق ودوابٍ وغير ذلك ؛ ثم شخص إلى المدينة ، فأناخ بعرصة ^(١) عبد الله بن جعفر ، واكترى منزلاً إلى جانبه ، ثم توسّل إليه ، وقال : إني رجلٌ من أهل العراق قدمتُ بتجارة ، وأحييتُ أن أكون في عزّ جوارك وكنفك ، إلى أن أبيع ما جئتُ به .

فبعث عبدُ الله بن جعفر إلى قهرمانه : أن أكرم الرجل ، ووسّع عليه في نُزله ^(٢) . فلما اطمأنَّ العراقي سلم عليه أياماً ، وعرفه نفسه ، وهياً له بغلةً فارِهةً ، وثياباً من ثياب العراق وألطافاً ؛ فبعث بها إليه ، وكتب معها : « يا سيدي ؛ إني رجلٌ تاجرٌ ، ونعمةُ الله عليّ سابعة ، وقد بعثتُ إليك بشيء من تحف ، وثياب وعطر ، وبعثتُ ببغلة خفيفة العنان ، وطيفة الظهر ؛ فاتخذها لركوبك ؛ فأنا أسألك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله إلا قبلتَ هديتي ، فإن أعظم أملِي في سفرتي هذه أن أستفيدَ الأُنس بك ، والتحرّم بمواصلتك .

فأمر عبد الله بقبضِ هديته ، وخرج إلى الصلاة ، فلما رجع مرّ بالعراقي في منزله فقام إليه ، وقبل يده ، واستكثر منه ، فرأى أدباً وظرفاً وفصاحةً ، فأعجب به وسرّ بنزوله عليه ، فجعل العراقي في كل يوم يبعث إلى عبد الله بهدية طريفة . فقال عبد الله : جزى الله ضيفنا هذا خيراً ، فقد ملأنا شكراً ، وما نقدر على مكافأته .

(١) العرصة : كل بقعة بين الدور ليس بها بناء (٢) النزل : ما هيّ للضيف أن ينزل فيه .

وإنه لكذلك إلى أن دعاه عبد الله ، ودعا بُمارة في جواريه ، فلما طاب لهما المجلس وسمع غناء عمارة ، تعجب وجعل يزيد عجبه ، فلما رأى ذلك عبد الله سر به إلى أن قال له : هل رأيت مثل عمارة ؟ قال : لا والله يا سيدي ، ما رأيتُ مثلها وما تصلح إلا لك ، وما ظننت أن يكون في الدنيا مثل هذه الجارية : حُسن وجهه ، وحُسن عمل . قال : فكم تساوى عندك ؟ قال : ما لها ثمن إلا الخلافة ، قال : تقول هذا لتزيّن لي رأياً فيها ، وتجتلب سروري ! قال له : يا سيدي ؛ والله إني لأحب سرورك ، وما قلت لك إلا الجدة ، وبعد فإني تاجرٌ أجمع الدراهم إلى الدراهم ، طلبا للربح ولو أعطيتها بعشرة آلاف دينار لأخذتها ، فقال له عبد الله : عشرة آلاف ؟ قال : نعم - ولم يكن في ذلك الزمان جارية بهذا الثمن - فقال له عبد الله : أنا أبيعكها بعشرة آلاف . قال : قد أخذتها . قال : قد وجب البيع . وانصرف العراقي .

فلما أصبح عبد الله لم يشعر إلا بالمال قد جىء به ، فقيل لعبد الله : قد بعث العراقي بعشرة آلاف دينار ، وقال : هذا ثمن عمارة فردّها ، وكتب إليه : إنما كنتُ أمزح معك ، وما أعلمك أن مثلي لا يبيع مثلها ، فقال له : جُعِلت فداءك ! إن الجدة والهزل في البيع سواء ، فقال له عبد الله : ويحك ! ما أعلم جاريةً تساوى ما بذلت ، ولو كنت بانمها من أحد لآثرتك ، ولكني كنتُ مازحاً ، وما أبيعها بملك الدنيا الحرمتها بي ، وموضعها من قلبي . فقال العراقي : إن كنتُ مازحاً فإني كنتُ جاداً ، وما اطلعتُ على ما في نفسك ، وقد

ملكْتُ الجارية ، وبعتُ إليك بـمَنها ، وليست تحل لك ، ومالي مِن أخذها من بُدّ .

فأنه إياها ، فقال له : ليست لي يِنَّة ، ولكني أَسْتَحْلِفُكَ عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنبره ، فلما رأى عبدُ الله الجدَّ قال : بئس الضيفُ أنت ! ما طرقتنا طارق ، ولا نزل بنا نازل ، أعظمُ بليةً منك ، أن تخلفني فيقول الناس : اضطهد عبدُ الله ضيفه وقهره ، وألجأه إلى أن استخلفه ، أما والله لعلمن أني سأعتصم في هذا الأمر بالصبر وحسن العزاء .

ثم أمر قهرمانه بقبض المال منه ، وبتهجير الجارية بما يُشبهها من الخدم والشياب والطيب ، فجهزت بنحو من ثلاثة آلاف دينار .

فقبض العراقي الجارية ، وخرج بها ؛ فلما برز من المدينة ، قال لها : يا عمارة : إني والله ما ملكتك قط ، ولا أنت لي ، ولا منلي يشتري جارية بمشرة آلاف دينار ، وما كنت لأقدم على ابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله فأسلمه أحب الناس إليه لنفسى ، ولكني دَسِيسٌ^(١) من يزيد بن معاوية ، وأنتِ له ، وفي طلبك بعثَ بي ، فاستتري مني .

ثم مضى بها حتى وردَ دمشق ، فتلقاه الناسُ بـجَنَازة يزيد ، وقد استخلف ابنه معاوية بن يزيد ؛ فأقام الرجلُ أياماً ، ثم تلطفَ للدخول عليه ، فشرح له القصة — ولم يكن أحدٌ من بني أمية يعدل بمعاوية بن يزيد في زمانه نبلاً ونُسكاً — فلما

أخبره قال : هـى لك ، وكل مادفعه إليك من أمرها فهو لك ، وارحل من يومك
فلا أسمعُ بحَبْرِكَ فى شىء من بلاد الشام .

فرحل العراق ، ثم قال للجارية : إنى قلتُ لك ماقلت حين خرجتُ بك من
المدينة ؛ فأخبرتُك أنك ليزيد ، وقد صرتِ لى ، وأنا أشهد الله أنك لعبد الله بن
جعفر ، وأنى قد ردَدْتُكَ عليه ، فاستترى منى .

ثم خرج بها حتى قدم المدينة ، فنزل قريباً من عبد الله ، فدخل عليه بعضُ
خدمه ، فقال له : هذا العراق ضيفك الذى صنع بنا ما صنع ، وقد نزل العرصة
لا حيّاه الله ! فقال عبدُ الله : مَهْ ! أنزلوا الرجل وأكرموه ! فلما استقرَّ بعث إلى
عبد الله : جعلت فداءك ! إن رأيت أن تأذن لى لأشأفك بشىء فعلت ؛ فأذن
له ؛ فلما دخل سلم عليه ، وقبّل يده فقرّبه عبد الله ، ثم اقتص عليه القصة حتى إذا
فرغ ، قال : قد والله وهبته لك قبل أن أراها وأضع يدى عليها ، فهى لك ومردودة
عليك ، وقد علم الله تعالى أنى مارأيتُ لها وجهاً إلا عندك .

فبعث إليها ، فجاءت ، وجاء بما جهزها به مؤقراً ، فلما نظرتُ إلى عبد الله ،
خرّت مغشياً عليها ، وأهوى إليها عبد الله ، وخرج العراق وتصابح أهلُ الدار :
عمارة ! عمارة ! فجعل عبدُ الله يقول ، ودموعه تجرى : أحلمُ هذا ؟ أحقُّ هذا ؟
ما أصدّق بهذا ! فقال له العراق : جعلت فداءك ! قد ردها عليك إيثارك الوفاء ،
وصبرك على الحق ، وانقيادك له .

فقال عبد الله : الحمد لله ، اللهم إنك تعلم أنى تصبّرت عنها ، وآثرت الوفاء ،

وَأَسَلَمْتُ لِأَمْرِكَ ! فَرَدَدْتُهَا عَلَى بَيْتِكَ ؛ فَلَكَ الْحَمْدُ . ثُمَّ قَالَ : يَا أَخَا الْعِرَاقِ ؛ مَا فِي الْأَرْضِ أَعْظَمَ مَنَّةً مِنْكَ ، وَسَيَجَازِيكَ اللَّهُ تَعَالَى .

وَأَقَامَ الْعِرَاقِيُّ أَيَّامًا وَبَاعَ عَبْدُ اللَّهِ غَنَمًا لَهُ بِثَلَاثَةِ عَشَرَ أَلْفَ دِينَارٍ ، وَقَالَ لِقَهْرْمَانِهِ : احْمِلْهَا إِلَيَّ ، وَقُلْ لَهُ : اعْذِرْ ، وَاعْلَمْ أَنِّي لَوْ وَصَلْتُكَ بِكُلِّ مَا أَمْلَكَ لَرَأَيْتَكَ أَهْلًا لَأَكْثَرِ مِنْهُ ؛ فَرَحَلَ الْعِرَاقِيُّ مَحْمُودًا وَافِرَ الْمَالِ .

٩٨ — عمر بن أبي ربيعة في لبسة أعرابي *

قال عثمان بن إبراهيم الخطابي :

أتيتُ عمرَ بنَ أبي ربيعةَ بعد أن نَسَكَ بسنين ، وهو في مجلس قومه من
بنى مخزوم ، فانتظرتُ حتى تفرقَ القوم ، ثم دنوتُ منه ومعي صاحبٌ لي ظريف ،
وكان قد قالَ لي : تعالَ حتى نهيجه على ذكر الفزل ، فنظرُ هل بَقِيَ في نفسه
منه شيء ، فقال له صاحبي . يا أبا الخطاب ، أكرمَكَ الله ؛ لقد أحسن العُذري
وأجاد فيما قال . فنظر عمر إليه ثم قال له : وماذا قال ؟ قال : حيث يقول :

لو جُذَّ بالسيفِ رأسي في مَوَدَّتِها لمَّ يَهْوِ سرباً نحوها رأسي
فارتاح عمرُ إلى قوله وقال : هاهُ ! لقد أجاد وأحسن . فقلت : والله درُّ جُنَادَةِ
العُذري ! فقال عمر : حيث يقول ماذا ؟ وبحك ! فقلت : حيث يقول :

سَرَتْ لعينك سلى بعد مغفأها	فَبِتْ مُسْتَنْبِهاً ^(١) مِنْ بَعْدِ مَسْرَها
وَقَلْتُ : أهلاً وسهلاً مِنْ هَذَاكِ لَنَا	إِنْ كُنْتَ تَمَثَّلُها أَوْ كُنْتَ إِياها
تَأْتِي الرياحُ التي من نحو بلدكم	حَتَّى أَقُولَ دَنْتَ مِنَّا بَرِيَّها
وقد تراخت بنا عنها نوى قُذْفٍ ^(٢)	هِيَّاتِ مُصْبِحُها مِنْ بَعْدِ مُمَسَّها
مِنْ جِبْها أَمْنِي أَنْ يُلَاقِيَنِي	مِنْ نَحْوِ بِلَدِها نَاعِ فَيَنْعَها
كَيْما أَقُولُ فِرَاقٌ لَا لِقَاءَ لَهُ	وَتُضْمِرُ النَفْسُ يَأْساً ثُمَّ تَسْلَها

* الأغاني : ١ - ١٧٤ ، الأمل : ٢ - ٥٠ .

(١) مستنبهاً : مستيقظاً (٢) نوى قذف : بعيدة .

ولو تموت لراعتني وقلتُ ألا يا بُؤس للعوت ! ليت الموت أبقاها
قال : فضحك عمر ، ثم قال : وأبيك لقد أحسنَ وأجاد وما أبقي ، ولقد
هَيَّجْتُمَا على ساكنَا ، وذَكَرْتُمَا ما كانَ عني غائبَا ، ولَا حَدَّثْتُمَا
حديثَا حلوا :

بينما أنا منذ أعوام جالس إذ أتاني خالد الخريت فقال لي : يا أبا الخطاب ؛
مرت لي أربعُ نسوة قَبِيلَ العِشاءِ يُرِدْنَ موضعَ كذا وكذا ؛ ولم أَرِ مثلهنَّ في بدوٍ
ولا حَضرٍ ، فيهنَّ هندُ بنت الحارثِ المُرِّيَّةُ ، فهل لك أن تأتيهنَّ متسكراً ، فتسمع
من حديثهن ، وتتمتع بالنظر إليهن ، ولا يَعْلَمَنَّ مَنْ أنت ؟ فقلت له : ويحك !
وكيف لي أن أخفي نفسي ؟ قال : تَلْبَسُ لِبْسَةً أعرابي ؛ ثم تجلس على قَعُودٍ ^(١) ،
فلا يشعرُنَّ إلا بك قد هَجَمْتَ عليهن .

فعلتُ ما قال ؛ وجلست على قَعُودٍ ، ثم أتيتهنَّ فسلمتُ عليهن ، ثم وقفتُ
بِقُرْبِهن ، فسألنني أن أنشدن وأحدثن ، فأنشدن لكثيرَ وجميلِ والأحوصِ
ونَصِيبٍ وغيرهم ؛ فقلن لي : ويحك يا أعرابي ! ما أَمْلَحَكَ وأظَرَكَ ! لو نزلت
فتحدثتَ معنا يوماً هذا ! فإذا أمسيتَ انصرفتَ في حفظِ الله !

فأخفتُ بعيري ، ثم تحدثتُ معهن ، وأنشدتهنَّ فسررن بي وجَذَلْنِ
بِقُرْبِي ، وأعجبهنَّ حديثي ، ثم إنهن تَغَامَزْنَ ، وجعل بعضهن يقول لبعض : كأننا
نعرف هذا الأعرابي ! ما أشبهه بعمر بن أبي ربيعة ! فقالت إحداهن : هو والله
عمر ! فلدت هند يدها فانزَعَتْ عمامتي فألقتهَا عن رأسي ثم قالت لي : هيه يا عمر !

(١) القعود من الإبل : ما يقنعهه الراعي في كل حاجة .

أتراك خدعتنا منذُ اليوم ! بل نحن والله خدعناك واحتلنا عليك بخالد ؛ فأرسلناه
إليك لتأتيننا في أسوأ هيئة ، ونحن كما ترى . قال عمر : فحدثتهم ساعة ، ثم
انصرفت ، فذلك قولي :

بِطْنٍ ^(١) حُلَيَّاتٍ دَوَارِسَ بَلَقَمَا	ألم تسأل الأطلالَ والمتربعا
نَكَانُ فَوَادَا كَانَ قِدَمًا مُفَجَّعَا	فِيخْلُنْ أَوْ يُخْزِرْنَ بِالْعِلْمِ بَعْدَمَا
جَمِيعٌ وَإِذْ لَمْ تَخْشَ أَنْ يَتَصَدَّعَا	بِهَنْدٍ وَأَنْرَابٍ لَهْفَدٍ إِذْ الْهَوَى
كَاصَفَقَ ^(٢) السَّاقِي الرِّحْقِ الْمُشْعَشَعَا ^(٣)	وَإِذْ نَحْنُ مِثْلُ الْمَاءِ كَانَ مِزَاجُهُ ^(٤)
لَوَاشٍ لَدَيْنَا يَطْلُبُ الصَّرْمَ ^(٥) مَوْضِعَا	وَإِذْ لَا نَطِيعَ الْعَاذِلِينَ وَلَا نَرَى
وَحَتَّى تَذَكَّرْتُ الْحَدِيثَ الْمَوْدَعَا	تَنْوَعَتْنِ حَتَّى عَاوَدَ الْقَلْبَ سَقْمُهُ
ضَرَرْتُ فَهَلْ تَسْطِيعُ نَفْعًا فَتَنْفَعَا	فَقُلْتُ لِمُطْرِبِينَ بِالْحَسَنِ : إِنَّمَا
وَأَشْيَاعُهُ ، فَاشْفَعْ عَمِي أَنْ تُشْفَعَا	وَهِيَجَتْ قَلْبًا كَانَ قَدْ وَدَّعَ الصَّبَا
كَمَثَلِ الْآلَى أَطْرَيْتَ فِي النَّاسِ أَرْبَعَا	لَئِنْ كَانَ مَا قَدْ قُلْتَ حَقًّا فَمَا أَرَى
أَخَافُ مَقَامًا أَنْ يَشِيعَ فَيَدْنُسُنَا	فَقَالَ : نَعَالَ أَنْظُرْ فَقُلْتُ : وَكَيْفَ لِي !
فَسَلِّمْ ، وَلَا تَكْثِرْ بَأْنَ تَتَوَرَّعَا	فَقَالَ : اكْتَفِلْ ^(٦) ثُمَّ التَّيَّمْ وَأَتِ بَاغِيَا
خَافَةَ أَنْ يَفْشُوَ الْحَدِيثُ فَيُسْمَعَا	فَإِنِّي سَأُخْفِي الْعَيْنَ عَنْكَ فَلَا تَرَى

(١) بطن حليات : اسم موضع قرب مكة (٢) مزاج الشراب . ما يمزج به (٣) التصفيق : الترج (٤) الرقيق : أطيب الخمر ، والمشعشع : المزوج (٥) الصرم : القطع (٦) اكتفل البعير : إذا أدار على موضع من ظهره كساء وركب عليه .

فَأَقْبَلْتُ أَهْوَى مِثْلَ مَاقَالِ صَاحِبِي لَمَوْعِدِهِ أَزْجَى قَمُوداً مَوْقِعاً^(١)
فَلَمَّا تَوَاقَفْنَا وَسَلِمْتُ أَشْرَقْتُ وَجْوهُ زَهَاها الْحَسَنُ أَنْ تَتَقَنَّمَا
تَبَالَهَيْنَ بِالْعِرْفَانِ لَمَّا عَرَفْتَنِي وَقَلْنَ أَمْرُو بَايَغِ أَكْلٍ وَأَوْضَعَا^(٢)
وَقَرَّبْنِ أَسْبَابَ الْمَسْوَى لِمَتِّمٍ يَقِيسُ ذِرَاعاً كُلَّمَا قِسْنَ إَصْبَعَا
فَلَمَّا تَنَازَعْنَا الْأَحَادِيثَ قَلْنَ لِي : أَخِفْتَ عَلَيْنَا أَنْ نُفَرَّ وَنُخْذَعَا ؟
فَبِالْأَمْسِ أَرْسَلْنَا بِذَلِكَ خَالِدًا إِلَيْكَ وَبَيَّنَّا لَهُ الشَّانَ أَجْمَعَا
فَمَا جِئْتَنَا إِلَّا عَلَى وَفْقِ مَوْعِدٍ عَلَى مَلَأْ مِنْهَا خَرَجْنَا لَهُ مَعَا
رَأَيْنَا خِلَاءَ مِنْ عَيُونٍ وَمَجْلَسًا دَمِثَ^(٣) الرُّبَا سَهْلَ الْمَحَلَّةِ مُرْعَا^(٤)
وَقَلْنَ : كَرِيمٌ نَالَ وَصَلَ كَرَامٍ فَحَقَّقَ لَهُ فِي الْيَوْمِ أَنْ يَتَمَتَّعَا^(٥)

(١) القعود الموقع : الذي يظهره آثار الجروح لكثرة ما حمل عليه وركب ، فهو يعبر ذلول
(٢) أكل وأوضع : أسرع في سببه (٣) دمث المكان : سهل (٤) ممرع : مخصب
(٥) هذه القصيدة نفسها قصة ممتعة تتحدث عما كان في الشعر العربي من قصص .

٩٩ — حديث يوم الدوحة*

قال حماد الراوية :

أَتَيْتُ مَكَّةَ ، فَجَلَسْتُ فِي حَلَقَةٍ فِيهَا عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ ، وَإِذَا هُمْ يَتَذَاكَرُونَ الْمَذْرِيِّينَ ^(١) وَعَشَقَهُمْ وَصَبَّابَتَهُمْ ، فَقَالَ عَمْرُ : أَحَدْتُكُمْ عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ :

كَانَ لِي خَلِيلٌ مِنْ عُدْرَةَ يُقَالُ لَهُ : الْجَعْدُ بْنُ مِهْجَعٍ ، وَيُكْنَى أَبَا مُسْهَرٍ ، وَكَانَ يَلْقَى مِثْلَ الَّذِي أَلْقَى مِنَ الصَّبَابَةِ بِالنِّسَاءِ وَالْوَجْدِ بَيْنَهُنَّ ؛ عَلَى أَنَّهُ كَانَ لَا غَيْرَ الْخُلُوةَ ، وَلَا سَرِيعَ السَّلَوةِ ؛ وَكَانَ يُوَافِي الْمَوْسِمَ فِي كُلِّ سَنَةٍ ، فَإِذَا رَأَتْ ^(٢) عَنْ وَقْتِهِ تَرَجَعَتْ عَنْهُ الْأَخْبَارُ ، وَتَوَكَّفَتْ ^(٣) لَهُ الْأَسْفَارُ ^(٤) حَتَّى يَقْدَمَ ؛ فَفَعَنِي ذَاتَ سَنَةٍ إِبْطَاؤُهُ حَتَّى قَدِمَ حُجَّاجُ عُدْرَةَ ، فَأَتَيْتُ الْقَوْمَ أَنْشُدَ ^(٥) صَاحِبِي ، وَإِذَا غِلَامٌ تَنْفَسُ الصَّعْدَاءُ ! ثُمَّ قَالَ : أَعَنْ أَبِي الْمُسَهِّرِ تَسْأَلُ ؟ قُلْتُ : عَنْهُ أَسْأَلُ ، وَإِيَّاهُ أَرَدْتُ . قَالَ : هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ ! أَصْبَحَ وَاللَّهِ أَبُو الْمُسَهِّرِ لَا مُؤَيَّسًا فِيهِمْ مَلْ ، وَلَا مَرْجُوًّا فَيُعَلَّلُ ، أَصْبَحَ وَاللَّهِ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ :

* الْأَغَانِي ١٠ - ٤٨ ، مَصَارِعُ الْعَشَاقِ ٥٦ ، الْعَقْدُ الْفَرِيدُ ٣ : ٣٨٤ ، تَرْيِينُ الْأَسْوَاقِ ٢٤٨

(١) عُدْرَةُ : قَبِيلَةٌ اشْتَهَرَ فِيهَا الْعَشَقُ . قِيلَ لِأَعْرَابِي : مِمَّنْ أَنْتَ ؟ قَالَ : مِنْ قَوْمٍ إِذَا عَشَقُوا مَاتُوا ، قَالَ : عُدْرِي وَرَبُّ الْكَعْبَةِ ! ثُمَّ قِيلَ لَهُ : وَلَمْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : لِأَنِّي نَسِئْتُهَا صَبَاحَةً ، وَفِي فِتْيَانَتَا عَفَّةٍ . وَقِيلَ لِعُرْوَةَ بْنِ حِزَامٍ : أَصَحِّحْ مَا يُقَالُ فِيكُمْ : لِأَنَّهُمْ أَرَقُّ النَّاسِ قُلُوبًا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، وَاللَّهِ لَقَدْ تَرَكْتُ ثَلَاثِينَ شَابًّا فِي الْحَيِّ ، قَدْ خَامَرَهُمُ الْمَوْتُ ، مَا لَهُمْ دَاءٌ إِلَّا الْحُبُّ ! (٢) رَأَتْ : أَبْطَأَ (٣) يُقَالُ : تَوَكَّفَ لِفُلَانٍ ، أَيْ تَعَرَّضَ لَهُ حَتَّى يَلْقَاهُ (٤) قَوْمُ الْأَسْفَارِ : ذَوُو سَفَرٍ (٥) أَنْشُدَهُ : أَطْلَبُهُ .

لعمرك ما حُبِّي لأسماء تاركى أَعِيشُ ولا أَقِضِ به فأُمُوتُ

قلت : وما الذى به ؟ قال : مثلُ الذى بك ؛ من تهوُّركا فى الضلال ،
وجرِّكماً أذبال الخسار ؛ فكأنكما لم تسمعا بجنةٍ ولا ناراً قلت : مَنْ أَنْتَ منه
يا بن أخى ؟ قال : أخوه . قلتُ : أما والله يا بن أخى ما يمنعك أن تسلكَ مسلك
أخيك من الأدب ، وأنَّ تركب منه مركبه إلا عَجَزَكَ عن مجاراته . ثم صرفتُ
وجهَ ناقتى وأنا أقول :

أرائحة حُجَّاج عُدرة وُجْهَةٍ ولَمَّا يَرَحُ فى القوم جَمْعُ بن مِهْجَع
خيلان نَشْكُو ما نلاقى من الهوى متى ما يَقُلُ أَمْعُ وإنْ أَقْلْتُ يَسْمَعُ
أَلَا لَيْتَ شَعْرَى أَيْ شَيْءٍ أَصَابَهُ فلى زفراء هِجْنٍ مَا بَيْنَ أَضْلَعَى
فلا يُبْعِدَنَّكَ اللهُ خِلاً فَإِنِّى سَأَلْنِى كَأَ لَاقَيْتَ فى الحب مصرعى

ثم انطلقت حتى وقفتُ موقفي من عرفات ؛ فبينما أنا كذلك إذْ بِإنسان قد
تغيَّرَ لونه ، وساءت هيئته ، فأدنى ناقتَه من ناقتى حتى خالف بين أعناقهما ، ثم
عاقبنى حتى اشتد بكأؤُه ، فقلت : ما وراءك ؟ فقال : بَرَحَ القَدْلُ ، وطول المَطْلُ ،
ثم أنشأ يقول :

لئن كانت عديلة ذاتَ مَطْلٍ لقد علمت بأن الحب داء
ألم تنظُرْ إلى تغيُّيرِ جسمى وأَنْنى لا يفارقنى البكاء
وإنك لو تكلفتِ الذى بى لزال السُّرُّ وانكشفَ الفِطَاءُ
وإن معاشرى ورجال قَوْمِى حتوفهم الصبابةُ واللقاءُ

فقلتُ : يا أبا المُنْهَرِ ؛ إنها ساعة تُضربُ إليها أ كبادُ الإبلِ من شرقِ الأرضِ
وغربها ، فلو دعوتُ اللهَ كنتَ قَمِينًا بِمَاجَتِكَ ، وأن تُنْصَرَ على عدوك ؛ فتركني
وأقبلَ على الدعاء ، فلما نزلت الشمسُ للغروب ، وهمَّ النَّاسُ أن يُفِيضُوا سمعتهُ
يتكلمُ بشيء ، فأصغيتُ إليه ، فإذا هو يقول :

يا ربَّ كلِّ غَدَوَةٍ وروحِه من مُحْرَمٍ يشكو الضَّبا ونوحِه
أنتَ حسيبُ الخلقِ يومَ الدَّوحِه

فقلتُ له : وما يومُ الدَّوحَةِ ؟ قال : والله لأخبرنَّكَ ولو لم تسألني !

فيممنا نحو مُزْدَلَفَةٍ^(١) ، فأقبلَ عليّ وقال : إني رجلٌ ذو مالٍ كثيرٍ ؛ من نَعَمٍ
وشَاءٍ ، وقد خَشِيتُ على أموالِ التَّلَفِ ، فأَتَيْتُ أحوالي كَلْبًا ، فأوسعوا لي عن
صدرِ المجلسِ ، وكنتُ فيهم في خيرِ أحوالي ؛ ثم إني خرجتُ يوماً إلى ماءٍ لهم ،
وركبتُ فرسي ، وسمَّطتُ^(٢) خلفي شِرابًا كان أهداه إليَّ بعضُهم ، ثم مضيتُ حتى
إذا كنتُ بين الحَيِّ ومَرْعَى النِّعَمِ ، رُفِعَتْ لي دَوْحَةٌ عَظِيمَةٌ ، فنزلتُ عن فرسي ،
وشدَّدتُهُ بَغْضَنِ من أَغْصَانِهَا ، وجلسْتُ في ظِلِّهَا ؛ فبينما أنا كذلك إذْ سَطَعَ غبارٌ
من ناحِيَةِ الحَيِّ ، ورُفِعَتْ لي شُخُوصٌ ثَلَاثَةٌ ، ثم تبَيَّنَتْ فإذا فارسٌ يَطْرُدُ اثْنَيْنِ ،
فَتَأَمَّلْتُهُ فإذا عليه دِرْعٌ أَصْفَرٌ ، وِعِمَامَةٌ خَزَّ سَوْدَاءُ ، وإذا فُرُوعُ شَعْرِهِ تَضْرِبُ خَصْرِيَّةَ
فقلتُ : غلامٌ حَدِيثُ عَهْدٍ بِعُرسٍ ، أَعْجَلَتْهُ لَذَّةُ الصَّيْدِ ، فَتَرَكَ ثَوْبَهُ ؛ ولبسَ ثَوْبَ
امْرَأَتِهِ ؛ فما جاز عليَّ إلا يسيراً حتى طعنَ الأثانَ ، وأقبلَ راجعاً نحوى .

(١) مُزْدَلَفَةٌ : موضع بين عرفات ومي ، سمي بذلك لأنه يتقرب فيه إلى الله تعالى (٢) سمط
الشيء : علقه .

فقلت له : إنك قد تعبتَ وأتعبتَ ، فلو نزلت ! فثنى رجله ونزل ، ثم شدَّ فرسه بغصن من أغصان الشجرة ، وألقى رمحاً وأقبل حتى جلس ، فجعل يحدثني حديثاً ذكرتُ به قولَ أبي ذؤيب :

وَإِنْ حَدِيثًا مِنْكَ لَوْ تَبَذَّلْتَهُ جَنَى النَّحْلِ فِي أَلْبَانِ عُوذٍ^(١) مَطَافِلِ

فقمْتُ إلى فرسى فأصلحتُ من أمره ثم رجعتُ ، وقد حَسَرَ العِمامة عن رأسه ؛ فإذا غلامٌ كان وجهه الدينار المنقوش ، فقلت : سبحانك اللهم ! ما أعظمَ قُدْرَتَكَ ! وأحسنَ صنْعَتَكَ ! فقال : مِمَّ ذاك ؟ قلت : مما راعني من جمالك ، وبهرني من نُورِكَ . قال : وما الذي يروعك من حبيس التراب وأكيل الدَّوَّاف ، ثم لا يدري بعد ذلك أينعم أم يئأس ؟ قلت : لا يصنع الله بك إلا خيراً .

ثم تحدَّثنا ساعة ، فأقبل على وقال : ما هذا الذي أرى قد سَمَطت في سرجك ؟ قلت : شراب أهداه إلى بعض أهلِكَ ، فهل لك فيه من أرب ؟ قال : أنتَ وذاك ، فأنتِ به ، فشرب منه ، وجعل ينسكت أحياناً بالسوط على ثنياه ؛ فجعل والله يتبين لي ظلُّ السوط فيهنَّ ، فقلت : مهلاً ، فإنني خائف أن تكسِرهن ، فقال : ولم ؟ قلت : لأنهن رِقاق ، وهنَّ عذاب ؛ ثم رفع عقيرته يتغنَّى :

إِذَا قَبِلَ الْإِنْسَانُ آخِرَ يَشْتَهَى ثَنِيَاهُ لَمْ يَأْتُمْ وَكَانَ لَهُ أَجْرَا

فَإِنْ زَادَ زَادَ اللَّهُ فِي حَسَنَاتِهِ مَثَاقِيلَ يَمْحُو اللَّهُ عَنْهَا الْوِزْرَا

(١) العوذ : الحديثات التاج ، والمطافل جمع مطلق : ذات الطفل .

ثم قام إلى فرسه ، فأصلح من أمره ، ثم رجع
قال أبو مُسْهِر : فبرقت لي بارقةٌ تحت الدَّرْع ، فإذا ثدي ، فقلت : نشدتك
الله ! امرأة ! قالت : إني والله ؛ إلا أنني أكره السَّيْر . ثم جلست ، فجعلت
تشرب معي ، وما أفقد من أنسها شيئاً ، فمالبتُ إلا يسيراً حتى انتهت فزعة ،
فلائتُ عَمَامَتَهَا برأسها ، وجالت في مَتْنِ فرسها ، وقالت : جزاك الله عن الصُّحْبَةِ
خيراً . قلت : أو ما تزوديني منك زاداً ، فناولتني يدها فقباتها ، فشمت والله منها
ريح المسك المفتوت ، فذكرت قول الشاعر :

كأنها إذا تَقَضَّى النومُ وانتبهتُ سحابةٌ مالهَا عينٌ ولا أثرٌ

ثم قلت لها : وأين الموعد ؟ قالت : إن لي إخوة شُرساً ، وأباً غيوراً ،
والله لأنَّ أَسْرَكَ أَحَبُّ إليَّ من أنْ أضرَّكَ ، ثم انصرفت ، فجعلتُ أتبعُها
بصري حتى غابت ، فهي والله يابن أبي ربيعة حلَّتني هذا الحُلَّ ، وأبلغتني هذا
البلغ !

قال عمر : فقلت له : يا أبا المُسْهِر ؛ إنَّ الغدرَ بك مع ما تذكرُ للمليح ، فبكي
واشتدَّ بكأوه . فقلت : لا تَبْكِ ، فما قلتُ لك ما قلتُ إلا مازحاً ، ولو لم أبلغ في
حاجتك بمالي لسمعتُ في ذلك حتى أقدرَ عليه ، فقال : خيراً .

قال عمر : فلما انقضى الموسم شددتُ على ناقتي ، وشدتُ على ناقته ، ودعوت
غلامي ، فشدَّ على بعيره ، وحملت عليه قَبَّةَ حمراء من أَدَم ^(١) ، كانت لأبي ربيعة
الحِزْزُومِي ، وحملت معي ألف دينار ومُطَرَف ^(٢) خَرَّ ، وانطلقنا حتى أتينا بلاد كلب ،

(١) الأدم : الجلد . (٢) المطرف : رداء من خز مريح ذو أعلام .

فَنَشَدْنَا أَبَا الْجَارِيَةِ ، فَوَجَدْنَاهُ فِي نَادَى قَوْمِهِ ، وَإِذَا هُوَ سَيِّدُ الْحَيِّ ، وَإِذَا النَّاسُ حَوْلَهُ ، فَوُفِّتُ عَلَى الْقَوْمِ ، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّ الشَّيْخُ السَّلَامَ ، ثُمَّ قَالَ : مَنْ الرَّجُلُ ؟ قُلْتُ : عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ بْنِ الْمُغِيرَةِ ، فَقَالَ : الْمَعْرُوفُ غَيْرُ الْمُنْكَرِ ! فَمَا الَّذِي جَاءَ بِكَ ؟ قُلْتُ : خَاطِبًا ، قَالَ : الْكَفَّ وَالرَّغْبَةَ ، قُلْتُ : إِنِّي لَمْ آتِ ذَلِكَ لِنَفْسِي عَنْ غَيْرِ زَهَادَةٍ فِيكَ ، وَلَا جَهَالَةٍ بِشَرْفِكَ ؛ وَلَكِنِّي أَتَيْتُ فِي حَاجَةِ ابْنِ أَخِي عَمَّ الْعُدْرَى ، وَهَـوَ ذَاكَ . فَقَالَ : وَاللَّهِ إِنَّهُ لَكَفَّ الْحَسْبَ ؛ رَفِيعَ الْبَيْتِ ، غَيْرَ أَنَّ بَنَاتِي لَمْ يَقَعْنَ إِلَّا فِي هَذَا الْحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ .

فَوَجَّحْتُ لَذَلِكَ ، وَعَرَفَ التَّغْيِيرَ فِي وَجْهِهِ ، فَقَالَ : أَمَا إِنِّي صَانِعُ بِكَ مَا لَمْ أَصْنَعْهُ مَعَ غَيْرِكَ ، قُلْتُ : وَمَا ذَاكَ ؟ فَمَنَّلَنِي مَنْ شَكَرَ . قَالَ : أَخَيَّرَهَا ، فَهِيَ وَمَا اخْتَارَتْ ، ثُمَّ خَيَّرَهَا ، فَقَالَتْ : وَمَا كُنْتُ لِأَسْتَبَدَّ بِرَأْيِ دُونَ الْقُرَشِيِّ ، فَاخْتَارُ وَالْحَكَمَ لَهُ . فَقَالَ لِي : إِنِّهَا قَدْ وَلَّتْكَ أَمْرَهَا ، فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ . فَحَمَدْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَتَيْتُ عَلَيْهِ ، وَقُلْتُ : اشْهَدُوا أَنِّي قَدْ زَوَّجْتُهَا مِنْ الْجَعْدِ بْنِ مِهْجَعٍ ، وَأَصْدَقْتُهَا هَذَا الْأَلْفَ الدِّينَارَ ، وَجَعَلْتُ تَكْرِمَتَهَا الْعَبْدَ وَالْبَعِيرَ وَالْقُبَّةَ ؛ وَكَسَوْتُ الشَّيْخَ الْمُطَّرَفَ ، وَسَأَلْتُهُ أَنْ يَبْنِيَ بَيْتًا لِي فِي لَيْلَتِهِ ؛ فَأَرْسَلَ إِلَيَّ أُمُّهَا ؛ فَقَالَتْ : أَتَخْرُجُ ابْنَتِي كَمَا تَخْرُجُ الْأَمَةُ ! فَقَالَ الشَّيْخُ : قَوْمِي فِي جِهَازِهَا ، فَمَا بَرَحْتُ حَتَّى ضَرَبْتُ الْقُبَّةَ فِي وَسْطِ الْحَرِيمِ ؛ ثُمَّ أَهْدَيْتُ إِلَيْهِ لَيْلًا ؛ وَبَتَ عِنْدَ الشَّيْخِ ؛ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَتَيْتُ الْقُبَّةَ ، فَصَحَّتْ بِصَاحِبِي فَخَرَجَ إِلَيَّ وَقَدْ أَثَّرَ السَّرُورُ فِيهِ ، فَقُلْتُ : كَيْفَ كُنْتَ بَعْدِي ؟ وَكَيْفَ هِيَ بَعْدَكَ ؟ فَقَالَ لِي : أَبَدْتُ لِي وَاللَّهِ كَثِيرًا مِمَّا كَانَتْ

أخفته عني يوم لقيتها ؛ فقلت : أقيم على أهلك ، بارك الله لك فيهم ، وانطلقت وأنا أقول :

كفيت أخى العذرى ما كان نابه وإني لأعجاء النوائب حمال
فقال العذرى :

إذا ما أبو الخطاب خلى مكانه فأفـ لدنيا ليس من أهلها عمر !

١٠٠ — لولا فصاحتهم لضربت أعناقهم *

أمر الحجاج^(١) صاحب حرّيه أن يطوف بالليل ؛ فن رآه بعد العشاء سكران
ضرب عنقه ؛ فطاف ليلة من الليالي ، فوجد ثلاثة فتیان يتمايلون ، وعليهم أمارات
السكر ؛ فأحاطت بهم الغلمان ، وقال لهم صاحبُ الحرس : من أنتم حتى خالقم
أمر أمير المؤمنين ، وخرجتم في مثل هذا الوقت ! فقال أحدهم :

أنا ابنُ من دانتِ الرقابُ له ما بين مخزومٍ — وهاشميها
تأتيه بالرغمِ وهي صاغرةٌ يأخذ من مالها ومن دميها

فأمسك عنه ، وقال : لعله من أقارب أمير المؤمنين ! ثم قال للآخر : وأنت
من تكون ؟ فقال :

أنا ابنُ لمن لا تنزلُ الدهرَ قدرُهُ وإن نزلت يوماً فسوف تعود
ترى الناس أفواجاً إلى ضوء ناره فمنهم قيامٌ حولها وقعودٌ

فأمسك عنه ، وقال : لعله ابن أشرف العرب . ثم قال للآخر : وأنت من
تكون ؟ فأنشد على البديهة :

أنا ابنُ لمن خاضَ الصفوفَ بزمِهم وقومها بالسيفِ حتى استقامتِ
وركباهُ لا ينفك رجلاهُ منهما إذا الخيلُ في يومِ الكريهة ولَّتِ

* مجازي الأدب : ٣ - ١٥

(١) الحجاج بن يوسف : نشأ بالطائف ، وولى العراق والشرق ، وهلك بواسط سنة ٩٥ .

فأمسك عنه أيضاً ، وقال : لعله ابن أشجع العرب ؛ واحتفظ عليهم .
فلما كان الصباح رفع أمرهم إليه ؛ فأحضرهم ، وكشف عن حالهم ؛ فإذا الأول
ابن حجاج ، والثاني ابن فؤال ، والثالث ابن حائك !
فتمعجب من فصاحتهم ، وقال لجلسائه : علموا أولادكم الأدب ، فوالله لولا
فصاحتهم لضربت أعناقهم .

١٠١ — يوم دَارَة جُلْجُل *

قال الفرزدق ^(١) : أصابنا بالبصرة مطر جَوْد ^(٢) ، فلما أعجبتُ ركبْتُ بغلتي ،
وسرْتُ إلى المَرَبْد ^(٣) ، فإذا أنا بآثار دوابٍّ ، وقد خرجت إلى ناحية البرية ، فظننتُ
أنهم قوم خرجوا للنزهة وهم خُلَقَاء أن يكون معهم سُفْرَةٌ ^(٤) ، فاتبعْتُ آثارهم حتى
انتهيت إلى بغال عليها رحائل ^(٥) موقوفة على غدير ، فأسرعتُ إلى الغدير ، فإذا فيه
نسوة مستنقعات في الماء ، فقلت : لم أر كاليوم قط ولا يوم دارة جُلْجُل ،
وانصرفت مستحيياً .

فناديتني : يا صاحبَ البغلة ؛ ارجِعْ نسألك عن شيء ، فرجعتُ إليهن ، فقعذن
في الماء إلى حُلوقهن ، ثم قلن : بالله إلا ما أخبرتنا ، ما كان من حديث دارة جلجل .

قلت : حَدَّثَنِي جدي - وأنا يومئذ غلامٌ حافِظ - أن امرأة القيس كان عاشقاً
لابنة عمه - ويقال لها عُثَيْرَة - وأنه طلبها زماناً فلم يصل ، حتى كان يوم الغدير -
وهو يوم دارة جلجل - وذلك أَنَّ الحَيَّ تحمّلوا ، فتقدم الرجال ، وتحلف النساء
والخدم والنَّقْل ؛ فلما رأى ذلك امرؤ القيس تحلف بعدما سار مع رجال قومه غَلَوَة ،
فكمن في غابة من الأرض حتى مرَّ به النساء ، وفيهن عُثَيْرَة ، فلما وَرَدْنَ الغدير

* العقد الفريد : ٤ - ٣٥٢ .

(١) هو أبو فراس همّام بن غالب نشأ بالبصرة وأخذهُ أبوه برواية الشعر ونظمه فرواه ونبغ
فيه . مات سنة ١١٠ هـ . (٢) الجود : المطر الغزير (٣) المَرَبْد : سوق بالبصرة ، كان يعقد
البيع ، وفيه ينشد الشعر (٤) السفرة : طعام المسافر (٥) الرحالة : السرج .

قلن : لو نزلنا واغتسلنا في هذا الغدير فذهب عنا بعضُ الكلال ! فنزلن في الغدير ، ثم تجردن فوقفن فيه ، فأتاهن امرؤ القيس ، فأخذ ثيابهن فجمعها ، وقعد عليها ، وقال : والله لا أعطى جاريةً منكن ثوبها ، ولو قعدت في الغدير يومها حتى تخرج متجردةً فتأخذ ثوبها ، فأبين ذلك عليه حتى تعالى النهار ، وخشين أن يقصرن عن المنزل الذي يردنه ، فخرجن جميعاً غير عُنيزة ، فناشدته الله أن يطرح ثوبها ، فأبى ، فخرجت فنظر إليها مُقبله مدبرة ، وأقبلن عليه ، فقلن له : إنك عذبنا وحَبَسْتَنَا وأَجَعْتَنَا ، قال : فإن نحرْتُ لـسكنَ نأقَى أنا كلن معي ؟ قلن : نعم ، فجرد سيفاً فمَرَّ قَبْها ونحرها ، ثم كسَّطها ، وجمع الخدمُ حطباً كثيراً ، فأجَّجْنَ ناراً عظيمةً ، فجعل يقطع أطايبها ، ويُلقى على الجمر . ويأكلن ويأكل معهن ، ويشرب من فضلة كانت معه ، ويسقين وينبذ إلى العبيد من الكباب ^(١) ، فلما أرادوا الرحيل قالت إحداهن : أنا أحمل طِنْفستَه ، وقالت الأخرى : أنا أحمل رَحْلَه ونساعده ، فتقسمن متاعه وزاده ، وبقيت عُنيزة لم تحمل له شيئاً ، فقال لها : يا بنت الكرام ! لا بد أن تحمليني معك ، فأبى لا أطيق المشى ، فحملته على غارب بعيرها ، فكان يمنح إليها فيميل حدجها ^(٢) ، فتقول : « عقرت بعيري ، فانزل » ، وفي ذلك يقول :

ألا ربَّ يومٍ لي من البيضِ صالحٍ ولا سيما يوم بدارةٍ جُلجلٍ ^(٣)
ويوم عقرت للعذارى مطيقي ^(٤) فيأعجباً من كورها التَحَمَّل

(١) الكباب : ضرب من قلى اللحم (٢) الحدج : مركب للنساء كالحففة (٣) دارة جلجل : مكان بنجد (٤) مطيته : ناقته ، والعذارى : الأبقار ، والكور : الرحل ، والتحمل : المحمول .

فَظَلَّ الْعَذَارَى يَزْتَمِينَ بِلَحْمِهَا وَشَحْمِ كَهْدَابِ^(١) الدَّمَقْسِ الْمَقْتَلِ
وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخَدَرَ^(٢) خِدَرَ عَنِيْزَةٍ فَقَالَتْ : لَكَ الْوِيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجَلِي^(٣)
تَقُولُ وَقَدْ مَالَ الْفَيْيْطُ^(٤) بِنَا مَعًا عَقَرْتُ^(٥) بَعِيرِي يَا امْرَأَ الْقَيْسِ فَأَنْزِلِ
فَقُلْتُ لَهَا : سِيرِي وَأَرْخِي زِمَامَهُ وَلَا تُبْعِدِيْنِي مِنْ جَنَّاكِ الْمُعَلَّلِ^(٦)

(١) هداب الدمقس : أطراف الحرير ، والمقتل : المفتول (٢) الخدر : الهودج ، وهو في الأصل الستر (٣) مرجلي من أرجلته : سيرته راجلا . وقيل معناه فأضحى بين رجالي .
(٤) الفَيْيْط : الرجل (٥) عقرت بعيري : أدميت ظهره لثفلك (٦) الجنى : الثمر ، والمعلل : المطيب مرة بعد أخرى .

١٠٢ — دَعْنِي وَرَبِّي الَّذِي لَا يَنْخَلُ وَلَا يَذْهَلُ *

لما باع الوليد ^(١) بن يزيد أن يزيدَ بن الوليدَ بن عبد الملك قد شرَّد عنه القلوب ، واستجاش ^(٢) عليه أهل اليمن ، ونازعه في ملكه ؛ احتجب عن مُسمّاره ، ودعا في بعض الليالي خادماً له ؛ فقال له : انطلق متسكراً حتى تقف ببعض الطُّرُق ؛ وتأمّل من يمرُّ بك من الناس ؛ فإذا رأيت كهلاً رثَّ الهيئة ؛ يمشي الهويني ؛ وهو مُطَرِّق ، فسلم عليه ؛ وقل له في أذنيه : أميرُ المؤمنين يدعوك ؛ فإن أَسْرَعَ في الإجابة فأنتى به ، وإن استرأب ^(٣) فدعه ، واطلب غيره ؛ حتى تجد رجلاً على الشرط الذي ذكرتُ لك .

فانطلق الخادم ؛ فأتاه برجل على الشرط .

فلما دخل الرجل على الوليد حيّاه بتحية الخلافة ، فأمره الوليد بالجلوس والدُّنُو منه ؛ وصبرَ إلى أن ذهب رَوْعُهُ ، وسكن جَأْشُهُ ، ثم أقبل عليه ، فقال له : اتَّحَسِّنُ المسامرةَ لاحفاء ؟ فقال . نعم يا أمير المؤمنين . فقال الوليد : إن كنت تُحَسِّنُهَا فأخبرنا ماهي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ المسامرةُ إخبارُ الْمُنْصِتِ ، وإنْصَتَ لِمُخْبِرٍ ، ومفاوضة فيما يعجب ويليق .

* ثمرات الأوراق : ١٧٤

(١) كان الوليد بن يزيد - ويكنى أبا العباس - ماجناً سقيماً يقطع دهره بالهوى والغزل ، ويقول أشعار الفنين يعمل فيها الألقان . مات مقتولاً سنة ١٢٦ هـ (٢) استجاش أهل اليمن : سألهم على الهياج (٣) استرأب به : رأى منه ما يريه .

قال له الوليد : أحسنت ! لا أزيدك امتحاناً ! فقل : أسمع لقولك .

فقال الكهل : نعم يا أمير المؤمنين ؛ ولكنّ السامرة صِنْفان لا ثالث لهما : أحدهما الإخبار بما يوافق خيراً مسموعاً ، والثاني الإخبار بما يُوافق غرضاً من أغراض صاحب المجلس ، وإني لم أسمع بحضرة أمير المؤمنين طريقةً فأنحوّ نحوها ، والزّم أسلوبها .

فقال الوليد : صدقت ، وهانحن أولاء نقترح لك ماتقتفيه .

قد بلغنا أن رجلاً من رَعِيَّتِنَا سعى في ضرر مُلكنا ، فأثر سعيه ؛ وشقّ ذلك علينا ، فهل سمعتَ ذلك ؟ فقال الكهل : نعم يا أمير المؤمنين ! فقال له الوليد : قل الآن على حَسَبِ ما سمعتَ ، وعلى ما ترى من التدبير .

فقال : بلغني عن أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان : أنه لما ندب الناس لقتال ابن الزبير ؛ وخرج بهم متوجّهاً إلى مكة - حرمها الله - استصحب عمرو بن سعيد بن العاص ، وكان عمرو قد انطوى على فساد نيّة ، وخُبث طويّة ، وطَماعيةٍ في نيل الخلافة ، وكان أمير المؤمنين عبدُ الملك بن مروان قد فطن لذلك ، إلا أنه كان يحترمه .

ولما بعدَ أمير المؤمنين عن دمشق تمارض عمرو بن سعيد ، واستأذن في العودِ إلى دمشق ؛ فأذن له .

فلما دخل عمرو دمشق صعد المنبر ، فخطب الناس خطبةً ، نال فيها من الخليفة ، واستولى على دمشق ، ودعا الناس إلى خلع عبد الملك ؛ فأجابوه إلى ذلك ،

وبابعدوه ، وحصّن بعد ذلك سورَ دمشق وحِمْى حوزَتها .

فبلغ ذلك عبد الملك ، وهو متوجّه إلى ابن الزبير ؛ وبلغه مع ذلك : أن وإلى حِمص قد نزع يده من الطاعة ؛ وأن أهل النغور قد تشوّفوا للخلاف ؛ فأحضر وزراءه ؛ فأطلّعهم على ما بلغه ، وقال لهم : دمشق قد استولى عليها عمرو بن سعيد ، وهذا عبد الله بن الزبير قد ملك الحجاز والعراق واليمن ومِصرَ وخُرَاسان ، وهذا النعمان بن بشير أمير حمص ، وزُفر بن الحارث أمير فلسطين قد خرجا عن الطاعة وبايعا الناس لابن الزبير .

فلما سمع وزراؤه مقالته ذهلت عقولهم ، فقال لهم عبد الملك : مالكم لا تنطقون ؟ هذا وقت الحاجة إليكم .

فقال أفضّلهم : وددت أن أكون طيّراً على عودٍ من أعوادِ تهامة حتى تنقضى هذه الفتن !

فلما سمع عبد الملك مقالة صاحبه قام ، وأمرهم بلزوم موضعهم ، وركب منفرداً ، وأمر جماعة من شجعانه أن يتبعوه متباعدين ، ففعلوا .

وسار عبد الملك حتى انتهى إلى شيخ ضعيف ، سَيِّء الحال ، وهو يجمع سُمّاً^(١) ؛ فسلم عليه عبد الملك وآسنه بحديثه ، ثم قال له : أيّها الشيخ ، ألك علمٌ بنزول هذا العسكر ؟ فقال الشيخ : وما سؤالك عنه ؟ فقال عبد الملك : إني أردتُ الانتظام في سِلْكِهِ ! فقال له : إني أرى عليك سِمَةَ الرياسة ، فينبغي لك

(١) السمّاق ، كرماني : ثمر يشهى .

أن تصرف نفسك عن هذا الرأي ؛ فإنَّ الأميرَ الذي أنتَ قاصده قد انحلت
عُرًا مُلكه ؛ والسلطانُ في اضطرابِ أموره كالبحر إذا هاج !

فقال عبد الملك : أيها الشيخ ؛ قد تآقت نَفْسِي إلى صحبةِ هذا الأمير ؛ فهل
لك أن تُرشدني إلى رأيٍ ؟ فقال له الشيخ : إن هذه النازلة التي نزلتْ بهذا الأمير
من النوازل التي لا تنفذ فيها العقول ، وإني لأكره أن أُرَدَّ مسألتك بالخبيثة . فقال
له عبد الملك : قل جزاك اللهُ خيرًا !

فقال الشيخ : إذا قصدتَ هذا الأمير ، وانتظمتَ في سلكه ؛ فانظر في أمره
فإن رأيتَه قد أَصَرَ على قَصده ابن الزبير فاعلم أنه مخدول فاجتنبه ؛ وإن رأيتَه قد
رجع من حيث جاء ، وترك قصده الأول ؛ فارجُ له النصر والسلامة .

فقال عبد الملك : يا شيخ ، وهل رجوعه إلى دمشق إلا كسيره إلى ابن
الزبير ؟ قال الشيخ : إن الذي أشكل عليك ل واضح ! وهأنذا أزيل عنك اللبس ؛
إن عبد الملك إذا قصد ابنَ الزبير كان في صورةٍ ظالم ؛ لأنَّ ابنَ الزبير ما وثبَ له
على مملكة ؛ فإذا قصد ابنَ سعيد كان في صورةٍ مظلوم ؛ لأنه نكث ببيعتَه ، وخان
أمانته ، ووثبَ على دار ملك لم تكن له ولا لأبيه من قبله ؛ بل كانت لعبد الملك
ولأبيه من قبله ؛ وعمرو عليها مُتَعَدَّة .

وفي الأمثال : سنيف الغصْبِ مهزول ! ، وولِي الغَدْر مَعزُول ، وسأضربُ
لك مثلاً يشفي النفس ، ويزيل اللبس :

زعموا أن ثعلبًا كان يسمى ظالمًا ، وكان له جُحر يأوي إليه ، وكان مُفْتِيطًا به ؛

فخرج يوماً يبتغي ماياً كل ، ثم رجع ؛ فوجد فيه حيّة ، فانتظر خروجها ، فلم تخرج ؛ فعلم أنها استوطنته ، ولما لم يمكنه الشكوى معها ذهب يطلب لنفسه مأوى ؛ فأتتهى به السير إلى جحر حسن الظاهر ، حصين في أرض منيعة ذات أشجار ملتفة وماء معين^(١) ؛ فأعجبته ، وسأل عنه ؛ فقالوا : هذا الجحر يملكه ثعلب اسمه مفوض ، وأنه ورثه عن أبيه ؛ فساداه ظالم فخرج إليه ، ورحب به ، وأدخله إلى جحره ، وسأله عن حاله ؛ فقص عليه خبره مع الحية ؛ فرق له مفوض ، وقال له : الموت خير من الحياة في العار ، والرأى عندي : أن تنطلق معي إلى مأواك الذي أخذ منك غضباً ، حتى أنظر إليه ، فلعل أهدى إلى مكيدة تخاف بها مأواك .

فانطلقا معاً إلى ذلك الجحر ؛ فتأمل مفوض ، وقال لظالم : اذهب معي فبِت الليلة عندي لأنظر ليلتي هذه فيما يسع من الرأى والمكيدة .

ففعلاً ذلك ، وبات مفوض مفكراً ، وجعل ظالم يتأمل مسكن مفوض فرأى من سعته ، وطيب هوائه وحصانته ما اشتد به جرحه عليه ، ووفق يدبر في حيلة لاغتصابه ، ونفى مفوض عنه .

فلما أصبحا قال مفوض لظالم : إني رأيت ذلك الجحر بعيداً من الشجر والماء فأصرف نفسك عنه ، وهلم أعينك على احتقار جحر في هذا المكان المشتبه .

فقال ظالم : غير هذا ممكن ؛ لأن لي نفساً تهلك لبعث الوطن حينئذ ؛ فلما سمع مفوض

(١) ماء معين : جار .

مقالة ظالمٍ، وما يتظاهر به من الرغبة في وطنه ، قال : إني أرى أن نذهب يومنا هذا ،
فنحتطب حطباً ، ونربط منه حزمتين ، فإذا جاء الليل انطلقنا إلى بعض هذه الخيام ؛
فأخذنا قَبَسَ نار ، واحتملنا الحطب والقَبَسَ إلى مسكنك ؛ فنجعل الحزمتين في بابه ،
ونُضرم النار ؛ فإن خرجت الحية احترقت ، وإن لزمت الجُحْرَ قتلها الدخان .

فقال له ظالم : نَعَمْ الرَّأْيُ !

فذهبا واحتطبا حزمتين ، ولما جاء الليل انطلق مفوض إلى ظاهر تلك الخيام ،
فأخذ قَبَساً ؛ فعمد ظالم إلى إحدى الحزمتين ، فأزالها إلى موضعٍ غيبها فيه ، ثم جرَّ
الحزمة الأخرى إلى باب مسكن مفوض ، فسده بها سداً مُحْكَمًا ، وقدر في نفسه
أن مفوضاً إذا أتى الجحر لم يمكنه الدخول إليه لخصانته ، فإذا يئس منه ذهب فنظر
لنفسه مأوى .

وكان ظالم قد رأى في منزل مفوض طعاماً أدخره لنفسه ؛ فعوّل على أنه يَقْتَاتُ
به إن حاصره مفوض ، وهو من داخل ؛ وأذْهَلَهُ الشَّرُّ والحِرْصُ عن فساد هذا
الرأْيِ .

ثم إن مفوضاً جاء بالقَبَسَ فلم يجد ظالماً ؛ فظن أنه قد حمل إحدى الحزمتين
تحفيفاً عنه ، وأنه سبقه إلى مسكنه الذي فيه الحية ، إشفاقاً عليه ، فشق ذلك عليه ،
وظهر له من الرأْيِ أن يُبادرَ إليه ويلحقه ؛ ليحمل معه الحطب .

فوضع القَبَسَ بالقرب من الحطب ، ولم يشعر أن الباب مسدود به ؛ لشدة
الظلمة ؛ فما بُعد عن الباب إلا وضوء النار وشدة الدخان قد لَحِقَا به ، فعاد وتأمل
الباب ؛ فرأى الحطب قد صار ناراً ؛ فعلم مكيدة ظالم ، ورآه قد احترق من داخل

الجحر ، وحق به مَكْرُهُ ؛ فقال : هذا الباحث على حَتَفِهِ ^(١) بِظِلْفِهِ .
ثم إن مفوضاً صبر حتى انطفأت النار ؛ فدخل جُجْرَهُ ؛ فأخرج جثة ظالم ؛
فألقاها ؛ واستوطن جحره آمناً .

فهذا المثل ضربته لك ؛ لأنه ملائم لفعل عمرو بن سعيد في بَغْيِهِ وَمُحَادَعَتِهِ
عبد الملك وحيلته في أخذ دار ماله وتحصينها منه .

فلما سمع عبدُ الملك حكمةَ الشيخ في ضرب أمثاله سُرَّ بذلك سروراً عظيماً ،
ثم أقبل عليه ؛ فقال : جُزَيْتَ عَنِّي خيراً ! وإني أريد أن تجعل بيني وبينك موعداً
وتعرفني مكانك ؛ لألقاك به بعد يومى هذا .

فقال الشيخ : وما تريدُ بذلك ؟ فقال له عبد الملك : إني أريد مكافأتك على
ما كان منك ؛ فقال الشيخ : إني أعطيتُ اللهَ عَهْداً ألا أقبلَ مِنَّةً لبخيل .

فقال عبد الملك : ومن أين علمت أنى بخيل ؟ قال : لأنك أخرت صلتى مع
القدرة ؛ فما عليك لو وصلتني ببعض ما عليك ؟ فقال عبد الملك : أقسم لقد ذهلت !
ثم نزع سيفه ، وقال له : أقبل منى هذا واحرص عليه ؛ فقيمته عشرون ألف درهم .
فقال الشيخ : إني لا أقبلُ صلةَ ذاهل ، فدعنى وربى الذى لا يذهل ولا يبخل ؛
فهو حسبى !

فلما سمع عبد الملك كلام الشيخ عَظُمَ في عينه ، وعلم فضله في دينه ، فقال له :
أنا عبد الملك ؛ فأرفع حوائجك إلى ، فقال الشيخ : وأنا أيضاً عبد الملك ؛ فلم ترفع
حوائجنا إلى من أنت وأنا له عَبْدَان .

فانطلق عبد الملك وعمل برأى الشيخ ؛ فأنجح الله قَصْدَه ، وانتصر على أعدائه .
فلما سمع الوليد ما أخبره به الكهل استرجع عقله ، واستظرف أدبه ، واستحسن
محاضرتَه ، وسأله عن نفسه ؛ فتنسَّى له وانتسب ؛ فلم يعرفه الوليد ، فاستجيا منه ،
وقال له : من جَهِل مثلك في رعيته ضاع .

فقال له الكهل : يا أمير المؤمنين ؛ إن الملوك لا تعرفُ إلا من تعرفُ إليها ،
ولزم أبوابها .

فقال له الوليد : صدقت ، ثم أمر له بصدقةٍ مُعَجَّلة ، وعهد إليه في ملازمته ؛
فكان يتمتع بأدبه وحكمته .

١٠٣ — أبو جعفر المنصور في المرأة *

قال شبيب بن شيبَة : حجبت عام هَلَاكَ هشام ؛ وولى الوليد بن يزيد ، وذلك سنة خمس وعشرين ومائة ، فبينما أنا مُرِيحٌ ناحيةً من المسجد ، إذ طلع من بعض أبوابه فتى أسمر ، رقيقُ السمرة ، موفور اللَّمة ^(١) ، خفيفُ اللحية ، رحبُ الجبهة ، أفنى ^(٢) بَيْنَ القَنَا ، أَعْيَنُ ^(٣) كَانَ عَيْنُهُ لسانان ينفقان ، يخطأ أَبْهَةً الأَمْلَاكِ ^(٤) يَزِيَّ النَّسَاك ، تقبله القلوب ، وتقبّعه العيون ، يعرف الشرف في تواضعه ، والعفو ^(٥) في صورته ، واللَّبُّ ^(٦) في مشيته ؛ فما ملكْتُ نفسي أن نهضتُ في أثره ، سائلاً عن خبره ، وسَبَقَنِي فتحرّمت بالطواف ؛ فلما سَبَعُ ^(٧) قصد المقام ، فركع وأنا أرفعاه ببصرى ، ثم نهض منصرفاً ، فكانَ عَيْنًا أصابته ، فكبا كبوة دَمِيت لها إصبعه ؛ فقعدها القرُفُصَاء ، فدنوتُ منه متوجِّعاً لما ناله ، متصلاً به ؛ أَمْسَحُ رجله من التراب ، فلا يمتنع علىّ ، ثم شققت حاشية ثوبه ، فعمصتُ بها إصبعه ، وما ينكر ذلك ولا يدفعه ، ثم نهض متوكِّئاً علىّ ، واقعدتُ له أماشيته ، حتى إذا أتى داراً بأعلى مكة ابتدره رجلان تسكاد صدورهما تنفرج من هيئته ، ففتحا له البابَ فدخلا واجتذبنى ، فدخلتُ بدخوله ، ثم خلى يدي ، وأقبل على القبلة ، فصلى ركعتين أوجز فيهما في تمام .

* العقد الفريد : ٣ - ٢٨٩

(١) الامة : الشعر الذى يجاوز شحمة الأذن (٢) قنا الأنف : ارتفاع أعلاه واحديداب وسطه وسبوغ طرفه (٣) الأعين : عظيم سواد العين في سعة (٤) الأملاك : الملوك . والأبهة : العظله والكبر (٥) العفو : الفضل (٦) اللب : العقل (٧) سبع الشيء : جعله سبعة .

ثم استوى في صدر مجلسه فحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم أتم صلاة وأطيبها ، ثم قال : لم يخف على مكانك منذ اليوم ولا فعلك بي ؛ فمن تكون يرحمك الله ؟ قلت : شبيب ^(١) بن شيبَةَ التَّمِيمِي . قال : الأهمى ؟ قلت : نعم . فرحب وقرب ، ووصف قومي بأبين بيان وأفصح لسان ، فقلت له : أنا أجلك - أصالحك الله - عن المسألة ، وأحب المعرفة ! فتبسم وقال : لطف أهل العراق ! أنا عبد الله ^(٢) بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ! فقلت : بأبي أنت وأمي ! ما أشبهك بنسبك ، وأدلك على منصبك ! ولقد سبق إلى قلبي من محبتك ما لا أبلغه بوصفي لك قال : فاحمد الله يا أخا تميم ، فإننا قوم يُسعد الله بحبنا من أحبه ويُشقى ببغضنا من أبغضه ، ولن يوصل الإيمان إلى قلب أحدكم حتى يحب الله ويحب رسوله ، وإن ضعفنا عن جزائه قوى الله على أدائه .

فقلت له : أنت توصف بالعلم ، وأنا من حلمته ، وأيام الموسم ضيفة ، وشغل أهل مكة كثير ، وفي نفسي أشياء أحب أن أسأل عنها ، أفتأذن لي - جعلت فداك ! قال : نحن من أكثر الناس مستوحشون ، وأرجو أن تكون للسّر موضعاً وللأمانة ذاعياً ، فإن كنت كما رجوت فافعل !

فقدّمت من وثائق القول والإيمان ما سكن إليّ ، فتلا قول الله : ﴿ قُلْ أُمِرْتُ أَنْ أَكْبِرَ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ ﴾ . ثم قال : سل عما بدا لك

(١) هو خطيب البصرة في زمانه ، نشأ في البصرة ، وامتاز بشيالة نفس ، وسخاء كف ، وحسن تواضع ، عرف أبا جعفر النصور قبل خلافته ، ثم اتصل به بعدها فجعله في حاشية ولي عهده المهدي حتى ولي المهدي الخلافة . صار من خيرة سماره وجلسائه ، إلى أن مات سنة ١٧٠ هـ (٢) أبو جعفر النصور .

قلت : ما ترى فيمن على الموسم - وكان عليه يوسف بن محمد بن يوسف النقفى -
فتنفّس الصّعْداء وقال : عن الصلاة خلفه تسألنى ، أم كرهت أن يتأمر ^(١) على
آل الله من ليس منهم ؟ قلت : عن كِلَا الأمرين .

قال : إن هذا عند الله لعظيم ، فأما الصلاة ففَرَضَ الله تعيّد به خلقه ، فأدّ
ما فرض الله تعالى عليك في كل وقت مع كل أحد ، وعلى كل حال ، فإن الذى
نَدَبَكَ لحجّ بيته وحُضور جماعته وأعياده لم يخبرك في كتابه بأنه لا يقبل منك
نُسكاً إلا مع أكل المؤمنين إيماناً ؛ رحمةً منه لك ؛ ولو فعلَ ذلك بك ضاق الأمرُ
عليك ؛ فاستمع يسمع لك . ثم كررت في السؤال عليه ؛ فما احتجبتُ أن أسأل
عن أمر ديني أحداً بعده .

ثم قلت : يزعم أهل العلم أنها ستكون لكم دولة ؛ فقال : لا شك فيها ؛ تطلع
طلوع الشمس ، وتظهر ظهورها ؛ فنسأل الله خيرها ونعوذ بالله من شرها ، فخذ
بحظ لسانك ويدك منها إن أذركَنتها . قلت : أَوَيَتَخَلَّفُ عنها أحد من العرب وأنتم
ساداتها ؟ قال : نعم ، قومٌ يابون إلا الوفاء لمن اصطنعهم ، ونأبى إلا طلباً بحقنا
فننصرُ ويخذلون ؛ كما نصرَ بأولنا أولهم ؛ ويخذل بمخالفتنا من خالف منهم ؛
فاسترجعتُ ، فقال : سهل عليك الأمر « سُنَّةُ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ،
وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » ، وليس ما يكون لهم بحاجز لنا عن صلة أرحامهم ،
وحِفْظِ أعقابهم ؛ وتجديد الصنيعة . قلت : كيف تسلم لهم قلوبكم ؛ وقد قاتلوا مع
عدوكم ؟ قال : نحن قوم حُبِّبَ إلينا الوفاء وإن كان علينا ، وبُغِضَ إلينا الغدرُ

(١) تأمر : تسلط .

وإن كان لنا ، وإنما يشدّ عنا منهم الأقل ، فأما أنصار دولتنا ونقباء شيعتنا ، وأسماء جيوشنا ، فهم مواليتهم ، وموالى القوم من أنفسهم ، فإذا وضعت الحرب أوزارها صفحنا عن المسيء ، ووهبنا للرجل قومه ، ومن اتصل بأسبابه ؛ فتذهب المنازعة ، وتخبو الفتنة ، وتطمئن القلوب .

قلت : ويقال إنه يُبتلى بكم من أخلص لكم المحبة . قال : قد روى أن البلاء أسرع إلى محبتنا من الماء إلى قراره . قلت : لم أرد هذا . قال : فه ؟ قلت : تقعون بالولى ، وتخطون بالعدو . قال : من يسعد بنا من الأولياء أكثر ، ومن يسلم لنا من الأعداء أقل وأيسر ، وإنما نحن بشر ، وأكثرنا أذن ولا يعلم الغيب إلا الله ، وربما استترت عنا الأمور ، فنقع بما لا نريد ، وإن لنا لإحساناً يأسو^(١) الله به ما نكلم^(٢) ، ويرم^(٣) ما نثلم ، ونستغفر الله مما لا نعلم ، وما أنكرت من أن يكون الأمر على ما بلغك ، ومع الولى التعزز والإدلال ؛ والثقة والاسترسال ، ومع العدو التحرز والاحتياط ، والتذلل والاختيال ؛ وربما أمل الدل ؛ وأخل المسترسل ، وتجانب المقارب ، ومع المقة^(٤) تكون الثقة ، وعلى أن العاقبة لنا على عدونا ، وهى لوليتنا ، وإنك لستول يا أخا تميم .

قلت : إني أخاف ألا أراك بعد اليوم . قال : إني لأرجو أن أراك وترانى كما تحب عن قريب إن شاء الله . قلت : عجل الله ذلك ! قال : آمين ! قلت : ووهب لى السلامة منكم فإني محبيكم . قال : آمين ؛ وتبسم ! وقال : لا بأس عليك ما أعاذك الله من ثلاث . قلت : وما هى ؟ قال : قدح فى الدين ، أو هتك للملك ، أو تهمة فى حرمة . ثم قال : احفظ عني ما أقول لك : اصدق وإن ضرك الصدق ،

(١) يأسو : يداوى (٢) نكلم : نجرح (٣) يرم : يصلح (٤) المقة : المحبة .

وانصح وإن باعدك النصيح ، ولا تجالس عدونا وإن أحظينا فإنه مخذول ، ولا تخذل ولينا فإنه منصور ؛ واصحبنا بترك الماكرة ، وتواضع إذا رفعوك ، وصل إذا قطعوك ، ولا تسخف فيمقتوك ، ولا تنقبض فيحشموك ^(١) ، ولا تبدأ حتى يبدؤوك ، ولا تخطب الأعمال ، ولا تتعرض للأموال ؛ وأنا راض من عشتي هذه ، فهل من حاجة ؟ فهضت لوداعه فودعته ، ثم قلت : أترقب لظهور الأمر وقتاً ؟ قال : الله المقدر الوقت ، فإذا قامت النوحات بالشام فهما آخر العلامات . قلت : وما هما ؟ قال : موت هشام العام ، وموت محمد بن علي ^(٢) مستهل ذي القعدة . قلت : فهل أوصى ؟ قال : نعم ، إلى أخيه إبراهيم .

قال : فلما خرجت ، فإذا مولى له يتبعني حتى عرف منزلي ، ثم أتاني بكسوة من كسوته ، فقال : يأمرك أبو جعفر أن تصلي في هذه .

قال شيب : وافترقنا ، فوالله ما رأيته إلا وحرسيان قابضان على يدنياني منه في جماعة من قومي لأبائعه ، فلما نظر إلى أثبتي ^(٣) ، ثم قال : خلياً عن صحت مودته ، وتقدمت حرمته ، وأخذت قبل اليوم بيعته ، فأكبر الناس ذلك من قوله ، ووجدته على أول عهده لي .

ثم قال لي : أين كنت عني في أيام أخى أبي العباس ؟ فذهبت أعذر . قال : أمسك ؛ فإن اكل شيء وقتاً لا يمدوه ، ولن يفوتك إن شاء الله حفظ

(١) فيسموك ما تسكره (٢) هو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي والد السفاح والمنصور ، وكان يرأس جماعة سرية تدعوا لبني العباس واعتقله هشام بن عبد الملك حين انكشف أمره فات معتقلاً (٣) عرفني حق المعرفة .

مودتك ، وحق مسابقتك ، فاختر بين رزقِ يَسْمَعُ ، أو عمل يَرْفَعُ . قلت :
أنا حافظُ لوصيتك . قال : وأنا لها أحفظ ؛ إنما نهيتك أن تخطب الأعمال ، ولم
أنهك عن قبُولها . قلت : الرزق مع قرب أمير المؤمنين أحبُّ إلى . قال : ذلك
لك ، وهو أجْمُ لقلبك ، وأودَّعُ لك ، وأعنى إن شاء الله .

ثم قال : هل زدتَ في عيالك بعدى شيئاً ؟ وكان قد سألني عنهم
فذكرتهم له - فعميت من حفظه ! ثم قلت : الفرس والخادم ! قال : قد ألحقنا
عيالك بعيالنا ، وخادمك بخادمتنا ، وفرسك بجيئتنا ، ولو وسعني لملت لك من بيت
المال ، وقد ضمتك إلى المهدي ، وأنا أوصيه بك فإنه أفرغ لك منى .

١٠٤ — واعظ أبي جعفر المنصور *

بينما المنصور يطوف ليلاً ، إذ سمع قائلاً يقول : اللهم إني أشكو إليك ظهور
البغى والفساد في الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ! فخرج المنصور ،
فجلس ناحية من المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعو ، فصلى الرجل ركعتين ،
واستلم الركن ^(١) ، وأقبل مع الرسول ؛ فسلم عليه بالخلافة .

فقال المنصور : ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغى والفساد في الأرض ؟
وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعي ما أرمضني ^(٢) ،
قال : يا أمير المؤمنين ؛ إن أمتني على نفسي أنباتك بالأمور من أصولها ، وإلا
احتجرت منك ، واقتصرت على نفسي ، ففيها لي شاغل .

فقال : أنت آمن على نفسك ؛ فقل ! فقال : إن الذي دخله الطمع حتى حال
بينه وبين مظاهر من البغى والفساد لأنت ! قال : ويحك ! وكيف يدخلني الطمع ،
والصفراء والبيضاء في قبضتي ، وألحوا والхамض غندي ؟ قال : وهل دخل أحد
من الطمع ما دخلك ! إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم ، فأغفلت
أمرهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآخر ؛
وأبواباً من الحديد ، وحجبة معهم السلاح ؛ ثم سجنفت نفسك فيها عنهم ، وبعثت

* عيون الأخبار : ٢ - ٣٣٣ .

(١) استلم الركن : لمسه ؛ بالقبلة أو باليد .
(٢) ما أرمضني : ما أوجعني وآلمني .

عَمَّا لَكَ فِي جَبَايَةِ الْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا ، وَقُوَّتِهِمْ بِالرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ وَالسَّكَرَاعِ ^(١) ،
وَأَمَرْتُ بِالْأَلَا يُدْخَلَ عَلَيْكَ مِنَ النَّاسِ إِلَّا فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، نَفَرٌ سَمِيتُهُمْ وَلَمْ تَأْمُرْ بِإِصْالِ
الْمَظْلُومِ ؛ وَلَا الْمَلْهُوفِ ، وَلَا الْجَانِعِ الْعَارِي ، وَلَا الضَّعِيفِ الْفَقِيرِ ، وَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَلَهُ فِي
هَذَا الْمَالِ حَقٌّ .

فَلَمَّا رَأَى هَؤُلَاءِ النَّفَرَ الَّذِينَ اسْتَخْلَصْتَهُمْ لِنَفْسِكَ ، وَآثَرْتَهُمْ عَلَى رِعْيَتِكَ ،
وَأَمَرْتُ الْأَلَا يُحْجَبُوا عَنْكَ - تَجَنَّبِي الْأَمْوَالِ وَتَجْمَعُهَا وَلَا تَقْسِمُهَا قَالُوا : هَذَا قَدْ
خَانَ اللَّهُ ، فَمَا بَالُنَا لَا نَخُونُهُ ، وَقَدْ سَجَنَ لَنَا نَفْسَهُ !

فَأَتَمُّوْا بِالْأَلَا يُصَلَّ إِلَيْكَ مِنْ عِلْمِ أَخْبَارِ النَّاسِ شَيْءٌ إِلَّا مَا أَرَادُوا ، وَلَا يُخْرِجُ
لَكَ عَامِلٌ فَيُخَالِفَ أَمْرَهُمْ إِلَّا قَصَبُوهُ ^(٢) عِنْدَكَ ، وَنَفَوْهُ حَتَّى تَسْقُطَ مَنْزِلَتُهُ وَيَصْغُرُ
قَدْرُهُ ؛ فَلَمَّا انْتَشَرَ ذَلِكَ عَنْكَ وَعَنْهُمْ أَعْظَمَهُمُ النَّاسَ وَهَابُوهُمْ ؛ فَكَانَ أَوَّلَ مَنْ
صَانَعَهُمْ عَمَّا لَكَ بِالْهَدَايَا وَالْأَمْوَالِ ، لِيَقُوْا بِهَا عَلَى ظُلْمِ رِعْيَتِكَ .

ثُمَّ فَعَلَ ذَلِكَ ذَوُو الْقُدْرَةِ وَالثَّرَةِ مِنْ رِعْيَتِكَ ، لِيُنَالُوا بِهِ ظُلْمَ مَنْ دُونِهِمْ ؛ فَامْتَلَأَتْ
بِلَادُ اللَّهِ بِالطَّمَعِ ، بَنِيًّا وَفَسَادًا ، وَصَارَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ شُرَكَاءُكَ فِي سُلْطَانِكَ ، وَأَنْتَ
غَافِلٌ ؛ فَإِنْ جَاءَ مُتَظَلِّمٌ حَيْلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ دُخُولِ مَدِينَتِكَ ؛ فَإِنْ أَرَادَ رَفْعَ قِصَّتِهِ
إِلَيْكَ عِنْدَ ظَهْوَرِكَ وَجَدَكَ قَدْ نَهَيْتَ عَنْ ذَلِكَ ؛ وَأَوْقَفْتَ لِلنَّاسِ رِجَالًا يَنْظُرُ فِي
مَظَالِمِهِمْ ؛ فَإِنْ جَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ فَيُبْلَغُ بِطَانَتِكَ خَبْرُهُ سَأَلُوا صَاحِبَ الْمَظَالِمِ
أَلَا يَرْفَعُ مَظْلَمَتَهُ إِلَيْكَ ؛ فَإِنَّ الْمُتَظَلِّمَ مِنْهُ لَهُ بِهِ حُرْمَةٌ ، فَأَجَابَهُمْ خَوْفًا مِنْهُمْ .

فَلَا يَزَالُ الْمَظْلُومُ يَخْتَلِفُ إِلَيْهِ وَيُلَوِّدُ بِهِ ، وَيَشْكُو وَيَسْتَغِيثُ ، وَهُوَ يَدْفَعُهُ
وَيَعْتَلُّ بِهِ ، فَإِذَا أُجْهِدَ وَأُخْرِجَ وَظَهَرَتْ صَرْخُ بَيْنَ يَدَيْكَ ؛ فَضُرِبَ ضَرْبًا

(١) السَّكَرَاعُ : السَّلَاحُ ، وَقِيلَ : هُوَ اسْمٌ يَجْمَعُ الْحَيْلَ وَالسَّلَاحَ (٢) قَصَبُوهُ : غَابَوْهُ وَشَتَمُوهُ .

مُبَرَّحًا ؛ لِيَكُونَ نِكَالًا لِنَفْسِهِ ؛ وَأَنْتَ تَنْظُرُ فَلَا تُنْكِرُ ، فَمَا بَقَاةُ الْإِسْلَامِ
بَعْدَ هَذَا !

وَقَدْ كُنْتُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَسَافِرُ إِلَى الصِّينِ ، فَقَدِمْتُهَا مَرَّةً ، وَقَدْ أُصِيبَ مَلِكُهَا
بَسَمْعُهُ ؛ فَبَكَى يَوْمًا بِكَاءٍ شَدِيدًا ، فَخَنَّهُ جَلَسَاؤُهُ عَلَى الصَّبْرِ ، فَقَالَ : أَمَّا إِنِّي لَسْتُ أَبْكِي
لِلْبَلِيَّةِ النَّازِلَةِ بِي ، وَلَكِنِّي أَبْكِي لِمُظْلُومٍ بِالْبَابِ يَصْرُخُ وَلَا أَسْمَعُ صَوْتَهُ ، ثُمَّ قَالَ :
أَمَّا إِذَا ذَهَبَ سَمْعِي ؛ فَإِنْ بَصُرَى لَمْ يَذْهَبْ ! نَادُوا فِي النَّاسِ أَلَّا يَلْبَسَ ثَوْبًا أَحْمَرَ
إِلَّا مَتَّظِّلًا . ثُمَّ كَانَ يَرْكَبُ الْفِيلَ طَرَفِي نَهَارَهُ وَيَنْظُرُ هَلْ يَرَى مُظْلُومًا !

فَهَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُشْرِكٌ بِاللَّهِ غَلِبَتْ رَأْفَتُهُ بِالْمُشْرِكِينَ شُحٌّ نَفْسِهِ ؛ وَأَنْتَ
مُؤْمِنٌ بِاللَّهِ ، ثُمَّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ نَبِيِّهِ لَا تَغْلِبُ رَأْفَتُكَ بِالْمُسْلِمِينَ عَلَى شُحِّ نَفْسِكَ إِنْ أَنْ
كُنْتُ إِنَّمَا تَجْمَعُ الْمَالَ لَوْلَدِكَ ، فَقَدْ أَرَاكَ اللَّهُ عِبْرًا فِي الطِّفْلِ يَسْقُطُ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِ ، وَمَالُهُ
عَلَى الْأَرْضِ مَالٌ ، وَمَا مِنْ مَالٍ إِلَّا وَدُونَهُ يَدٌ شَحِيحَةٌ تَحْوِيهِ ؛ فَمَا يَزَالُ اللَّهُ يَلْطَفُ
بِذَلِكَ الطِّفْلِ حَتَّى تَعْظُمَ رَغْبَةُ النَّاسِ إِلَيْهِ ؛ وَلَسْتُ بِالَّذِي تُعْطَى ، بَلِ اللَّهُ يُعْطِي مَنْ
يَشَاءُ مَا يَشَاءُ ، وَإِنْ قُلْتُ : إِنَّمَا أَجْمَعُ الْمَالَ لَتَشْدِيدِ السُّلْطَانِ فَقَدْ أَرَاكَ اللَّهُ عِبْرًا فِي
بَنِي أُمِيَّةٍ ؛ مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا جَمَعُوا مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ، وَأَعَدُّوا مِنَ الرِّجَالِ وَالسَّلَاحِ
وَالسُّكَّرِ ، حَتَّى أَرَادَ اللَّهُ بِكُمْ مَا أَرَادَ ، وَإِنْ قُلْتُ : إِنَّمَا أَجْمَعُ الْمَالَ لَطَلْبِ غَايَةٍ هِيَ
أَجْسَمُ مِنَ الْغَايَةِ الَّتِي أَنَا فِيهَا ، فَوَاللَّهِ مَا فَوْقَ مَا أَنْتَ فِيهِ إِلَّا مَنْزِلَةٌ لَا تَدْرِكُ إِلَّا
بِمُخْلَافِ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، هَلْ تَعَاقَبُ مَنْ عَصَاكَ بِأَشَدِّ مِنَ الْقَتْلِ ؟

قَالَ الْمَنْصُورُ : لَا . قَالَ : فَكَيْفَ تَصْنَعُ بِالْمَلِكِ الَّذِي خَوَّلَكَ الْمُلْكَ الدُّنْيَا وَهُوَ لَا يَعْاقِبُ
مَنْ عَصَاهُ بِالْقَتْلِ ! وَلَكِنْ بِالْخُلُودِ فِي الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ، قَدْ رَأَى مَا قَدْ عَقَدَ عَلَيْهِ قَلْبُكَ

وعملته جوارحك ، ونظر إليه بصرك ، واجترحته يداك ، ومشت إليه رجلاك ؛ هل
يعنى عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يدك ودعاك إلى الحساب !
فبكى المنصور وقال : يا ليتنى لم أخلق ! ويحك ! فكيف أحتال لنفسي ؟ قال :
يا أمير المؤمنين ؛ إن للناس أعلاماً يفزعون إليهم في دينهم ، ويرضون بهم ؛ فاجعلهم
بطانتك يرشدوك ، وشاورهم في أمرك يسدّدوك ، قال : قد بعثت إليهم فهر بؤامنى .
فقال : خافوا أن تحملهم على طريقتك ؛ ولكن افتح بابك ، وسهّل حجابك ،
وانصُر المظلوم ، واقمع الظالم ، وخذ النىء والصدقات مما حلّ وطاب ، واقسمه بالحق
والعدل على أهله ، وأنا الضامن عنهم أن يأتوك ، ويسعدوك على صلاح الأمة .
وجاء المؤذنون فسلموا عليه ، فصلّى ، وعاد إلى مجلسه وطُلب الرجل فلم يوجد !

١٠٥ — لماذا سُلِبُوا الملك *

سَمَرَ المنصورُ ذاتَ ليلةٍ ، فذكرُ خُلَفاءِ بنى أمية وسيرهم ، وأنهم لم يزالوا على استقامة ؛ حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين ، وكانت همهم - مع عظم شأنِ الملك وجمالةِ قدره - قَصْدَ الشهوات ، وإيثارَ اللذات ، والدخول في معاصي الله ومساخطه ، جهلاً باستدراج الله ، وأمنًا لمسكره ، فسلبهم الله العزَّ ، ونقل عنهم النعمة .

فقال له صالح بن علي : يا أمير المؤمنين ؛ إن عبدَ الله بن مروان لما دخل التوبة هاربًا فيمن تبعه ، سأل ملك النوبة عنهم ، فأخبر ، فركب إلى عبد الله فكلّمه بكلام عجيب في هذا النحو ، لا أحفظه ، وأزعجه عن بلده ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة ، ويسأله عن ذلك .

فأمر المنصور بإحضاره ، وسأله عن القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ قدِمنا أرضَ النوبة ، وقد أخبر الملك بأمرنا ، فدخل على رجل أفنى ^(١) الأنف ، طوَال ، حسن الوجه ، فقمعد على الأرض ، ولم يقرب الثياب ، فقلت : ما ينعُك أن تقعدَ على ثيابنا ؟ قال : لأنى ملك ، ويحق على الملك أن يتواضع لعظمة الله إذا رفعه الله ، ثم قال : لأى شيء تشربون الخمر وهي مُحَرَّمَةٌ عليكم ؟ قلت : اجترأ على

* العقد الفريد : ٣ - ١٩٣ ، عيون الأخبار : ١ - ٢٠٥ ، ابن أبي الحديد : ٢ - ٢١٦

(١) قفا الأنف : ارتفاع أعلاه ، واحديداب وسطه .

ذلك عبيدنا وغلاننا وأتباعنا ؛ لأنّ الملك قد زال عنا . قال : فلم تطأون الزروع بدوابكم ، والفسادُ محرم عليكم في كتابكم ؟ قلت : يفعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم . قال : فلم تلبسون الديباج والجرير ، وتستعملون الذهب والفضة ، وذلك محرمٌ عليكم ؟ قلت : ذهب الملكُ عنا ، وقلّ أنصَارُنا ؛ فانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا ، فلبسوا ذلك على الكُفرة منا .

قال : فأطرق ملياً ، وجعل يقلّبُ يده ، وينكت الأرض ويقول : عبيدنا وأتباعنا وقومٌ دخلوا في ديننا ، وزال الملكُ عنا ! يردده مراراً .

ثم قال : ليس ذلك كذلك ؛ بل أنتم قومٌ قد استحللتم ما حرّم الله ، وركبتم ما نهاكم عنه ، وظلمتم من مملّكم أمرهم ؛ فسلبكم الله العز ، وألبسكم الذل بذنوبكم ، والله فيكم نقمة لن تبلغ غايتها ، وأخاف أن يحل بكم العذاب ، وأنتم بيلدى ، فيصيبني معكم ؛ وإنما الضيافة ثلاثة أيام ، فنزودوا ما احتجتم ، وارتحلوا عن بلدى .

١٠٦ — جعفر البرمكي والرشيدي *

قال إبراهيم بن المهدي : قال لي جعفر بن يحيى ^(١) يوماً : إني استأذنتُ أمير المؤمنين في الحجامة ، وأردتُ أن أخلُوَ بنفسى ، وأفرَّ من أشغال الناس ، وأتوحدَ ^(٢) ، فهل أنت مساعدى ؟ قلتُ : جعلني الله فداك ! أنا أسعدُ بمساعدتك وأنسُ بمخالّتك ^(٣) ، فقال : بَكَرْ إلى بُكورِ الغراب .

قال : فأتيتُ عند الفجرِ الثاني ، فوجدتُ الشمعةَ بين يديه ، وهو قاعدٌ ينتظرني للبعداد ؛ فصلَّينا ، ثم أفضنا في الحديث حتى أتى وقت الحجامة ، فأتى الحجامُ ، فحجمنا في ساعة واحدة ، ثم قدم إلينا الطعام ، فطعمنا ، فلما غسلنا أيدينا خلع علينا ثيابَ المنادمة ، وَضُمُّنَا ^(٤) بالخلوق ؛ وظللنا بأسرَّ يوم مرَّ بنا .

ثم إنه تذكر حاجةً ، فدعا الحاجب ؛ فقال له : إذا جاء عبدُ الملك القهرمان ، فأذن له ، فنسيَ الحاجبُ . وجاء عبد الملك بن صالح ^(٥) الهاشمي — على جلالته وسنَّ وقدره — فأذن له الحاجب ، فما راعنا إلا طلعةُ عبد الملك بن صالح ! فتغيَّر لذلك وجهُ جعفر ، وتنقَّص عليه ما كان فيه .

* المقد الفريد : ٣ - ٢٦٨

(١) جعفر بن يحيى كان على القدر عظيم الكرم ، ذا منزلة قريبة عند الرشيد ، فصيحاً لساناً ، قتله الرشيد سنة ١٨٧ هـ (٢) توحّد : بقى مفرداً (٣) الحالة : المصادقة (٤) تضمخ بالخلوق : تلطخ به ، والخلوق : نوع من الطيب . (٥) عبد الملك بن صالح : أمير من أمراء بني العباس ، تولى عدة ولايات ، ثم عزله الرشيد حين علم أنه يطعم في الخلافة ، توفي سنة ١٩٦ هـ

فلما نظر إليه عَبْدُ الْمَلِكِ على تلك الحالة دعا غلامه ، فدفع إليه سيفه وسَوَّاهُ ^(١) وعمامته ، ثم جاء فوقف على باب المجلس ، فقال : اصنعوا بنا ماصنَعْتُمْ بأنفسكم .

قال : فجاء الغلام ، فطرح عليه ثيابَ المَنَادِمَةِ ، ودعا بطعام فطِمْ ، ثم دعا بالشراب فشرب ثلاثاً ، ثم قال : ليخفف عني فإنه شيء ما شِربْتُهُ قط ، فهلَّ وجه جعفر فرحاً - وقد كان الرشيد حاورَ عبد الملك على المَنَادِمَةِ ، فأبى ذلك ، وتنزَّه عنه - ثم قال له جعفر بن يحيى : جعلني الله فداك ! قد تفضَّلتَ وتطوَّلتَ ، فهل من حاجة تبلغُها مقدرتي ، وتحيط بها نِعْمَتِي ، فأقضيها لك مكافأة لما صنعت ؟ قال : نعم ؛ إنَّ قلبَ أمير المؤمنين عاتبٌ عليّ ، ففسَّأله الرضا عني . فقال : قد رضى عنك أمير المؤمنين . ثم قال : وعلى أربعة آلاف دينار . قال : هي حاضرةٌ ، ولأُمكن من مالِ أمير المؤمنين أحبَّ إليّ من مالى . قال : وابنى إبراهيم أحبُّ أن أشدَّ ظهره بمصاهرة أمير المؤمنين . قال : قد زوَّجتهُ أمير المؤمنين ابنته الغالية . قال : وأحبُّ أن تحفُّقَ الألوِيَّةُ على رأسه بولاية . قال : وقد ولَّاهُ أمير المؤمنين مصرَ ؛ فانصرف عبد الملك ونحن نعجب من إقدام جعفر على الرشيد من غير استئذان .

فلما كان الغدُ وقفنا على باب أمير المؤمنين ، ودخل جعفر فلم يلبث أن دُعِيَ بأبى يوسف القاضي ، ومحمد بن الحسن ، وإبراهيم بن عبد الملك ، فمقد له على ابنة الرشيد ، وحملت البِدَارَ ^(٢) إلى عبد الملك ، وكتب سجل إبراهيم على مصر .

(١) سواد الأمير : ثقله ومتاعه (٢) البدره : كيس فيه ألف دينار .

وخرجَ جعفرَ فأشارَ إلينا ، فلما صار إلى منزله ونحن خلفه نزل وتزلنا بنزوله ،
فالتفت إلينا وقال : تعلقتُ قلوبكم بأولِ أمرِ عبدِ الملك فأحببتُم أن تعرفوا آخره ،
وإني لما دخلتُ على أميرِ المؤمنين ومثلت بين يديه سألتني عن أمسي ، فابتدأت
أحدثه بالقصة من أولها إلى آخرها ، فجعل يقول : أحسنَ والله ؛ ثم قال :
فما أجبتُه ؟ فجعلت أخبره وهو يقول في كل شيء : أحسن . وخرج إبراهيم والياً
على مصر !

١٠٧ — إخوان الصفاء *

روى أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد :

ذكروا أنّ فتیاناً كانوا مجتمعين في نظام واحد ، كلهم ابنُ نِعْمَةٍ ؛ فذكر ذا كِرٍّ منهم ، قال : كنا أكثرینا داراً شارعاً^(١) على أحد طرق بغداد المعمورة بالناس ، وكنا نفلس^(٢) أحياناً ، ونؤسّر أحياناً ، على مقدار ما يمكن الواحد من أهله ، وكنا لا نُسکر أنّ تقع مثنوتنا على واحد منا إذا أمكنه ، ويبقى الواحدُ منا لا يقدر على شيء ، فيقوم به أصحابه الدهر الأطول ، وكنا إذا أيسرنا أكلنا من الطعام ألبنه ، ودعونا الملّين والملهيات ؛ وكان جلوسنا في أسفل الدار ، فإذا عدنا الطرب جلسنا في غُرْفَةٍ لنا نتمتع منها بالنظرِ إلى الناس ، وكنا لا نُخل^(٣) بالنبیذ في عُسر ولا يسر .

فإنّا كذلك يوماً إذا بقى يستأذنُ علينا ، فقلنا له : اصعد ؛ فإذا رَجَلَ نظيف حُلُو الوجه ، سَرَّی الهيئة ، بنىء رُواؤُهُ أنه من أبناء النعم ، فأقبل علينا ، وقال : إني سمعت مجتمعكم وحسن منادمتكم ، وصحة ألفتكم ، حتى كأنكم أدرجتم في قالب واحد ، فأحببتُ أن أكون واحداً منكم ، فلا تحتشموا^(٤) عني .

* العقد الفريد ٤ : - ٣٤٥

(١) دار شارع ، أى على طريق نافذ (٢) أفلس الشخص : إذا لم يبق معه مال (٣) لا نخل بالنبیذ : لا تترك (٤) احتشم عنه ومنه : انقبض .

وصادف ذلك منا إقتاراً من القوت وكثرة من النيذ - وقد كان قال لغلام له :
 أول ما يأذنون لى أن أكون كأحدهم هاتِ ما عندك ، فغاب الغلام عنا غير كثير ،
 ثم أتانا بسلة خيزران ، فيها طعام المطبخ من جدى ودجاج وفراخ ورُقاق
 وشَنان^(١) ومَحَلَب^(٢) وأخلة^(٣) ؛ فأصبنا من ذلك ؛ ثم أفصنا فى شرابنا ، وانبسط
 الرجل ؛ فإذا أحلى خلقِ الله إذا حدث ، وأحسنهم استماعاً إذا حدث ، وأمسكهم
 عن ملاحاة إذا خولف ، ثم أفصينا منه إلى أكرم مخالقة ، وأجل مساعدة ، وكنا
 ربما امتحناه بأن ندعوه إلى الشيء الذى نعلم أنه يكرهه ، فيُظهر لنا أنه لا يحب
 غيره ، ويُرَى ذلك فى إثراقِ وجهه ؛ فكنا نغنى به عن حسن الغناء ، وتندارس
 أخباره وآدابه ، فشغلنا ذلك عن تعرّف اسمه ونسبه ، فلم يكن منا إلا تعرّف
 الكنية ، فإننا سألناه عنها ، فقال : أبو الفضل .

وقال لنا يوماً بعد اتصالِ الأنس : ألا أخبركم بم عرفتكم ؟ قلنا : إنا لنحب
 ذلك . قال : أحببت جارية فى جواركم ؛ فكنتُ أجلس لها فى الطريق ألتس
 بجنازها ، فأراها حتى أخلقنى الجلوس على الطريق ، ورأيت غرفتكم هذه ،
 فسألت عن خبرها ، فخبّرتُ عن ائتلافكم وتماثلتكم ، ومساعدة بعضكم بعضاً ،
 فكان الدخول فيما أتم فيه أسراً عندى من الجارية ، فسألناه عنها فخبّرنا ،
 فقلنا له : نحن نُظفِرُك بها ، فقال : يا إخوانى ؛ إني والله على ما ترون منى من

(١) الشنان : الماء البارد (٢) المحلب : العسل (٣) الأخلة : جمع خلال ، وهو
 العمود الذى يتخلل به .

شدة الشغل والكاف بها ما قدّرت فيها حراماً قط ، ولا تقديري إلا مطاولتها
ومصابرتها إلى أن يمنَّ الله على بثرة فاشترتها .

فأقام معنا شهرين ، ونحن على غاية الاغتباط بقربه ، والسرور بصحبته إلى
أن اختلس منا ، فنالنا بفراقه ثكل مُمِض ، ولوعة مؤلمة ، ولم نعرف له منزلاً
نلتئمسه فيه ؛ فكدر علينا من العيش ما كان طاب لنا به ، وقبح عندنا ما كان
حسن بقربه ، وجعلنا لا نرى سروراً ولا غمّاً إلا ذكرنا السرور بصحبته ، والغم
بفراقته ؛ فكنا فيه كما قال الشاعر :

يذكّرُنيهم كلّ خير رأيته وشرّ فما أنفك منهم على ذكر

فغاب عنا زهاء عشرين يوماً ؛ فبينما نحن مجتازون يوماً من الرصافة^(١) إذا هو
قد طلع في موكب نبيل ، وزيّ جليل ، فلما بصّر بنا انحطّ عن دابّته ، وانحطّ
غلمانّه ، ثم قال : يا إخواني ؛ والله ما هنا لي عيشٌ بعدكم ، ولست أبيت لكم عن خبري
حتى آتي المنزل ، ولكن ميلوا بنا إلى المنزل ، فلنا معه ، فقال : أعرّفكم أولاً
بنفسي ، أنا العباس^(٢) بن الأحنف ، وكان من خبري بعدكم أني خرجت إلى
منزلي من عندكم ، فإذا الشرطةُ محيطةُ بي فمضى بي إلى دار أمير المؤمنين ، فصرتُ
إلى يحيى بن خالد ، فقال لي : ويحك يا عباس ! إنما اخترتُك من ظرفاء الشعراء
لقرب مأخذك وحسن تأتيك ، وإن الذي نديتُك له من شأنك ، وقد عرفت
خطرات الخلفاء ، وإنّي أخبرك أن ماردة هي الغالبة على أمير المؤمنين اليوم ،

(١) الرصافة : علة ببغداد (٢) كان منشؤه ببغداد وكان صاحب غزل ، ويشبه من التقديمين
عمر بن أبي ربيعة ولم يكن يمدح ولا يهجو . توفي سنة ١٩٢ هـ .

وأنه جرى بينهما عتب ، فهي بذلة المشوق تأبى أن تعتذر ، وهو بمنزلة الخلافة وشرف الملك يأبى ذلك ، وقد رمت الأمر من قبلهما فأعياى ، وهو أخرى أن تستعبده الصباية ؛ فقل شعراً سهلاً يسهل عليك هذه السبيل .

ثم دعانى إلى أمير المؤمنين فصرتُ إليه ، وأعطيت قرطاساً ودواة ؛ فاعترانى الزمّع^(١) ، وتعدرت على كل عروض ، وفقرت عنى كل قافية ؛ ثم افتتح لى شىء والرسل تتعقبى ، فجاءتنى أربعة أبيات رضىتها ، وقعت صحيحة المعنى ، سهلة الألفاظ ، ملائمة لما طُلب منى ، فقلت لأحد الرسل : أبلغ الوزير أنى قلت أربعة أبيات ، فإن كان بها مقنع وجهتُ بها ؛ فرجع إلى الرسول بأن هاتها ، ففى أقل منها مقنع ، وفى ذهاب الرسول ورجوعه قلت بيتين من غير ذلك الروى ، فكتبتُ الأبيات الأربعة فى صدر الرقعة ، وعقبتُ بالبيتين فقلت :

العاشقان كلاهما متغضبٌ	وكلاهما متوجّدٌ مُتَعَبٌ
صدّت مغاضبةً وصدّ مغاضباً	وكلاهما بما يعالجُ متعبٌ
راجع أحببتك الذين هجرتهم	إنّ التميم قلمٌ لا يتجنب
إنّ التجنب إن تطاول منكما	دبّ السلؤ له وعزّ المطلب

ثم كتبت تحت ذلك :

لا بد للعاشق من وقفة	تكون بين المجر والصّرْم
حتى إذا المجر تمادى به	راجع من يهوى على رغم

ثم وجهتُ بالكتاب إلى يحيى بن خالد ، فدفعه إلى الرشيد ، فقال : والله

(١) الزمّع : رعدة تأخذ بالإنسان .

ما رأيتُ شعراً أشبهَ بما نحن فيه من هذا ، والله لكانى قصِدتُ به ، فقال له يحيى :
 وأنت والله يا أمير المؤمنين المقصود به ، هذا يقوله العباس بن الأحنف فى هذه القصة ؛
 فلما قرأ البيتين وأفضى إلى قوله : « راجع من يهوى على رَغمٍ » : استغرب ضحكاً حتى
 سمِعتُ ضحكك ، ثم قال : إى والله ! أراجع على رَغمٍ ، يا غلام ؛ هاتِ نعلى ؛ فنهض
 وأذهله السرور عن أن يأمر لى بشىء ؛ فدعانى يحيى ، وقال : إن شعرك قد وقع
 بغاية الموافقة ، وأذهل أمير المؤمنين السرور عن أن يأمر لك بشىء ؛ ثم جاء غلام
 فسارّه ، فنهض وثبت مكانه ، فنهضتُ بنهوضه ، ثم قال : يا عباس ؛ أمسيّتَ أنبلَ
 الناس ، أندرى ما سارتنى به هذا الرسول ؟ قلت : لا ، قال : ذكر لى أن ماردة
 تلقتَ أمير المؤمنين لما علمت بمجيئه ، ثم قالت له : يا أمير المؤمنين ؛ كيف كان هذا ؟
 فناولها الشعر ، وقال : هذا أتى بى إليك ، قالت : فمن يقوله ؟ قال : عباس
 ابن الأحنف ، قالت : قسيم كوفى ؟ قال : ما فعلت شيئاً بعد ، قالت : إذن والله
 لا أجلسُ حتى يكافأ - قال : فأمر المؤمنين قائم لقيامها ، وأناقم لقيام أمير المؤمنين ،
 وهما يتناظران فى صِلتكَ ، فهذا كله لك ، قلت : مالى من هذا إلا الصلة ! فقال :
 هذا أحسنُ من شعرك . قال : فأمر لى أمير المؤمنين بمالٍ كثير ، وأمرت لى ماردة
 بمالٍ دونه ، وأمر لى الوزير بمالٍ دون ماأمرت به ، وُحِلتُ على ماترون من الظَّهر ،
 ثم قال الوزير : من تمام اليدِ عندك ألا تخرج من الدار حتى يكون لك من هذا المال
 ضياع ، فاشتريتُ لى ضياعاً بعشرين ألف درهم ، ودفع لى بقية المال ؛ فهذا الخبر
 الذى عاقنى عنكم ؛ فلهوا حتى أقاسمكم الضياع ، وأفرقَ فيكم المال . فقلنا له : هناك
 الله ؛ فكل منا يرجع إلى نعمةٍ من أبيه ، فأقسم وأقسمنا . قال : فامضوا بنا إلى

الجارية حتى نشترها، فشيننا إلى صاحبها، وكانت جارية جميلة حلوة، لا تحسن شيئاً، أكثر ما فيها ظرف اللسان وتأدية الرسائل؛ وكانت تساوى على وجهها خمسين ومائة دينار، فلما رأى مولاهما ميل المشتري استام بها خمسمائة، فأجبناه بالمعجب؛ فخط مائة، ثم خط مائة، ثم قال العباس: يا فتيان، إني والله أحتشم أن أقول بعد ما قلتم، ولكنها حاجة في نفسي، بهائم سروري فإن ساعدتم فعلت، قلنا له: قل، قال: هذه الجارية أنا أعاينها منذ دهر، وأريد إثارة نفسي بها، فأكره أن تنظر إلى بعين من قد ما كس في ثمنها، دعوني أعطه بها خمسمائة دينار كما سأل، قلنا له: وإنه قد خط مائتين: قال: وإن فعل: قال: فصادفت من مولاهما رجلاً حراً، فأخذ ثلاثمائة، وجهزها بالمائتين، فما زال إلينا محسناً حتى فرق الموت بيننا.

١٠٨ — لا أحب تخديش وجهِ المصاحب *

زعمت العرب أن الثعلب رأى حجراً أبيض بين لصبين^(١) ، فأراد أن يفتال به الأسد ، فأتاه ذات يوم ، فقال له يا أبا الحارث ، الغنيمة الباردة ! شحمة رأيتها بين لصبين ، فكرهت أن أدنوها ، وأحببت أن تتولى ذلك أنت !
فهل لأريكما !

فانطلق به حتى جاء به إليها ؛ فقال : دونك يا أبا الحارث !

فذهب الأسد ليدخل ، فضاقت به المكان ؛ فقال له الثعلب : ادفع برأسك !
فأقبل الأسد يدفع برأسه حتى نشب ، فلم يقدر أن يتقدم ولا أن يتأخر .

ثم أقبل الثعلب يخدش خورأنه^(٢) ؛ فقال الأسد : ما تصنع يا ثعالة^(٣) ؟
قال : أريد لأسنقذك ؛ قال : فمن قبل الرأس إذن ! فقال الثعلب : لا أحب تخديش وجه المصاحب !

* بحم الأمثال : ٢ - ١٧١

(١) اللصب : الشعب الصغير في الجبل (٢) المراد مؤخره (٣) ثعالة : لقب الثعلب .

١٠٩ — حكومة الضَّب *

زعموا أن أربنا التقطت ثمرة ؛ فاختلسها الثعلب فأكلها فانطلقا يختصمان إلى
الضَّب ؛ فقال الأرنب : يا أبا الحِسل ^(١) ! قال : « سميماً دعوتِ » . قالت : أتيناك
لِنَحْتَكِمَ إِلَيْكَ . قال : « عَادِلًا حَكَمْتُمَا » . قالت : فاخرج إلينا . قال :
« فِي بَيْتِهِ يُؤْتَى الْحُكْمَ » ، قالت : إني وجدت ثمرة ، قال : حُلُوَّةٌ فَكُلِيهَا .
قالت : فاختلسها الثعلب . قال : « لِنَفْسِهِ بَغَى الْخَيْرَ » ، قالت : فلطمته . قال :
« بِحَقِّكَ أَخَذْتَ » ، قالت : فَلَطَمَنِي ، قال : « حُرّاً انتَصَرَ » ، قالت : فاقض
بيننا ؛ قال : قد قضيت !

* مجمع الأمثال : ٢ - ١٧

(١) كنية الضَّب ، والحِسل : ولد الضَّب .

١١٠ - أعلمك ثلاث خصال *

قالوا : إن رجلاً صاد قُبْرَةً ؛ فقالت : ما تريد أن تصنع بي ؟ قال : أذهبك وأأكلك ! قالت : والله ما أشقى من قَرَم ^(١) ، ولا أشبع من جوع ، ولكني أعلمك ثلاث خصال ؛ هي خيرٌ لك من أأْكُلِي : أما الأولى فأعلمك إياها وأنا في يدك ، وأما الثانيةُ فإذا صرْتُ على الشجرة ؛ وأما الثالثةُ فإذا صرْتُ على الجبل .

فقال : هاتِي الأولى ، قالت : لا تَلَهْفَنَّ على ما فات ؛ فخلأها ؛ فلما صارت على الشجرة ؛ قال : هاتِي الثانية ؛ قالت : لا تصدقنّ بما لا يسكرنّ أنه يكون ، ثم طارت فصارت على الجبل ، فقالت : يا شقي ؛ لو ذبحتني لأخرجت من حوصلتِي دُرَّتَيْن وزنُ كل واحدة ثلاثون مثقالاً !

فعضّ على يديه وتلهفّ تلهفًا شديدًا ، وقال : هاتِي الثالثة ، فقالت : أنت قد نسيت الإثنين ، فما تصنع بالثالثة ؟ ألم أقل لك : لا تلهفنّ على ما فات ! وقد تلهفت ، ألم أقل لك : لا تصدقنّ بما لا يكون أنه يكون ! وأنا ولحي ودمي وريشِي لا يكون عشرين مثقالاً ؛ فكيف صدقت أن في حوصلتِي درتين كل واحدة منهما ثلاثون مثقالاً ! ثم طارت وذهبت .

* ابن أبي الحديد : ٤٤ - ٣٧٤

(١) القرم : شدة شهوة اللحم .

١١١ — مُجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ *

خَرَجَ قَوْمٌ إِلَى الصَّيْدِ فِي يَوْمٍ حَارٍّ ؛ فَإِنَّهُمْ لَكَذَلِكَ ؛ إِذْ عَرَضَتْ لَهُمْ أُمُّ عَامِرٍ ^(١) - وَهِيَ كَيْنَةُ الضَّبْعِ - فَطَرَدُوها ؛ فَأَتَعَبْتَهُمْ حَتَّى أَلْجَأُوها إِلَى خِباءِ أَعْرَابِيٍّ ، فَاتَّقَحَمَتْهُ ؛ فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الْأَعْرَابِيُّ وَقَالَ : مَا شَأْنُكُمْ ؟ قَالُوا : صَيْدْنَا وَطَرَيْدَتْنَا ؛ فَقَالَ : كَلَّا ؛ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَصْلُونَ إِلَيْهَا مَا ثَبِتَ قَائِمٌ سِيفِي فِي يَدِي ، فَارْجِعُوا وَتَرَكُوهُ ، وَقَامَ إِلَى لَفْحَةٍ ^(٢) خَلْبِهَا ، وَمَاءٌ فَقَرَّبَ مِنْهَا ، فَأَقْبَلَتْ تَلْعُغُ مَرَّةً فِي هَذَا وَمَرَّةً فِي هَذَا حَتَّى رَوَيْتَ وَاسْتَرَأَحَتَ ، فَبَيْنَا الْأَعْرَابِيُّ نَائِمٌ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ ، إِذَا وَثَبَتْ عَلَيْهِ فَبَقَرَتْ بَطْنَهُ ، وَشَرِبَتْ دَمَهُ وَتَرَكَتْهُ !

فَجَاءَ ابْنُ عَمٍّ لَهُ يَطْلُبُهُ ، فَإِذَا هُوَ بِبَيْرٍ فِي بَيْتِهِ ؛ فَالْتَفَتَ إِلَى مَوْضِعِ الضَّبْعِ ، فَلَمْ يَرَهَا ، فَقَالَ : صَاحِبَتِي وَاللَّهِ ، فَأَخَذَ قَوْسَهُ وَكِنَانَتَهُ وَاتَّبَعَهَا ، فَلَمْ يَزَلْ حَتَّى أَدْرَكَهَا فَقَتَلَهَا وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

وَمَنْ يَصْنَعُ الْمَعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ يَلْأَقِ الَّذِي لَا قِيَّ مُجِيرُ أُمِّ عَامِرٍ !

* بجمع الأمثال : ٢ - ٨٢

(١) عامر : جرو الصبيح ، وأم عامر : كنيته .

(٢) اللفحة : الناقة المألوبة الغزيرة اللبن ، ولا يوصف به .

١١٢ — كيف أعادوك وهذا أثر فأسك^(١) *

حكى أن أخوين كانا في إبل لهما ، فأجذبت بلادهما ، وكان بالقرب منهما وادٍ خصيب ، وفيه حية تحميه من كل أحد ، فقال أحدهما للآخر : يا فلان ! لو أنى أتيت هذا الوادى المسمى^(٢) فرعيت فيه إبل وأصلحتها ، فقال له أخوه : إني أخاف عليك الحية ، ألا ترى أن أحداً لا يهبط ذلك الوادى إلا أهلكته ؟ قال : فوالله لأفعلن ! فهبط الوادى ورعى به إبله زماناً .

ثم إن الحية نهشته فقتلته ، فقال أخوه : والله ما في الحياة بعد أخى خير ، فلا طابن الحياة ولا قلنّها أو لأتبعن أخى ، فهبط ذلك الوادى وطلب الحية ليقتلها ؛ فقالت الحية : أأست ترى أنى قتلت أخاك ؟ فهل لك فى الصلح فأدعك بهذا الوادى تكون فيه وأعطيك كل يوم ديناراً ما بقيت ؟ قال : أو فاعلة أنت ! قالت : نعم . قال : إني أفعل ، وحلف لها وأعطاها الموائيق لا يضرّها ، وجعلت تعطيه كل يوم ديناراً ، فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالاً ، ثم إنه ذكر أخاه ، فقال : كيف ينفعنى العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخى ؟ ثم عمد إلى فأس فأخذها ؛ ثم قعد لها ؛ فررت به فتبعها ، فضربها فأخطأها ، ودخلت الجحر ، ووقعت الفأس فوق جحرها فأثرت فيه ، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار ؛ فخاف الرجل شرها وندم ؛ فقال لها : هل لك أن تتواثق ونعود إلى ما كنا عليه ؟ فقالت : « كيف أعادوك وهذا أثر فأسك ! »^(٣) .

* بجمع الأمثال : ٢ - ٨٢ .

(١) المسمى : الكثير السلا . (٢) سارت مثلاً .

١١٣ — حكيم *

لما مات بعضُ الخلفاء ، اختلفت الروم ، واجتمعت ملوكها ؛ فقالوا : الآن يشتغل المسلمون بعضهم ببعض ، فتمكننا الغيرة ^(١) منهم والوثبةُ عليهم ، وعقدوا لذلك المشورات ، وترجعوا فيه بالمناظرات ، وأجمعوا على أنه فرحة الدهر .

وكان رجل منهم من ذوى العقل والمعرفة غائباً عنهم ، فقالوا : من الحزم عرضُ الرأى عليه ؛ فلما أخبروه بما أجمعوا عليه ، قال : لا أرى ذلك صواباً ؛ فسألوه عن علة ذلك ؛ فقال : في غدٍ أخبركم .

فلما أصبحوا أتوا إليه ، وقالوا : قد وعدتنا أن نخبرنا في هذا اليوم بالرأى فيما عوّلنا عليه ؛ فقال : سمعاً وطاعة ! وأمر بإحضار كليّين عظيمين ، كان قد أعدّهما ؛ ثم حرّش ^(٢) بينهما ، وحرّض كلَّ واحد منهما على الآخر ؛ فتواثبا وتهارشا ^(٣) ، حتى سالت دماؤهما .

فلما بلغا الغاية فتح باب بيت عنده ، وأرسل على السكّليّين ذئباً كان قد أعدّه لذلك ، فلما أبصرهما تركا ما كانا فيه ، وتألّقت قلوبهما ووثبا جميعاً على الذئب فقتلاه .

* المستطرف : ١

(٣) المباشرة : تحريش الكلاب

(٢) التحريش : الإغراء

(١) الغيرة : النفلة

بعضها على بعض .

فأقبل الرجل على أهل الجمع فقال : مثلُكم مع المسلمين مثلُ هذا
الذئب مع الكلاب ؛ لا يزال الهرج ^(١) بين المسلمين ما لم يظهر
لهم عدو من غيرهم ؛ فإذا ظهر تركوا المداوة بينهم ، وتآلفوا على
العدو .

فاستحسنوا قوله ، واستصوبوا رأيه ، واتبعوا مشورته .

البَابُ الْخَامِسُ

في القصص التي يعرف بها مذهبهم في شياطين الشعر
وأصوات الجن في الفياقي، وأحاديثهم عن القول، ورؤية
من رآها منهم، وما إلى ذلك مما يصور سعة أخيلتهم،
وسعيهم وراء المجهول بأجنحة التفكير والتصور.

١١٤ — تَأْبِطُ شَرًّا يَقْتُلُ الْغَوْلَ *

قال عمرو بن أبي عمرو والشيباني : نزلت على حَيٍّ من فَهَمٍ ، فسألتهم عن خبر تَأْبِطُ شَرًّا ^(١) ، فقال لي بعضهم : وما سؤالك عنه ؟ أتريد أن تكون لِيصًّا ؟ قلت : لا ، ولكن أريد أن أعرف أخبارَ هؤلاء العدائين فأحدثَ بها . فقالوا : مُحدثُك بخبره :

إن تَأْبِطُ شَرًّا كان أَعْدَى ذِي رِجْلَيْن وذِي سَاقَيْن وذِي عَيْنَيْن ، وكان إذا جاع لم تَقُمْ له قَائِمَةٌ ، فكان ينظر إلى الظباء فيَنْتَقِي على نظره أَمْتَمَهَا ، ثم يجرى خلفه فلا يَفُوتُهُ حتى يأخذه فيذبحه بسيفه ، ثم يشويه فيأكله .

وإنما سمي تَأْبِطُ شَرًّا ؛ لأنه فيما حكى لنا : لقي الْغَوْلَ في ليلة ظلماء في موضع يقال له : رَحَى بَطَّان ^(٢) ، في بلاد هُذَيْل ، فأخذت عليه الطريق ، فلم يزل بها حتى قَتَلَهَا ، وبات عليها . فلما أصبح حملها تحت إبطه وجاء بها إلى أصحابه ، فقالوا له : لقد تَأْبِطُ شَرًّا ، وقال في هذا :

الْأَمَنَ مُبْلِغٌ فَتِيانَ فَهَمٍ بما لا قِيْتُ عِنْدَ رَحَى بَطَّانٍ
وَأَنِّي قَدْ لَقِيْتُ الْغَوْلَ تَهْوَى بِسُهْبٍ ^(٣) كَالصَّحِيفَةِ صَخْصَحَانَ
قُلْتُ لَهَا : كِلَانَا نِضْوُ أَيْنَ ^(٤) أَخُو سَفَرٍ فَخَلَّى لِي مَكَارِ

* الأغانى : ٨ - ٢٠٩ ، معجم البلدان : ٤ - ٢٣١

(١) هو ثابت بن جابر ، وتَأْبِطُ شَرًّا لقبه ، توفي نحو سنة ٨٠ ق . هـ (٢) رَحَى بَطَّان : موضع لهذيل (٣) السُهْب : الفلاة ، والصَّحِيفَةُ : ما استوى من الأرض واتسع (٤) الأَيْن : الإعياء والتعب .

فشدت شدةً نحوى فأهوى لها كفى بمصقولٍ يمانى
 فأضر بها بلا دهشٍ فخرت صريعاً لليدين وللجيران^(١)
 فقالت: عذقت لها: رويداً^(٢) مكانك ! إني نبتُ الجنانِ
 فلم أنفك متكتناً عليها لأنظر مصبحاً ماذا أتانى
 إذا عيان فى رأسٍ قبيحٍ كرأس الهرّ مشقوق اللسانِ
 وساقاً مُخدجٍ وشواةٍ كلبٍ^(٣) وثوبٌ من عباءٍ أو شنانِ

(١) الجران للبعير : مقدم عنقه من مذبجه الى منحره (٢) زعمت العرب أن الفول إذا ضربت ضربة واحدة ماتت بها ، فإذا ضربت ضربة أخرى عاشت (٣) مخدج : ناقص الخلق ، والشواة: جلدة الرأس ، والشنان : جمع شن وهو القرية الخلق .

١١٥ — رُتِي^(١) الأعشى *

قال جرير بن عبد الله البجلي : سافرت في الجاهلية فأقبلتُ على بعيري ليلةً أريد أن أسقيه ، فجعلت أريدهُ على أن يتقدم ، فوالله ما يتقدم ، فتقدمت فدنوتُ من الماء وعَقَلتهُ ، ثم أتيتُ الماء فإذا قومٌ مشوّهُون عند الماء فقدمت .

فبينما أنا عندهم إذ أتاهم رجل أشدَّ تشويهاً منهم فقالوا : هذا شاعرُهم . فقالوا له : يا فلان ؛ أنشدْ هذا فإنه ضيفٌ ؛ فأنشد :

* ودَّعْ هريرة إن الركب مُرَحِلُ *

فلا والله ما خرم منها بيتاً واحداً ، حتى انتهى إلى هذا البيت :

تسمع للحلي وسواساً إذا انصرفت : كما استعان بريحٍ عَشْرِقُ زَجِلُ^(٢)
فأعجب به . فقلت : من يقول هذه القصيدة ؟ قال : أنا . قلت : لولا ما تقول لأخبرتكَ أن أعشى بنى ثعلبة أنشدنيها عاماً أوَّلَ بنجران . قال : فإنك صادق ، أنا الذي ألقىتها على لسانه ، وأنا مسحلٌ صاحبه ، ماضاع شعر شاعرٍ وضعه عند مَيِّمون ابن قيس !

* الأغاني : ٩ - ١٥٦

(١) الرُّتِي : الحنَى (٢) الوسواس : صوت الحلي ، والمشرق : شجرة مقدار ذراع ، لها أكمام فيها حب صفار إذا جفت فرت بها الريح تحرك الحب ، فسمي له خشخشة على الحصى . شبه وسواس حليها بصوته إذا ضربته الريح . والزجل : رفع الصوت بالطرب ، والزجل بالكسر : صفة منه .

١١٦ — هاجس الأعشى *

قال الأعشى ^(١): خرجتُ أريدُ قَيْسَ بنَ مَعْدٍ يَكْرِبُ بِحَضْرِ مَوْتٍ ، فَضَلَلْتُ
 فِي أَوَائِلِ أَرْضِ الْيَمَنِ ؛ لِأَنِّي لَمْ أَكُنْ سَلَكَتُ ذَلِكَ الطَّرِيقَ قَبْلُ ، فَأَصَابَنِي مَطَرٌ ،
 فَرَمِيتُ بِيَصْرَى أَطْلُبُ مَكَانًا الْجَأَإِلِيَّةَ ، فَوَفَعْتُ عَيْنِي عَلَى خِيبَاءٍ ^(٢) مِنْ شَعَرٍ ،
 فَقَصَدْتُ نَحْوَهُ ، وَإِذَا أَنَا بِشَيْخٍ عَلَى بَابِ الْخِيبَاءِ ، فَسَلَّتُ عَلَيْهِ ، فَرَدَّ عَلَيَّ
 السَّلَامَ ، وَأَدْخَلَ نَاقَتِي خِيبَاءَ آخَرٍ كَانَ بِجَانِبِ الْبَيْتِ ، فَحَطَطْتُ رَحْلِي وَجَلَسْتُ ،
 فَقَالَ : مَنْ أَنْتَ ؟ وَإِلَى أَيْنَ تَقْصِدُ ؟ قُلْتُ : أَنَا الْأَعْشَى ، أَقْصِدُ قَيْسَ بنَ مَعْدٍ يَكْرِبُ
 فَقَالَ : حَيَّاكَ اللَّهُ ! أَطْلُوكَ امْتَدَحْتَهُ بِشَعْرٍ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، قَالَ : فَأَنْشِدْنِيهِ ، فَابْتَدَأْتُ
 مطلع القصيدة :

رَحَلْتُ سُمَيَّةَ غُدْوَةَ أَجَاهِهَا غَضَبًا عَلَيْكَ فَمَا تَقُولُ بَدَأَ لَهَا

فلما أنشدته هذا المطلع قال : حسبك ! أهذه القصيدة لك ؟ قلت : نعم ، قال :
 مَنْ سُمَيَّةُ الَّتِي تَنْسُبُ بِهَا ؟ قُلْتُ : لَا أَعْرِفُهَا ، وَإِنَّمَا هُوَ اسْمُ الْاُنْتِي فِي رُوعِي ^(٣) ؛
 فَنَادَى : يَا سُمَيَّةُ ؛ اخْرُجِي ، وَإِذَا جَارِيَةٌ خَمَاسِيَّةٌ ^(٤) قَدْ خَرَجْتُ ، فَوَقَفْتُ وَقَالَتْ :

* خزائن الأدب : ٣ - ٥٤٩ (طبعة بولاق) .

(١) هو أبو بصير ميمون الأعشى بن قيس بن جندل القيسي من فحول شعراء الجاهلية ، وطال
 عمره حتى كان الإسلام ، فأعد قصيدة يمدح بها النبي وقصده بالحجاز فلفه كفارقريش وصدوه عن
 وجهه على أن يأخذ منهم مائة ناقة حراء ، ويرجع إلى بلده ففعل ، ولما قرب من اليمامة سقط عن
 ناقته فدفقت عنقه ومات (٢) الحباء من الأبنية : يكون من وبر أو صوف أو شعر .
 (٣) الروع : القلب والعقل (٤) خماسية : طولها خمسة أشبار .

ما تريد يا أبت ؟ قال : أنشدني عمك قصيدتي التي مدحتُ بها قيس بن معد يكرب ،
ونسبتُ بك في أولها ، فاندفعتُ تُنشدُ القصيدة حتى أتت على آخرها لم تخرم منها
حرفاً ، فلما أتمتها قال : انصرفي ، ثم قال : هل قلت شيئاً غير ذلك ؟ قلت : نعم ،
كان بيني وبين ابن عمي لي يقال له يزيد بن مسهر ، ما يكون بين بني العم ،
فهبجاني وهجوتهُ فأفحمتهُ . قال : ماذا قلت فيه ؟ قال : قلت :

ودع هُريرة إن الركبَ مُرتحلٌ وهل تطيقُ وداعاً أيُّها الرَّجُلُ !
فلما أنشدته البيتَ الأول ، قال : حسبك ! من هُريرة هذه التي نسبتُ بها ؟
قلت : لا أعرفها وسيلها سبيل التي قبلها ؛ فنادى : ياهريرة ؛ فإذا جاريةٌ قريبة
السن من الأولى خرجتُ ، فقال : أنشدني عمك قصيدتي التي هجوتُ بها يزيد بن
مسهر ، فأنشدتها من أولها إلى آخرها لم تخرم منها حرفاً ، فسقط في يدي وتحيرت
وتعشتني رعدة .

فلما رأى ما نزل بي قال : ليُفرخ روعك ^(١) يا أبا بصير ؛ أنا هاجسك مسحل
ابن أثانة ، الذي ألقى على لسانك الشعر .

قال الأعشى : فسكنتُ نفسي ورجعتُ إلى ، وسكن المطر ، فدلني على
الطريق ، وأراني سمتَ مقصدي ، وقال : لا تَعُجْ يمينا ولا شمالاً حتى تقع ببلاد
قيس .

(١) ليفرخ روعك : ليزهب رعبك وفزعك ، فإن الأمر ليس على ما تخاذر .

١١٧ — عبيد بن الأبرص والشجاع *

قال القاضي يحيى بن أكثم : دخلت يوماً على هارون الرشيد . وهو مطرق مفكر ، فقال لى : أنعرف قائل هذا البيت :

الخير أبقي وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زاد

فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ إن لهذا البيت شأنًا مع عبيد بن الأبرص ! فقال : أخبرنى عنه . فقلت : يا أمير المؤمنين ؛ حدث عبيد قال :

كنتُ فى بعض السنين حاجًا ، فلما توسطت البادية فى يوم شديد الحر سمعتُ ضجّةً عظيمةً فى القافلة ألحقتُ أو لها بآخرها ، فسألتُ عن القصة ، فقال لى رجل من القوم : تقدم ترّ ما بالناس . فتقدّمتُ إلى أول القافلة فإذا أنا بشجاع^(١) أسود فاغِرٍ فاه كالجدع ، وهو يخور كما يخور الثور ، ويرغو كرها البعير ؛ فبالنى أمره ، وبقيت لا أهدى إلى ما أصنع ؛ فعدلنا عن طريقه إلى ناحية أخرى ، فعارضنا ثانياً ؛ ولم يحسر أحد من القوم أن يقربه ، فقلتُ : أفدى هذا العالم بنفسى ، وأتقرب إلى الله تعالى بخلاص هذه القافلة منه .

فأخذت قربة من الماء فتقلدتها وسلّتُ سيفى ، فلما رآنى قربتُ منه سكّن ، وبقيت متوقفاً منه وثبةً يبتلعنى فيها ، فلما رأى القربة فتح فاه ، فجعلت فم القربة

* المختار من نوادر الأخبار (مخطوط) ، الأغاني : ١٩ - ٨٦ ، المستطرف : ١ - ٢٤٤ .
(١) الشجاع : الذكر من الحيات .

في فيه ، وصبتُ الماء كما يُصب في الإناء . فلما فرغت القرية تسبب في الرمل ومضى ؛ فتعجبت من تعرضه لنا وانصرافه عنا من غير سوء لحقنا ، ومضينا لحجنا .

ثم عدنا في طريقنا ذلك ، وحططنا في منزلنا ذلك ، في ليلة مظلمة مدهمة ، فأخذت شيئاً من الماء وعدلت إلى ناحية عن الطريق ، فأخذتني عيني ؛ ففنت مكانى ؛ فلما استيقظت من النوم لم أجد للقافلة حساً ، وقد ارتحلوا ، وبقيت منفرداً لم أر أحداً ، ولم أهتم إلى ما أفعله ، وأخذتني حيرة ، وجعلت أضطرب ، وإذا بصوت هاتف أسمع صوته ولا أرى شخصه يقول :

يا أيها الشخص الضالُّ مركبه ما عنده من ذى رشادٍ يصحبه
دونك هذا البكر منا تركبه وبكرُك اليمون حقاً تجنبه^(١)
حتى إذا ما الليل زال غيبه^(٢) عند الصباح في القلا تسببه^(٣)

ففظرت فإذا ببكرٍ قائم عفى وبكرى إلى جانبي ، فأنخته وركبته ، وجنبت بكرى ؛ فلما سرت قدر عشرة أميال لاحت لى القافلة ، وانفجر الفجر ، ووقف البكر ، فعلت أنه قد حان نزولى فتحوات إلى البكر ، وقلت :

يا أيها البكر قد أنجيت من كرب ومن هموم تضل المدالج الهادى
ألا فخبرنى بالله خالقنا من ذا الذى جاد بالمعروف فى الوادى

(١) جنب البعير : قاده إلى جنبه (٢) الفهب : شدة سواد الليل (٣) سبب الشيء :

تركه .

وارجع حميداً فقد بلغتنا مننا بوركت من ذي سنام رانح غادى
فالتفت البكر إلى ، وهو يقول :

أنا الشجاع الذى ألفتنى رمضاً والله يكشفُ ضرَّ الحائر الصّادى
فجدتَ بالماء لمتاً ضيّناً حاملاًه نصف النهار على الرّمضاء فى الوادى
الخيرُ أبقى وإن طال الزمانُ به والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زادِ
هذا جزاؤك مِنّا لا يُمنُّ به لك الجميلُ علينا إنك البادى

فمجب الرّشيدُ من قوله ، وأمر بالقصة والأبيات فكتبت ، وقال : لا يضيع
المعروف ابن وُضع !

١١٨ - ومن عبّيدلولا هبيد*

قال رَاوٍ :

خرجتُ على بعيرٍ لى صعب يمرّ لا يُمَلِّكُنِي من أمرٍ نفسى شيئاً ، حتى مرّ على جماعةٍ ظباءٍ فى سفحِ جبل ، على قُلَّتِهِ رجلٌ عليه أطمَارٌ^(١) ، فلما رأتنى الظباءُ هربت ، فقال : ما أردتِ إلى ما صنعتِ ؟ إنكم لتعرضون بمن لو شاء قدَعكم^(٢) عن ذلك ! فدخلنى عليه من الغيظ ما لم أقدر أن أحمله ، فقلت : إن تفعل بى ذلك لا أرضى لك ؛ فضحك ، ثم قال : امض - عافاك الله - لبالك .

فجعلت أردد البعير فى مراعى الظباء ، لأغضبه ، فهض وهو يقول : إنك جليد القلب ؛ ثم أتانى فصاح ببعيرى صيحة ، ضرب بجِرائه^(٣) الأرض ، ووثبتُ عنه إلى الأرض ، وعلمت أنه جانٌّ ، فقلت : أيها الشيخ ؛ إنك لأسوأ منى صنيعاً ؛ فقال : بل أنت أظلم والأُم ، بدأت بالظلم ، ثم لوُمت فى تركك المضى ، فقلت : أجل ! عرفتُ خطيئى ، قال : فاذا كر الله فقد رُعنأك ، وبذكر الله تطمئن القلوب ، فذكرت الله تعالى ، ثم قلت دهشاً : أتروى من أشعار العرب شيئاً ؟ فقال : نعم ، أروى وأقول قولاً فائقاً مبرّزاً ، فقلت : فأرنى من قولك ما أحببت ؛ فأنشأ يقول :

* الجمهرة : ٢٣

(١) الأطمار : جم طمر ، وهو الثوب الخلق (٢) قدَعكم : كفكم ومنعكم (٣) جران البعير : مقدم عنقه من مذبجه إلى منجره .

طاف الخيالُ علينا ليلةَ الوادى من آل سلمى ولم يُلمِّمْ بجمعِ عاد
إني اهتديت إلى مَنْ طالَ ليْلُهُم في سَبَسَبٍ ^(١) ذاتَ دَكْدَاكْ وأَعْقَادٍ ^(٢)
يكلّفون سُراها كلَّ يَمَعَلَةٍ ^(٣) مثل المَهَاةِ إذا ما حَتَّها الحادى
أبلغ أبا كَرْبٍ ^(٤) عني وأسرته قولاً سَيَذْهَبُ غَوْرًا بعدَ إنجاد
يا عمرو؛ ماراح من قومٍ ولا ابتكروا إلا ولعوتِ في آثارهم حادى
لا أعرفنك بعد اليوم تندُبني وفي حياتى ما زوَّدتنى زادى
أما حاكمك يوماً أنتَ مُدرّكه لا حاضرٌ مُقِلٌّ منه ولا بادى

فلما فرغ من إنشاده قلت : لهذا الشعر أشهر في معدن بن عدنان من ولد الفرس
الأبلى ^(٥) في الدُّهُم ^(٦) العراب ^(٧) ، هذا لبُعَيْد بن الأبرص الأسدى ، فقال : ومن
عُبَيْد لولا هُبَيْد ! فقلت : ومن هُبَيْد ؟ فأنشأ يقول :

أنا ابنُ الصّلام أدعى الهُبَيْد حبوت القوافى قرْنى ^(٨) أسد
عُبَيْداً حبوتُ بمأثورةٍ وأنطقتُ بِشِراً ^(٩) على غيرِ كَدْ
ولاقى بِمُدْرِك رهط الكُمَيْت ^(١٠) ملاذاً عزيزاً ومجداً وجَدْ
منحناهمُ الشعرُ عن قُدْرَةٍ فهل تشكرُ اليومَ هذا مَعَد !

فقلت : أما عن نفسك فقد أخبرتنى ، فأخبرنى عن مُدْرِك ، فقال : هو مُدْرِك
ابن واغم صاحب الكُمَيْت ، وهو ابن عمى ، وكان الصّلام وواغم من أشعر الجن .

(١) السبَسَب : المفازة (٢) الدَكْدَاك : أرض فيها غلظ ، الأعقاد : جمع عقد ، مانعقد من الرمل
(٣) اليمعة : الناقة النجيبة (٤) أبو كرب : عمرو بن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المرار
(٥) الأبلى . ما فيه سواد وبياض (٦) الدُّهُم : السود (٧) العراب : الأصلية (٨) القرم :
السيد ، ويريد بقرى أسد عبدا وبشرا فيها من قبيلة أسد (٩) بشرا : هو بشر بن أبى
خازم الشاعر (١٠) الكُمَيْت : هو الكُمَيْت بن زيد الأسدى .

ثم قال : لو أنك أصبت من لبنٍ عندنا ! فقلت : هات ، أريد الأُنْسَ به ، فذهب
فأتاني بعُسٍّ^(١) فيه لبنٌ ظبي ، فكرهته لزُهوته^(٢) ، فقلت : إليك ! وَجَّجْتُ
ما كان في في منه ، فأخذه ثم قال : امض راشداً مصاحباً ، فوليت منصرفاً ،
فصاح بي من خلني ؛ أما إنك لو شربت ما في العُسِّ ، لأصبحت أشعر قومك .
قال : فندمت على أني لم أشرب ما في عُسِّه في جوفى على ما كان من زُهوته ،
وأنشأت أقول في طريقى :

أسفت على عُسِّ الهبيد وشربه لقد حَرَمْتَنِيهِ صروف المقاديرِ
ولو أننى إذ ذاك كنتُ شربته لأصبحتُ في قومي لهم خيرَ شاعر

(١) عس : إناء (٢) الزهومة : رائحة متفنة غير مقبولة .

١١٩ — لافظ بن لاحظ ! *

حدث أحد الرواة قال : خرجت في طلب لِقَاح^(١) لي على فَحْلٍ كأنه فَدَن^(٢) ،
يمرُّ بي يسبق الريح ، حتى دفعت إلى خيمة وإذا بفنائها شيخٌ كبير ، فسلمت فلم يردَّ
عليّ ، فقال : من أين ؟ وإلى أين ؟ فاستحمته ؛ إذ بجِلِّ بردِّ السلام ، وأسرع إلى
السؤال ، فقلت : من هنا ! وأشرتُ إلى خلفي ، وإلى ههنا ! وأشرت إلى أمامي ؛
فقال : أمّا من ههنا فنعَمْ ، وأمّا إلى ههنا فوالله ما أراك تبتهمج بذلك ، إلا أن يسهل
عليك مُدَاراة من تردّ عليه ! قلت : وكيف ذلك أيها الشيخ ؟ قال : لأن الشكلَ
غير شكليّ ، والزىّ غيرُ زيك ، فضرب قلبي أنه من الجن ، وقلت : أتروى من
أشعار العرب شيئاً ؟ قال : نعم وأقول ، قلت : فأنشدني — كالمستهزئ به ! فأنشدني
قول امرئ القيس :

قفّا نَبَك من ذِكرى حبيبٍ ومَنزِلٍ بِسِقْطِ^(٣) اللوى بين الدخول فحوْمَلٍ
فلما فرغ قلت : لو أن امرأ القيس يُنْشَرُ لَرَدَّعَكَ عن هذا الكلام . فقال :
ماذا تقول ؟ قلت : هذا لامرئ القيس ، قال : لستُ أولَ من كَفَرَ نعمة أسداها !
قلت : ألا تستحي أيها الشيخ ، أَلِمِثَلِ امرئ القيس يقال هذا ؟ قال : أنا والله
مَنْحَتُهُ ما أعجبك منه ! قلتُ : فما اسمك ؟ قال : لافظ بن لاحظ ، فقلت : اسمان
منبكران ! قال : أجل ! فاستحمتُ نفسي له ، بعد ما استحمته لها ، وأنستُ به

* الجمهرة : ٢٣

(١) اللقاح : الإبل (٢) الفدن : القصر (٣) سقط اللوى والدخول وحومل : مواضع

ينجد .

لطول محاورتي إياه ، وقد عرفت أنه من الجن ، فقلت له : مَنْ أشعرُ العرب ؟
فأنشأ يقول :

ذهب ابنُ حَجَرٍ ^(١) بالقريض وقوله ولقد أجاد فما يُعَابُ زياد ^(٢)
لله هاذر إذ يحدُّ بـودُ بقوله إن ابن ماهر بعدَها لجوادُ
قلت : من هاذر ؟ قال : صاحب زياد الذُّيَّاني وهو أشعر الجن ، وأضنهم بشعره ،
ولقد علمَ بنيةً لي قصيدة له من فيه إلى أذنِها ، ثم صرخ بها : اخرجي فدى لك
ما ولدتُ حواء ! فقلت له : ما أنصفتَ أيها الشيخ ، فقال : ما قلتُ بأساً ، ثم رجعت
إلى نفسي فعرفتُ ما أراد ، فسكت ، ثم أنشدتني الجارية :
نأتُ بسعادَ عنك نوى شَطُون ^(٣) فباتت والفؤادُ بهـا حزين
حتى أتت على قوله منها * كذلك كان نوحٌ لا يخون * قال : لو كان رأى قوم
نوحٍ فيه كَرَأَى هاذر ما أصابهم الفرق ! فحفظت البيتَين ، ثم نهض بي الفحل
فعدتُ إلى لقاحي .

(٣) شطون : بعيدة .

(٢) زياد : النافذة الذُّيَّاني

(١) ابن حجر : امرؤ التيس

١٢٠ — تابع زهير بن أبي سلمى *

قال علي بن الجهم القرشي : دخلتُ على المتوكل يوماً ، وهو جالسٌ وحده ، فسلمتُ عليه فردّ السلام ؛ وأجلستُني ، فحانت مني التفاتة ، فرأيتُ الفتح بن خاقان^(١) واقفاً في غير رتبته التي كان يقوم فيها ، متكئاً على سيفه مُطْرِقاً ، فأنكرتُ حاله ، فكنتُ إذا نظرتُ إليه نظرتُ إلى الخليفة ، فإذا صرفتُ وجهي نحو الخليفة أطرق . فقال : يا عليّ ، أنكرت شيئاً ؟ قلتُ : نعم يا أمير المؤمنين ! فقال : ماهو ؟ قلتُ : وقوفُ الفتح في غير رُتَبَتِهِ التي كان يقومُ فيها !

قال : سوء اختياره أقامه ذلك المَقَام . قلتُ : ما السببُ يا أمير المؤمنين ؟ قال : خرجتُ من عند قبيصة^(٢) آنفاً ، فأسررتُ إليه سرّاً ، فما عداني السرُّ إذ عادَ إليّ ! قلتُ : لعلَّك أسررتَه إلى أحد غيره يا أمير المؤمنين ! قال : ما كان هذا ؟ قلتُ : فلعل مُسْتَمِعاً استمعَ عليكما ! قال : ولا هذا أيضاً .

فأطرقتُ ملياً ؛ ثم رفعتُ رأسي ، فقلتُ : يا أمير المؤمنين ، قد وجدتُ له مما هو فيه مخرجاً ! قال : ماهو ؟ قلتُ : حدثنا الفضل بن دُكَيْنٍ ، قال أبو الجوزاء : طَلَمْتُ امرأتِي في نفسي ، وأنا في المسجد ، ثم انصرفتُ إلى دارِي ، فقالت لي امرأتِي : أَطَلَمْتَنِي

* معجم الأدباء : ١٦ - ١٨٠

(١) هو الفتح بن خاقان بن أحمد القائد ، كان في نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب ، وكان من أولاد الملوك ، اتخذته المتوكل أخاً ، وكان يقدمه على جميع أولاده وقتل مع المتوكل سنة ٢٠٧ هـ وهو غير الفتح بن خاقان الأندلسي (٢) قبيصة : جارية المتوكل .

يا أبا الجوزاء ؟ قلت : من أين لك هذا ؟ قالت : خبرتني جارتى الأنصارية اقلت :
ومَن خبرها بذلك ؟ قالت : ذكرت أن زوجها خبرها بذلك !

فغدوتُ على ابن عباس فقصصت عليه القصة ؛ فقال : علمتُ أن وسواس^(١)
الرجل يحدثُ وسواس الرجل ، فَمِنْ ههنا يَفْشُو السر .

قال أبو نعيم : فكان في نفسي من هذا شيء حتى حدثني حمزة الزيات ،
قال : خرجت سنة من السنين أريد مكة ، فلما جُرْتُ في بعض الطريق ضَلَّتْ
راحلتى ، فخرجتُ أطلبُها ، فإذا بائنين قد قبضاً على ، أحسَّ حَسَبُها ؛ وأسمعُ
كلامهما ، ولا أرى شخصهما ! فأخذاني وجاءا بى إلى شيخ قاعدٍ على تلعة^(٢) من
الأرض ، حسن الشَّيْبة ؛ فسَلَّمْتُ عليه فردَّ السلام ؛ فأفرخ^(٣) رُوعى ؛ ثم
قال : من أين ؟ وإلى أين ؟ فقلت : من الكوفة أريد مكة .

قال : ولم تخلفْتِ عن أصحابك ؟ فقلت : ضَلَّتْ راحلتى فجئتُ أطلبُها !
فرفع رأسه إلى قوم على رأسه ؛ فقال : زاملة^(٤) ؛ فأنيختُ بين يدي ؛ ثم
قال لى : أنقرأ القرآن ! قلت : نعم ! قال : هاته ! فقرأت حتى انتهيت إلى هذه
الآية : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجَنِّ يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ ؛ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا :
أَنْصِتُوا ، فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴾ .

فقال لى : على رِسْلِكَ ! تدرى كم كانوا ؟ قلت : اللهم لا ! قال : كنا أربعة ؛
وكنتُ الخاطِبُ لهم فقلت : « يا قومنا أجيئوا داعى الله » .

(١) وسواس الرجل : الشيطان الذى يوسوس له . والوسوسة : الصوت الخفى والمهمس
(٢) التلعة : ما ارتفع من الأرض (٣) الروع : القلب ، وأفرخ : أخرج ما به من خوف
(٤) منادى محذوف منه حرف النداء ، اسم ناقله .

ثم قال لى : أتقول الشعر ؟ قلت : اللهم لا ! قال : أفترويه ؟ قلت : نعم ! قال . هاته ! فأنشدته قصيدة :

أَمِنْ أُمٍّ أَوْفَى دِمْنَةً لَمْ تَكَلِّمْ بِحَوْمَانَةِ الدَّرَاجِ فَلَمُتْكُمْ^(١)
فقال : لمن هذه ؟ قلت : لزهير بن أبى سلمى ! قال : الجنى ؛ قلت : بل
الإنسى ! مراراً .

فرفع رأسه إلى قومٍ على رأسه ، فقال : زهير ! فأنى بشيخٍ كأنه قطعة لحمٍ ؛
فألقى بين يديه ، فقال له : يا زهير ! قال : لبيك ! قال : « أَمِنْ أُمٍّ أَوْفَى » لمن ؟
قال : لى ! قال : هذا حمزة الزياتُ يذكرُ أنها لزهير بن أبى سلمى الإنسى ، قال :
صدق هو ، وصدقت أنت !

قال : وكيف هذا ؟ قال : هو إبنى من الإنس ، وأنا تابعه من الجن ، أقول
الشيء فألقيه فى وهمه ، ويقولُ الشيء فأخذه عنه ؛ فأنا قائلها فى الجن ، وهو
قائلها فى الإنس .

قال أبو نعيم : فصدق عندى هذا الحديثُ حديثُ أبى الجوزاء إن وسواس
الرجل يحدث وسواس الرجل ! فمن ها هنا يفشو السر !

فاستفرغ^(٢) المتوكل ضحكاً ، وقال : إلىَّ يا فتحُ ! فصبَّ عليه خلماً^(٣) ،
وحلَّ على شيء من الظَّهَر ، وأمر له بمال ، وأمر لى بدون ما أمر له به .
فانصرفت إلى منزلى ، وقد شاطرنى الفتح ما أخذ ، فصار الأككر إلىَّ ،
والأقلَّ عنده .

(١) أم أوفى : على حذف مضاف ، أى آمن منازل أم أوفى ، والدمنة ما يبق من آثار الديار ،
وحومانة الدراج : ماء فى طريق البصرة إلى مكة ، والمثلث : موضع أول أرض الصمان (٢) بذل
جهده فى الضحك (٣) ما يخلع على الإنسان من الثياب وغيره .

١٢١ — حاتم يقرى الضيف بعد موته*

مرّ نفرٌ من عبد القيس بقبر حاتم^(١) ، فزّلوا قريباً منه ، فقام إليه رجل يقال له أبو الخيّري^(٢) ، وجعل يركض^(٣) برجله قَبْرَهُ ؛ ويقول : اقرّنا ، فقال له بعضهم : ويلك ! ما يدعوك أن تعرض لرجل قد مات ؟ قال : إن طيًّا تزعم أنه ما نزل به أحدٌ إلا قرّاه ، ثم أجّهم الليل ، فناموا .

فقام أبو الخيّري فرعاً ، وهو يقول : وارا حلتاه ! فقالوا له : مالك ؟ قال : أنا حاتم في النوم ؛ وعقر ناقتي بالسيف ؛ وأنا أنظرُ إليها ، ثم أنشدني شعراً حفظته ، يقول فيه :

أبا الخيّريّ ، وأنت امرؤٌ ظلومُ العشيرة شتّامُها
أتيتَ بصحبك تبغى القرى لدى حفرة قد صدّت^(٤) هامُها
أتبغى لى الدمّ عند المبيت وحوّلك طيًّا وأنعامُها
فإنّا لنشبعُ أضيافنا وتأتى المطيّ ففنعّتامُها^(٥)

* بلوغ الأرب : ١ - ٧٤ .

(١) هو حاتم بن عبد الله من قبيلة مطيء ، وهو من أجواد العرب ، وله أخبار كثيرة في السجاء مشهورة ، حتى جرى ذكره مجرى الأمثال ، وكان مع ذلك شاعراً وشجاعاً ، توفي سنة ٥٠٦ م .
(٢) قال في القاموس : كأنه ولد بخير . وخير : حصن قرب المدينة (٣) ركض الرجل ركضاً من باب قتل : ضرب برجله (٤) صدّت : صوتت . والهامة : طير تزعم العرب أنه يصيح على قبر الميت القليل ، فلا يفتأ ينادى بثأره حتى يؤخذ به (٥) نعامها : عمت الإبل ، واعتمت ، واستعتمت : إذا حلبت عشاء .

فقاموا ، وإذا ناقة الرجل تكس^(١) عقيراً ، فانتحروها وباتوا يأكلون ،
وقالوا : قرأنا حاتم حياً وميتاً !

وأردفوا أصحابهم ، وانطلقوا سائرين ، وإذا برجلٍ راكبٍ بعيراً وهو يقود
آخر ، قد لحقه ، وهو يقول : أيكم أبو الخيرى ؟ قال الرجل : أنا ! قال : فخذ هذا
البعير ؛ أنا عدى بن حاتم ؛ جاءنى حاتم اليوم فى النوم ، وزعم أنه قرأكم بناقته ،
وأمرنى أن أحملك ؛ فشأنك والبعير^(٢) !

ودفعه إليهم وانصرف .

(١) تكس : كاس البعير ، مشى على ثلاث قوائم وهو معرّب (٢) إلى هذه القصة أشار
ابن دارة الطفاني فى قوله يمدح عدى بن حاتم :

أبوك أبو سفانة الخير لم يزل	لدى شبحتى مات فى الخير داعياً
به تضرب الأمثال فى الشعر ميتاً	وكان له إذ ذاك حياً مصاحباً
قرى قبره الأضياف إذ نزلوا به	ولم يقر قبر قبله الدهر راكباً

١٢٢ — جَارُ مَالِكِ بْنِ حَرِيمٍ *

خرج مالك بن حريم في نفر من قومه يريدون عسكاظ ، فاصطادوا ظبياً ، وأصابهم عطش شديد ، فأنهوا إلى موضع ، ففصدوا الظبي ، وجعلوا يشربون من دمه من العطش ، فلما ذهب دمه ذبحوه ، وخرجوا في طلب الخطب ، وكمن مالك في خبائه فأثار بعضهم شجاعاً^(١) ، فأقبل منساباً حتى دخل رَحْل مالك ، فلاذ به ، وأقبل الرجل في أثره ؛ وقال : يا مالك ، استيقظ فإن الشجاع عندك ؛ فاستيقظ مالك ، ونظر إلى الشجاع ، فإذا هو يُلَوِّذُ^(٢) به ؛ فقال للرجل : عزمتُ عليك إلا تركته ، فكف عنه وانساب الشجاع إلى مأمنه ، وأنشأ مالك يقول :

وأوصاني الحريم بعزّ جارى وأمنعه وليس به امتناع
وأدفع ضيمه وأذُبُّ عنه وأمنعه إذا منع المتاع
ثم ارتحلوا واشتدّ بهم العطش ، وإذا بهاتف يهتف بهم ويقول :

يأيها القوم لا ماء أمامكم حتى تسوموا المطايا يومها التعباً
ثم اعدلوا شامة فالماء عن كشب عين رواء وماء يذهب اللغبا^(٣)
حتى إذا ما أصبتم منه ريحكم فاسقوا المطايا ومنه فاملثوا القربا

فعدلوا شامة ، فإذا هم في عين خَرّارة في أصل جبل ، فشرّبوا وسقوا إبلهم .

* بلوغ الأرب : ٢ - ٣٦٢

(١) الشجاع : الذكر من الحيات (٢) يقال : لاذ به : لجأ إليه (٣) الشامة : ضد البينة والكشب : القرب ، واللغب : التعب .

وحملوا ربهم حتى أتوا عكاظ ، ثم أقبلوا حتى انتهوا إلى ذلك الموضع ، فلم يروا شيئاً ، وإذا بهاتف يقول :

يا مالِ عني جزاك الله صالحةً	هذا وداعٌ لكم مني وتسليمٌ
لا تزهدن في اصطناع الخير مع أحدٍ	إن الذي يحرم المعروف محرومٌ
من يفعل الخير لا يعدم مغيبته	ما عاش ، والكفر بعد الغيب مذموم
أنا الشجاع الذي أنجيت من رهقٍ	شكرتُ ذلك إن الشكر مقسوم

ثم طلبوا العين فلم يجدوها .

١٢٣ — الجن وابن الحمارس *

كان عبيد بن الحمارس السكبي رجلاً شجاعاً ، وكان نازلاً بالسَّماوَةِ ^(١) ،
أيام الربيع ، فلما حَسَرَ الربيع ، وقلَّ ماؤه ، وأقلعت أنواؤه ، تحمل ^(٢) إلى وادي
تُبَل ^(٣) فرأى روضة وغديرًا ، فقال : روضة وغدير وخطب يسير ، وأنا لما
حويتُ مُجِير .

فنزَل هناك ، وله امرأتان : اسم إحداهما الرَّباب ، والأخرى خَوْلَة ؛ فقالت
له خَوْلَة :

أرى بلدةً قفرًا قليلًا أنيسُها وإنا لنخشى - إن دجا الليلُ - أهلها
وقالت له الرَّباب :

أرتك برأيي ، فاستمعْ عنك قولها ولا تأمنن جنَّ الغريف ^(٤) وجَهلها
فقال مجيبًا لها :

أستُ كميًا ^(٥) في الحروب مجربًا شجاعًا إذا شُبَّتْ له الحربِ محربًا ^(٦)
سريعًا إلى الهيجا ^(٧) إذا حَسَّ ^(٨) الوغى فأقسم لا أغدو الغدير مُنكَبًا ^(٩)
ثم صعد إلى جبل تُبَل فرأى شَيْهَةً ^(١٠) ، فرماها فأقعصَها ^(١١) ، ومعها ولدها
فارتبطه ؛ فلما كان الليل هتف به هاتف من الجن :

* بلوخ الأرب : ٢ - ٣٥٥ ، ابن أبي الحديد : ٤ - ٤٤٨

- (١) السماوة : بادية قرب الشام (٢) تحمل : سافر (٣) تبل : واد على أميال يسيرة من
الكوفة ، وأعلى متصل بسماوة كلب (٤) الغريف : الخفاء (٥) السكى : الشجاع
(٦) المحرب . صاحب الحرب (٧) الهيجا : الحرب (٨) حس : اشتد وصلب في القتال
(٩) نكب : عدل (١٠) الشيهة : الأثني من القناذل (١١) أقصمها : قتلها مكانها .

يا بن الحمارس قد أسأت جوارنا
وعقرت لقعته^(١) وقذت فصيلها
ونزلت مرعى شائنا وظللتنا
فلنظرقتك بالذى أوليتتنا
فأجابه ابن الحمارس :

يامدعى ظلمى ، ولست بظالم
لا تطمعوا فيما لدى فإلکم
استمع ليدك مقالتي وتسمع
فيما حويت وحزنته من مطمع
فأجابه الجنى :

ياضارب اللقحة^(٢) بالعضب الأقل^(٣)
وساقك الحنين إلى جن تبيل
قد جاءك الموت ووافقك الأجل
فاليوم أقويت^(٤) وأعيتك الحيل
فأجابه ابن الحمارس :

ياصاحب اللقحة هل أنت بجل
وكثرة المنطق في الحرب فشل
مستمع منى فقد قلت الخطل
ليث ليوث ، وإذا هم فعل
هيجت قماما^(٥) من القوم بطل
من كان بالعقوة^(٦) من جن تبيل
لا يرهب الجن ولا الإنسان أجل

فسمعها شيخ من الجن ؛ فقال : لا والله لا نرى قتل إنسان مثل هذا ، ثابت
القلب ، ماضى العزيمة ! فقام ذلك الشيخ فأنشد :

(١) اللقحة : الناقة (٢) العضب : السيف (٣) الأقل : اللثم (٤) أقوى : انتفر
(٥) القمام : السيد (٦) العقوة : المحلة .

يا ابن الحمارس قد نزلت بلادنا فاصبت منها مشرباً ومقاماً
فبدأتنا ظلاماً بقر لقوحنا وأسأت لنا أن نطقن كلاماً
قاعداً لأمر الرشد واجتنب الردى إنا نرى لك حرمةً وذيماً
واغرم لصاحبنا لقوحاً متنبهاً فلقد أصبت بما فعلت أنا ما^(١)
فأجابه ابن الحمارس :

الله يعلم حيث يرفع عرشه إني لأكره أن أصيب أنا ما
أما ادعائك ما ادعيت فإنتى جئت البلاد ولا أريد مقاماً
فأسمت^(٢) فيها مالنا ونزلتها لأريح فيها ظهرنا أياماً
فليفتد صاحبكم علينا نعظه ما قد سألت ولا نراه غراماً
ثم غرم للجن لقوحاً متنبهاً^(٣) .

(١) الأناج : الإثم (٢) أسام المال : أرماء . والمال (هنا) : الإبل (٣) قال ابن أبي الحديد بعد إيراد هذه القصة في شرح نهج البلاغة : وهذه الحكاية وإن كانت كذباً إلا أنها تتضمن أدباءً وهي من طرائف أحاديث العرب فذكرناها لأدبها ولإمتاعها .

١٢٤ — حارس مال ابن الخشرم *

خرج نُجَيْحُ الْيَزْبُوعِي يوماً إلى الصيد ، فعرض له حمارٌ وَخْشٍ فاتبعه ، حتى دفع إلى أُكَّةٍ ، فإذا هو برجل أعمى أسود قاعد في أظمارٍ ^(١) ، بين يديه ذهب وفضة ودُرٌّ وياقوت . فدنا منه نُجَيْحٌ ؛ فتناول منها بعضها ، فلم يستطع أن يحرك يده حتى ألقاها ؛ فقال : يا هذا ؛ ما الذي بين يديك ؟ وكيف تستطيع حملَه ؟ أَلَاكَ هو أم لغيرك ؟ فإني أعجب مما أرى ، أجواد أنت فتجود لنا ، أم بخيل فأعذرُك ؟ فقال الأعمى : كيف تطلب مال رجل قد غاب منذ سنتين ، وهو سعد بن خَشْرَم ، فأنتي بسعد يعطك ماتشاه .

فانطلق نُجَيْحٌ مسرعاً ، قد استطير فؤاده ، حتى وصل إلى محلته ^(٢) ، ودخل خِباءه ، فوضع رأسه ، ونام لما به من القم ؛ لا يدري مَنْ سعد !

فأتاه في منامه آت ؛ فقال له : يا نُجَيْحُ ؛ إنَّ سَعْدَ بْنَ خَشْرَمٍ في حَيٍّ مُحَلِّمٍ من ولد ذُهَلِ بْنِ شَيْبَانَ ؛ فخرج وسأل عن بني مُحَلِّمٍ ، ثم سأل عن خَشْرَمٍ ، فإذا هو بشيخ قاعد على باب خِباءه ، خِباء نُجَيْحٍ ، فردَّ عليه ، فقال له نُجَيْحٌ : من أنت ؟ قال : خَشْرَمُ بْنُ شَمَّاسٍ . قال : وأين ابنُك ؟ قال : خرج في طلب نُجَيْحِ الْيَزْبُوعِي ؟

* المحاسن والأضداد : ٦٩

(٢) المحلة : منزل القوم .

(١) الأظمار : الملابس البالية

وذلك أن آتيا آناه في منامه ، فحدثه أن مالا له في نواحي بني يربوع لا يعلم به إلا نجيح ، فضرب نجيح بطن فرسه ، وهو يقول :

أَيْطَلْبُنِي مَنْ قَدْ عَنَانِي طِلَابُهُ فَيَا لَيْتَنِي أَلْقَاكَ سَعْدَ بْنَ خَشْرَمٍ
أَتَيْتَ بَنِي يَرْبُوعَ تَبْغِي لِقَاءَنَا وَقَدْ جِئْتُ - كَيْ أَلْقَاكَ - حَتَّى تُحَلِّمَ

فلما دنا من محله استقبل سعداً ، فقال له : أيها الراكب ؛ هل لقيت سعداً في بني يربوع ؟ فقال : أنا سعد ؛ فهل تدلني على نجيح ؟ قال : أنا نجيح ! وحدثه بالحديث ؛ ثم قال : الدال على الخير كفاعله .

فانطلقا حتى أتيا ذلك المكان ؛ فتوارى الرجل الأعشى حين أبصرهما ، وترك المال ، فأخذه سعد كله ، فقال له نجيح : يا سعد ؛ قاشمني ، فقال له : اطو عن مالي كشحاً ! وأبى أن يعطيه شيئاً ، فانتضى نجيح سيفه ، وجعل يضربه ، حتى برد : فلما وقع قتيلاً تحوّل الرجل الحافظ للمال سِغْلَةً^(١) ، وأعاد المال إلى مكانه ؛ فلما رأى نجيح ذلك ولّى هارباً إلى قومه !

(١) السغلة :- القول أو ساحة الجن .

١٢٥ — في موت أمية بن أبي الصلت *

لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم أخذ أمية بنتية وهرب بهما إلى أقصى اليمن ، ثم عاد إلى الطائف ، فبينما هو يشرب مع إخوان له في قصر غيلان هناك إذ سقط غراب على شُرْفَةٍ في القصر ، فنَعَبَ نَعْبَةً ؛ فقال أمية : بفيك الكشكث ^(١) ! فقال أصحابه : ما يقول ؟ قال : يقول : إنك إذا شربت الكأس التي بيدك ميت . فقلت : بفيك الكشكث ، ، ثم نعَبَ نَعْبَةً أخرى ، فقال أمية نحو ذلك ، فقال أصحابه : ما يقول ؟ قال : زعم أنه يقع على هذه المزبلة ^(٢) أسفل القصر ، فيستثير عظاما فيقتله فيشجى به فيموت ، فقلت نحو ذلك . فوقع الغراب على المزبلة ، فأثار العظم ، فيشجى به فمات .

فانكسر أمية ، ووضع الكأس من يده ، وتغير لونه ، فقال له أصحابه : ما أكثر ما سمعنا بمثل هذا وكان باطلا ! ثم ألحوا عليه حتى شرب الكأس ، فقال وأغشى عليه ، ثم أفاق ، ثم قال : لا برىء فأعذر ، ولا قوى فأتصر ، ثم خرجت نفسه .

* الأغانى : ٤ - ١٣٣

(١) الكشكث : التراب (٢) موضع السرجين .

١٢٦ - في بحر الخزر *

قال مهبون الأمدى : ركبنا بحر الخزر أريد بلداً حتى إذا ما كنت منه غير بعيد لُجج^(١) مركبنا ، فاستاقته ريح الشمال شهراً في اللجة ، ثم انكسر بنا ، فوقعت أنا ورجل من قريش إلى جزيرة في البحر ليس بها أنيس .

فجعلنا نطوف حتى أشرقنا على هوة ، وإذا بشيخ مستند إلى شجرة عظيمة ، فلما رأنا تحشش^(٢) وأناف إلينا أفرغنا منه ، ثم دنونا نحوه ، وقلنا : السلام عليك أيها الشيخ ! قال : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فأنسنا به ، فقال : ما خطبكم ؟ فأخبرناه ، فضحك وقال : ما وطئ هذا الموضع أحد من ولد آدم قط ، فمن أنتم ؟ قلنا : من العرب ، قال : بأبي وأمي العرب ، فمن أيها ؟ قلت : أما أنا فرجل من خزاعة ، وأما صاحبي فن قريش . قال : بأبي قريش وأحمدها ! قال : يا أخا خزاعة ، هل تدري من القائل :

كَأَن لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُونِ^(٣) إِلَى الصَّفَا أَنِيسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرُ
يَلِي نَحْنُ كُنَّا أَهْلَهُمْ فَأَبَادَنَا صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودُ الْعَوَارِ
قلت : نعم ، ذلك الخارث بن مضاض الجرمي قال : ذلك مؤدبها ، وأنا

* الجمهرة : ٢٦

(١) لجبت السفينة : خاضت اللجة : ولجة البحر : مظهره . (٢) تحشش : تحرك ، أناف : أشرف . (٣) الحجون : جبل بمكة ومقبرة .

قائلها في الحرب التي كانت بينكم معشر خزاعة وبين جرهم .

يا أخا قريش ؛ أُولد عبد المطلب بن هاشم ؟ قلت : أين يذهب بك ، رحلك
الله ، فرباً وعظماً وقال : أرى زماناً قد تقارب إبانته ، أفُولد ابنه عبد الله ؟ قلنا :
وَأَيْنَ يذهب بك ، إنك لتسألنا مسألة مَنْ كان في الموتى .

قال : قنزaid ، ثم قال : فابنه محمد الهادي ؟ قلت : هيهات ! مات رسول الله
صلى الله عليه وسلم منذ أربعين سنة .

فشق حتى ظننا أن نفسه قد خرجت ، وانخفض حتى صار كالفرخ ، وأنشأ
يقول :

ولرب راجٍ حيلَ دون رجائه . ومؤملٍ ذهب به الآمالُ

ثم جعل ينوح ويبكي ، حتى بلّ دمعته لحيته ، فبكينا لبكائه ، ثم قال :
ويحكما ! فمن ولي الأمر بعده ؟ قلنا : أبو بكر الصديق ، وهو رجل من خير أصحابه
قال : ثمّ من ؟ قلنا : عمر بن الخطاب ، قال : أفن قومه ؟ قلنا : نعم . قال : أما إن
العرب لا تزال بخير ما فعلت ذلك !

١٢٧ — نجى^(١) سواد بن قارب *

وفد سواد بن قارب على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ فسلم عليه فرد السلام ، فقال عمر : يا سواد ! قال : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : ما بقى من كهانتك ؛ فغضب ثم قال : يا أمير المؤمنين ؛ ما أظنك استقبلت بهذا الكلام غيرى ؛ فلما رأى عمر الكراهية فى وجهه قال : يا سواد ؛ إن الذى كنّا عليه من عبادة الأوثان أعظم من الكهانة ، فحدثنى بحديث كنتُ أشتغى أن أسمعك منك .

قال : نعم يا أمير المؤمنين ، بينما أنا فى إبل بالسراة ، وكان لى نجى^٢ من الجن ؛ إذ أتانى فى ليلة وأنا كالنائم ، فرأيت برجله ، ثم قال : قم يا سواد ، فقد ظهر بهيمة نبي^٣ يدعو إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، قلت : تنح عنى فإنى ناعس ؛ فولى عنى وهو يقول :

عجبت للجن وتطلبها وشدها العيس بأكوارها^(٢)
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجن ككفارها
فأرحل إلى الصفوة من هاشم بين روايها وأحجارها
ثم لما كان فى الليلة الثانية أتانى ؛ فقال مثل ذلك القول ، فقلت : تنح عنى فإنى ناعس ، فولى عنى وهو يقول :

عجبت للجن وتخبأها وشدها العيس بأقاربها^(٣)

* بلوغ الأرب : ٢ - ٣٠٣ ، الجمهرة : ٢٥
(١) النجى : من يلقى بالقول السر (٢) الأكوار : جمع كور ، وهو الرجل (٣) الأتارب : جمع قتب ، وهو ما يوضع على سنام البعير .

تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجن ككفارها
فأرحل إلى الصفوة من هاشم ليس قداماها كاذنابها

ثم أتاني في الليلة الثالثة ، فقال مثل ذلك ، فقلت : إني ناعس ، فولى عني وهو يقول :

عجبت للجن وإيجاسها^(١) وشدها العيس بإحلاسها^(٢)
تهوى إلى مكة تبغى الهدى ما مؤمنو الجن كأنجاسها
فأرحل إلى الصفوة من هاشم واسم بعينيك إلى راسها

قال سواد : فلما أصبحت يا أمير المؤمنين أرسلت لنساقة من إبل ، فشددت عليها ، وأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأسلمت وبايعت ، وأنشأت أقول :

أتاني نجي بعد هذه^(٣) ورقدة ولم يك فيما قد بلوت بكاذب
ثلاث ليال قوله كل ليلة أذاك رسول من لؤي بن غالب
فشمرت عن ذيل الإزار وأزقلت^(٤) بي الذعلب^(٥) الوجناء بين السباب
فأشهد أن الله لا رب غيره وأنت مأمون على كل غائب
وأنت أدنى المرسلين وسيلة إلى الله يابن الأكرمين الأطايب

(١) أوجس : وقع في نفسه الخوف (٢) المجلس : كساء رقيق يكون تحت البرذعة بمنزلة المرشحة (٣) الهدى : السكون (٤) أركلت : أسرع (٥) الذعلب : الناقة السريعة شبهت بالذعلبة وهي النعامة لسرعتهما (اللسان مادة ذعلب) ، والوجناء : الشديدة . والسباب : جمع سبب : المفازة .

فرزني بما أحببت يا خيرَ مُرسلٍ وإن كان فيما قلتَ شيبُ الذوائبِ
وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعةٍ بمنعٍ فتيلًا عن سوادِ بن قارب

ففرح رسول الله وأصحابه بمقاتلي فرحاً شديداً حتى رُئى الفرح في وجوههم ؛
فوثب إليه عمر فالتزمه ، وقال : قد كنت أحبُّ أن أسمع هذا الحديث منك ،
فهل يأتيك رثيك اليوم ؟ فقال : منذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب الله
تعالى من الجن !

١٢٨ — ليلي الأخيلية على قبر توبة *

مَرَّتْ ليلي الأخيلية^(١) مع زوجها بقبر توبة بن الحمير ، فقال لها : هذا قبرُ
الكذاب الذي قال :

ولو أن ليلى الأخيلية سَلَّتْ عليَّ ودوني جَنْدَلٌ وصَفَاحٌ
لَسَلَّتْ تَسْلِيمَ البِشَاشَةِ أو زَقَا إليها صَدَى من جانب القبرِ صَاحُ
فَقَالَتْ : دَعَهُ ، فقال : أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا مَا دَنَوْتُ مِنْهُ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَأَبَتْ ،
فَكَرَّرَ عَلَيْهَا ذَلِكَ ، فَلَمَّا تَقَدَّمَتْ إِلَى الْقَبْرِ ، وَقَالَتْ : السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا تُوبَةُ ، طَارَ مِنْ
جَانِبِ الْقَبْرِ طَائِرٌ كَانَ هُنَاكَ ، وَزَقَا وَنَفَرَ مِنْهُ جَمَلٌ لَيْلِي ، فَوَقَعَتْ مِنْ أَعْلَاهُ فَاذْدَقَتْ
عُنُقَهَا وَمَاتَتْ مِنْ وَقْتِهَا !

* ديوان الصبابة : ١٨٤ .

(١) هي ليلى بنت عبد الله من بني الأخيل بن عامر ، من النساء المتقدمات في الشعر ، وكان توبة
ابن الحمير يهواها ، وقال فيها الشعر الكثير ثم تزوجها ، توفيت سنة ٨٠ هـ .

١٢٩ — جان مختطف فتاة *

حدث زياد بن النضر الحارثي قال : كنا على غدير لنا في الجاهلية ، ومعنا رجل من الحنابلة يقال له : عمرو بن مالك ، معه بنية له شابة ، على ظهرها ذؤابة ، فقال لها أبوها : خذي هذه الصخرة ، ثم اثني الغدير ، فجيئنا بشيء من مائه .

فانطلقت فواقفها عليه جان فاختطفها ، فذهب بها ؛ فلما فقدناها نادى أبوها في الحنابلة ، فخرجنا على كل صعب وذلول^(١) ، وقصدنا كل شعب^(٢) ونقب ، فلم نجد لها أثراً ؛ ومضت على ذلك السنون ، حتى كان زمن عمر بن الخطاب ، فإذا هي قد جاءت ، وقد عفا^(٣) شعرها وأظفارها ، وتغيرت حالها ، فقال لها أبوها : أرى بنية ؛ أتى كنت ؟ وقام إليها يقبلها ، ويشم ريحها ، فقالت : يا أبت ؛ أتذكر ليلة الغدير ؟ قال : نعم ؛ قالت : فإنه واقفني عليه جان ، فاختطفني ، فذهب بي ، فلم أزل فيهم ، حتى إذا كان الآن غزا هو وأهله قوماً مشركين ، أو غزاهم قوم مشركون فجعل لله تبارك وتعالى نذراً إن هم ظفروا بعدوهم أن يعتقني ويردوني إلى أهلي فظفروا ؛ فحملني فأصبحتُ عندكم ، وقد جعل بيني وبينه أمارَةً ، إن احتجتُ إليه أن أولول بصوتي ، فإنه يحضرني .

* المتفق من أخبار الأصمى : ١٣

(١) الصعب : الجبل المصمى ، والذلول : الجبل الهادئ . (٢) الشعب : الطريق في الجبل ، ومسيل الماء في بطن أرض ، أو ما تفرج بين الجبلين . (٣) عفا شعرها : كثر وطال .

فأخذ أبوها من شعرها وأظافرها ، وأصلح من شأنها ، وزوجها رجلاً من أهله ؛ فوقع بينها وبينه ذات يوم ما يقع بين المرأة وبعلها فغيرها ، وقال : يا مجنونة ! والله ، إن نشأت إلا في الجن .

قصاحت وولولت بأعلى صوتها ، فإذا هاتف يهتف : يا معشر بنى الحارث ؛ اجتمعوا وكونوا حيًّا كراماً ، فاجتمعنا فقلنا : ما أنت - رحمك الله ؟ فإننا نسمع صوتاً ولا نرى شخصاً ! فقال : أنا راب^(١) فلانة ، رعيته في الجاهلية بحسبي ؛ وصنيتها في الإسلام بديني ، والله إن نلت منها محرماً قط ! واستغاثت في هذا الوقت ، فحضرت فسالنها عن أمرها ، فزعمت أن زوجها غيرها بأن كانت فينا ، ووالله ، لو كنت تقدمت إليه لفقأت عينيه ! فقلنا : يا عبد الله ؛ لك الحياء والجزاء والمكافأة ! فقال : ذلك إليه (يعني الزوج) !

فقامت إليه عجوز من الحمى ، فقالت : أسألك عن شيء ، فقال : سئلي ! قالت : إن لي بنية أصابتها حصبة^(٢) ، فتمزق رأسها ، وقد أخذتها حمى الربع^(٣) ؛ فهل لها من دواء ؟ قال : نعم ! اعمدي إلى ذباب الماء الطويل القوائم الذي يكون على أفواه الأنهار ، فخذى منه واحدة ، فاجعلها في سبعة ألوان عهن^(٤) ، من أصفرها وأحمرها وأخضرها وأسودها ، وأبيضها وأكحلها وأزرقها ، ثم افعلي ذلك الصوف بأطراف أصابعك ، ثم اعقديه على عضدك ؛ ففعلت أمها ذلك ، فكانتما نشطتا من عقال !

(١) راب : كافل (٢) الحصبة : بثر يخرج بالجسد (٣) الربع في الحمى : أن تأخذ يوماً وتدع يومين ، ثم تحمي في اليوم الرابع (٤) العهن : الصوف .

١٣٠ — لا بقاء للإنسان *

لبس سليمان ^(١) بن عبد الملك يوم الجمعة في ولايته لباساً شهيراً به ، وتعطر ودعا بتخت ^(٢) فيه عمام ، ويده مرآة ، فلم يزل يعمّ بواحدة بعد أخرى حتى رضى بواحدة منها ، فأرخصى من سدولها ، وأخذ بيده محصرة ^(٣) ، وعلا المنبر ناظراً في عطفه ، وجمع جمعه ، وخطب خطبته التي أرادها ، فأعجبته نفسه ، فقال : أنا الملك الشاب ، السيد المهاب ، الكريم الوهاب ، فتمثلت له جارية من بعض جواريه ، فقال لها : كيف ترين أمير المؤمنين ؟ قالت : أراه مئى النفس ، وقرة العين ، لولا ما قال الشاعر ! قال : وما قال الشاعر ؟ قالت :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقي غير أن لا بقاء للإنسان
أنت من لا يرى بيننا منك شيء علم الله - غير أنك فان

قدمت حيناه وخرج على الناس باكياً ، فلما فرغ من خطبته وصلاته دعا بالجارية ، فقال لها : ما دعاك إلى ما قلت لأمر المؤمنين ؟ قالت : والله ما رأيت أمير المؤمنين اليوم ، ولا دخلت عليه ؟ فأكبر ذلك ، ودعا بقيمة جواريه ، فصدقها في قولها ، فراع ذلك سليمان ، ولم ينتفع بنفسه ، ولم يمكث بعد ذلك إلا مدة حتى توفى .

* مروج الذهب : ١ - ١٦٣ -

(١) سليمان بن عبد الملك من خلفاء بني أمية ، كانت أيامه أيام فتح وغزو وكان فصيحاً بليفاً ، إلا أنه كان نهماً ، توفى سنة ٩٦ هـ (٢) التخت : وعاء تصان فيه الثياب (٣) المحصرة : ما يتوكأ عليه كالعصا ونحوها ، وما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب ، والحطيط إذا خطب .

١٣١ — الفَرِيضُ يَتَلَقَّى غِنَاءَهُ عَنِ الْجَنِّ *

قال مولى لآل الفَرِيض (١) :

حدّثتني بعض مَوَلِيَّاتِي وقد ذَكَرَنَ الفَرِيضُ فترجّمن عليه وقلن : جاءنا يوماً يحدّثنا بمحدث أنكرناه عليه ، ثم عرّفنا بعد ذلك حقيقته ، وكان من أحسن الناس وجهاً صغيراً وكبيراً ، وكنا نَلْقَى من الناس عَنَتاً بسببه ، وكان ابنُ سُريجٍ في جوارنا فدفعناه إليه فلَقِنَ الغناء ، وكان من أحسن الناس صوتاً ففتن أهل مكة بمُسن وجهه مع حسن صوته ؛ فلما رأى ذلك ابنُ سُريجٍ نحاه عنه ، وكان بعضُ موليّاته تعلمه النِّياحة ، فبرز فيها ، فجاءني يوماً فقال : نهتني الجن أن أنوح ، وأسمعتني صوتاً عجيباً ، فقد ابتليتُ عليه لحناً فاسمعه مني ، واندفع فغنى بصوت عجيب في شعر المرّار الأسدى :

حلفتُ لها بالله ما بين ذى الفضا وهضب القنّان (٢) من عَوَانٍ ولا بِكرٍ
أحبُّ إلينا منك دلاً وما نرى به عند آيلى من ثوابٍ ولا أجرٍ
فكذبناه وقلنا : شئ ؛ فكرفيه وأخرجه على هذا اللحن ، فكان في كل يومٍ يأتينا فيقول : سمعتُ الباردة صوتاً من الجن بترجيع وتقطيع قد بنيت عليه صوت كذا وكذا بشعر فلان ، فلم يزل على ذلك ونحن نُشكرُ عليه ؛ فإننا لكذلك ليلة

* الأغاني : ٢ - ٣٧٣

(١) اسمه عبد الملك ، والفريض لقبه ، كان يضرب بالعود ، وينثر بالدف أخذ الغناء عن ابن سريج ثم فاق عليه ، وتوفى في خلافة سليمان بن عبد الملك . (٢) القنّان : جبل لبني أسد .

وقد اجتمع جماعة من نساء أهل مكة في جمع تمرنا فيه ليلتنا ، والغريض يغنيننا
بشعر عمر بن أبي ربيعة :

أَمِنْ آلِ زَيْنَبَ جَدِّ الْبُكُورِ نَعَمْ قَلِيلِيْ هَوَاهَا تَصِيرُ
إِذْ سَمِعْنَا فِي بَعْضِ اللَّيْلِ عَزِيفًا عَجِيْبًا وَأَصْوَاتًا مُخْتَلِفَةً ذَعَرْتَنَا وَأَفْرَعْتَنَا ، فقال لنا
الغريض : إن في هذه الأصوات صوتًا إِذَا نَمْتُ سَمِعْتُهُ ، وَأَصْبَحُ فَأَبْنِي عَلَيْهِ غِنَائِي ،
فَأَصْغَيْنَا إِلَيْهِ ، فَإِذَا نَعْمَتُهُ نَعْمَةُ الْغَرِيضِ بَعَيْنَهَا ، فَصَدَّقْنَاهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ .

١٣٢ — شيطان أبي نُوَاس *

قال رَزِين الكاتب : اجتمعنا يوماً أنا وأبو نواس ^(١) وعلى بن الخليل في سوق الكَرْنَج ^(٢) ، وكنا نجتمع وتتناشد الأشعار وتذاكر الأخبار وتحدث بها ، فقال أبو نواس : أذِبرَ مَنْ كان في نفسي ، وكان أَسْرَعَ الْخَلْقِ في طاعتي ؛ فما أدري ما أحتال له ؟ فقال علي بن الخليل يمازحه : يا أبا علي ؛ سل شيخك وأستاذك يُعطِّفه عليك ؛ فقال له أبو نواس ؛ من تَعْنِي ؟ قال : من أنت في طاعته ليلك ونهارك - يعني إبليس - ، فإن لم يَقْضِ لك هذه الحاجة ، فما ينبغى لك أن تسأله مسألة ، ولا أن تُقَرَّ عينه بمعضية . فقال : هو أسدُّ رأياً من أن يُخِلَّ بي أو يخذلني ، وانقضى مجلسنا ذلك .

فلما كان بعد أيام اجتمعنا في ذلك الموضع ، وأخذنا في أحاديثنا ، فضحك أبو نواس ، فقلنا له : ما أضحكك ؟ فقال : ذكرت قول علي بن الخليل يومئذ : سَلْ شَيْخَكَ يعطفه عليك ، حينئذ قد سأله يا أبا الحسن ، فقضى الحاجة ، وما مضت والله ثالثة حتى أتاني من غير أن أبعث إليه ومن غير أن أستزيره ، فعاتبني واسترَضاني ، وكان الغضب مني والتجني ، وأحسب الشيخ - يعني إبليس -

نفس المأمون : ٣ - ٢٣٣

(١) هو الحسن بن هاني ، رحل إلى بغداد ، واتصل فيها بالخلفاء من بني العباس ، وهو أول من نهج للشعر طريقته الحضرية ، وأخرجه من اللهجة البدوية ، توفي سنة ١٩٢ هـ .
(٢) من أسواق بغداد .

كان ينسَمِعُ علينا في وقت كلامنا ، وقد قلت أحياناً في ذلك ؛ فقلنا : هاها ،
فأنشد :

لما جفاني الحبيبُ وامتنعتُ	عني الرسالاتُ منه والخبرُ
واشتدَّ شوقي فكاد يَتَّقِلُنِي	ذكرُ حبيبي والممُّ والفِكرُ
دعوتُ إبليسَ ثم قلت له	في خَلْوَةٍ والدموعُ تنحدرُ :
أما ترى كيف قد بُليتُ وقد	أفرح جَفَنِي البكاءُ والسهرُ
إن أنت لم تُلقِ لي المودَّةَ في	صدر حبيبي وأنت مقتدر
لا قُلتُ شعراً ولا سمعتُ غِناءً	ولا جرى في مفاصلِ السَّكرِ ^(١)
فما مضتْ بعد ذاك ثلاثة	حتى أتاني الحبيبُ يعتذرُ
فيا لها مِنَّةً لقد عظُمتْ	عندي لإبليس ما لها خطَرُ

١٣٣ — إبليس في ضيافة إبراهيم الموصلي *

قال إبراهيم بن إسحاق الموصلي :

سألتُ الرشيد^(١) أن يَهَبَ لي يوماً في الجمعة لا يبعثُ فيه إلى بوجه ولا بسبب لأخلُو فيه بجواري وإخواني ، فأذن لي في يوم السبت ، وقال لي : هو يوم أَسْتَنْقِلُهُ ، قاله فيه بما شئت ؛ فأقمت يوم السبت بمنزلي وتقدمتُ في إصلاح طعامي وشرابي بما احتجتُ إليه ، وأمرتُ بوابي فأغلق الأبواب ، وتقدمتُ^(٢) إليه ألا يأذن علي لأحد .

فبينما أنا في مجلسي والخدم قد حَفُّوا بي وجواري يترددن بين يدي ، إذا أنا بشيخ ذي هيئة وجمال ، عليه قميصان ناعمان وخُفَّان قصيران ، وعلى رأسه قلنسوة لاطئة^(٣) ، ويده عكازة مُقَمَّعة بِفِضَّة ، وروائحُ المسك تفوح منه حتى ملأ البيت والدار ، فداخلني بدخوله عليّ — مع ما تقدمتُ فيه — غيظٌ ما تداخلني قطُّ مثله وهمتُ بطرد بوابي ومن حجبني لأجله ، فسلم عليّ أحسن سلام ؛ فرددتُ عليه ، وأمرته بالجلوس فجلس ، ثم أخذ بي في أحاديث الناس وأيام العرب وأحاديثها وأشعارها حتى سلَّى ما بي من الغضب ، وظننتُ أن غلمانِي تحمروا مسرّقي يادخالهم مثله عليّ لأدبه وطرّفه .

(*) الأغاني : ٥ - ٢٣١ ، ذيل زهر الآداب : ٢٦٤

(١) أعظم خلفاء بني العباس ، وأكبرهم شأنًا ، كان عافظًا كثيرًا للجهاد وافر العطاء . توفي سنة ١٩٣ . (٢) تقدمتُ إليه : أمرته . (٣) اللاطئة : قلنسوة صغيرة تُلزق بالرأس .

فقلتُ : هل لك في الطعام ، فقال : لا حاجة لي فيه ، فقلت : هل لك في
الشراب ، فقال : ذلك إليك ، فشربتُ رطلاً وسقيتهُ مثله ، فقال لي : يا أبا إسحاق ؛
هل لك أن تُغني لنا شيئاً من صَنَعَتِكَ وما قد نَفَقْتُ ^(١) به عند الخاصّ والعام ؟
ففاظطني قوله ، ثم سهلتُ على نفسي أمره ، فأخذتُ العود فجسّتهُ ثم ضربتُ
فغَنَيْتُ ، فقال : أحسنت يا إبراهيم ! فازداد غيظي وقلت : ماضى بما فعله من
دخوله علىّ بغير إذن واقتراحه أن أُغْنِيه حتى سَمَانِي ولم يُكْتَنِي ولم يُجَمِلْ مخاطبتي !
ثم قال : هل لك أن تزيدنا ؟ فَتَدَمَّنتُ ^(٢) فأخذتُ العود فغَنَيْتُ ، فقال : أَجَدْتُ
يا أبا إسحاق ! فَأَتَيْتُ حَتَّى نَكَافَيْتُكَ وَنَفَنَيْتُكَ ، فأخذتُ العود وتغنيتُ وتحفظتُ
وقمتُ بما غنيتهُ إياه قِياماً تامّاً ماتحفظتُ مثله ، ولا قتُ بقاء كما قتُ به له بين يدي
خليفة قط ولا غيره ، لقواه لي : أكَفَيْتُكَ ، فطرب وقال : أحسنت يا سيدي ،
ثم قال : أتأذن لعبدك بالغناء ؟ فقلت : شأنك ، واستضعفتُ عقله في أن يغنيني
بمحضرتي بعد ماسمعه مني ، فأخذ العود وجسّه فوالله لَخِلَّتْهُ يَنْطِقَ بِلِسَانِ عَرَبِيٍّ لِحُسْنِ
ماسمعتُهُ من صوته ثم آفَنِي :

وَلِي كَيْدٌ مَقْرُوحَةٌ مَن يَبِيعُنِي بِهَا كَيْدٌ لَيْسَتْ بِذَاتِ قُرُوحِ
أَبَاهَا عَلَى النَّاسِ لَا يَشْتَرُونَهَا وَمَنْ يَشْتَرِي ذَا عِلَّةٍ بِصَحِيحِ ؟
أَنْ مِّنَ الشَّوْقِ الَّذِي فِي جَوَانِبِي أَنْ يَنْ غَصِيصٍ بِالشَّرَابِ جَرِيحِ

قال إبراهيم : فوالله لقد ظننتُ الحيطانَ والأبوابَ وكلَّ مافي البيت يحببهُ

(٢) تَذَمُّعُ الرَّجُلِ : اسْتَعْتَفَ ، وَيُقَالُ ، لَوْ لَمْ أَتْرَكَ

(١) نَفَقْتُ : يَرِيدُ سَارَ ذِكْرِكَ بِهِ
الْكُذْبَ تَامّاً لَمْ تَرَكَتْهُ تَذَمُّعاً .

وَيُغْنِيْ مَعَهُ مِنْ حُسْنِ غَنَائِهِ ، حَتَّى خِلْتُ وَاللَّهِ أَنِّي أَسْمَعُ أَعْضَائِي وَثِيَابِي تُجَاوِبُهُ ؟
وَبَقِيْتُ مَبْهُوتًا لَا أَسْتَطِيعُ الْكَلَامَ وَلَا الْجَوَابَ وَلَا الْحَرَكَةَ لِمَا خَالَطَ قَلْبِي ،
ثُمَّ غَنَى :

أَلَا يَا حَامَاتِ اللَّوَى عُذْنَ عَوْدَةً فَإِنِّي إِلَى أَصْوَاتِكُنَّ حَزِينُ
فَعُذْنَ فَلَمَّا عُذْنَ كِذْنَ يُمَيِّنَنِي وَكَدْتُ بِأَسْرَارِي لَهْنُ أُبِينُ
دَعَوْنُ بَزْدَادِ الْهَدِيرِ كَأَنَّمَا سَقِينُ حُمِيًّا أَوْ بَهْنُ جُنُونُ
فَلَمْ تَرَ عَيْنِي مِثْلَهُنَّ حَائِمًا بَكِينُ وَلَمْ تَدْمَعْ لَهْنُ عَيُونُ

فَكَادَ ، وَاللَّهِ أَعْلَمُ ، عَقْلِي أَنْ يَذْهَبَ طَرَبًا وَارْتِيحًا لَمَّا سَمِعْتُ ، ثُمَّ غَنَى :

أَلَا يَا صَبَا نَجِدِ مَتَى هِجَّتِ مِنْ نَجْدِ لَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكِ وَجْدًا عَلَى وَجْدِ
أَنَّ هَتَفْتُ وَرَقَاءَ فِي رَوْنِقِ الضُّحَا^(١) عَلَى قَتْنِ غَضِّ النَّبَاتِ مِنَ الرَّنْدِ^(٢)
بَكَيْتَ كَمَا يَبْكِي الْحَزِينُ صَبَابَةً وَذُبَّتْ مِنَ الْحَزْنِ الْمُبْرِحِ وَالْجُهْدِ
وَقَدْ زَعَمُوا أَنَّ الْحُبَّ إِذَا دَنَا يُمِلُّ وَأَنَّ النَّأْيَ يَشْفِي مِنَ الْوَجْدِ
بِكُلِّ تَدَاوِينَا فَلَمْ يُشْفَ مَا بَنَا عَلَى أَنَّ قَرَبَ الدَّارِ خَيْرٌ مِنَ الْبَعْدِ
عَلَى أَنَّ قَرَبَ الدَّارِ لَيْسَ بِنَافِعٍ إِذَا كَانَ مِنْ تَهْوَاهُ لَيْسَ بِذِي عَهْدِ

ثُمَّ قَالَ : يَا إِبْرَاهِيمُ ؛ هَذَا الْغَنَاءُ فَخِذْهُ وَانْحَ نَحْوَهُ فِي غَنَائِكَ وَعِلْمِهِ جَوَارِيكَ ،
فَقُلْتُ : أَعِدَّهُ عَلَيَّ ، فَقَالَ : لَسْتُ تَحْتَاجُ ، قَدْ أَخَذْتَهُ وَفَرَّغْتَ مِنْهُ ، ثُمَّ غَابَ مِنْ
بَيْنِ يَدَيَّ ، فَارْتَعْتُ وَقْتُ إِلَى السَّيْفِ فَجَرَّدْتَهُ ، وَعَدْتُ نَحْوَ أَبْوَابِ الْحَرَمِ فَوَجَدْتُهَا
مُغْلَقَةً ، فَقُلْتُ لِلْجَوَارِي : أَيُّ شَيْءٍ سَمِعْتُنَّ عِنْدِي ؟ فَقُلْنَ : سَمِعْنَا أَحْسَنَ غَنَاءٍ

(١) رَوْنِقِ الضُّحَا : حَسَنُهُ وَإِشْرَاقُهُ (٢) الرَّنْدُ : شَجَرٌ طَلِيْبُ الرَّائِحَةِ .

سَمِعَ قَطًّا ، فخرجتُ متحيراً إلى باب الدار ، فوجدته مُغلقاً ؛ فسألتُ البوابَ عن الشيخ . فقال لي : أى شيخ هو ؟ والله ما دخل إليك اليوم أحد ، فرجعتُ لِأَتأملُ أمرى ، فإذا هو قد هَتَفَ بى من بعض جوانب البيت : لا بأس عليك يا أبا إسحاق ، أنا إبليس وأنا كنتُ جليستُك ونديمُك اليومَ ، فلا تُرْعَ .

فركبتُ إلى الرشيد وقلت : لا أطرفه أبداً بطُرْفَةٍ مثل هذه ، فدخلتُ إليه فحدثته بالحديث ، فقال : وَنَحْكَ ! تأملُ هذه الأصواتَ ، هل أخذتها ؟ فأخذتُ العودَ أمتحنُها ، فإذا هى راسخة فى صدرى كأنها لم تزل ، فطرب الرشيد وجلس يشرب ولم يكن عَزَمَ على الشراب ، وأمر لى بصليةٍ وَحْمَلانٍ وقال : الشيخ كان أعلم بما قال لك من أنك أخذتها وفرغتَ منها ، فليته أمتعنَا بنفسه يوماً واحداً كما أمتعك !

١٣٤ — دعبيل بن علي ورجل من الجن *

قال دعبيل^(١) بن علي: لما هربتُ من الخليفة بُتْ ليلةً بنيسابور وحدي ،
وعزمتُ علي أن أعملَ قصيدةً في عبد الله بن طاهر في تلك الليلة ؛ فإنني لفي ذلك ؛
إذ سمعتُ - والباب مروءٌ علي - من يقول : السلام عليكم ورحمة الله ، انجُ
يرحمك الله ، فاقشعرَّ بدني من ذلك ، ونالني أمرٌ عظيم ، فقال لي : لا ترُعْ ، عافاك
الله ، فإنني رجل من إخوانك من الجن من ساكني اليمن ، طرأ إلينا طاريءٌ من
أهل العراق ، فأنشدنا قصيدتك :

مدارسُ آياتٍ خلتُ من تلاوةٍ ومنزلٍ وحنى مُقْفِرِ العَرَصَاتِ
فأحببتُ أن أسمعها منك ، قال : فأنشدته إياها ، فبكي حتى خرّ ، ثم قال :
رَحِمَكَ اللهُ ، ألا أحدثُكَ حديثاً يزيدُ في نيتك ، ويُعينك على التمسُّكِ بمذهبك ؟
قلت : بلى ، قال : مكثتُ حيناً أَسْمَعُ بذِكرِ جعفر بن محمد ، فصرتُ إلى المدينة
فسمعتُهُ يقول: حدثني أبي عن أبيه عن جده : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
« عليٌّ وشيعتهُ هم الفائزون » ، ثم ودَّعَنِي لينصرف ، فقلت له : يرحمك الله ، إن
رأيتُ أن تخبرني باسمك فافعل ، فقال : أنا ظبيان بن عامر !

* الأغاني : ٧ - ٣٩

(١) شاعر مطبوع هجاء خبيث اللسان ، لم يسلم منه أحد من الخلفاء ولا وزراءهم ولا أولادهم ولا
ذِي نباهة أحسن إليه أم لم يحسن ، توفي سنة ٢٤٦ هـ .

البَابُ السَّادِسُ

في القصص التي تسرُّد بارعَ الملح التي أثرت عن الحقى
والمجانين، وتفصل روائع النواذر التي فاضت بها قرائح
الطفيليين والمتنبئين، وما يشبه ذلك مما فيه راحة للنفوس،
ونشاط للخواطر .

١٣٥ — أَتَفَكْ مِنْكَ وَإِنْ كَانَ أَجْدَعُ*

دفع الربيع بن كعب المازني فرساً كان قد أبر^(١) على التحليلِ كرمًا وجودة إلى أخيه كَيْشَ لِيَأْتِي به أهله ، وكان كَيْش مشهوراً بالحق ، وقد كان رجلٌ من بني مالك يقال له : قُرَادُ بْنُ جَرْم ، قدم على أصحاب الفرس ؛ ليصيب منهم غِرةً فيأخذها ، وكان داهية ؛ فكث فيهم مقياً ؛ لا يعرفون نسبه ، ولا يظهره هو . فلما نظر إلى كَيْش راعب الفرس ركب ناقته ، ثم عَارَضَهُ^(٢) ، فقال : يا كَيْش ؛ هل لك في عَانَةٍ^(٣) لم أر مثلها سَمَنًا ولا عِظْمًا ، وعِيرٍ^(٤) فيها الذهب ؛ فأما الآن فتروح بها إلى أهلك ، فتملاً قدورهم وتفرح صدورهم ؛ وأما العيرُ فلا افتقار بعده !

قال له كَيْش : وكيف لنا به ؟ قال : أنا لك به ، وليس يُدْرِك إلا على فرسك هذا ، ولا يرى إلا بَلِيلٍ ، ولا يراه غيري !
قال كَيْش : فَلْيُؤْنِكْهُ ! قال : نعم ، وأُمْسِكِ أنتِ راحلتى .
فركب قراد الفرس ، وقال : انتظرني في هذا المكان إلى هذه الساعة من غد .
قال : نعم !

ومضى قراد ؛ فلما توارى أنشأ يقول :

ضِيَعَتْ فِي الْعِيرِ ضَلَالًا مُهْرًا لَتَطْعَمَ الْحَى جَمِيعًا عَيْرًا

* بجم الأمثال : ٢ - ٢٢٦

- (١) أبر على أسجابه : علام (٢) عارضه : سار حياه (٣) العانة : القطيع من حمر الوحش .
(٤) العير : القافلة تحمل البرة :

فسوف تأتي بالهوان أهلكا وقبل هذا ماخذعت الأنوكا^(١)
 فلم يزل كيش ينتظر حتى أمسى من غدِهِ وجاع . فلما لم يرَ له أَرَأَ انصرف
 إلى أهله ، وقال في نفسه : إن سألني أخى عن الفرس ، قلت : تحولَ ناقَةٌ !
 فلما رآه الربيعُ عرف أنه خُدع عن الفرس ؛ فقال له : أين الفرس ؟ قال : تحولَ
 ناقَةٌ ! قال : فما فعل السرج ؟ قال : لم أذْكر السرج فأطلب له عِلَّة !
 فصرعه الربيع ليقته ؛ فقال له قنفذ بن جَعَوَنَة : ألهُ عما فاتك ، فإن أنفَكَ
 منك وإن كان أجَدَع^(٢) !

وقدم قراد بن جرم على أهله بالفرس ، وقال في ذلك :

يؤمِّلُ غيراً من نَضَارٍ وَعَسْجَدٍ فهل كان لى في غير ذلك مطمع
 وقلتُ له : أُمْسِكْ قُلُوصى^(٣) وَلَا تَرِمْ^(٤) خِدَاعاً له إذْ ذُو الْمَكَايدِ يَخْدَعُ
 فَأَصْبَحَ يَرْمَى الْخَافِقِينَ بِطَرْفِهِ وَأَصْبَحَ تَحْتِي ذُو أَفَانِينَ^(٥) جُرْشُعُ^(٦)

(١) أنوك : أحمق (٢) صارت مثلاً : يضرب لمن يلزمك خيره وشره ، وإن كان ليس بمستحكم
 القرب . (٣) القلوص من الإبل : الشابة (٤) لا ترم : لا تبرج (٥) الأفانين : جمع أفنان ،
 وأفنان جمع فَنن ، وهو الخصلة من الشعر ، يقول : إنه ذو خصل من الشعر في ناصيته وذنبه
 (٦) الجرشع . العظيم من الخيل .

١٣٦ — أبو رافع لا يكذب في نوم ولا يقظة*

حكى أن امرأة أبي رافع^(١) رآته في نومها بعد موته ، فقال لها : أتعرفين فلاناً الصَّيرفي^(٢) ؟ قالت له : نعم ، قال : فإن لي عليه مائتي دينار .

فلما انتهت غَدَتْ إلى الصَّيرفي فأخبرته ، وسألته عن المائتي الدينار ! فقال : رحم الله أبارافع ، والله ما جرت بيني وبينه معاملة قط !

فأقبلت إلى مسجد المدينة فوجدت مشايخ من آل أبي رافع ، كلهم مقبولُ القول ، جازر الشهادة ، فقصّت عليهم الرؤيا ، وأخبرتهم خبرها مع الصَّيرفي ، وإنكاره لما ادّعاه أبو رافع .

قالوا : ما كان أبو رافع ليكذب في نوم ولا يقظة ! قرَّبني صاحبك إلى السلطان ، ونحن نشهدُ لك عليه .

فلما علم الصيرفي عَزَمَ القوم على الشهادة لها ! وعلم أنهم إن شهدوا عليه لم يبرح حتى يؤديها ، قال لهم : إن رأيتم أن تُصَلِّحوا بيني وبين هذه المرأة على ما ترونه فافعلوا ، قالوا : نعم ، والصلحُ خيرٌ ، ونعمَ الصلحُ الشَّطْرُ ، فأدَّ إليها مائة دينار من المائتين ، فقال لهم : أفعَل ، ولكن اكتبُوا بيني وبينها كتاباً يكون وثيقةً لي ،

* العقد الفريد : ٤ - ٢٠٤

(١) أبو رافع : مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وآل أبي رافع من فضلاء أهل المدينة وخيارهم ، مع بله فيهم وعى شديد (٢) الصيرفي : صراف الدراهم .

قالوا : وكيف تكون هذه الوثيقة ؟ قال : تكتبون لى عليها أنها قبضت منى مائة دينار صلحا عن مائتى الدينار التى ادعاها أبو رافع فى نومها ، وأنها قد أبرأتنى منها ، وشرطت على نفسها ألا ترى أبأ رافع فى نومها مرة أخرى ، فيدعى على بغير هذه المائتى الدينار ؛ فتجىء بفلان وفلان يشهدان علىّ لها . فلما سمعوا الوثيقة انتبه القوم لأنفسهم ، وقالوا : قبّحك الله ، وقبح ما جئت به !

١٣٧ — أهلك أعلم بك ! *

كان لأبي الأسود ^(١) الدؤلى دُكان ^(٢) إلى صدر الجبل يجلس فيه وحده ،
ويضع بين يديه مائدة ، ويدعو إليها كل من يمر به ، وليس لأحد أن يجلس ،
فينصرفون عنه .

فرَّ به صبيٌّ من الأنصار ، فقال له أبو الأسود : هلمَّ إلى الغداء يا فتى ! فأتى
إليه ، فلم يرَ موضعاً يجلسُ فيه ، فتناول المائدة فوضعها في الأرض ؛ ثم قال :
يا أبا الأسود ، إن كان لك في الغداء حاجة فانزل ، وأقبل الفتى يأكل ، حتى أتى
على جميع ما في المائدة ، وسقطت آخر الطعام من يده لقمةً على الأرض فأخذها ،
وقال : لا أدعُها للشياطين ! فقال أبو الأسود : والله ماتدعُها للملائكة المقرَّين ،
فكيف تدعُها للشياطين ؟ ثم قال له : ما أسْمُك ؟ قال : لقمان . فقال أبو الأسود :
أهلك كانوا أعلم زمانهم إذ سمَّوك بهذا الاسم ؛ ولم يعدْ إلى ما كان يصنع !

* ذيل زهر الآداب : ١٦٧

(١) هو: ظالم بن عمرو ، وأبو الأسود كنيته ، وكان قد أدرك حياة النبي ، وسافر إلى البصرة على
عهد عمر ، واستعمله علي بن أبي طالب على البصرة وكان شيعياً ، وهو أول من وضع المرية ،
توفي سنة ٦٩ هـ (٢) الدكان : الدكة المبنية للجلوس عليها .

١٣٨ — المقادير تصير العبي خطيباً *

وُصف عند الحجاج ^(١) رجلٌ بالجهل ؛ وكانت له إليه حاجةٌ ، فقال في نفسه :
لَا أُخْتَبِرَنَّه ! ثم قال له حين دخل عليه : أعصامي أنت أم عظامي ^(٢) ؟ فقال الرجل :
أنا عَصامي وعظامي ، فقال الحجاج : هذا أفضلُ الناس ، وقضى حاجته وزاده ،
ومكث عنده مُدَّة .

ثم باحثه فوجده أجهل الناس ، فقال له : تصدقني وإلا قتلْتُكَ ، قال له :
قُلْ ما بَدَأَ لك وأصدقك ! قال : كيف أجبتني بما أجبت لما سألتك عما سألت ؟
قال له : والله لم أعلم : أعصامي خيرٌ أم عظامي ! فخشيتُ أن أقول أحدهما فأخطيء
فقلتُ : أقول كليهما ، فإن ضررتني أحدهما نفعني الآخر ؛ فقال له الحجاج عند ذلك :
المقاديرُ تصيرُ العبي خطيباً !

* مجمع الأمثال : ٢ - ٢٦٠

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي : قائد خطيب، ولد ونشأ في الطائف وانتقل إلى الشام،
وهو مشهور بشدته ، توفي سنة ٩٥ هـ (٢) يريد : أشرفت بنفسك أم تفتخر بأبائك الذين
صاروا عظاماً .

١٣٩ - لئن شكرتم لأزيدنكم*

أخذ الحجاج لِيصاً أعرايياً؛ فضربه سبعاً سوطاً ، فكلما قرعه بسوط قال :
اللهم شكراً ! فأتاه ابنُ عم له فقال : والله مادعا الحجاجَ إلى التمددِ في ضربِك
إلا كثرةُ شُكركَ ، لأن الله تعالى يقول : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ؛ فقال :
أهذا هو في كتاب الله ؟ فقال : اللهم نعم ، فأنشأ الأعرابي يقول :
يارب لا شكرَ فلا تزدني أمسرتُ في شُكرك فاعفُ عني
باعِدْ ثوابَ الشاكرين مِنِّي
فبلغ قوله الحجاج ، فخلّى سبيله .

١٤٠ — الحمد لله الذي مسخك كلباً *

كان لأبي حَيَّةَ التَّمِيمِيِّ ^(١) سيفٌ ليس بينه وبين الخشب فرّق، كان يسميه «لُعَابَ الْمَنِيَّةِ» فحكى عنه بعض جيرانه أنه قال: أشرفتُ عليه ليلة وقد انتَضَاهُ؛ وهو واقفٌ بباب بيتٍ في داره، وقد سمع فيه حسّاً، وهو يقول: أيها المغترُّ بنا، المجترُّ علينا، بئس والله ما اخترتَ لنفسك اِخيراً قليل، وسيفٌ صقيلٌ «لعابُ المَنِيَّةِ» الذي سمعتَ به مشهورة صَوَلته، لا تُخَافُ نَبْؤُهُ، اِخْرُجْ بالعفو عنك، لا أَدْخِلُ العقوبة عليك! إني والله إن أدعُ قَيْساً تملأُ الفضاء عليك خَيْلاً ورجلاً ^(٢)، سبحان الله! ما أَكْثَرَهَا وأطْيَبَهَا! والله ما أنتَ ببعيد من تابعها، والرسوب في تيار لُجَّتِها.

وهبت ريح ففتحت الباب، فخرج كلبٌ، فازبَدَ وجهُه، وشغَر ^(٣) برجليه، وتبادرتُ إليه نساء الحى قتلن: يا أبا حَيَّةَ، لِيُفْرِخَ رَوْعُكَ ^(٤) إنما هو كلب، فجلس وهو يقول: الحمد لله الذي مَسَخَكَ كلباً، وكفاني حرباً.

* الأغانى: ١٥ - ٦١، ابن أبي الحديد: ٢ - ٤١.

(١) هو المهيم بن الربيع، شاعر مجيد من مخضري الدولتين الأموية والعباسية، مدح خلفاء عصره
فيهما، وكان فصيحاً راجزاً، له أخبار وكانت به لومة، وكان من أجبن الخلق توفي نحو سنة ١٦٠هـ.

(٢) الرجل: جمع راجل. وهو ضد الفارس (٣) شغَر: رفع إحدى رجليه (٤) لينكشف
هناك فزعك.

(٢٧ - قصص - رابع)

١٤١ - يوم الحساب *

قال أحد الرواة :

كان في زمن المهدي ^(١) رجل صوفي ؛ يركب قَصَبَةً في كل جمعة يومين :
الاثنين والخميس ، فإذا ركب في هذين اليومين فليس لمعلم على صبيانه حُكْم ولا
طاعة ، فيخرج ويخرج معه الرجال والنساء والصبيان .

شاهدته يوماً وقد صعد تلاً ؛ فتنادى بأعلى صَوْتِهِ : ما فعل النبیون والمرسلون ؟
أَلَيْسُوا في أعلى عَلَیِّين ؟ فقالوا : بلى ! قال : هاتوا أبا بكر الصديق ؛ فأخذ غلام
فأجلس بين يديه ، فقال : جزاك الله خيراً أبا بكرٍ عن الرعية ، فقد عدلتَ وقمتَ
بالقسط ، وخلفت بمجداً - عليه السلام - في حُسن الخلافة ، ووصلتَ حَبْلَ الدِّينِ
بعد حَلٍّ وتنازعٍ ، وفرغتَ منه إلى أوثق عُرْوَةٍ وأحسن ثقة ، اذهبوا به إلى أعلى
عَلَیِّين !

ثم نادى : هاتوا عُمرَ ، فأجلس بين يديه غلام ، فقال : جزاك الله خيراً
يا أبا حفص عن الإسلام ، قد فتحتَ الفتوح ، ووسَّعتَ النَّبْءَ ، وسَلَكْتَ سَبِيلَ
الصالحين ، وعدلتَ في الرعية ، اذهبوا به إلى أعلى عَلَیِّين بمجداء أبي بكر .

* المقدم الفريد : ٤ - ١٩٨

(١) محمد بن عبد الله من خلفاء الدولة العباسية في العراق ، ولى بعد وفاة أبيه وعام في الخلافة
عشر سنين ومات سنة ١٦٩ هـ .

ثم قال : هاتوا عثمان ؛ فَأَتَيْ بِنْلَام فَأَجْلَس بين يديه ، فقال له : خَلَطْتَ في تلك السنين ، ولكن الله تعالى يقول : « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » . ثم قال : اذهبوا به إلى صاحبيه في أعلى عليين .

ثم نادى : هاتوا علي بن أبي طالب ، فَأَجْلَس بين يديه غلام ؛ فقال له : جزاك الله عن الأمة خيراً أبا الحسن فأنت الوصي ، وولي النبي ، بَسَطْتَ العدل ، وزهدت في الدنيا ، واعتزلت الناس ، فلم تَحْمِش فيه بناب ولا ظفر ، وأنت أبو الذُرِّيَّةِ المباركة ، وزوج الزكية الطاهرة ، اذهبوا به إلى أعلى عليين .

ثم قال : هاتوا معاوية ، فَأَجْلَس بين يديه غلام ؛ فقال له : أنت القاتل عمار ابن ياسر وخزيمة بن ثابت ذا الشهادتين ، وأنت الذي جعل الخلافة مُلْكًا ، واستأثرَ بالنبي ، وحكم بالهوى ، وبَطَرَ بالنعمة ، وأنت أولُ من غيَّر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونَقَضَ أحكامه ، وقام بالبغي ؛ اذهبوا به فأَوْقِفُوهُ مع الظلمة .

ثم قال : هاتوا يزيد ؛ فَأَجْلَس بين يديه غلام ؛ فقال له : أنت الذي قتلَ أهلَ الحرَّةِ ^(١) ، وأبْحَثَ المدينة ثلاثة أيام ، وَاْتَهَكْتَ حُرْمَ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآويت المُلْحِدِينَ ، وبُوتَ باللعنة على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمثلت بشعرِ الجاهلية :

لَيْتَ أَشْيَاخِي يَبْدِرُ شَهْدُوا جَزَعَ الْخَزْرَجِ ^(٢) مِنْ وَقْعِ الْأَسَلِ ^(٣)

(١) موضع بظاهر المدينة بها كانت وقعة الحرة أيام يزيد . (٢) الخزرج : إحدى قبيلتي الأنصار

(٣) الأسل : الرماح .

وَقَتَلَتْ حُسَيْنًا ، وَحَمَلَتْ بَنَاتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَايَا عَلَى حَقَائِبِ^(١) الْإِبِلِ ، أَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ !

ولم يزل يذكر والياً بعد والٍ حتى بلغ إلى عمر بن عبد العزيز ، فقال : هاتوا عمر ، فَأَتَى بِغَلَامٍ ، فَأَجْلَسَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فَقَالَ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا عَنِ الْإِسْلَامِ ؛ فَقَدْ أَحْيَيْتَ الْعَدْلَ بَعْدَ مَوْتِهِ ، وَأَلَنْتَ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ ؛ وَقَامَ بِكَ عَمُودُ الدِّينِ عَلَى سَاقٍ بَعْدَ شِقَاقٍ وَنِفَاقٍ ، أَذْهَبُوا بِهِ فَأُلْحِقُوهُ بِالصَّدِيقِينَ ، ثُمَّ ذَكَرَ مَنْ كَانَ بَعْدَهُ مِنَ الْخُلَفَاءِ إِلَى أَنْ بَلَغَ دَوْلَةَ بَنِي الْعَبَّاسِ ، فَسَكَتَ ، فَقِيلَ لَهُ : هَذَا أَبُو الْعَبَّاسِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، قَالَ : فَبَلَغَ أَمْرُنَا إِلَى بَنِي الْعَبَّاسِ ! ارْفَعُوا حِسَابَ هَؤُلَاءِ جَلَّةً ، وَاقْذِفُوا بِهِمْ فِي النَّارِ جَمِيعًا !

(١) الحقيبة : الرفادة في مؤخر القتب ، وكل ما شد في مؤخر رجل أو قتب فقد احتقب .

١٤٢ — إِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا*

ركب محمد بن سليمان ^(١) يوماً بالبصرة وسوار القاضي يسايره في جنازة ابن عم له ، فاعترضه مجنونٌ يُعرف برأسِ النعجة ، فقال له : يا محمد ؛ أَمِنْ الْعَدْلِ أَنْ تَكُونَ نَحِلْتُكَ ^(٢) فِي كُلِّ يَوْمٍ مِائَةَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، وَأَنَا أَطْلُبُ نِصْفَ دِرْهَمٍ فَلَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ ؟

ثم التفت إلى سوار فقال : إِنْ كَانَ هَذَا عَدْلًا فَأَنَا أَكْفَرُ بِهِ ؟ فَاسْرِعْ إِلَيْهِ غُلَامُنُ مُحَمَّدٌ ؛ فَكَفَّهِمْ عَنْهُ ، وَأَمْرٌ لَهُ بِمِائَةِ دِرْهَمٍ !

فلما انصرف محمد وسوار معه اعترضه رأسُ النعجة فقال : لَقَدْ كَرَّمَ اللَّهُ مَنْصِبَكَ ^(٣) ، وَشَرَّفَ أَبَوَتَكَ ، وَحَسَّنَ وَجْهَكَ ، وَعَظَّمَ قَدْرَكَ ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خَيْرَ يَرِيدِهِ اللَّهُ بِكَ !

فدنا منه سوار فقال : يَا خَبِيثٌ ؛ مَا كَانَ هَذَا قَوْلَكَ فِي الْبُدَاءَةِ ! فَقَالَ لَهُ : سَأَلْتُكَ بِحَقِّ اللَّهِ وَبِحَقِّ الْأَمِيرِ إِلَّا مَا أَخْبَرْتَنِي فِي أَى سُوْرَةِ هَذِهِ الْآيَةِ : « فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رِضْوَانًا ، وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ » ؟ قَالَ : فِي « بَرَاءَةِ » قَالَ : صِدَقْتَ ؛ فَبَرِئَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْكَ ! فَضَحِكَ مُحَمَّدُ بْنُ سُلَيْمَانَ حَتَّى كَادَ يَسْقُطُ عَنْ دَابَّتِهِ !

* السعدي : ٢ - ٢٦٣

(١) محمد بن سليمان بن علي العباسي : أمير البصرة ولها في أيام المهدي ، واستمر إلى أن توفى فيها ، وكان غنياً نبيلاً سمع نفسه إلى الخلافة ؛ وصدّه عن الجهر بطلبها ما كانت عليه من القوة أيام المهدي والرشد ، توفى سنة ١٧٣ هـ (٢) النحلة : العطية (٣) المنصب : الأصل .

١٤٣ — ما أختار غيرَ عبد الله بن طاهر*

شكا البيزىدى ^(١) إلى المأمون خَلَّةً ^(٢) أصابته ودينًا لحقه ، فقال : ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه بلغت به ما تُريد ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ؛ إن الأمر قد ضاقَ علىّ ، وإن غُرْمائى قد أرهقونى ، قال : فرِّم نفسك أمراً تنل به نفعاً .

فقال : لك منادمون ، فيهم ما إن حرَّ كنه نلتُ منه ما أحبُّ ، فأطلق لي الحيلةَ فيهم ، قال : قل ما بدا لك ؛ قال . فإذا حضروا وحضرت فمرُّ فلاناً الخادم أن يوصل إليك رُقعتي ، فإذا قرأتها فأرسل إلىّ : دخولك في هذا الوقت متعذر ؛ ولكن اختر لنفسك من أحببت .

فلما علم البيزىدى بجلوس المأمون ، واجتماع ندمائه إليه ، وتيقن أنهم في سرورهم أتى البابَ فدفع إلى ذلك الخادم رقعةً قد كتبها ، فأوصلها إلى المأمون فقرأها ، فإذا فيها :

يا خيرَ إخوانى وأصحابى هذا الطُفيلُ لدى البابِ
خبرَ أن القومَ في لذّةٍ يصبو إليها كلُّ أوابِ
فصيّرُونى واحداً منكم أو أخرجوا لى بمض أنزابى

* عصر المأمون : ١ - ٣٣٣

(١) البيزىدى : يحيى بن المبارك بن المغيرة من علماء العربية والأدب ، اتصل بالرشيد فمهد إليه ن تأديب المأمون فمات إلى أيام خلافته ، توفى سنة ٢٠٢ هـ . (٢) الخلة : الحاجة والفقر .

فقرأها المأمون على مَنْ حَضَرَهُ ؛ فقالوا : ما ينبغي أن يدخل هذا الطفيل على
مثل هذه الحالة ؛ فأرسل إليه المأمونُ : دخولك في هذا الوقت متعذر ، فاختر
نفسك من أحببت تناديه .

فقال : ما أرى اختياراً غير عبد الله بن طاهر ، فقال له المأمون : قد وقع
اختياره عليك ؛ فسير إليه . قال : يا أمير المؤمنين ؛ فما أكون شريك الطفيل !
قال : ما يمكن ردّ أبي محمد عن أمرين ، فإن أحببت أن تخرج وإلا فانتد
نفسك !

فقال : يا أمير المؤمنين ؛ له على عشرة آلاف درهم ! قال : لا أحسب ذلك
يقنّعه منك ومن مجالستك ؛ قال : فلم يزل يزيده عشرة عشرة ، والمأمون يقول له :
لا أرضى له بذلك ، حتى بلغ مائة ألف ، فقال له المأمون : فمَجِّلها له ؛ فكتب له
بها إلى وكيله ، ووجه معه رسولا ، فأرسل إليه المأمون : قبض هذه في مثل هذه
الحال أصلح لك من منادمته على مثل حاله ، وأنفع عاقبة .

١٤٤ — أترى الله يُعطيك وينسانى؟*

خرج الرشيد إلى الحج فلما كان بظاهر الكوفة إذ أبصر بهلولاً^(١) المجنون على قصبة ، وخلفه الصبيان وهو يعدو ، فقال : مَنْ هذا ؟ فقيل له : بهلول المجنون ، فقال : كنت أشتهى أن أراه ، فادعوه من غير تزويج فذهبوا إليه وقالوا : أجب أمير المؤمنين ؛ فلم يجب ، فذهب إليه الرشيد ، وقال : السلام عليك يا بهلول ، فقال : عليك السلام يا أمير المؤمنين ، فقال : دعوتك لاشتياقي إليك ، فقال بهلول : لكنت لم أشتق إليك ! فقال الرشيد : عظمي يا بهلول ، فقال . وسم أعظك ؟ هذى قصورهم وهذى قبورهم ! فقال الرشيد : زدني فقد أحسنت ! فقال يا أمير المؤمنين : من رزقه الله مالاً وجالاً ، ففعل في جماله ، ووامى في ماله كتب في ديوان الأبرار ، فظن الرشيد أنه يريد شيئاً ؛ فقال : قد أمرنا لك أن تقضى دينك ، فقال : لا ، يا أمير المؤمنين ، لا يقضى الدين بدين ، ازدد الحق على أهله ، واقض دين نفسك من نفسك ، قال : فإننا قد أمرنا أن نجري عليك . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أترى الله يُعطيك وينسانى ! ثم ولى هارباً .

* عقلاء المجانين : ٦٩

(١) هو بهلول بن عمرو ، كان من عقلاء المجانين ، ولد ونشأ بالكوفة واستقدمه الرشيد وغيره من الخلفاء لسماع كلامه ، وله كلام مليح ، ونوادير وأشعار ، توفي سنة ١٩٠ .

١٤٥ — طُفَيْلِي فِي حَضْرَةِ الْمَأْمُونِ *

أمر المأمون أن يُحمل إليه عشرة من الزنادقة مُثَمِّلًا من أهل البصرة، فجمعوا فأبصرهم طُفَيْلِي، فقال: ما اجتمعوا إلا لِصَنِيعٍ، فدخل في وسطهم، ومضى بهم الموكلون، حتى انتهوا إلى زورقٍ قد أُعِدَّ لهم، قال الطُفَيْلِي: هي نزهةٌ، فدخل معهم الزورق، فلم يكن بأسرع من أن يقيدوا، وقيد معهم الطُفَيْلِي.

ثم سِيرَ بهم إلى بغداد، فأدخلوا على المأمون، فجعل يدعوهم بأسمائهم رجالاً رجلاً؛ ويأمر بضرب أعناقهم، حتى وصل إلى الطُفَيْلِي، وقد استوفى العدة، فقال للموكلين: ما هذا؟ قالوا: والله ما تدري، غير أننا وجدناه مع القوم، فحُتْنَا به فقال له المأمون: ما قِصَّتُكَ ويليكَ؟ فقال: يا أمير المؤمنين، لا أعرفُ من أقاويلهم شيئاً، وإنما أنا رجلٌ طُفَيْلِي، رأيْتُهم مجتمعين، فظننتُ صَنِيعًا يُدْعَوْنَ إليه. فضحك المأمون، وقال: يؤذِب!

وكان إبراهيم بن المهدي قائماً على رأس المأمون، فقال: يا أمير المؤمنين، هب لي أدبته، وأحدِثْكَ بحديثٍ عجيب عن نفسي، قال: قل يا إبراهيم. قال: يا أمير المؤمنين، خرجتُ من عندك يوماً؛ فطُفْتُ في سِكَكِ بغداد متطرقاً، حتى انتهيت إلى موضع كذا، فشمت من قُتَارِ^(١) أبا زير قدور.

* المقد الفريد: ٤ - ٢٣٧، نهاية الأرب: ٣ - ٣٣٢.

(١) القُتَار: ريح القدر والشواء، والأبازير: التوابل.

قد فاح ؛ فتأقت نفسي إليها ، وإلى طيب ريحها ، فوقفتُ إلى خياط ، فقلت له :
لِمَنْ هذه الدار ؟ فقال : لرجل من التجار . قلت : ما اسمه ؟ قال : فلان ابن فلان ،
فرميتُ بطرفي إلى الدار ؛ فإذا شباك به جارية ذات منظر حسن ، فبهت ساعةً
ثم أذكرني ذهني ، فقلت للخياط : أهو من يشرب النبيذ ؟ قال : نعم ، وأحسب
أنَّ عنده اليوم دعوة ، وهو لا يُنَادِم إلا تجَّاراً مثله مستورين .

فإني لكذلك ، إذ أقبل رجلان نبيلان راكبان من رأس الدرب ، فقال لـ
الخياط : هؤلاء مُنادمَاه ، فقلت : ما اسماهما وما كُناها ؟ فقال : فلان وفلان ،
غرة كُت دابَّتِي وداخِلتهما ، وقلت : جُعِلتُ فِدَاكُمَا ، قد استَبَطَا كَمَا أَبُو فلان ،
وسايرتهما حتى بلغنا الباب ، فأجلائي وقَدَماني ؛ فدخلتُ ودخلا .

فلما رآني صاحب المنزل معهما لم يشكَّ أُنَى منهما ؛ فَرَحَّبَ بي وأجلسني في
أفضلِ المواضع ، فجِئْتُ يا أمير المؤمنين بمائدةٍ عليها خبزٌ نظيف ، وأُتينا بتلك
الألوان ، فكان طعمها أطيَّبَ من ريحها ، ثم رُفِعَ الطعام ، وجِئْتُ بالوضوء ، ثم
صِرْنَا إلى مجلسِ المَنادمة ، وجعل صاحب المنزل يلطفُ بي ؛ ويميلُ على الحديث ؛
حتى إذا ثمرِنا أَقْداحاً خرجتُ علينا جاريةٌ ، كأنها بَذَرُ فأقبلتُ ؛ وسلَّمتُ
غير خَجَلَةٍ ، وثنيتُ لها وسادةً ، فجلستُ عليها ؛ وأُتِيَ بالعودِ فَوَضِعَ في حِجْرِها ؛
فجَسَّتْهُ فَاسْتَبَنَتْ حِذْقَهَا في جَسِّها ، ثم اندفعتُ نُفْثِي :

تَوَهَّمَا طَرَفِي فَأَصْبَحَ خَدُّهَا وفيه مكانُ الوَهم من نظري أثَرُ
نَصَافِحُهَا كَفِّي فَبَتُّ لَمْ كَفَّهَا فَمِنْ مَسِّ كَفِّي في أَنَامِلِهَا عَقْرُ^(١)

فهيجت يا أمير المؤمنين بلأبلى ، وطربت لحسن شعرها ، ثم اندفعت
نفسى :

أشرت إليها هل عرفت مودتى ؟ فردت بطرف العين : إني على العهد
فحدثت عن الإظهار عمدا لسرّها وحادثت عن الإظهار أيضا على عمد

فصحت يا أمير المؤمنين ، وجاءنى من الطرب ما لم أملك نفسى معه ، ثم
اندفعت فغنت الصوت الثالث :

أليس عجيباً أن بيتاً يضمّنى وإياك لا نخلو ولا نتكلّم !
سوى أعين تشكو الهوى بجفونها وتقطع أكباد على النار تضرّم
إشارة أفواه وغمز حواجب وتكسر أجفان وكفّ نسّم

فحدثها والله يا أمير المؤمنين على حديثها ومعرفتها بالفناء ، وإصابتها لمعنى
الشعر ، فقلت : بقى عليك يا جارية ، فضربت بالعود على الأرض ، وقالت : متى
كنتم تحضرون مجالسكم البغضاء ؟ فندمت على ما كان منى ، ورأيت القوم قد
تغيروا لى ، فقلت : أما عندكم عود غير هذا ؟ قالوا : بلى ، فأنيت بعود فأصلحت
من شأنه ثم غنيت :

ما للمنازل لا يجبن حزيناً أصمّن أم قدّم إلى قبيلنا ؟
راحوا العشية روحة منكورة إن متن متنا أو حين حيينا

فما استتممتها يا أمير المؤمنين حتى قامت الجارية ، فأكبّت على رجلها تقبّأها ،
وقالت : معذرة يا سيدى ، فوالله ما سمعت أحداً يغنى هذا الصوت غناءك ، وفعل

مولاهما وأهل المجلس كفعلها ، وطرب القوم واستحثوا الشرب فشرَبوا ، ثم اندفعتُ أغنى :

أفِي الحقِّ أَنْ تَمْشَى وَلَا تَذْكُرْتَنِي وَقَدْ هَمَمْتُ غِنَايَ مِنْ ذِكْرِهَا الدَّيْمَا
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو بُخْلَهَا وَسَمَاحَتِي لَهَا عَسَلٌ مِنِّي وَتَبَذَلُ عَلَقْمَا
فَرُدِّي مَصَابَ الْقَلْبِ أَنْتِ قَتَلْتِهِ وَلَا تَتْرِكِي ذَاهِلَ الْعَقْلِ مُغْرَمَا

فطرب القومُ حتى خَرَجُوا مِنْ عَقُولِهِمْ ، فَأَمَسَكْتُ عَنْهُمْ سَاعَةً حَتَّى تَرَا جَعُوا ،
ثم غنيت الثالث :

هَذَا مُحِبُّكَ مَطْوِيًّا عَلَى كَمْدِهِ عَبْرِي مَدَامُهُ تَجْرِي عَلَى جَسَدِهِ
لَهُ يَدٌ تَسْأَلُ الرَّحْمَنَ رَاحَتَهُ مِمَّا بِهِ وَيَدٌ أُخْرَى عَلَى كَبِدِهِ

فجعلت الجاريةُ تصيحُ : هَذَا الْفَنَاءُ وَاللَّهُ يَا سِيدِي ، لَا مَا كُنَّا فِيهِ مِنْذُ الْيَوْمِ .
وَقَالَ صَاحِبُ الْمَنْزِلِ : يَا سِيدِي ؛ ذَهَبَ مَاضِي مِنْ أَيَّامِي ضَيَاعًا ، إِذْ كُنْتُ لَا أَعْرِفُكَ ،
فَمَنْ أَنْتِ ؟ وَلَمْ يَزَلْ يُبْلِغُ عَلَيَّ حَتَّى أَخْبَرْتَهُ الْخَبَرَ ، فَقَامَ وَقَبَّلَ رَأْسِي ، وَقَالَ : وَأَنَا
أَعْجَبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْأَدَبُ إِلَّا لِلْمَلِكِ ! وَإِنِّي جَالِسٌ مَعَ الْخَلِيفَةِ وَلَا أَشْعُرُ ، ثُمَّ
سَأَلَنِي عَنْ قِصَّتِي ، فَأَخْبَرْتَهُ حَتَّى بَلَغْتُ إِلَى تِلْكَ الْجَارِيَةِ الَّتِي رَأَيْتَهَا ، فَقَالَ لِلْجَارِيَةِ :
قَوْمِي فَقُولِي لِفُلَانَةٍ : تَنْزِلُ ، فَلَمْ تَنْزِلْ تَنْزِلُ جَوَارِيَهُ وَاحِدَةً وَاحِدَةً ، فَأَنْظُرِي إِلَى كِفِّهَا
وَمَعْصَمِهَا ، وَأَقُولُ : لَيْسَتْ هَذِهِ ! حَتَّى قَالَ : وَاللَّهِ مَا بَقِيَ غَيْرَ أُخْتِي وَأُمِّي ، وَاللَّهِ
لَا تَزَلْنِيهِمَا ؛ فَعَجِبْتُ مِنْ سَعَةِ صَدْرِهِ ، فَقُلْتُ : جُعِلْتُ فُداكَ ! ابْدَأْ بِالْأَخْتِ قَبْلَ
الْأُمِّ ، فَعَسَى أَنْ تَكُونَ هِيَ .

فبرزت ، فلما رأيت كَفَّهَا وَمِعَصَّمَهَا ، قلت : هذه هي ! فأمر غلمانَه ، فساروا إلى عشرة مشايخ من جَلَّةِ جيرانه ؛ فأقبل بهم ، وأمر ببذرتين فيهما عشرون ألف درهم ؛ ثم قال للمشايخ : هذه أُختي فلانة ، أشهدكم أني قد زوجتُها من سيدي إبراهيم ابن المهدي ؛ وأمهرتُها عنه عشرين ألف درهم ، فرضيت وقبلت الزواج ، فدفع إليها بذرة ، وفرَّق الأخرى على المشايخ وصرفهم ، ثم قال : يا سيدي ، أُمهدُّ بعض البيوت ! فأخسمني ما رأيت من كرمه ، فقلت : أخضرُ عمارية^(١) وأحملها إلى منزلي . فوالله يا أمير المؤمنين لقد أتبعها من الجهاز ما ضاقت عنه بيوتنا ، فأولدتُها هذا القائم على رأس أمير المؤمنين - يشير إلى ولده .

فمجب المأمون من كرم الرجل ، وألحقه في خاصة أهله ، وأطلق الطفلي ، وأجازَه .

(١) المبارية : هودج يجلس فيه .

١٤٦ — أَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِكَ *

تنبأ رجلٌ في أيام المأمون ، وادّعى أنه إبراهيم الخليل ، فقال له المأمون :
إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين . قال : وما براهينه ؟ قال : أضربتُ
له ناراً ، وألقى فيها ؛ فصارت عليه برداً وسلاماً ، ونحن نُوقِدُ لك ناراً ، ونطرحُك
فيها ، فإن كانت عليك كما كانت عليه آمناً بك . قال : أريدُ واحدة أخفَ من
هذه ! قال : فبراهين موسى ! قال : وما براهينه ؟ قال : ألقى عصاه فإذا هي حية
تسعى ! وضربَ البحرُ بها فانفلق ! وأدخلَ يده في جيبه فأخرجها بيضاء ، قال :
وهذه على أصعب من الأولى ! قال : فبراهين عيسى ، قال : وما هي ؟ قال :
إحياء الموتى ؟ قال : مكانك قد وصلت ! أنا أضربُ رقبة القاضي يحيى بن أكثم ،
وأحييه لكم الساعة !

فقال يحيى : أنا أول من آمن بك وصدق !

١٤٧ — أبو دُلف وجُمُيفِرَانِ المَوْسُوسِ *

قال علي بن يوسف : كنتُ عند أبي دُلفِ ^(١) القاسم بن عيسى العجليّ ،
فاستأذنَ عليه حاجبُهُ لجُمُيفِرَانِ ^(٢) المَوْسُوسِ ، فقال له : أى شيء أصنع بمَوْسُوسٍ ؟
قد قضينا حقوقَ العقلاء ، وبقى علينا حقوقُ المجانين ! فقلتُ له : جُعِلَتْ فداءُ
الأمير ، مَوْسُوسٍ أفضلُ من كثيرٍ من العقلاء ، وإن له لساناً يُتَقَى ، وقولاً ماثوراً
يَبْقَى . فاللهُ اللهُ أن تَحْجِبَهُ ! فليس عليك منه أذى ولا ثقل ؟ فأذنَ له . فلما
مَثَلَ بين يديه قال :

يا أَكْرَمَ العَالَمِ مَوْجُوداً	ويا أَعَزَّ النَّاسِ مَفْقُوداً
لَمَّا سَأَلْتُ النَّاسَ عَنْ وَاحِدٍ	أَصْبَحَ فِي الْأُمَّةِ مَحْمُوداً
قَالُوا جَمِيعاً : إِنَّهُ قَاسِمٌ	أَشْبَهَ آبَاءَ لَهُ صِيْدَا ^(٣)
لَوْ عَبَدُوا شَيْئاً سِوَى رَبِّهِمْ	أَصْبَحَتْ فِي الْأُمَّةِ مَعْبُوداً
لَا زِلْتَ فِي نَعْمَى وَفِي غِبْطَةٍ	مُكْرَماً فِي النَّاسِ مَعْدُوداً

فأمر له بِكِسْوَةٍ وبألف درهم فلما جِيءَ بالدرهم أخذ منها عشرة وقال : تأمر
القَهْرَمَانَ ^(٤) أن يُعْطِيَنِ الباقي مُفَرَّقاً كُلِّمَا جِثْتُ ؛ لثلاث تَضِيعَ مِنِّي ، فقال للقَهْرَمَانِ :

* الأغاني : ٨ - ٦٤

(١) أبو دلف : هو أحد قواد المأمون ثم المعتصم من بعده ، كان كريماً سرياً جواداً ممدحاً
شجاعاً . مقدماً ذا وقائع مشهورة ، وصنائع ماثورة ، وله مشاركة في الفناء ، توفي سنة ٢٢٦ هـ .
(٢) ولد جُمُيفِرَانِ بَغْدَادَ ونشأ بها ، ثم سكن سر من رأى ، وكان أديباً شاعراً مطبوعاً ، وغلبت
عليه المرة السوداء فاختلط في أوقاته ، ثم كان إذا أفاق تاب إليه عقله وطبعه فقال الشعر الجيد .
(٣) الأصبغ : الملك ، ورافع رأسه كبيراً (٤) القهرمان : هو السيطر الحفيظ على ما تحت
يده ، وهو من أمناء الملك وخاصته .

أعطيه المال ، وكلما جاءك فأعطه ما شاء حتى يفرق الموت بيننا ، فبكى عند ذلك جُميفران وتنفس الصعداء وقال :

يَمُوتُ هَذَا الَّذِي أَرَاهُ وَكُلُّ شَيْءٍ لَهُ نَفَادٌ
لَوْ غَيْرُ ذِي الْعَرْشِ دَامَ شَيْءٌ لِدَامِ ذَا الْمُنْفِضِ الْجَوَادُ
ثم خرج . فقال أبودلف : أنت كنت أعلم به مني .

قال : وَغَيْرَ ^(١) عَنَى مَدَّةً ثُمَّ لَقِينِي ، وَقَالَ : يَا أَبَا الْحَسَنِ ؛ مَا فَعَلَ أَمِيرُنَا وَسِيدُنَا ؟ وَكَيْفَ حَالُهُ ؟ فَقُلْتُ : بِخَيْرٍ وَعَلَى غَايَةِ الشُّوقِ إِلَيْكَ . فَقَالَ : أَنَا وَاللَّهِ يَا أَخِي أَشَوْقٌ . وَلَكِنِّي أَعْرِفُ أَهْلَ الْعَسْكَرِ وَشَرَّهُمْ وَالْحَاحِمِ ؛ وَاللَّهِ مَا أَرَامُ يَتْرَكُونَهُ مِنَ الْمَسْأَلَةِ وَلَا يَتْرَكُهُ كَرَمُهُ أَنْ يُخْلِلِيهِمْ مِنَ الْعَطِيَّةِ حَتَّى يُخْرِجَ فَقِيرًا . فَقُلْتُ : دَعِ هَذَا عَنْكَ وَزُرْهُ ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ السُّؤَالِ لَا تَضُرُّ بِمَالِهِ . فَقَالَ : وَكَيْفَ ؟ أَهَوُ أَيْسَرُ مِنَ الْخَلِيفَةِ ؟ قُلْتُ : لَا . قَالَ : وَاللَّهِ لَوْ تَبَدَّلَ ^(٢) لَمْ الْخَلِيفَةُ كَمَا يَتَبَدَّلُ أَبودلف وَأُطْعِمُهُمْ فِي مَا كَانُوا يَطْعِمُهُمْ لِأَفْقَرِهِمْ فِي يَوْمَيْنِ ، وَلَكِنْ اسْمَعْ مَا قُلْتُهُ فِي وَقْتِي هَذَا . فَقُلْتُ : هَاتِهِ يَا أَبَا الْفَضْلِ ! فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

أَبَا حَسَنِ بَلَقَنْ قَاسِمًا بَأْنِي لَمْ أَجْهَ عَنْ قِلَا ^(٣)
وَلَا عَنْ مَلَالٍ لِإِنِّيَانِهِ وَلَا عَنْ صُدُودٍ وَلَا عَنَّا
وَلَكِنْ نَفَقْتُ عَنْ مَالِهِ وَأَصْفَيْتُهُ ^(٤) مِدْحَتِي وَالثَّنَا
أَبودلف سِيدٌ مَاجِدٌ سَنِي الْعَطِيَّةِ رَحْبُ الْفِنَا

(١) غبر : مكث وذهب ضد (٢) الابتذال : ضد الصيانة (٣) القلا : البفض .
(٤) أصفيته مدحتي : أخلصتها له .

كريم إذا أُنْتَابَهُ الْمُعْتَقُونَ نِعْمَتُهُمْ بِمُزِيلِ الْحَبَا (١)
 قال : فأبلغتها أبا دلف ، وحدثته بالحديث الذي جرى . فقال لي : قد لقيته
 منذ أيام ، فلما رأيته وقفت له وسلمت عليه وتحفّيت (٢) به ؛ فقال لي : سِرْ أيتها
 الأمير على بركة الله ، ثم قال لي :

يا معدي الجود على الأموال ويا كريم النفس في الفعالِ
 قد صُنِّتَنِي عَنْ ذِلَّةِ السُّؤَالِ بمجودِكَ الْمُؤَفِّي عَلَى الْأَمَالِ
 صَانِكَ ذُو الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ مِنْ غَيْرِ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي
 قال : ولم يزل يختلفُ إلى أبي دلف ويَبْرَهُ حتى افترقا .

(١) الحباء : الطاء (٢) تحفى به : بالغ في إكرامه .

١٤٨ — رميت به في بطنك *

قال دِغْبِيلُ ^(١) : أقمنا يوماً عند سهل بن هارون ، فأطلنا الحديث حتى اضطرَّه
الجوعُ إلى أن دعا بقَدَّائه ، فَأَتَى بِصَفْحَةٍ عُدْ مُلَيَّةٍ ^(٢) ، فيها مَرَقُ اللحمِ ديكِ عَاسٍ ^(٣)
هرم ، ليس قبلها ولا بعدها غيرها ، لا تَحْمُزُ ^(٤) فيه السكين ، ولا تُؤَثِّرُ فيه الأضراس .
فأطلع في القَصْعَةِ ، وقلب بصره فيها ؛ فأخذ قطعة خُبْزٍ يابس ؛ فقلب بها
جميعَ ما في الصَّفْحَةِ ففقدَ الرأس ؛ فبقى مُطَرِقاً ساعة ، ثم رفع رأسه إلى الغلام ،
وقال : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به ، قال : ولم ؟ قال : ما ظننتُ أنك تأكله ،
ولا نسألُ عنه ! قال : ولأى شيء ظننتَ ذلك ؟ فوالله إني لأمقتُ من يرمى برجله ؛
فكيف من يرمى برأسه !

والرأس رئيس ، وفيه الحواسُ الخمس ، ومنه يصيحُ الديك ، ولولا صوته
ما أريدَ ، وفيه عُرْفُهُ الذي يُتَبَرَّكُ به ، وفيه عينُهُ التي يُضْرَبُ بها المثل ؛ فيقال :
« شرابُ كَعْبَيْنِ الدَّيْكَ » ، ودماغه عَجَبٌ لوجعِ الكَلْبَةِ ، ولن ترى عظماً قط
أهشَّ من عظم رأسه ؛ فإن كان من نُبُلٍ أنك لا تأكله فإن عندنا من يأكله !
أو ما علمت أنه خيرٌ من طَرَفِ الجفاح ومن الساقِ والعُنُقِ !

انظر أين هو ! قال : والله ما أدري أين هو ، رميتُ به ؛ قال : لكني أدري
أنك رميتَ به في بطنك ، والله حسبك !

* عيون الأخبار : ٣ - ٢٥٩

(١) كان شاعراً مجيداً ، إلا أنه كان بنىء اللسان أولع بالهجو والخط من أقدار الناس ، كان
بينه وبين الكميث بن زيد وأبي سعد الخزومي مناقضات ، ومات سنة ٢٤٦ هـ (٢) عدمية :
قديمة (٣) العاسي : الذي أسن حتى جف وصلب (٤) لا تحمز : لا تقطع .

١٤٩ — لو عَلِمْتُ بِحَالِهِ لَوَلَّجْتُ عَلَيْهِ *

قال بشر بن سعيد : كان بالبصرة شيخٌ من بني نهشل نزل بيني أخت له في سكة بني مازن ، فخرج رجالهم إلى ضياعهم ، وذلك في شهر رمضان ، وبقيت النساء يصلين في المسجد ، فلم يبق في الدار إلا كلب يعس^(١) ، فرأى بيتاً فدخل وانصق^(٢) الباب ، فسمع الحركة بعض الإماماء ، فظنوا أن لصاً دخل الدار .

فذهبت إحداهن إلى الشيخ ، وليس في الحى رجلٌ غيره ، أخبرته فقال : ما يبتغي اللص منا ؟ ثم أخذ عصاه وجاء حتى وقف على باب البيت فقال : إنه ياملاًمان^(٣) ! أما والله إنك بي لعارف ، وإني بك أيضاً لعارف ، فهل أنت إلا من لصوص بني مازن ، شربت حامضاً خبيثاً ، حتى إذا دارت الأقداح في رأسك مننتك نفسك الأماني ، وقلت : أطرق بني عمرو ، والرجالُ خلوفاً ، والنساء يصلين في مسجدهن ، فأسرقهن ، سوءة لك ! والله ما يفعل هذا الأحرار ! ليس والله ما مننتك نفسك ، فاخرج وإلا دخلتُ عليك فصدمتك منى العقوبة ، وإيم الله لتخرجن أو لأهتفن هتفةً مشنومة يلتقي فيها الحيان : عمرو وحنظلة ، ويحيى سعدٌ بعدد الحصى ، ويسيل عليك الرجال من هاهنا ومن هاهنا ، ولئن فعلت لتكونن أشأم مولود .

* عيون الأخبار : ١ - ١٦٧ ، الحيوانات : ٢ - ٨٤

(١) كلب عسوس : طلوب لما يأكل (٢) انصق : أغلق (٣) اللامان اللثيم .

فلسأرى أنه لا يحميه أخذه بالين ، وقال : اخرج أبى وأمى ! إني والله ما أراك تعرفنى ، ولو عرفتنى لقنعت بقولى واطمأنتت إلى ! أنا عروة بن سرمد ؛ أبو الأعز ، وأنا خال القوم ، وجدة ما بين أعينهم ، لا يعصوننى فى أمر ، وأنا لك بالذمة ^(١) كفيل خفير ، أصبرك بين شحمة أذنى وعاتقى ، لا تضار ؛ فأخرج فأتت فى ذمتى ، وإلا فإن عندى قوصرتين أهداهما إلى ابن أختى البارء الوصول ، فخذ إحداها فاتبذها حللاً من الله تعالى ورسوله !

وكان الكلب إذا سمع الكلام أطرق ، وإذا سكت وثب يريد الخروج ؛ فتصاحك أبو الأعز ، ثم قال : يا ألام الناس وأوأمهم ؛ لا أرى إلا أنى الليلة فى وادٍ وأنت فى آخر ، إذا قلت لك : السوداء والبيضاء تسكت وتطرق ، فإذا سكت عنك تريد الخروج ، والله لتخرجن بالعمو عنك ، أو لألجن ^(٢) عليك البيت بالمقوبة ؛ فلما طال وقوفه جاءت جارية من إماء الحى ، فقالت : أغرابى مجنون والله ! ما أرى فى البيت شيئاً ، ودفعت الباب فخرج الكلب شداً ، وحاد عنه أبو الأعز ، ساقطاً على قفاه ! ثم قال : أما والله ، بحاله لو لجأت عليه !

١٥٠ — وعلى أيضا *

قال أبو الحسن : كان عندنا بالمدينة رجلٌ قد كثر عليه الدين حتى تَوَارَى من غُرْمَانِهِ ، وَلَزِمَ مَنْزِلَهُ ، فَأَتَاهُ غَرِيمٌ لَهُ عَلَيْهِ شَيْءٌ بِسِيرٍ فَتَلَطَّفَ حَتَّى وَصَلَ إِلَيْهِ ، فَقَالَ لَهُ : مَا تَجْعَلُ لِي إِنْ أَنَا دَلَلْتُكَ عَلَى حِيلَةٍ تُصِيرُ بِهَا إِلَى الظُّهُورِ وَالسَّلَامَةِ مِنْ غُرْمَانِكَ ؟ قَالَ : أَفْضِيكَ حَقِّكَ وَأَزِيدُكَ مِمَّا عِنْدِي مِمَّا تَقَرَّبَ بِهِ عَيْنُكَ . فَتَوَثَّقَ مِنْهُ بِالْإِيمَانِ ، فَقَالَ لَهُ : غَدًا قَبْلَ الصَّلَاةِ مُرْ خَادِمَكَ يَكْنُسُ بِأَبْكَ وَفَنَاءَكَ ، وَيُرْشُ وَيَسْطُ عَلَى دَكَانِكَ حُصْرًا ، وَيَضَعُ لَكَ مَتَسَكًا ، ثُمَّ اجْلِسْ وَكُلْ مِنْ يَمْرِئِكَ عَلَيْكَ وَيَسْلَمْ تَنْبَحَ لَهُ فِي وَجْهِهِ ، وَلَا تَزِيدَنَّ عَلَى النَّبَاحِ أَحَدًا كَانَتْكَ مِنْ كَانَ ، وَلَوْ كَلِمَكَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِكَ أَوْ خَدَمِكَ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ أَوْ غَرِيمٍ أَوْ غَيْرِهِ ، حَتَّى تُصِيرَ إِلَى الْوَالِي ، فَإِذَا كَلِمَكَ فَانْبَحْ لَهُ ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ تَزِيدَهُ أَوْ غَيْرَهُ عَلَى النَّبَاحِ ، فَإِنَّ الْوَالِي إِذَا أُيْقِنَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْكَ جَدًّا لَمْ يَشْكُ أَنَّهُ قَدْ عَرَضَ لَكَ عَارِضٌ مِنْ مَسٍّ فَيُخْلِي عَنْكَ .

فَفَعَلَ ، فَرَّ بِهِ بَعْضُ جِيرَانِهِ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ ؛ فَتَبَحَ فِي وَجْهِهِ ؛ ثُمَّ مَرَّ آخِرُ فَعَلٍ مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى تَسَامَعَ غُرْمَاؤُهُ ؛ فَأَتَاهُ بَعْضُهُمْ فَسَلَّمَ عَلَيْهِ فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى النَّبَاحِ ، ثُمَّ آخِرُ وَآخِرُ ؛ فَتَعَلَّقُوا بِهِ فَرَفَعُوهُ إِلَى الْوَالِي : فَسَأَلَهُ الْوَالِي فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى النَّبَاحِ ، فَرَفَعَهُ مَعَهُمْ إِلَى الْقَاضِي فَلَمْ يَزِدْهُ عَلَى ذَلِكَ ؛ فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ أَيَّامًا ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ الْعِيُونَ . فَلَمَّا نَفَسَهُ ، وَجَعَلَ لَا يَنْطِقُ بِحَرْفٍ سِوَى النَّبَاحِ .

فلما رأى القاضى ذلك أمر بإخراجه ، ووضع عليه العيونَ فى منزله ، وجعل لا ينطقُ بحرفٍ إلا النباح ، فلما تقرر ذلك عند القاضى أمر غرماءه بالكف عنه ، وقال : هذا رجل به لَمَ ؛ فكث ما شاء الله تعالى .

ثم إن غريمه الذى كان علمه الحيلةَ أتاه متقاضياً لعدته ، فلما كلفه جعل لا يزيدُه على النباح ! فقال له : ويلك يا فلان ! وعلى أيضاً . وأنا علمتك هذه الحيلة ، فجعل لا يزيدُه على النباح ؛ فلما ينس منه انصرف غير آمل فيما يطالبه به .

١٥١ - كَذِبٌ بِكَذِبٍ*

قال الجاحظ ^(١) : حدثني محمد بن يسير ^(٢) عن والي كان بفارس قال : بينا هو يوماً في مجلس ، وهو مشغول بحسابه وأمره ، وقد احتجب جُهدَه ^(٣) ، إذ نجم ^(٤) شاعر من بين يديه ، فأنشده شعراً مدحه فيه وقرظه ^(٥) ومجده . فلما فرغ قال : قد أحسنت ثم أقبل على كاتبه فقال : أعطه عشرة آلاف درهم ؛ ففرح الشاعر فرحاً قد يُستطار ^(٦) له ..

فلما رأى حاله قال : وإني لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع . اجعلها عشرين ألف درهم . وكاد الشاعر يخرج من جلده ! فلما رأى فرحه قد تضاعف قال : وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ! أعطه يا فلان أربعين ألفاً . فكاد الفرح يقتله . فلما رجعت إليه نفسه قال له : أنت - جملت فذاك - رجل كريم ، وأنا أعلم أنك كلما رأيتني قد ازددت فرحاً زدتنني في الجائزة . وقبول هذا منك لا يكون إلا من قلة الشكر له ! ثم دعا له وخرج .

قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهماً ، تأمر له بأربعين ألف درهم ! قال : ويلك ! وتريد أن تعطيه شيئاً ؟ قال :

* البخلاء : ١ - ٥٩ (طبعة دار الكتب) .

(١) عمرو بن بحر ، ولد بالبصرة ، كتب شهر من أن تحصى ، توفي سنة ٢٥٥ هـ . (٢) شاعر بصرى . (٣) أى احتجب عن الناس ما أمكنه الاحتجاب . (٤) نجم : ظهر . (٥) قرظه : مدحه . (٦) يستطار له : يذعر منه .

ومِنْ إِنْغَازِ أَمْرِكَ بَدَ ؟ قَالَ : يَا أَحَقُّ ؛ إِنَّمَا هَذَا رَجُلٌ سَرَّنا بِكَلَامٍ وَسَرَّناهُ
بِكَلَامٍ ؛ هُوَ حِينَ زَعَمَ أَنِّي أَحْسَنُ مِنَ الْقَمَرِ ، وَأَشَدُّ مِنَ الْأَسَدِ ، وَأَن لِّسَانِي أَقْطَعُ
مِنَ السِّيفِ ، وَأَن أَمْرِي أَنْفَذُ مِنَ السَّيِّئَانِ ، جَعَلَ فِي يَدِي مِنْ هَذَا شَيْئًا أَرْجِعُ بِهِ
إِلَى شَيْءٍ ؟ أَلَسْنَا نَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ كَذَبَ ؟ وَلَكِنَّهُ قَدْ سَرَّنا حِينَ كَذَبَ لَنَا . فَنَحْنُ
أَيْضًا نَسَرَّهُ بِالْقَوْلِ ، وَنَأْمُرُ لَهُ بِالْجَوَائِزِ ، وَإِنْ كَانَ كَذِبًا ؛ فَيَكُونُ كَذِبٌ بِكَذِبٍ ،
وَقَوْلٌ بِقَوْلٍ . فَأَمَّا أَنْ يَكُونَ كَذِبٌ بِصَدَقٍ ، وَقَوْلٌ بِفَعْلٍ ، فَهَذَا هُوَ
الْخُسْرَانُ الَّذِي مَا سَمِعْتَ بِهِ !

١٥٢ — ذهب الحمارُ بأُمِّ عمرو *

قال الجاحظ : دخلت يوماً مدينةً ، فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة ، فسلمتُ عليه ، فردَّ عليَّ أحسنَ ردِّ ، ورَّحِبَ بي ؛ فجلستُ عنده ، وباحثتهُ في القرآن ؛ فإذا هو ماهرٌ فيه ، ثم تَفَاتَحْنَا الفقه والنحو وأشعار العرب ؛ فإذا هو كامل الآداب ؛ فقلت : سأختلفُ إليه وأزوره .

وجئت يوماً لزيارته ، فإذا بالسُّكَّابُ ^(١) مُغْلَقٌ ، ولم أجده ؛ فسألتُ عنه ، فقيل : مات له ميتٌ ؛ فخرن عليه ، وجلس في بيته للعزاء .

فذهبتُ إلى بيته ، وطرقتُ الباب ، فخرجتُ إلى جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيِّدُكَ . فدخلتُ وخرجتُ ، وقالت : باسمِ الله ؛ فدخلتُ إليه ، وإذا به جالس . فقلت : عَظَّمَ اللهُ أجرك ؛ لقد كان لكم في رسولِ الله أسوةٌ حسنة . كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموت ؛ فعليك بالصبر .

ثم قلتُ له : هذا الذي تُوفِّي ولدك ؟ قال : لا . قلت : فوالدك ؟ قال : لا . قلت : فأخوك ؟ قال : لا . قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت : فمن هو ؟ قال . حبيبتِي . فقلت في نفسي : هذه أولى العجائب . فقلت : سبحان الله ! النساءُ كثيرٌ ، وستجد غيرها . فقال : أنظن أني رأيتها ؟ قلت : وهذه الثانية .

* المستطرف : ١ - ٢٤٢ .

(١) المكتب والكتاب : موضع التعليم .

ثم قلت : وكيف عشقتَ من لم تر؟ فقال : اعلم أنى كنت جالساً في هذا المكان ، وأنا أنظر من الطاق^(١) ، إذ رأيت رجلاً عليه بُرْد ، وهو يقول :
يا أمَّ عمرو جزاك الله مكرمةً رُدِّى عَلَى فَوَادى أَيْنما كانَا
فقلت في نفسى : لولا أن أمَّ عمرو هذه ما فى الدنيا أحسنُ منها ما قيل فيها هذا
الشعر ؛ فعشيتها .

فلما كان منذ يومين مرَّ ذلك الرجل بعينه وهو يقول :
لقد ذهب الحمارُ بأمِّ عمرو فلا رجعتُ ولا رَجَعَ الحمارُ
فعلت أنها ماتت ، فحزنت عليها ، وأغلقتُ المكتب ، وجلست في الدار !
فقلت : يا هذا ؛ إني كنت قد ألقت كتاباً فى نوادركم معشر المعلمين ،
وكنت حين صاحبُك عزمت على تقطيعه ، والآن قد قويتَ عزمى على إبقائه ،
وأول ما أبدأ بك إن شاء الله .

(١) الطاق : ما عقد من الأبنية :

١٥٣ — أعجب ما رأيت من المجانين *

حدث المبرد ^(١) قال : قال لى المازنى : بلغنى أنك تنصرف من مجلسنا إلى مواضع المجانين والمعالجين ^(٢) فما معنى ذلك ؟ فقلت : أعزك الله تعالى ؛ إن لهم طرائف من الكلام ! قال : فأخبرنى بأعجب ما رأيت من المجانين ! فقلت : صرت يوماً إليهم فررت على شيخٍ منهم ، وهو جالسٌ على حصير قصبٍ ، فجاوزته إلى غيره ، فقال : سبحان الله ! أين السلام ؟ من المجنون ؛ أنا أم أنت ؟ فاستحييتُ منه ، وقلت : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فقال : لو كنت ابتدأت لأوجبت علينا حُسْنَ الرَّدِّ ، على أنا نصرفُ سوء أدبك إلى أحسن جهاته من العذر ، لأنه كان يقال : إن للداخل على القوم دهشةً ، اجلس - أعزك الله - عندنا ، وأوماً إلى موضعٍ من الحصير ، فجلستُ إلى ناحية منه ، فقال لى - وقد رأى معى مخبرتى : أرى معك آلة رجلين أرجو ألا تكون أحدهما : أصحاب الحديثِ الأغثاء ، أو الأدباء أصحاب النحو والشعر ؟ قلت : الأدباء ! قال : أتعرفُ أبا عثمانَ المازنى ؟ قلت : نعم ! قال : أتعرف الذى يقول فيه القائل :

وفتى من مازن أستاذ أهل البصرة
أمه معرفة وأبوه نكرة

* معجم الأدباء : ١٩ - ١١٦

(١) هو محمد بن يزيد ، المعروف بالمبرد إمام العربية فى زمنه يفتاد وأحد أئمة الأدب والأخبار .
مولده يفتاد وتوفى بها سنة ٢٨٦ هـ (٢) الدخولين فى عقولهم ، والمتعاطين للملاج .

قلت : لا أعرفه ، فقال : أنعرفُ غُلامًا له قد نبغَ في هذا العصر ، له ذهنٌ وحفظٌ وقد برزَ في النحو ، يعرفُ بالمُبرِّد ؟ قلت : أنا والله الخبير به ! قال : فهل أنشدك شيئًا من شعره ؟ قلت : لا أحسبه يُحسِنُ قول الشعر ! فقال : ياسبحان الله ! أليس هو القائل :

حَبْدًا ماء العنابقِ بِرِيقِ الغَانِيَاتِ
بِهَا يَنْبِتُ لَحْيِي وَدَمِي أَيُّ نَبَاتِ

قلت : قد سمعته ينشد هذا في مجلس أنس ؛ فقال : ياسبحان الله ! ألا يستحي أن ينشد مثل هذا الشعر حول الكعبة ؟ ثم قال : ألم نسمع ما يقولون في نسبه ؟ قلت : يقولون : إنه من الأزْد أزد شنوءة ، ثم من ثُمالة ! قال : أنعرفُ القائل في ذلك :

سَأَلْنَا عَنْ ثُمَالَةَ كُلِّ حَيٍّ فقال القائلون : وما ثُمَالَةُ ؟
قلت : محمد بن يزيد منهم فقالوا : زدتنا بهمُ جَهَالَةَ !
فقال لي المبرِّدُ : خلّ قومي فقومي مَعَشَرٌ فِيهِمْ نَذَالَةُ !

قلت : أعرفه ! هذا عبدُ الصمد بن المذلّ يقولها فيه ! فقال : كذب فيما ادّعاء ! هذا كلامُ رجلٍ لا نسبَ له ، يريد أن يُثبتَ له بهذا الشعر نسبًا ، قلت له : أنت أعلم ! فقال : يا هذا ، قد غلبتُ خَفَةَ رُوحِكَ على قَلْبِي ، وقد أَخَرْتُ ما كان يجب تقديمه ، ما الكنية ؟ أصلحك الله ! قلت : أبو العباس ، قال : فما الاسم ؟ قلت : محمد ، قال : فالأب ؟ قلت يزيد . قال : قَبَحَكَ الله ! أحوجتني إلى الاعتذار بما قدمتُ ذكره ، ثم وثب وبسط يده فصاغني ؛ فرأيتُ القيدَ في

رجله ، فأمنتُ غائلته ، فقال : يا أبا العباس ، صُنْ نفسك من الدخول في هذه
المواضع ؛ فليس يتهيأ في كل وقتٍ أن تصادف مني على مثل حالي ، ثم قال :
أنت المبرّد ! أنت المبرّد ! وجعل يصفقُ ، واقلبت عيناها ، واحمرت وتغيّرت
حالته ، فبادرت مسرعاً خوف أن تبدرَ إلى منه بادرة ؛ وقبلتُ منه والله نصحه ،
ولم أعاوذ بعدها إلى تلك المواضع أبداً !

١٥٤ — مجنون أديب *

قال أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بـثعلب^(١) : كان ببغداد فتى يُحَنِّ سِتَّةَ أشهر ، فاستقبلني يوماً ببعض السكك فقال : ثعلب ! قلت : نعم ، قال : فأنشدني ، فأنشدته :

وإذا مررتَ بقبره فاعقِرْ به كُومَ^(٢) الهِجَانِ وكلَّ طِرْفٍ^(٣) سَابِحٍ
وانضَحْ جوانِبَ قبره بدمائها فكذا يكون أخادِمٌ وذبايحُ
فضحك ثم سكت ساعة ؛ وقال : ألا قال :

أذهباً بي إن لم يكن لكما عقرٌ على تُرْبِ قبره فاعقِراني
وانضحاً من دمي عليه فقد كان دمي من نَدَاهُ لو تلعان
ثم رآني يوماً بعد ذلك فتأملتني ، وقال : ثعلب ! قلت : نعم ؛ قال : أنشدني ، فأنشدته :

أَعَارَ الْجَوْدَ^(٤) نَائِلَهُ إِذَا مَا مَالُهُ نَقَدَا
وإن أسدٌ شَكَ جُبِنَا أَعَارَ فَوَادَهُ الْأَسَدَا

فضحك وقال : ألا قال :

عَلَّمَ الْجَوْدَ النَّدَى حَتَّى إِذَا مَا حَكَاهُ عِلْمُ الْبَاسِ الْأَسَدِ
فله الجودُ مُقَرَّرٌ بِالنَدَى وَلَهُ اللَّيْثُ مُقَرَّرٌ بِالْجَلَدِ

* عقلاء الحجاين : ١٣٥ ، نهاية الأرب : ٣ - ٢١٣

(١) أحمد بن يحيى إمام الكوفيين في النحو واللغة كان راوية للشعر مشهوراً بالحفظ وصدق اللمعة ، ثقة حجة ، توفي سنة ٢٩١ هـ (٢) السكوم : القطعة من الإبل (٣) الطرف : الكريم من الجبل (٤) الجود : الطر الغزير .

١٥٥ — كدّر الله من كدّر العيش *

قال الحمدوني : بعث إلى أحمد بن حرب المهابي في غداة ، السماء فيها مغيمة ،
فأتيته ، والمائدة موضوعة مُعْطَاةً ، وقد وافت « عجاب » المغنية ؛ فأكلنا جميعاً ،
وجلسنا على شرابنا ؛ فمارعنا إلا داق يدق الباب فأتاه الغلام ؛ فقال : بالباب
فلان ! فقال لي : هو فتى من آل المهلب ، ظريف نظيف ! فقلت : ما نريد غير
ما نحن فيه !

فأذن له ؛ فجاء يتبختر ، وقد أوى قدح شراب فكسره ، فإذا رجل آدم ^(١)
ضخم ! وتكلم ؛ فإذا هو أغيا الناس .

فجلس بيني وبين « عجاب » ؛ فدعوت بدواة ، وكتبت إلى أحمد
ابن حرب :

كدّر الله عيش من كدّر العي ش ؛ فقد كان صافياً مُسْتَطَاباً
جاءنا والسماء تهطل بالغي ش وقد طابق السماع الشرابا
كسر الكأس وهي كالكوكب الدُر ^(٢) رى ضمت من اللدّام ^(٣) رُضَاباً ^(٤)
قلت لما رُميت منه بما أكره ، والدهر ما أفاد أصابا !

* زهر الآداب : ٤ - ١٧٧

(١) آدم : الأسمر (٢) الكواكب الدرّ : الثاقب المضيء ، نسب إلى الدر ليأخه
(٣) اللدّام : الخمر (٤) الرضاب : العسل ، أو زغونه .

عَجَّلَ اللَّهُ نِقْمَةً لِبْنِ حَرْبٍ تَدْعُ الدَّارَ بَعْدَ شَهْرِ خَرَابًا !
وَدَفَعْتُ الرِّقْعَةَ لَهُ ؛ فَقَالَ : أَلَا نَفَسْتُ^(١) ؛ فَقُلْتُ : بَعْدَ حَوْلٍ^(٢) ؟ فَقُلْتُ :
أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ بَعْدَ يَوْمٍ ؛ فَخِفْتُ أَنْ يَصِيبَنِي مَضَرَّةٌ ذَلِكَ !
وَفِطْنِ الثَّقِيلِ ؛ فَهَض ، فَقَالَ : آذَيْتَهُ ! فَقُلْتُ : هُوَ آذَانِي !

(١) هَس تَفْيِيسًا : فَرَجٌ ، يَرِيدُ أَلَا فَرَجْتَ عَنْ نَفْسِكَ وَصَبَرْتَ
(٢) يَرِيدُ : بَدَلَ شَهْرٍ الْيَوْمِ
وَرَدْتُ فِي الْبَيْتِ .

١٥٦ — يضيف أهل الصفة ثم يضر بهم*

كان زيادُ بنُ عبد الله الحارثي والياً على المدينة ، وكان فيه بُحْلٌ وجفاء ؛ فأهدى إليه كاتبٌ سِلَاحاً فيها أطعمة ، وقد تنوّق^(١) فيها ، فوافقتهُ وقد تقدّى ، فقال : ما هذه ؟ قالوا : غداء بعثه فلان السكّاب ! فغضب ، وقال : يبعثُ أحدهم الشيء في غير وقته ! ياخيّم بن مالك — يريد صاحبَ شرطته : ادعُ لى أهل الصّفة^(٢) يا كلون هذا !

فبعث خيّم الحرمَ يدعونهم ، فقال الرسول الذي جاء بالسلال : أ صلح الله الأمير ! لو أمرت بهذه السلال تُفتح وينظرُ ما فيها ! قال : اكشِفُوها ، فإذا طعام حسن من دجاج وجِداء^(٣) وسَمَكٍ وأُخبَصَةٍ^(٤) وحلّواء ! فقال : ارفعُوا هذه السلال .

وجاء أهل الصّفة ؛ فأخبر بهم ، فأمر بإحضارهم ، وقال : ياخيّم ، اضرِبْهم عشرة أسواط ، فإنه بلغنى أنهم يحدثون في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم !

* نهاية الأرب : ٣ — ٣٠٥ .

(١) تنوّق في الأمر : تأنّق فيه (٢) أهل الصفة : كانوا أضياف الإسلام ، وكانوا يبيتون في مسجده صلى الله عليه وسلم (٣) الجداء : جمع الجدي ، وهو ولد المزم (٤) الخبيص : طعام من التمر والسمن .

١٥٧ - ابن المدبر وطفيلي *

كان ابنُ المدبر قليلَ الجلوس للمُنادمة ، وكان له سبعة ندماء لا يأنسُ بغيرهم ولا ينسبط إلى سوام ، قد اضطفأهم لعِشرته ، واختارهم لمُنادمته ، كل رجل منهم قد انفرد بنوع من العلم لا يساويه فيه غيره .

وكان طفيلي يُعرف بابن دُرّاج من أكمل الناس أدباً ، وأخفهم رُوحاً ، وأشدّهم في كل مليحة افتناناً ؛ فلم يزل يحتالُ إلى أن عرف وقت جلوس ابن المدبر للندماء ، فتزيّاً في زى ندمائه ، ودخل في جلّتهم ، وظنّ حاجبه أن ذلك يعلم من صاحبه ومعرفة من أولئك الندماء ، ولم يفكر شيئاً من حاله .

وخرج ابنُ المدبر ، فنظر إليه بين القوم ، فقال لحاجبه : اذهب إلى ذلك الرجل ، قل له : ألك حاجة ؟ فسقط في يد الحاجب ، وعلم أن الحيلة قد تمت عليه ، وأن ابن المدبر لا يرضى في عقوبته إلا بقتله ، فذهب إليه ، فقال له : الأستاذ يقول لك : ألك حاجة ؟ فقال : قل له : لا . فقال له : ارجع إليه قل له : أي شيء أنت ؟ فقال : قل له : طفيلي يرحمك الله !

فقال له ابنُ المدبر : أنت طفيلي ؟ قال : نعم ! أعزك الله ! قال : إن الطفيلي يُحتملُ دخوله بيوت الناس وإفساده عليهم ما يريدونه من الخلوّة بندمائهم والخوض في أسرارهم لخصال ، منها أن يكون لاعباً بالشطرنج ، أو بالزرد ، أو ضارباً بالعود أو الطنبور !

قال : أيدك الله ! أنا أحسنُ هذه الأشياء كلها ، قال : وفي أى وظيفة أنتَ منها ؟ قال : فى العُلَيَّا من جميعها !

فقال لبعض ندمائه : لا عبه بالشطرنج ، فقال الطفيل : أصلح الله الأستاذ ! فإن قُمرت^(١) ؟ قال : أخرجناك من ديارنا . قال : فإن قُمرت ؟ قال : أعطيناك ألفَ درهم . قال : فإن رأيت - أيدك الله - أن تحضر الألف ؛ فإن فى حضورها قوة للنفس والإيقان بالظفر .

فأحضرت ؛ فلعبا فغلب الطفيلُ ، ومدَّ يده ليأخذَ الدراهم ، فقال الحاجب لينفى عن نفسه بعضَ ما وقع فيه : أعزَّ الله الأستاذ ؛ إنه زعم أنه فى الطبقة العُلَيَّا ، وابنُ فلان غلامك يَغلبه .

فأحضر الغلام ، فغلبَ الطفيلُ ، فقال له : انصرف ، فقال : أحضروا الترد ، فأحضرت فلوعب فغلب ، فقال الحاجب : ولا هذا - يا سيدى - فى الطبقة العليا من الترد ، ولكن به ابنُ فلان يغلبه ، فأحضر البواب فغلب الطفيلُ ، فقال له : اخرج ، فقال : يا سيدى ، فالعود ؟

فأتى بالعود ، فضرب فأصاب ، وغنَّى فأطرب ، فقال الحاجب : يا سيدى ؛ فى جوارنا شيخ هاشمى يُلم التيمَّان أحذقُ منه ، فأحضر الشيخ ، فكان أطرب منه ، فقال له : اخرج ، قال : فالطنبُور ، فأعطى طنبوراً فضرب ضرباً لم يَرَ الناسُ أحسنَ منه ، وغنَّى غناء فى النهاية ، فقال الحاجب : أعزَّ الله الأستاذ ؛ فلان فى جوارنا أحذقُ منه ، فأحضر فكان أحذقُ منه وأطيب ، فقال له ابن المدبر :

(١) قُمرت : غلبت فى اللعب .

قد تقصينا لك بكل جهد ، فأبت حِرْفَتُكَ إلا طردك عن منزلنا .

فقال : ياسيدي ، بقي شيء ا قال : ما هو ؟ قال : تأمر لي بقوس بُندُق^(١) مع خمسين بُندُقة رصاص ، ويقام هذا الحاجب على أربع وأرميه بها ، وإن أخطأتُ بواحدة منها ضربت رقبتي . فضجّ الحاجب من ذلك ، ووجد ابنُ المدير في ذلك شفاءً لنفسه وعقوبة له على ما فرط منه في إدخال الطفيلي إلى مجلسه . فأمر بيا كافين^(٢) فأحضرا ، وجعل أحدهما فوق الآخر ، وشدّ الحاجب فوقهما ، وأمر بالقوس والبندق فدفعوا إلى الطفيلي ، فرمى به ؛ فما أخطأه ؛ وختلّ عن الحاجب وهو يتأوّه لما به ، فقال له الطفيلي : أعلّ باب الأستاذ من يُحسن مثل هذا ؟ فقال : ما دام البرجاس^(٣) استي فلا !

(١) البندق : الذي يرمى به ، الواحدة بهاء (٢) الإكاف : البرذعة (٣) البرجاس : غرض في الهواء على رأس رمح أو نحوه .

١٥٨ — صناعتهم التطفيل *

قال دراج : قدمت من بغداد ، فررتُ بباب قومٍ وعندهم وليمةٌ ، وإذا بصاحب الدار يدخلُ ويضع سَلَمًا فكلمنا رأى إنسانًا لا يعرفه قال : اصعدْ يا أباي ؛ فصعدتُ إلى غرفةٍ مفروشةٍ حتى وافيتُ فيها ثلاثةَ عشرَ طفيليا ، ثم رُفِعَ السَلَمُ ، ووُضِعَتِ الموائد ، فبقى أصحابي قد تحيروا وقالوا : ما مَرَّ بنا مثل ذا قط ؛ قلت : يا قتيان ، ما صناعتكم ؟ قالوا : التطفيل ، قلت : فما عندكم في هذا الأمر الذي وقعنا فيه ؟ قالوا : ما عندنا فيه حيلةٌ ، قلت : فإذا احتلتُ لكم حتى تأكلوا وتنزلوا تُقرئُون أنى أعلمكم بالتطفيل ؟ قالوا : ومن تكون بالله ؟ قلت : أنا ابن دراج . قالوا : قد أقررنا لك قبل أن تحتال لنا . قال : فجئتُ إلى صاحب الدار فاطلعتُ عليه والناس يأكلون وقلت : يا صاحب الدار ؛ قال : مالك ؟ قلت : أيتما أحبُّ إليك : تصعدُ إلينا بخوانٍ كبيرٍ ، نأكلُ وننزلُ أو أُرْمى بنفسى ، فيخرج من دارك قَتيلٌ ؛ ويصير عُرْسُكَ ماتمًا ؟ وجعلتُ أُرِيه كَأَنى أُرْمى بنفسى ، فصاح وقال : اصبر ويحك لا تفعل ! وجعل يعجِّل ويقول : هذا مجنون . وأصعدوا إلينا خوانًا ، فأكلنا ونزلنا .

١٥٩ — اصبروا على إلى غدٍ *

ادّعى مُدّعي النبوة ، فطُلب ودُعي له بالسيف والنّطع ؛ فقال : ما تصنعون ؟
قالوا : نقتلك ، قال : ولم تقتلونني ؟ قالوا : لأنك ادّعت النبوة ، قال : فلستُ
ادّعيها ، قيل له : فأى شيء أنت ؟ قال : أنا صديق ، فدُعي له بالسيّاط ، فقال :
لم تضربوني ؟ قالوا : لادّعتك أنك صديق ، قال : لا ادّعى ذلك ، قالوا : فمن
أنت ؟ قال : من التابعين لهم بإحسان ، فدعي له بالدّرة ^(١) ، قال : ولم ذلك ؟
قالوا : لادّعتك ما ليس فيك ، فقال : ويحكم ! أدخل إليكم وأنا نبي تريدون أن
تخطوني في ساعة واحدة إلى مرتبة العوام ! اصبروا على إلى غدٍ حتى أصير لكم
ما شئتم !

* نهاية الأرب : ٤ - ١٦

(١) الدرة بالكسر : التي يضرب بها .

١٦٠ — هو خيرُ الناسِ مهما يفعل *

حدّث رجلٌ من عامر بن لؤي ، قال : كان صبيٌّ منا ترك له أبوه غنماً وعبيداً ؛ فخرج يوماً ، فنظر إلى جاريةٍ في خباثتها فهويها ، ومال إلى أمها ، وسألها لن تزوجها منه ، فقالت : حتى أسألَ عن أخلاقك .

فسألَ عن أقرب الناس إليها ، فدُلَّ على شيخٍ كان معروفاً بحُسن المخَصَر . فأتاه وسلمَ عليه ، وقال : ما جاء بك ؟ فأخبره فقال : لا عليك ! فإنَّ العجوزَ غيرُ خارجةٍ من رأيي ، فأمضِ إلى منزلك ، وأقمِ يوماً أو يومين ، ومُرْ بفنمك أن تُساقَ ، ونادِني أهلك : أمّا من أراد أن يحلُبَ فليأتنا ! ودعني والأمر !

فشاع الخبرُ ، فخرجت العجوز مع مَنْ خرج ، والشيخُ مع القوم ، فنظر إلى الشاب ، وقد كانت العجوز قد أخبرته بشأنه ، فقال : هو هو ! فقالت : نعم ! قال : لقد حرمتَ حظك ! قالت : إني أريد أن أسألَ عن أخلاقه . قال : أنا ربيته . قالت : فكيف لسانه ؟ قال : خطيبُ أهله ، والتكلم عنهم . قالت : فكيف سماحته ؟ قال : ثِمَالٌ ^(١) في قومه ، وريعمهم ! قالت : فكيف شجاعته ؟ قال : حامى قومه والمدافعُ عنهم !

قال : فطلّع الفتى ، فقال : أما ترين ما أحسن ما أقبل ! ما أنحنى ولا انثنى !

* المحاسن والساوى : ٦٤٣ (طبع ليزج) .
(١) الثمال : الثياب التى يقوم بأمر قومه .

فلما قرب سلم ، فقال : ما أحسن ما سلم ! ما حار ولا ثار . ثم استوى جالساً ،
فقال : ما أحسن ما جلس ! ما ركع ولا عجز . قالت : أجل ! فذهب يتحرك
فضرط ، فقال الشيخ : ما أحسن والله ما ضرط ، ما أطنّها ولا أغنّها ولا ففخّها
ولا ترترّها ^(١) . فنهض الفتى خجلاً ، فقال الشيخ : ما أحسن والله ما نهض !
قالت المجوز : أجل والله ! فصيح به ورؤده ، فوالله لزوجناه ولو فعل أكثر
مما فعل !

(١) الترتير : التزلزل والتقلقل .

١٦١ — طفيلي في عرس *

دخل طفيلي عرساً فلم يقدر على الدخول ، فأخذ قرطاساً وأدْرَجَه^(١) ، ولم يكتب فيه شيئاً ، وسأل عن العروس : هل له قريب غائب ؟ فقيل : أخوه . فكتب عنوان الكتاب من فلان ابن فلان أخيه . وجاء فدق الباب ، وقال : معي كتابٌ من أخي العروس . فخرج العروس مبادراً فأدخله وأخضَرَ له الطعام ؛ فلما قرأ العنوان قال : سبحان الله ! تراه نَسِيَ اسمي إذ لم يكتبه على الكتاب ! فقال الطفيلي : وأعجبُ من هذا أنه لم يكتب داخله شيئاً من العجلة ! فلم مراده وأدخله !

* ذيل زهر الآداب : ٢٨٠

(١) أدرج الكتاب : طواه .

١٦٢ — طفيلي محدث *

قال أبو عمرو نصر بن علي : كان لي جار طفيلي ، وكان من أحسن الناس منظرًا ، وأعذبهم منطقًا ، وأطيبهم رائحة ، وأجملهم لباسًا ، وكان من شأنه معي أني إذا دعيتُ إلى مدعاة^(١) تبعني ، فيكرمه الناس من أجلي ، ويظنون أنه صاحب لي ؛ فاتفق يوماً أن جعفر بن القاسم الهاشمي أمير البصرة أراد أن يَخْتَنَ بعض أولاده ، فقلت في نفسي : كآني برسول الأمير قد جاء ، وكآني بهذا الرجل قد تبعني ، والله لئن تبعني لأفضحنه !

فأنا على ذلك إذ جاء رسوله يدعوني ، فما زدتُ أن لبستُ ثيابي وخرجت ، وإذا أنا بالطفيلي واقفٌ على باب داره ، وسبقني بالتأهب فتقدمتُ وتبعني ؛ فلما دخلنا دار الأمير جلسنا ساعة ، ودعا بالطعام ، وأحضرت الموائد وكان كلُّ جماعة على مائدة لكثرة الناس ، فقدمتُ إلى مائدة والطفيلي معي ، فلما مدَّ يده ، وشرع في تناول الطعام قلت : حدثنا نافع عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من دخل دار قومٍ بغير إذنهم فأكل طعامهم دخل سارقًا ، وخرج مُغِيرًا » .

فلما سمع ذلك قال : أَيْفَتْ لَكَ والله أبا عمرو من هذا الكلام ! فإنه ما من أحدٍ من الجماعة إلا وهو يظنُّ أنك تعرض به دُونَ صاحبه ، أو لا نَسْتَحْيِي أن تتكلم بهذا الكلام على مائدة سيّد من أطعم الطعام ، وتبخل بطعام غيرك على مَنْ سواك !

* التطفيل للبغدادى : ٦٦ .

(١) المدعاة : الدعوة .

ثم لا تستحي أن تحدث بهذا الحديث وهو ضعيف ، وتحكم برفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، والمسلمون على خلافه ! لأن حكم السارق القطع ، وحكم المفير أن يُعزَّر على ما يراه الإمام ، وأين أنت عن حديث حدثناه أبو عاصم النبيل عن ابن جريج عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « طعام الواحد يكفي الاثنين ، وطعام الاثنين يكفي الأربعة ، وطعام الأربعة يكفي الثمانية » . وهو إسناد صحيح ومتمن صحيح !

قال نصر : فأفحمني فلم يحضرني له جواب ، فلما خرجنا من الموضع للانصراف فارقني من جانب الطريق إلى الجانب الآخر بعد أن كان يمشي ورائي ، وسمعته يقول :

ومن ظنَّ يَلْقَى الحروبَ بألَّا يصابَ فقد ظنَّ عَجْزًا

١٦٣ — غِيَّ وَغَفْلَة *

كان بمصر شريف من وَلَدِ العباس يعرف بأبي جعفر ؛ شبيهه بابن الجصاص في الغفلة والجَدِّ والذَّمة .

قال أبو القاسم بن محمد التنوخي : بعثني أبي إليه من قرية تعرف بتلا يستقرضه عشرة أَرادب قمحاً وثلاثين زوج بقر ، وكتب معي بذلك رقعة ، فأتيتُ إليه وسلمت عليه ، ودفعت إليه الرقعة ؛ فقال : ذكرتُ أباك ، فهو صاحبي وصديقي وخليطي ! وأين هو الآن ؟ قلت : بقرية تلا - أعزَّ الله سيدي الشريف ! قال : نعم ! حفظه الله ! هو بالفُسْطاط معنا ، وقد انقطع عنا كذا ! ما كنت أظنه إلا غائباً !

قلت : لا سيدي هو بتلا ! قال : فما لك ما قلت لي ؟ فما كان سبيله أن يؤنسنى برقعة من قبله ؟ قلت : يا سيدي ، قد دفعت إليك رُقْمته ! قال : وأين هي ؟ قلت : تحت البساط ! فأخذها وقرأها ، وقال : قل لي الآن ، أكان لك أخٌ أعرفه حاد الذهن يحسن النحو والعروض والشعر ؛ فافعل الله به ؟ قلت : أنا هو - أعزَّك الله ! قال : كبرت كذا ! وعهدى بك تأتيني معه ؛ قلت : نعم ! أيَّد الله الشريف !

قال : وما الذي جئت فيه ؟ قلت له : والدي بعثني إليك برقعة يسألك فيها قرض عشرة أَرادب قمحاً وثلاثين زوج بقر . قال : وهو الآن بالفُسْطاط ؟ !

قلت : لا يا سيدى هو بتلا ! قال : نعم ! وإنما ذاك الفتى أخوك ؟ قلت : لا ! أنا هو .

فصار يراجعنى فى الكلام وقد ضجرتُ من شدة غَفَلَتِهِ ، وكثرة نسيانه لما أقول له ، حتى أقبل كاتبه أبو الحسين ، فقال له : سَلْ هذا الفتى ما يريد ؟ فسألنى فعرَفْتُهُ فأخبره ، فقال له : نفَّذْ له حاجته . فوقَّع لى الكتاب بما أراد ، وقال : تَلَقَّانِى للقبضِ بالديوان ، فشكرت الشريف ونهضت ! فقال : اصبر يا بنى فقد حضر طعامنا ؛ وقدم الطعام ، وفيه طعام غير جيد ، فرفع يده ، وقال : مثل مطبخى يكون فيه مثل هذا ! على بالطباخ ! فأتى ، فقال له : ما هذا العمل ! فقال : يا سيدى ؛ إنما أنا صانع ، وعلى قَدَرٍ ما أعطى أعمل ! وقد سألت المُنْفِقَ أن يشتري لى ما أحتاجُ إليه فتأخر عني ، فعملتُ على غير تمكَّن ؛ فجاء التقصير كما ترى .

فقال : على بالمُنْفِقِ فأحضر ، فقال : مَالِي قليل ؟ قال : لا ، يا سيدى إنما أنفق ما أعطى ، وقد سألت الجِهْدَ^(١) أن يدفع لى فتأخر عني ؛ فقال : على بالجِهْدِ ! فأتى به . فقال : مالك لم تدفع للمُنْفِقِ شيئاً ؟ قال : لم يوقَّع لى الكاتب ! فقال للكاتب : لِمَ لَمْ تدفع إليه شيئاً ؟ فتلَّعتم فى الكلام ، ولم يكن عنده جوابٌ ؛ فقال للكاتب : قف ها هنا ، فوقف ، ووقف خلفه الجِهْدُ ، ووقف خلف الجِهْدِ المنفق ، وخلف المنفق الطباخ ، وقال : ليصنع كلُّ واحد منكم بمن يَلِيه بأكثر ما يقدر عليه فتصافعوا .

قال : فخرجت وأنا متعجَّب من غباوته وغَفَلته !

(١) الجِهْد : النقاد الخبير ، ويريد القائم بالإتفاق وحفظ الأموال .

١٦٤ — حذاء أبي القاسم *

كان في بغداد رجلٌ اسمه أبو القاسم الطنبُورِي ، وكان له مَدَاسٌ ^(١) ، وهو يَلْبَسُهُ سبعَ سنين ، وكان كلما تقطع منه موضعٌ جعل مكانه رقعةً إلى أن صار في غاية الثقل ، وصار الناسُ يضرُّون به المثل .

فاتفق أنه دخل يوماً سوق الزجاج ، فقال له سَمْسَارٌ ^(٢) : يا أبا القاسم ، قد قَدِمَ إلينا اليوم تاجر من حَلَب ، ومعه خِمْلُ زجاجٍ مُذهَّب قد كسَدَ ، فاشترِه منه ، وأنا أبيعُه لك بعد هذه المدة ؛ فَتَكْسِبُ به المثلَ مِثْلَيْنِ ! فضى واشتراه بستَين ديناراً .

ثم إنه دخل إلى سوق العطارين ؛ فصادفه سَمْسَارٌ آخر ، وقال له : يا أبا القاسم ؛ قد قَدِمَ إلينا اليوم من نَصِيبين ^(٣) تاجرٌ ، ومعه مائة وَرْد ، وَلِجَلَّة سفره ، يمكن أن تشتريه منه رخيصةً ، وأنا أبيعُه لك فيما بعد ، بأقرب مدة ؛ فَتَكْسِبُ به المثلَ مِثْلَيْنِ !

فضى أبو القاسم ، واشتراه أيضاً بستَين ديناراً أخرى ، وملاً به الزجاج المذهب وحمله ، وجاء به فوضعه على رَفٍّ من رفوف بيته في الصُّدْر !

ثم إن أبا القاسم دخل الحمام يفتسل ؛ فقال له بعض أصدقائه : يا أبا القاسم ؛

* مجازي الأدب : ٣ - ٢٣٢ .

(١) المداس كحجاب : الذي يلبس في الرجل (٢) السمسار : المتوسط بين البائع والمشتري

(٣) قاعدة ديار ربيعة .

أشهى أن تغير مداسك هذا ! فإنه في غاية الشناعة ! وأنت ذو مال بحمد الله ! فقال له أبو القاسم : الحق معك ؛ فالسمع والطاعة .

ثم إنه خرج من الحمام ، ولبس ثيابه ، فرأى بجانب مداسه مداساً آخر جديداً ؛ فظن أن الرجل من كرمه اشتراه له ؛ فلبسه ، ومضى إلى بيته !

وكان ذلك المداسُ الجديدُ للقاضي ، وقد جاء في ذلك اليوم إلى الحمام ، ووضع مداسه هناك ، ودخل يستحم !

فلما خرج فنش عن مداسه ؛ فلم يجدْهُ ؛ فقال : أمن لبس حذائي لم يترك عوضه شيئاً ؟ ففتشوا ؛ فلم يجدوا سوى مداس أبي القاسم ! فعرفوه ؛ لأنه كان يُضَرَّ به المثل !

فأرسل القاضي خدَمَه ، فكَبَسُوا ^(١) بيته ، فوجدوا مداسَ القاضي عنده ؛ فأحضره القاضي ، وضربه تأديباً له ، وحبسه مدة ، وغرمه بعض المال وأطلقه !

فخرج أبو القاسم من الحبس ، وأخذ حذاءه ، وهو غضبان عليه ، ومضى إلى دجلة ، فألقاه فيها ؛ ففاص في الماء !

فأتى بعض الصيادين ورمى شبكته ، فطاع فيها ! فلما رآه الصياد عرفه ، وظن أنه وقع منه في دجلة ! فحملة وأتى به بيت أبي القاسم ؛ فلم يجده ! فنظر فرأى نافذة إلى صدر البيت ، فرماه منها إلى البيت ، فسقط على الرف الذي فيه الزجاج ، فوقع ، وتكسّر الزجاج وتبدّد ماء الورد !

(١) كبس داره : هجم عليها واحتطابها .

فجاء أبو القاسم ونظر إلى ذلك فعرف الأمر ، فلطم وجهه ، وصاح ييكى ،
وقال : واققرّاه ! أققرّنى هذا المداس الملعون !

ثم إنه قام : لِيَحْفَرُ لَهُ فِي اللَّيْلِ حُفْرَةً ، ويدفنه فيها ، ويرتاح منه ؛ فسمع
الجيرانُ حسنَ الحفرِ ؛ فظنوا أن أحداً ينقب عليهم ؛ فرفعوا الأمر إلى الحاكم ؛
فأرسل إليه ، وأحضره ، وقال له : كيف تَسْتَحِلُّ أن تنقب على جيرانك حائطهم ؟
وحبسَه ، ولم يُطْلَقْهُ ، حتى غَرِمَ بعض المال !

ثم خرج من السجن ومضى وهو حَرْدَانٌ ^(١) من المداس ، وحمله إلى كنيف
الخان ، ورماء فيه ، فسَدَّ قُصْبَةَ الكنيف ؛ ففاض وضجر الناس من الرائحة
الكريهة ! وبخثوا عن السبب ؛ فوجدوا مداساً فتأملوه ؛ فإذا هو مداسُ أبي القاسم !
فحملوه إلى الوالى ، وأخبروه بما وقع ؛ فأحضره الوالى ، ووبخه وحبسَه ، وقال
له : عليك تصليح الكنيف ! فغرم بُحْلَةً مال ، وأخذ منه الوالى مقدار ما غرم
تأديباً له وأطلقه .

فخرج أبو القاسم والمداسُ معه ، وقال - وهو مفتاظ منه : والله ما عدتُ
أُفَارِقُ هذا المداس !

ثم إنه غَسَلَهُ وجعله على سطح بيته حتى يجف ؛ فراه كلب ؛ فظنه رِمَةً فحمله
وعبر به إلى سطح آخر ؛ فسقط من الكلب على رأس رجل ، فألمه وجرحه جرحاً
بليفاً ، فنظروا وفتشوا لمن المداس ، فعرفوا أنه لأبى القاسم !

(١) حران : غضبان (٢) الرمة بالكسر : العظام البالية .

فرفعوا الأمر إلى الحاكم ؛ فألزمه بالمَوْض ، والقيام بلوازم الجروح مُدَّة
مرضه ! فنقدَ عند ذلك جميعُ ما كان له ، ولم يبقَ عنده شيء !
ثم إن أبا القاسم أخذ المِداد ، ومضى به إلى القاضي ، وقال له : أريد من
مولانا القاضي أن يكتب بيني وبين هذا المِداد مبارأةَ شرعية على أنه ليس مني
ولستُ منه ! وأن كلاً منا يرى من صاحبه ، وأنه مهما يفعل هذا المِداد لا يأخذ
أنا به ! وأخبره بجميع ما جرى عليه منه !
فضحك القاضي منه ووصله ومضى !

﴿ تم الكتاب بحمد الله وتوفيقه ﴾

فهرس القصص

الباب الأول

فى القصص التى تصف ما عقده من مجالس الطرب ، وحفلات الغناء ، وما أثاروه من أسباب المنافسة بين المغنّين ، قاصدين الترفيه عن النفوس ، وجلاء الهم ، وتهذيب المشاعر ، وترقيق الوجدان :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١	١٠	الشعر والغناء
٢	١٢	قل للكرام بيا بنا يلجوا
٣	١٣	عبد الله بن جعفر ضيف طويس
٤	١٥	سقونى وقالوا لا تنن
٥	١٨	عبد الله بن جعفر عند جميلة
٦	٢٠	بيتان من الشعر
٧	٢٣	ماذا فعلت بزاهد متعبد ؟
٨	٢٤	دُعَابَةُ بن أبى عتيق
٩	٢٦	لحن لجميلة
١٠	٣٠	فى أيام الحج
١١	٣٥	فى وادى العقيق

العنوان	الصفحة	رقم القصة
من أين صَبَكَ اللهُ عليّ !	٣٧	١٢
ارجع إلى عملك راشداً	٣٩	١٣
الأحوص يحتال حتى تسمع سلامة غناء الغريص .	٤١	١٤
غناء في ختان	٤٤	١٥
يضطرب حين يسمع الغناء	٤٧	١٦
في قصر الوليد بن يزيد	٤٩	١٧
معبد في مكة	٥١	١٨
معبد في السفينة	٥٣	١٩
وفاء مالك بن أبي السمح لمعبد	٥٧	٢٠
مالك بن أنس يغني	٦١	٢١
أفسد آخر ما أصلح أولاً !	٦٢	٢٢
ابن جامع في دار الخلافة	٦٣	٢٣
ابن جامع وأبو يوسف القاضي	٧٢	٢٤
سرقة الغناء	٧٤	٢٥
أنا والصبح كفرسي رهان	٧٨	٢٦
ما هذا بجزائي منك !	٨٠	٢٧
ما نفعني الغناء إلا ذلك اليوم	٨٢	٢٨
طفيلي ولكنه ظريف	٨٤	٢٩
زرياب وإسحاق الموصلي	٨٨	٣٠
في مسجد رسول الله تتغنى !	٩٢	٣١

رقم القصة	الصفحة	العنوان
٣٢	٩٥	شعر رقيق
٣٣	٩٦	صوت بدرهمين
٣٤	٩٨	أم جعفر تنوح على الرشيد
٣٥	١٠٠	أما إليك سبيل غير مسدود؟
٣٦	١٠١	عند مخارق
٣٧	١٠٤	مخارق يغنى لأبي العتاهية في شعره
٣٨	١٠٦	المغنون عند الواثق
٣٩	١٠٩	في دار الواثق
٤٠	١١٣	محبوبة جارية المتوكل
٤١	١١٥	قينة تحن إلى بغداد

الباب الثاني

في القصص التي تفصح عن رقة قلوب العرب ، ورفاة عواطفهم وسمو نفوسهم بالإخبار عن وقع الحب في قلبه وامتزج العفاف والشرف بحبه ، ولكن امتنع عليه أمه ، فبقى معذباً في سبيل من أحب ؛ وراح شهيداً الرقة والعفاف :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
٤٢	١١٨	جنى الجمال على نصر فخر به
		عن المدينة تبكيه ويبكيها
٤٣	١٢١	عروة وغراء

العنوان	الصفحة	رقم القصة
قتيل الحب	١٢٨	٤٤
قيس ولبنى	١٢٩	٤٥
ما أبالي مانيل من شَعرى ومن بشرى	١٤٤	٤٦
في القليين ثم هو دفين	١٤٦	٤٧
أخبرنى عن ليلة الغيل	١٤٨	٤٨
أياشبه ليلى لا تراعى	١٥٠	٤٩
استبكاني السيل إذ جرى	١٥١	٥٠
عهد جيل التَّوباد	١٥٢	٥١
حديث المجنون عن ليلى	١٥٣	٥٢
حلال لليلى شتمنا	١٥٤	٥٣
إن دأى ودوائى أنتِ	١٥٥	٥٤
مارأيت مثل حزنها ووجدتها عليه قط	١٥٧	٥٥
عند الكعبة	١٥٩	٥٦
ذهول !	١٦١	٥٧
خاتمة المجنون	١٦٣	٥٨
اليوم يحمنا فى بطنها الكفن	١٦٧	٥٩
العفة فى الحب	١٧١	٦٠
حديث جميل وبلينة	١٧٣	٦١
عتاب بين بلينة وجميل	١٨١	٦٢
يتذاكران الشعر والهوى	١٨٢	٦٣
لا أزال أبكيه حتى المات	١٨٣	٦٤

العنوان	الصفحة	رقم القصة
حيّ ويحك من حياك يا جمل	١٨٥	٦٥
إلى الخلوات يأنس فيك قلبي	١٨٨	٦٦
من لم يقيد جوارحه أتعب قلبه	١٩٠	٦٧
غداً يكثر الباكون منا ومنكم	١٩٢	٦٨
وذو الشوق القديم وإن تعزّى	١٩٤	٦٩
مشوق حين يلقي العاشقين		
قضى كل ذي دين فوق غريمه	١٩٦	٧٠
وعزّة ممطول معنى غريمها		
تغنيه فيموت	١٩٨	٧١
فاضت نفسها عليه	٢٠١	٧٢
يموتان في وقت واحد	٢٠٤	٧٣
رحلت مية ولم يبق إلا الديار	٢٠٧	٧٤
صبابة بن الطّرية	٢١٠	٧٥
معبد الصغير وأحد العشاق	٢١٦	٧٦
نعب الفرا بفرأقهما	٢٢٠	٧٧
نخلتا حلوان	٢٢٤	٧٨
وارحمتا للعاشقين	٢٢٦	٧٩
الله يعلم أننى كد	٢٢٩	٨٠
في دار المجانين	٢٣١	٨١
عتاب	٢٣٦	٨٢
يا غريب الدار عن وطنه	٢٤٠	٨٣

الباب الثالث

في القصص التي نحتاجُ لما اتصفوا به من شديد الغيرة على الحرم ، وبالغ المخافة من التهمة ؛ إغلاء بالشرف ، وضماناً لوفرة العرض ، وما جره بعد ذلك من إزهاق الأرواح وسفك الدماء ، درءاً للظنة ، واتقاء للسمعة :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
٨٤	٢٤٢	لا أحد أذل من جديس
٨٥	٢٤٥	آبى للذل
٨٦	٢٤٧	أجبن الناس وأحيل الناس وأشجع الناس
٨٧	٢٥٤	خل سبيل الحرية المنيعة
٨٨	٢٥٨	عند الموت
٨٩	٢٦٢	تعدو الذئاب على من لا كلاب له
٩٠	٢٦٣	الأحوص وابن حزم الأنصارى

الباب الرابع

في القصص التي أراد بها الكتاب تصوير حالة ، أو شخص أو مجلس ، واخترعوا لها من الكلام ما يبلغ إرادتهم ، ويدخل في ذلك الباب ما وضعوه على أسنة الطير والبهائم ، وأنواع الحيوان من محاورات وأحاديث تحمل في أنشائها العبرة والعظة والنصح :

العنوان	الصفحة	رقم القصة
أُكَلَّتْ يَوْمَ أَكَلِ الثَّورِ الْأَبْيَضِ	٢٦٨	٩١
حديث السقيفة	٢٦٩	٩٢
بِمَنْ أَسْتَجِيرُ مِنْ جُورِكَ ؟	٢٨٥	٩٣
خدعة لمعاوية	٢٩١	٩٤
من صدق الله نجا	٢٩٩	٩٥
عمر بن أبي ربيعة في مضرب فاطمة بنت عبد الملك	٣٠١	٩٦
عمارة	٣٠٥	٩٧
عمر بن أبي ربيعة في لبسة أعرابي	٣١١	٩٨
حديث يوم الدَّوْحَةِ	٣١٥	٩٩
لولا فصاحتهم لضربت أعناقهم	٣٢٢	١٠٠
يوم دارة جلبجل	٣٢٤	١٠١
دعني وربى الذى لا يبخل ولا يذهل	٣٢٧	١٠٢
أبو جعفر المنصور فى المرأة	٣٣٥	١٠٣
واعظ أبى جعفر المنصور	٣٤١	١٠٤
لماذا سُلِبُوا الملك ؟	٣٤٥	١٠٥
جعفر البرمكى والرشد	٣٤٧	١٠٦
إخوان الصفا	٣٥٠	١٠٧
لا أحبَّ تخديش وجهه الصاحب	٣٥٦	١٠٨
حكومة الضب	٣٥٧	١٠٩
أعلمك ثلاث خصال	٣٥٨	١١٠
مجير أم عامر	٣٥٩	١١١
كيف أعادوك وهذا أثر فأسك !	٣٦٠	١١٢
حكيم	٣٦١	١١٣

الباب الخامس

في القصص التي يعرف بها مذهبهم في شياطين الشعر ، وأصوات الجن في
الفيافي وأحاديثهم عن الغول ، ورؤية من رآها منهم ، وما إلى ذلك مما يصور سعة
أخيلتهم ، وسعيهم وراء الجهول بأخفحة التفكير والتصوير :

رقم القصة	الصفحة	العنوان
١١٤	٣٦٤	تأبط شرأ يقتل الغول
١١٥	٣٦٦	رئى الأعشى
١١٦	٣٦٧	هاجس الأعشى
١١٧	٣٦٩	عبيد بن الأبرص الشجاع
١١٨	٣٧٢	ومن عبيد لولا هبيد
١١٩	٣٧٥	لافظ بن لاحظ
١٢٠	٣٧٧	تابع زهير بن أبى سلمى
١٢١	٣٨٠	حاتم يقرى الضيف بعد موته
١٢٢	٣٨٢	جار مالك بن حريم
١٢٣	٣٨٤	الجن وابن الجمارس
١٢٤	٣٨٧	حارس مال ابن الخشرم
١٢٥	٣٨٩	في موت أمية بن أبى الصلت
١٢٦	٣٩٠	في بحر الخزر
١٢٧	٣٩٢	نجى سواد بن قارب
١٢٨	٣٩٥	ليلي الأخيلية على قبر توبة
١٢٩	٣٩٦	جان يختطف فتاة

العنوان	الصفحة	رقم القصة
لا بقاء للإنسان	٣٩٨	١٣٠
الفريض يتلقى غناه عن الجن	٣٩٩	١٣١
شيطان أبي نواس	٤٠١	١٣٢
إبليس في ضيافة إبراهيم بن المهدي	٤٠٣	١٣٣
دعبل بن علي ورجل من الجن	٤٠٧	١٣٤

الباب السادس

في القصص التي تسرد بارع الملح التي أثرت عن الحق والجنانين ، وتفصل
روائع النوادر التي فاضت بها قرائح الطفيليين والتنبئين ؛ وما يشبه ذلك مما فيه راحة
للفؤوس ونشاط للخواطر :

العنوان	الصفحة	رقم القصة
أنفك منك وإن كان أجدع	٤١٠	١٣٥
أبورافع لا يكذب في نوم ولا يقظة	٤١٢	١٣٦
أهلك أعلم بك	٤١٤	١٣٧
المقادير تصير العبي خطيئاً	٤١٥	١٣٨
لئن شكرتم لأزيدنكم	٤١٦	١٣٩
الحمد لله الذي مسخك كلباً	٤١٧	١٤٠
يوم الحساب	٤١٨	١٤١
إن أعطوا رَضُوا	٤٢١	١٤٢
ما أختار غير عبد الله بن طاهر	٤٢٢	١٤٣

العنوان	الصفحة	رقم القصة
أترى الله يعطيك وينسانى ؟	٤٢٤	١٤٤
طفيلي في حضرة المأمون	٤٢٥	١٤٥
أنا أول من آمن بك	٤٣٠	١٤٦
أبودلف وجعفران الموسوس	٤٣١	١٤٧
رمى به في بطنك !	٤٣٤	١٤٨
لو علمت بحاله لولجت عليه	٤٣٥	١٤٩
وطلى أيضاً !	٤٣٧	١٥٠
كذب بكذب	٤٣٩	١٥١
ذهب الحمار بأمر عمرو	٤٤١	١٥٢
أعجب ما رأيت من المجانين	٤٤٣	١٥٣
مجنون أديب	٤٤٧	١٥٤
كدر الله من كدر العيش	٤٤٧	١٥٥
يضيف أهل الصفة ثم يضربهم	٤٤٩	١٥٦
ابن المدبر وطفيلي	٤٥٠	١٥٧
صناعتهم التطفيل	٤٥٣	١٥٨
اصبروا على إلى الغد	٤٥٤	١٥٩
هو خير الناس مهما يفعل ؟	٤٥٤	١٦٠
طفيلي في عرس	٤٥٧	١٦١
طفيلي يحدث	٤٥٨	١٦٢
غنى وغفلة	٤٦٠	١٦٣
حذاء أبي القاسم	٤٦٢	١٦٤

فهرس الأعلام

ابن المدبر : ٤٥١
أبو الأسود الدؤلى : ٢٦٢ ، ٤١٤
أبو بكر بن أبى قحافة الصديق : ٢٦٩
أبو الحسن النبغاء : ٢٣٦
أبو حية النيرى : ٤١٧
أبو الخيرى : ٣٨٠
أبو الدرداء : ٢٩٢
أبو رافع (مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم) : ٤١٢
أبوريحانة (حاجب عبد الملك بن مروان) : ١٩٢
أبو صالح الفزارى : ٢٠٧
أبو عبيدة عامر بن الجراح : ٢٦٩
أبو العتاهية : ١٠٤
أبو على بن الأسكرى : ١١٥
أبو العنيس الصيمرى : ٢٢٢ ، ٢٣٣

(١)

إبراهيم الحرانى : ٩٢
إبراهيم بن عبد الملك بن صالح : ٣٤٩
إبراهيم بن المهدي : ٨٢ ، ٣٤٧ ، ٤٢٥
إبراهيم اللوصلى : ٢٦ ، ٧٤ ، ٧٨
٤٠٣ ، ٩٦
ابن أبى عتيق : ١٥ ، ٢٤ ، ١٣٠
ابن بُسْخَر : ١٠٩
ابن جامع : ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٢ ، ٧٤
٩٦
ابن دراج : ٤٥٣
ابن سريج : ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ٣٩٩
ابن صياد (مغن) : ١٠
ابن مكحول (عراف اليمامة) : ١٢٥

أبو نواس : ٤٠١

أبو هريرة : ٢٨٤ ، ٢٩٢

أبو يوسف القاضي : ٧٢

أحمد بن بشر : ٢٦٩

أحمد بن حرب المهلبى : ٤٤٧

أحمد بن يحيى (ثعلب) : ٤٤٦

إسحاق بن إبراهيم الموصلى : ٢٦ ،

٨٤ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠٠

إسماعيل بن الهربذ : ٩٦

الأصمى : ٨٠

أعشى قيس : ٣٦٦ ، ٣٦٧

امروء القيس : ٢١ ، ٣٢٤

أم جحدر (معشوقة ابن ميادة) : ٢٢٠

أمية بن أبى الصلت : ٣٨٩

(ب)

بثينة (معشوقة جميل) : ١٧١ ، ١٧٣

١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣

البحترى : ٢٣٣

البرامكة : ٢١٦

بشر بن مروان : ١٤٤

بلى (قبيلة) : ١٢٧

بنو ثعلب : ٢٨١

بنو الحرش : ١٥٧ ، ١٦٣

بنو حمزة : ١٩٦

بنو حنظلة : ١٣٥ ، ٢٠٤

بنو عامر : ١٥٢ ، ١٥٧

بنو قشير : ٢١٠

بنو كعب : ١٢٩

بنو نهد : ١٨٦

بهلول (المجنون) : ٤٢٤

(ت)

تأبط شرا : ٣٦٤

تميم بن أبى تميم : ١١٥

توبة بن الخير : ٣٩٥

(ج)

الجاحظ : ٢٢٦ ، ٤٥١

جديس (قبيلة) : ٢٤٢

جرم (قبيلة) : ٢١٠

جرير بن عبد البجلي : ٣٦٦

الجمعد بن مهجع : ٣١٥

جعفر بن يحيى : ٦٩ ، ٧٤ ، ٢١٩ ،

٣٤٧

(د)

دريد بن الصمة : ٥٢٤

دعبل بن علي : ٤٣٤ ، ٤٠٧

(ذ)

ذو الرمة : ٢٠٧

(ر)

الربيع بن كعب المازني : ٤١٠

ربيعة بن مكدم : ٢٥٥

رزين الكاتب : ٤٠١

الرماح بن أبرد : ٢٢٠

رملة بنت الزبير : ١٩٠

ربيعة بنت جذل : ٢٥٧

(ز)

زرياب المغني : ٨٨

زفر بن الحارث : ٣٢٠

زلزل المغني : ١٠٦

زياد بن عبد الله الحارثي : ٤٤٩

زياد بن عثمان النطفاني : ٢٢٠

زياد بن النضر الحارثي : ٣٩٦

زياد بن زيد العذري : ٢٥٨

جعفران الموسوس : ٤٥١

جميل بن عبد الله بن معمر : ١٧١ ،

١٨٣ ، ١٨٢ ، ١٨١ ، ١٧٣

جميلة المغنية : ١٨ ، ٢٠ ، ٢٦

جناه (مولى عمر بن أبي ربيعة) :

٣٠

(ح)

حاتم الطائي : ٣٨٠

الحارث بن سعد : ٢٤٨

حي المدينية : ٢٥٩

الحجاج الثقفي : ٣٢٢ ، ٤١٥ ، ٤١٦

الحسن بن الحسن بن علي : ٣٥

الحسين بن دحمان : ٦١

الحسين بن علي : ١٣٠ ، ٢٩٥

حمزة الزيات : ٣٧٨

حمزة بن عبد الله بن الزبير : ٥٧

(خ)

خالد الخريت : ٣١٢

خالد بن الحكم : ١٣٧

خالد بن يزيد بن معاوية : ١٩٠

خليفة بن بوزل : ٢١٤

زينب بنت إسحاق : ١٩١

(س)

سالم بن قتيبة : ٣٢٤

سبيعة (من) ولد عبد الرحمن بن

بكرة : ٢٨٠

سعد بن خشرم : ٣٨٧

سعيد بن العاص : ٢٥٩

سفيان بن عيينة : ٦٢

سلام الأبرش : ٦٤

سلامة الزرقاء (المغنية) : ٤١، ٢٤

سليمان بن عبد الملك : ٣٩٨

سهل بن هارون : ٤٣٤

سواد بن قارب : ٣٩٢

سوار القاضي : ٤٢١

سياط المغني : ٢٦

(ش)

شبيب بن شيبه : ٣٣٥

شرحبيل بن يعقوب الخزرجي : ٢٨٢

شميلة (زوج مجاشع بن مسعود) :

١٢٠

(ص)

صالح بن علي : ٣٤٥

(ط)

طسم (قبيلة) : ٢٤٢

طفيل بن عاصم العمري : ١٦٧

طويس المغني : ١٣

(ظ)

ظبيان بن عاصم : ٤٠٧

ظبية (مغنية) : ٥٣

(ع)

العباس بن الأحنف : ٣٥١، ٢٣٩

عبد المغني : ٩٥

عبد الرحمن بن إبراهيم الخزرجي : ٤٤٠

عبد الرحمن بن الحارث بن هشام : ١٤

عبد الرحمن بن حسان بن ثابت : ١٣، ٢٦٠

عبد الرحمن بن الحكم : ٩١

عبد الرحمن بن زيد العذري : ٢٥٨

عبد قيس (قبيلة) : ٣٨٠

عبد الله بن جعفر : ١٠، ١٢، ١٣

٣٠٠، ٢٠، ١٨، ١٥

عقيلة بنت الضحاك : ٢٠٦
 علوية المغنى : ١٠٠
 على بن أبى طالب : ٢٦٩ ، ٢٦٨
 على بن الجهم : ١١٣ ، ٢٧٧
 على بن الخليل : ٤٠١
 على بن محمد التوحيدى : ٢٦٩
 عمارة (مغنية عبد الله بن جعفر) :
 ٣٠٥
 عمر بن أبى ربيعة : ٢٨ ، ٣٠ ، ١٩٢ ،
 ٣٠١ ، ٣١١ ، ٣١٥
 عمر بن الخطاب : ١١٨ ، ٢٤٧ ،
 ٢٦٩ ، ٣٩٢
 عمرو بن سعيد بن العاص : ٣٢٨
 عمر بن عبد العزيز : ٤٠
 عمرو بن كلثوم : ٢٤٥
 عمرو بن مالك : ٣٩٦
 عمرو بن معد يكرب : ٢٤٧
 عمرو بن هند : ٢٤٥
 (غ)
 الفريض (المغنى) : ٤١ ، ٤٤ ،
 ١٧٣ ، ٣٩٩

عبد الله بن الزبير : ٣٢٨
 عبد الله بن سلام : ٢٩١
 عبد الله بن طاهر : ١١٣ ، ٤٢٣
 عبد الله بن مروان : ٣٤٥
 عبد الملك بن صالح : ٣٤٧
 عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج :
 ٩٣
 عبد الملك بن مروان : ١٥ ، ١٩٠ ،
 ١٩٢ ، ٣٢٨
 عبيد بن الأبرص : ٣٦٩ ، ٣٧٢
 عبيد بن الحمارس : ٣٨٢
 عثمان بن إبراهيم الخاطبي : ٣١١
 عثمان بن حيان المرمى : ٢٤
 عدى بن حاتم : ٣٨١
 عذرة (قبيلة) : ١٢٨
 عروة بن حزام : ١٢١ ، ١٢٨
 عزة (ممشوقة كثير) : ١٨٥ ، ١٩٦
 عصمة بن مالك : ٥٧
 عطاء بن أبى رباح : ٤٤ ، ٤٧
 عفراء بنت عقال : ١٢٨
 عقال بن مالك : ١٢٨
 عقيل بن زياد الخارجى : ٢٨٢

١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ،

١٦٣

(ك)

كثير بن الصلت : ١٤١

كثير بن عبد الرحمن : ١٨٢ ، ١٨٥ ،

١٩٦

(ل)

لبنى بنت الحجاب الكعبية : ١٢٩ ،

١٣٤ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ،

١٤٨

ليلي الأخيلية : ٣٨٧

ليلي العامرية : ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،

١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦١ ،

١٦٣

ليلي بنت مهمل : ٣٩٥

(م)

مالك بن أبي السمح : ٥٧

مالك بن أنس : ٦١

مالك بن حريم : ٣٨٢

(٣١ - قصص - رابع)

(ف)

فارعة بنت ثابت : ١٤

فاطمة بنت عبد الملك بن مروان :

٣٠١

الفتح بن خاقان : ٣٧٧

الفرزدق : ١٨٥ ، ٢٠٤ ، ٣٢٤ ،

فريدة (مغنية الوائق والمتوكل) : ١١٠

فزارة (قبيلة) : ١٣٦

الفضل بن الربيع : ٦٤ ، ٦٩ ،

فليح (الغنى) : ٩٦

فهم (قبيلة) : ٣٦٤

(ق)

القاسم بن عيسى العجلي : ٤٣١

قراد بن جرم : ٤١٠

قنفذ بن جمونة : ٤١١

قيس بن ذريح : ١٢٩ ، ١٣٤ ، ١٣٦ ،

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٨ ،

قيس بن معد يكرب : ٣٦٧

قيس بن الملوح : ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٥٠ ،

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٤ ،

مسكين الدارمي : ٢٣
 مطيع بن إبّاس : ٢٢٤
 معاوية بن أبي سفيان : ١٠ ، ١٢٧ ،
 ١٢٨ ، ١٣٨ ، ٢٥٨ ، ٢٨٥ ،
 ٢٩١ ، ٣٠٥
 معبد الصغير : ٢١٦
 معبد بن وهب : ٤٩ ، ٥١ ، ٥٣ ،
 ٥٧ ، ١٧٣
 ملاحظ (المغني) : ١٠٦
 الملوح (أبو الجنون) : ١٥٤ ، ١٥٩
 المنصور (الخليفة العباسي) : ٢٦٤ ،
 ٣٣٥ ، ٣٤١ ، ٣٤٥
 المهلب بن أبي صفرة : ١٤٤
 ميمى بنت مقاتل المنقرية : ٢٠٧
 مياد الجرمي : ٢١٠
 (ن)
 مجيع اليربوعي : ٣٨٧
 نصر بن حجاج : ١٠٩
 نصر بن ذبيان : ٢٨٨
 النعمان بن بشير : ١٢٨ ، ٣٢٩
 نوفل بن مساحق : ١٦١

المأمون (الخليفة العباسي) : ٨٦ ،
 ١٠٠ ، ٤٢٢ ، ٤٢٥ ، ٤٣٠
 المتوكل (الخليفة العباسي) : ١١١ ،
 ١١٣ ، ٢٢٦ ، ٢٣١
 مجاشع بن مسعود السلمي : ١١٨
 محبوبية (جارية المتوكل) : ١١٣
 محمد بن إبراهيم : ٢٢٦
 محمد بن سليمان : ٤٢١
 محمد بن عائشة : ٢٦ ، ٣٥ ، ٣٧
 محمد بن عبد الله (الرسول صلى الله
 عليه وسلم) : ٢٩٩
 محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري :
 ٢٦٣
 محمد بن عمرو الزف (المغني) : ٧٥
 محمد بن القاسم : ٢٣١
 محمد بن قيس : ٢٠١
 محمد بن يزيد (المبرد) : ٢٢٩ ، ٢٣١ ،
 ٤٤٣
 مخارق (المغني) : ١٠١ ، ١٠٤
 مروان بن الحكم : ١٣٧ ، ٢٨٥
 مسحل بن أثاية (شيطان الأعشى) :
 ٣٦٦ ، ٣٦٨

(٥)

هاذر (شيطان النابغة الذبياني) ٣٧٦

هارون بن أحمد بن هشام : ١٠١

هارون الرشيد : ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٤ ،

٧٨ ، ٨٢ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ٩٥ ،

٩٦ ، ٩٨ ، ٢١٩ ، ٣٥٢ ، ٣٦٩ ،

٤٠٣ ، ٤٢٤

هبيد (شيطان عبيد بن الأبرص) :

٣٦٨

هدبة بن خشرم : ٢٥٨

هشام بن عبد الملك : ١٨٦

هند بنت الحارث (أم عمرو بن هند) :

٢٤٥

هند بنت الحارث المريّة : ٣١٢

(و)

الوائق (الخليفة العباسي) : ١٠٦ ، ١٠٩

الوليد بن عبد الملك : ٣٧ ، ٢٦٣

الوليد بن يزيد : ٤٩ ، ٣٢٧

(لا)

لا فظ بن لا حظ (شيطان امرئ)

القيس : ٣٧٥

(ي)

يحيى بن أكرم : ٣٦٩ ، ٤٣٠

يحيى بن خالد : ٧٢ ، ٣٥٢

يحيى بن المبارك : ٤٢٢

يزيد بن الطثرية : ٢١٠

يزيد بن عبد الملك : ٣٤ ، ٤١ ،

١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٢٧

يزيد بن مسهر : ٣٦٨

يزيد بن معاوية : ٢٩١ ، ٣٠٥ °

يزيد بن الوليد بن عبد الملك : ٣٢٧

يونس بن محمد الكاتب : ٢٦ ، ١٨٨

فهرس الأماكن

(ع)	(١)
المقيق : ٢١٧، ١٨٨، ٣٥	الأبلة : ٥٣
(ق)	إضم : ٥٣
القاطول (نهر) : ٢٢٦	الأهواز : ٥٣
قرطبة : ٩١	(ب)
قميقلان : ٩١	باب محول : ٦٤
(ك)	بحر الخزر : ٣٩٠
كثيب أبي شحوة : ٣٢	البصرة : ١١٩
(م)	(ت)
المدينة : ٢٤، ١	التوباد : ١٥٢
دصر : ٣٤٨	(ح)
(ن)	حلوان : ٢٢٤
النوبة : ٣٤٥	(ذ)
(ي)	ذو طوى : ٤٧
الياسرية : ١١٦	(س)
الين : ٢٠٤، ١٥٢	سامرا : ٢٢٦

مراجع هذا الجزء

الأغاني	: لأبي الفرج الأصفهاني
الأمالي	: لأبي علي القالي
الأمالي	: للزجاجي
البخلاء	: للجاحظ
بلوغ الأرب	: للألوسي
تزيين الأسواق	: لداود الأنطاكي
التطفيل	: للبغدادى
ثمرات الأوراق	: للحموى
جمهرة أشعار العرب	: لأبي زيد محمد بن الخطاب القرشي
الحيوان	: للجاحظ
خزانة الأدب	: للبغدادى
ذيل الأمالي	: لأبي علي القالي
ذيل زهر الآداب	: للحصري
رغبة الأمل	: للمرصفي
زهر الآداب	: للحصري
شرح الأمالي	: للبكري

شرح مقامات الحريري	: للشريشي
شرح نهج البلاغة	: لابن أبي الحديد
صبح الأعشى	: للقلقشندي
عصر المأمون	: للدكتور فريد رفاعي
العقد الفريد	: لابن عبد ربه
عيون الأخبار	: لابن قتيبة
غرر الخصاص الواضحة	: لأبي إسحاق الوطواط
الكامل في التاريخ	: لابن الأثير
الكامل في الأدب	: للمبرد
مجانى الأدب	: للأب لويس شيخو
مجمع الأمثال	: للميداني
الحاسن والأضداد	: للجاحظ
الحاسن والمساويء	: للبيهقي
محاضرات الأبرار	: لابن عربي
المختار من نواد الأخبار (مخطوط)	: لحمد بن أحمد الأنباري
مروج الذهب	: للسعودي
المستظرف في كل فن مسظرف	: للأبشي
مصارع العشاق	: لأبي جعفر بن أحمد السراج
معجم الأدباء	: لياقوت الحموي
معجم البلدان	: لياقوت الحموي

المنتقى من أخبار الأصمعي

: للمرحوم الخضرى بك

مذهب الأغاني

: للمقرى

نفع الطيب

: للنويرى

نهاية الأرب

مراجع الضبط والشرح والتحقيق والتراجم

أساس البلاغة	: للمخشي
الأعلام	: للزركلي
تاريخ آداب اللغة العربية	: لجورجي زيدان
تاريخ الأمم الإسلامية	: للمرحوم الخضري بك
رغبة الآمل من كتاب الكامل	: للمرصفي
شرح ديوان الحماسة	: للتبريزي
شرح الأمالي	: للبكري
شرح المفضليات	: لابن الأنباري
طبقات الشعراء	: لابن سلام
طبقات الشعراء	: لابن قتيبة
الفاخر في الأمثال	: للضبي
فهرس خريطة الممالك الإسلامية	: لأمين بك واصف
القاموس المحيط	: للفيروزابادي
لسان العرب	: لابن منظور
المعارف	: لابن قتيبة
معجم البلدان	: لياقوت الحموي
وفيات الأعيان	: لابن خلكان